Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جورجي أمادو

الدونا فلور وزوجاها الاثنان

الجزء الأول

نقلها الى العربية عوض شعبان





الدونا فلورا
وزوجاها الاثنان

JORGE AMADO

DONA FLOR E SEUS DOIS MARIDOS
ROMANCE

TRADUÇÃO ARABE
POR
AWAD CHABAN

الجزء الاول
الطبعة الاولى
بيروت ١٩٩٢

جورجي امادو

الدونافلورا وزوجاها الاثنان

الجزء الأول

نقلها الى العربية عوض شعبان



١٩٩٢

الرواية	الدُّونا فلور وزوجاها الإثنان/ج ـ ١
المؤلف	جورجي آمادو
الترجمة	عوض شعبان
الناشر	دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان ص.ب: ١١/٣١٨١ ـ ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة	الأولى **١٩٩٢**
تصميم الغلاف	نجاح طاهر

مقدمة

جورجي آمادو هو آخر الروائيين العالميين الذين تُطلق عليهم صفة الموسوعيين مثل أساطين الرواية الكلاسيكية؛ ليون طولوستوي، فيدور دوستويفسكي وتوماس مان وغيرهم. فلم يترك علماً أو فناً أو حرفة إلاّ وخاض فيها بخبرة المعلّم ذي العين البصيرة النفّاذة، فكان أدبه الروائي موسوعياً غنيّاً بعوالم شتى، إلى الدرجة التي يمكن الاطلاع فيها على حياة البشر في مختلف طبقاتهم الاجتماعية ومهنهم المختلفة، في نسيج تأتلف فيه الأحداث مع الشخصيات في اسلوب واقعي حتى ولو وظّف الخيال أحياناً لإثراء السرد والعوالم التي تحويها روايته، كمراقب لمسار الحياة المتنوّعة، في بيئات يصبح تنافرها موضوعاً لغنى هذه الرواية حيث يمزج الواقع في الخيال من دون أن يسقط في «الفانتازيا» التي يستخدمها الواقع وليس لإضعافه، مثلما يشدّ الحلم حقائق الحياة.

ففي عرضه لشخصية فادينيو بعد موته واستحضاره من عالم الموتى ليمارس الحب مع زوجته السابقة الدونا فلور، يلجأ إلى العمل السحري الذي يجد قبولاً وشيوعاً لدى شرائح واسعة من المجتمع البرازيلي ـ وخصوصاً الزنوج الحاملين ميثولوجيتهم الوثنية التي لم تستطع المسيحية سلخهم عنها، فيكون الكاتب حتى في تخيّله هذا، منسجماً مع واقعيته التي ترفض إهمال هذه الشرائح الاجتماعية في معتقداتها الراسخة وتفكيرها الخارق للمألوف.

لكن غاية آمادو تبقى في كشف نقائص البرجوازية الصغيرة في كل مثالياتها أحيانا وتفاهاتها غالباً، دامغاً المجتمع البرازيلي الراقي في تسخيفه للحياة من خلال جشعه وإفراطه في الملاذ ـ أو الموبقات ـ حيث النفاق والتبجّح الفارغ من المعايير الثابتة، فيما يضطر أبناء

الطبقات الدنيا إلى تنكّب الطرق الملتوية في الحصول على المباهج المتاحة لهم، مثل القمار وضروب الاحتيال وغيرها...

وهذا بالوسع تلمّسه من خلال وصفه لحياة سيّدات المجتمع الراقي ومَثَلهن إيماكولادا زوجة الكوميندادور آدريانو بيريس الملقب بالحصان الأبلق، إذ لا تتورّع عن استغلال النقود المستوفاة من المومس الفرنسية العجوز البائسة لقاء إيجار مسكنها القذر من أجل تكديس المبالغ اللازمة لإنفاقها على البعثات التبشيرية في آسيا وأوقيانيا... في الوقت الذي يبدد فيه صهراها - زوجا ابنتيها - العاطلان الكسولان، الأموال الطائلة في ملاهي الريو وأوكار القمار في باهيّا.

وفي نقده للمجتمع الراقي، يكشف ثراء البعض، أمثال «ملك القمار في المدينة» بيلانتشي مولاس المتحكّم حتى بالحاكم والحكومة والشرطة والقضاء.. وكل شيء في باهيّا. فاضحاً حقيقة نمو الثراء الفاحش من أوحال الشرّ.

وفي حديثه الدائم عن «شرف الدونا فلور، ورصانتها» فهو يسخر من التقاليد القائمة التي لا تترسّخ إلاّ في إطار النفاق والاستلاب اللذين يعاني منهما رجال ونساء هذه البرجوازية الصغيرة، في حين أن الأشخاص الحقيقيين هم الزنجيان آريغوف وآناكريون والخلاسي ميراندون، المقامرون التائهون في مواخير المومسات!

بيد أن آمادو الذي يوغل في تبيان حقيقة هذه النماذج المتضاربة من المجتمع البرازيلي في ولاية باهيّا، وفي تعريته لتفاهات هذا المجتمع، يميط اللثام عن خفايا جميع الفئات، فيتساوى في الرذائل جهابذة العلم حيث تتم سرقة الناس المرضى عن طريق الأدوية المصنّعة في المختبرات المزدهرة، فيما الشفاءُ مُتاحٌ في العقاقير المركّبة في الصيدليات، مع اللصوص العاديين ممتهني الفساد كالمهاجرين الإيطاليين ابنَيْ كالابريا. بيلانتشي مولاس، ودومينغوس بروبالاتو ومساعدهما «الأستاذ في الميسر» ماسيمو ساليس...

حتى كلامه الغريب عن السحرة والسحر الأسود المنتشر في باهيّا، أليس هو وسيلة يكسب بها الفقراء من الزنوج قاطني الأكواخ المتعانقين مع الشقاء، رزقهم من السادة

الأقوياء، المغالين في خوفهم من الظواهر العصيّة على التفسير؟

إن آمادو يروي في هذه الرواية الموسوعية بجمل الحياة البرازيلية بكل تنوّعاتها وتناقضاتها، وهو لا ينسى رسالته كروائي ملتزم بقضية الإنسان في هذا العصر. وهي وإن صدرت من عشرين عاماً، فإنها لا تزال مقروءة وبنهم، في البرازيل والبرتغال وأقطار أميركا اللاتينية والبلدان الأفريقية الناطقة بالبرتغالية مثل آنغولا وموزامبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر، لأنها، كمعظم أعمال آمادو، مرآة تعكس في نبضها الحي، الحياة الحقيقية لملايين الشعب البرازيلي ذي الأصول والأعراق المتعددة.

يقول الروائي آمادو في تعريفه لهذه الرواية: «لقد شئت تدوين مظاهر العيش الباهيّاني في صحبة القراء المبتسمين على حساب بعض الطموحات والعادات المعيّنة للبرجوازية الصغيرة تحديداً بلا أي دافع آخر، فيما أنا منهمك في هذا أو ذاك الشخص ذي السلوك المعوّج، إنما الإنساني. وهنا السبب في كون واقعية الخيال هي واقعية الرواية فكلّ منهما تتوالد من الأخرى، وتغدو مخلوقة مجدداً، واستمراراً للتجربة».

ونعتقد أن هذا يكفي للتدليل على أن هذه الرواية هي أفضل أعمال آمادو الذي يناهز الآن الثمانين من عمره، بعد «كاكاو»[1] و«المحصول الأحمر»[2] و«غابرييلا: قرنفل وقرفة»[3].

إنها رواية الشعب البرازيلي قاطبة، بل ملحمة هذا الشعب في غناه الحضاري المتأصل من تعدد أعراقه وأجناسه وثقافات جميع الأقوام التي كوّنت على مدار القرون الخمسة، هذا الشعب العظيم.

المترجم

---

(١) صدرت عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨١ بعنوان «أرض ثمارها من ذهب» بترجمة من أحمد غربية عن الفرنسية.

(٢) صدرت عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨٨ بترجمة، من عوض شعبان عن النص الأصلي (البرتغالي).

(٣) صدرت عن دار الفارابي - بيروت ١٩٨٤ بترجمة من عوض شعبان عن النص الأصلي (البرتغالي).

Para Zélia, na tarde quieta de jardim e gatos, na cálida ternura dêste abril; para João e Paloma, na manhã das primeiras leituras e dos primeiros sonhos.

Para minha comadre Norma dos Guimarães Sampaio, acidentalmente personagem, cuja presença honra e ilustra estas pálidas letras. Para Beatriz Costa, de quem Vadinho foi sincero admirador. Para Eneida, que teve o privilégio de ouvir o Hino Nacional executado ao fagote pelo doutor Teodoro Madureira. Para Giovanna Bonino que possui um óleo do pintor José de Dome — retrato de dona Flor adolescente, em ocres e amarelos. Quatro amigas aqui juntas no afeto do autor.

Para Diaulas Riedel e Luiz Monteiro.

إلى زيليا ، في المساء الهادىء في الحديقة والقطط ، في الرقة الدافئة من نيسان هذا ؛

إلى جوان وپالوما ، في صباح القراءات الأولى والأحلام الأولى ؛

إلى إشبينتي نورما دوس غيمارايس سامبايو ، وهي شخصية جاءت عرضاً وحضورها شرف وتلوين لهذه السطور الشاحبة ؛

إلى بياتريز كوستا من كان فادينيو بها معجباً ولها مخلصاً ؛

إلى اينيدا التي امتازت بسماع النشيد الوطني يعزفه على المزمار الدكتور تيودورو مادوريرا ؛

إلى جيوفانّا بونينو التي تمتلك زيت الرسام جوزيه دومي – صورة الدونا فلور المراهقة بالألوان الباهتة الصفراء ، أربع صديقات لصيقات هنا بتأثر المؤلّف ؛

إلى دياولاس ريديل ولويز مونتيرو .

"Deus é gordo"

(Revelação de Vadinho ao retornar)

"A terra é azul"

(Confirmou Gagarin após o primeiro vôo espacial)

"Um lugar para cada coisa e cada coisa em seu lugar"

(Dístico na parede da farmácia do doutor Teodoro Madureira)

Ai!

(suspirou dona Flor)

« الله بدين » .

(إعلان فادينيو عندما عاد .)

« الأرض زرقاء » .

(أكّد غاغارين بعد تحليقه الفضائي الأول .)

« مكان لكل شيء وكل شيء في مكانه »

(لافتة على جدار صيدلية الدكتور تيودورو مادوريرا) .

« أواه ! »

(تنهدت الدونا فلور)

Caro amigo Jorge Amado, o bôlo de puba que eu faço não tem receita, a bem dizer. Tomei explicação com dona Alda, mulher de seu Renato do museu, e aprendi fazendo, quebrando a cabeça até encontrar o ponto. (Não foi amando que aprendi a amar, não foi vivendo que aprendi a viver?)

Vinte bolinhos de massa puba ou mais, conforme o tamanho que se quiser. Aconselho dona Zélia a fazer grande de uma vez, pois de bôlo de puba todos gostam e pedem mais. Até êles dois, tão diferentes, só nisso combinando: doidos por bôlo de puba ou carimã. Por outra coisa também? Me deixe em paz, seu Jorge, não me arrelie nem fale nisso. Açúcar, sal, queijo ralado, manteiga, leite de côco, o fino e o grosso, dos dois se necessita. (Me diga o senhor, que escreve nas gazetas: por que se há de precisar sempre de dois amôres, por que um só não basta ao coração da gente?) As quantidades, ao gôsto da pessoa, cada um tem seu paladar, prefere mais doce ou mais salgado, não é mesmo? A mistura bem ralinha. Forno quente.

Esperando ter lhe atendido, seu Jorge, aqui está a receita que nem receita é, apenas um recado. Prove o bôlo que vai junto, se gostar mande dizer. Como vão todos os seus? Aqui em casa, todos bem. Compramos mais uma quota da farmácia, tomamos casa para o veraneio em Itaparica, é muito chique. O mais, que o senhor sabe, naquilo mesmo, não tem consêrto quem é torto. Minhas madrugadas, nem lhe conto, seria falta de respeito. Mas de fato e lei quem acende a barra do dia por cima do mar é esta sua servidora, Florípedes Paiva Madureira dona Flor dos Guimarães.

(Bilhete recente de dona Flor ao romancista)

صديقي العزيز جورجي آمادو ، حلوى البوبا [1] التي أعدُّها ليس لها وصفة . ويحسن بي القول « إني أخذت إيضاحات عنها من الدّونا آلدا زوجة السيّد ريناتو من المتحف ، وتعلمت كيف أصنعها . كاسرة رأسي إلى أن عثرت على طرف المسألة . (لم أعرف الحب حتى تعلّمت أن أحبّ ، ولم أعش حتى تعلمت أن أعيش !) .

عشرون قرصاً من الحلوى من عجين البوبا أو أكثر ، حسب الحجم الذي تريده ، وأنصح الدّونا زيليا أن تصنعها كبيرةً دفعةً واحدة ، فالجميع يحبون حلوى البوبا ويطلبون منها أكثر . حتى هما الاثنان المختلفان جداً ، متفقان فقط في جنونهما بحلوى البوبا أو رقائق

---

(١) BOLO DE PUBA : معجنات من دقيق المانديوكا .

معجنات الماندیوکا . وبشيء آخر أيضاً . دعني في سلام يا سيد جورجي ، لا تثرني فلا تتكلّم في هذا سكر وملح وجبن مفروم وزبدة وحليب جوز الهند ، المخفّف والكثيف ، فأنت بحاجة إلى الاثنين . (قل لي أيها السيد الذي تكتب في الجرائد : لماذا ينبغي للمرء دائماً أن يحتاج إلى غرامين ، لماذا لا يكفي قلب المرء حبٌّ واحد ؟) الكميات حسب ذوق الشخص ، فلكلٍّ ذوقُه ، فيفضلها أحلى أو أملح ، أليس كذلك ؟ المزج يجب أن يكون دقيقاً جداً ، والفرن ساخناً .

وبانتظار أن أكون قد استجبت لطلبك يا سيد جورجي ، هاك الوصفة التي ليست بوصفة ، بل مجرد رسالة . تذوّق الحلوى التي تأتيك معها ، فإذا أحببتها أبلغني بذلك . كيف حال أفراد أسرتك ؟ هنا في البيت الجميع بخير . اشترينا حصة أخرى من الصّيدلية ، وأخذنا بيتاً لقضاء الصيف في إيتاباريكا وهو جميل جداً . وغير ذلك أنت تعلمه ، ففي ذلك الأمر بالذات ، لا جدوى من إصلاح ما هو أعوج . لن أحدّثك عن أيامي في ساعات الفجر ، فقد يكون ذلك بمثابة قلّة احترام . لكن الواقع أن التي تشعل ضياء النهار فوق البحر هي خادمتك فلوريبيديس پايفا مادوريرا الدّونا فلور أوس غيماراييس .

(رسالة حديثة من الدّونا فلور للروائي)

القسم الأول

I

DA MORTE DE VADINHO, PRIMEIRO MARIDO DE DONA FLOR, DO VELÓRIO E DO ENTÊRRO DE SEU CORPO

(ao cavaquinho o sublime Carlinhos Mascarenhas)

عن موت فادينيو، زوج الدّونا فلور الأول، عن السّهر
إلى جانب الميت، وعن دفن جثمانه.
(مع كافاكينيو[1] السامي كارلينيوس ماسكارينياس)

(١) CAVAQUINHO: آلة موسيقية وترية.

ESCOLA DE CULINÁRIA SABOR E ARTE

QUANDO E O QUE SERVIR EM VELÓRIO DE DEFUNTO

(Resposta de dona Flor à pergunta de uma aluna)

Nem por ser desordenado dia de lamentação, tristeza e chôro, nem por isso se deve deixar o velório correr em brancas nuvens. Se a dona da casa, em soluços e em desmaio, fora de si, envôlta em dor, ou morta no caixão, se ela não puder, um parente ou pessoa amiga se encarrega então de atender à sentinela pois não se vai largar no alvéu, sem de comer nem de beber, os coitados noite adentro solidários; por vêzes sendo inverno e frio.

Para que uma sentinela se anime e realmente honre o defunto a presidi-la e lhe faça leve a primeira e confusa noite de sua morte, é necessário atendê-la com solicitude, cuidando-lhe da moral e do apetite.

Quando e o quê oferecer?

Pois a noite inteira, do comêço ao fim. Café é indispensável e o tempo todo, café pequeno, é claro. Café completo, com leite, pão, manteiga, queijo, uns biscoitinhos, alguns bolos de aipim ou carimã, fatias de cuscuz com ovos estrelados, isso, só de manhã e para quem atravessou ali a madrugada.

O melhor é manter a água na chaleira para não faltar café; sempre está chegando gente. Bolachas e biscoitos acompanham o cafèzinho; uma vez por outra uma bandeja com salgados, podendo ser sanduíches de queijo, presunto, mortadela, coisas simples pois de consumição já basta e sobra com o defunto.

Se o velório, porém, fôr de categoria, dessas sentinelas de dinheiro a rôdo, então se impõe uma xícara de chocolate à meia-noite, grosso e quente, ou uma canja gorda de galinha. E, para completar, bolinhos de bacalhau, frigideira, croquetes em geral, doces variados, frutas sêcas.

Para beber, em sendo casa rica, além do café, pode haver cerveja ou vinho, um copo e tão-sòmente para acompanhar a canja e a frigideira. Jamais champanha, não se considera do bom-tom.

Seja velório rico, seja pobre, exige-se, porém, constante e necessária, a boa cachacinha; tudo pode faltar, mesmo café, só ela é indispensável; sem seu confôrto não há velório que se preze. Velório sem cachaça é desconsideração ao falecido, significa indiferença e desamor.

مدرسة الطّهي تذوّق وفنّ
متى يُقدم الطعام والشراب أثناء السهر على الميت
(إجابة الدّونا فلور على سؤال تلميذة)

ليس لكونه يوم تحسّر وحزن ونحيب مرتبكاً يجب أن يجري السّهر على الميت في حداد فإذا كانت سيدة البيت تنشج ويغمى عليها، فاقدة الوعي، ملتفّة بالألم، أو ميتة في التابـوت، إذا لم تستطع، فإن قريباً أو شخصاً صديقاً سيقوم آنذاك بحراسة الجثمان ولن يُترك هذا حيث هو بلا طعام أو شراب؛ المساكين، ليلة بطولها يتضامنون معها، وأحياناً يكون ذلك الوقت في الشتاء البارد.

ولكي ينتعش القائم بالحراسة، ويشرّف في الواقع المتوفي بوقوفه عند رأسه جاعلاً الليلة الأولى المرتبكة على وفاته خفيفة الـوقع يلزم أن نؤمّن له العناية والاهتمام بمعنوياته وبشهيّته. فمتى يُقدّم الطّعام له؟

إذ أمامه الليلة بكاملها: من أوّلها إلى آخرها؛ القهوة تُقدّم بلا حساب طوال الوقت، قهوة بمقادير قليلة ـ هذا واضح ـ إنّها قهوة كاملة: مع حليب وخبز وزبدة وجبن وبعض البسكويت وبضعة أقراص من حلوى الآيبين[1] أو عجين الماندیوكا، إضافة إلى شرائح فيها الكسكسي مع البيض المخفوق لكنّ هذا لا يقدّم إلا عند الصباح ولمن طلّع عليه الفجر وهو هناك.

ومن الأفضل وضع الماء في الإبريق المسخّن كيلا تغيب القهوة لأن أناساً سيصلون باستمرار. والبسكويت يصحب القهوة في الفناجين الصغيرة وبين الفينة والفينة يُقدّم طبق فيه مأكولات مالحة، قد تكون شطائر من الجبن أو قديد الخنزيـر أو المارتـاديلا أو أشيـاء أخرى بسيطة حيث يكفي استهلاكها ويفيض في السهر على المتوفى.

وإذا كان السّاهر على المتوفى ذا مرتبة عالية، والقائمون بالحراسة أثرياء، عندئذٍ تُقدّم فناجين كبيرة من الشوكولاطة السّاخنة عند منتصف الليـل، أو فخـذ دجـاج سمين[2]،

(١) AIPIM: نوع من المنديوكا، وهو نبات جذوره تُسلق ولها طعم كالبطاطا.
(٢) في الأصل CANJA: فخذ دجاج مسحوب منه العظم يقلى بالزيت مع التوابل ودقيق الكعك.

وتُستكمل هذه الخدمة بأقراص من قديد السمك وأطعمة مقليّة وبسكويت من اللوز المطبوخ بشكل عام، إضافة إلى حلوى متنوّعة وفاكهة مجففة.

أما الشّراب ففي حال كان البيت ثرياً، يُقدم ـ علاوة على القهوة ـ الجعة أو النبيذ: كأس ملآنة لمرافقة فخذ الدجاج والأطعمة المقليّة، ولا تقدّم الشّامبانيا أبداً، إذ لا تعتبر حسنة الوقع.

وسواء أكان السّاهر على المتوفي ثرياً أم فقيراً، فالأمر يتطلب بلا شكّ أيضاً تقديم الكاشاسا [1] باستمرار. نستطيع الإنقاص من أيّ نوع، حتى القهوة، أما الكاشاسا فلا يمكن الاستغناء عنها. فمن دون الانتعاش الذي تقدّمه لن يكون هناك سهر على الميتّ ذو تقدير. فالسهر عليه دون كاشاسا هو قلّة اعتبار للمتوفي، يعني وجود لامبالاة وانعدام المحبة.



(١) CACHAÇA: عرق يقطر من قصب السكر.

1

VADINHO o primeiro marido de dona Flor, morreu num domingo de carnaval, pela manhã, quando, fantasiado de baiana, sambava num bloco, na maior animação, no Largo Dois de Julho, não longe de sua casa. Não pertencia ao bloco, acabara de nêle misturar-se, em companhia de mais quatro amigos, todos com traje de baiana, e vinham de um bar no Cabeça onde o uísque correra farto à custa de um certo Moysés Alves, fazendeiro de cacau, rico e perdulário.

O bloco conduzia uma pequena e afinada orquestra de violões e flautas; ao cavaquinho, Carlinhos Mascarenhas, magricela celebrado nos castelos, ah! um cavaquinho divino. Vestiam-se os rapazes de ciganos e as môças de camponesas húngaras ou rumenas; jamais, porém, húngara ou rumena ou mesmo búlgara ou eslovaca rebolou como rebolavam elas, cabrochas na flor da idade e da faceirice.

Vadinho, o mais animado de todos, ao ver o bloco despontar na esquina e ao ouvir o ponteado do esquelético Mascarenhas no cavaquinho sublime, adiantou-se rápido, postou-se ante a rumena carregada na côr, uma grandona, monumental como uma igreja – e era a Igreja de São Francisco, pois se cobria com um desparrame de lantejoula dourada –, anunciou:

– Lá vou eu, minha russa do Tororó...

O cigano Mascarenhas, também êle gastando vidrilhos e miçangas, festivas argolas penduradas nas orelhas, apurou no cavaquinho, as flautas e os violões gemeram, Vadinho caiu no samba com aquêle exemplar entusiasmo, característico de tudo quanto fazia, exceto trabalhar. Rodopiava em meio ao bloco, sapateava em frente à mulata, avançava para ela em floreios e umbigadas, quando, de súbito, soltou uma espécie de ronco surdo, vacilou nas pernas, adernou de um lado, rolou no chão, botando uma baba amarela pela bôca onde o esgar da morte não conseguia apagar de todo o satisfeito sorriso do folião definitivo que êle fôra.

مات فادينيو زوج الدّونا فلور الأول صباح يوم أحد من أيام الكرنڤال، حينما كان يرقص السامبا في إحدى الحلقات مرتدياً ملابس الكرنڤال الزاهية لإمرأة باهيّانية[1]، يرقص بحيويّة عظيمة، في ساحة «الثاني من تموز» غير البعيدة عن بيته. ولم يكن منتمياً إلى الحلقة، بل انتهى إليها مختلطاً بها برفقة أربعة آخرين من أصدقائه يرتدون جميعاً ملابس باهيّانيّة. وقد قدموا من حانة في كابيسا حيث جرى الويسكي بغزارة على حساب شخص معيّن يدعى مويزيس آلفيس، وهو ثريّ ماجن صاحب مزرعة للكاكاو.

كانت الحلقة تقود أوركسترا صغيرة منسجمة بالقيثارات[2] والمزامير، وعلى الكاڤاكينيو كارلينيوس ماسكارينياس، وهو أعجف مشهور في بيوت العازبين، آه! كاڤاكينيو إلّهي! ارتدى الشبان ملابس الغجر، في حين ارتدت الفتيات ملابس الفلاحات الهنغاريات أو الرومانيات؛ لكنّ لا الهنغاريات ولا الرومانيات أو حتى البلغاريات والسلوڤاكيات يتمايلن يوماً كما يتمايلن هنّ، الخلاسيات في زهرة العمر وزهوه.

تقدم فادينيو الذي كان الأكثر حيوية بين الجميع، عندما رأى الحلقة تنبثق في الناصية. ولدى سماعه عزف ماسكارينياس الأعجف على الكاڤاكينيو السامي، تقدّم مسرعاً، وانتصب أمام الرومانية المشحونة باللون، كانت امرأة ضخمة كتمثال أو ككنيسة ـ كنيسة سان فرانسيسكو، إذ كانت مغطاة بدالية من القماش الموشى بخيوط ذهبية ـ وأعلن:

ـ ها أنذا أمضي، ياروسيتي من توروورو...

والغجري ماسكارينياس أيضاً، الذي ينفق ماله على فصوص زجاجية وقطع صغيرة من البلّور اللامع، وملاقط معدنية للزينة تتدلّى من أذنيه، عزف بشدّة على الكاڤاكينيو، وأنّت المزامير والقيثارات، فوقع فادينيو في خضم السامبا بذلك الحماس النموذجي المميّز في كل ما يفعله ـ باستثناء العمل. وأخذ يدور وسط الحلقة، يخبط بحذائه أمام الخلاسيّة، ويتقدّم نحوها محرّكاً ذراعيه كمن يمتشق حربةً ويضرب على بطنه، عندما أطلق، فجأةً نوعاً من الشّخير الأصمّ، وترنّح على ساقيه، ثم انحنى على جنبه وتدحرج على الأرض، يبصق زبداً

(١) نسبة إلى ولاية باهيا في الشمال الشرقي من البرازيل عاصمتها سلفادور.
(٢) VIOLAO: آلة وترية شبيهة بالغيتار.

أصفر دون أن تستطيع سخرية الموت إطفاء كل الابتسامة الرّاضية للصاحب الكرنفاليّ المحدد الذي كانه.

اعتقد الأصدقاء أن السبب هو الكاشاسا وليّس ويسكي صاحب المزرعة: فلن تكون أربع جرعات أو خمس قادرة على التملك من معاقر للخمرة من درجة فادينيــو، حيــث أن الكاشاسا كلها كانت مكوَّمة منذ العشية إلى منتصف النهار حين دشّنوا الكرنڤال رسمياً في حانة تريومفو بساحة البلدية، فصعدت كلها دفعة واحدة إلى رأسه، وألقت به أرضاً، وهو متخدّر. لكن الخلاسية الضخمة الجسم لم تنخدع: كـانت ممرضة محترفة معتادة على الموت، وتتردد يومياً إلى المستشفى. كلا، مع أنها كانت حميمة في رقصها معه لدرجة تسديد ضربات على بطنه وقرص عينه، فقد انحنت فوق فادينيو واضعةً يدها على عنقه، فارتعدت بقشعريرة برد في رحمها وعمودها الفقري.

ـ إنّه ميت، رباه!

ولمس آخرون أيضاً جسد الشاب، وتحسسوا رسغه، وأسندوا رأسه ذا الشعر الطليق الأشقر، وأخذوا ينعشون قلبه بالضغط عليه. لا فائدة! فلم يحصلوا على أي نتيجة! لقد فرّ[1] فادينيو إلى الأبد من كرنڤال باهيا.



(١) فعل DESERTAR: يفرّ من الجندية.

٣

حصل اضطرابٌ في الحلقة وفي الشارع وذعرٌ وركضٌ في الجوار، حالة «رب أغثنا» صعقت الكرنڤاليين وزاد في الطين بلّة أن آنيتي الفاضحة ـ وهي مدرّسة صغيرة رومانطيقية تعاني من حالة هستيريا ـ اغتنمت الفرصة لتنتابها نوبة من نوبات فقدان الوعي مع صرخات ضئيلة حادة وتهديدات بالإغماء؛ كل ذلك على شرف المغناج كارلينيوس ماسكارينياس الذي كانت الفتاة المزاجيّة التي من السّهل أن تتوتر، تتنهّد له، ممّا يعبر عن أنها هي نفسها ذات حساسية خارقة، فتثب كقطّة حينما يحرّك هو أصابعه على الكاڤاكينيو. الكاڤاكينيو الآن صامت رخو لا نفع منه في يديْ الفنان، كما لو أن فادينيو أخذ معه إلى الآخرة جميع أنغامه الأخيرة.

هرع أناس قادمين من جميع الأنحاء، وفي الحال انتشر الخبر في الجوار، ووصل إلى سان بيدرو وإلى جادة سيتي[1] وإلى كامپو غراندي، جامعاً الفضوليين كقطعان. وحول الجثمان تجمّع حشد صغير يتزاحم أفراده بالمناكب معلّقين على ما جرى. واستُدعي طبيب مقيم في سودريه، وانتزع شرطي المرور صفّارته ونفخ بلا توقف، كأنه يبلغ المدينة بأسرها والكرنڤال بأجمعه نهاية فادينيو.

«إذن هو فادينيو، يا له من مسكين!»، أكّد شخص متنكّر بقناعه النّصفي وقد فقد الحبور. فالكلّ كان يعرف الميت إذ كانت له شعبية واسعة، بفرحه الذي يبصقه، بشاربه

---

(١) SETE: رقم سبعة.

الرفيع المقصوص، بشقاوته كرجل مراوغ. كان محبوباً من الجميع، وخاصة في الأماكن حيث كان يعاقر الخمرة ويلعب القمار ويصخب؛ وهناك في المحيط القريب جداً من مسكنه، لم يكن ثمة من لا يعرف هويّته.

مقنّع آخر، وهذا يرتدي ملابس من نسيج القنّب ومغطى برأس دب كبير، اخترق الجمع المغلق، وتمكّن من الاقتراب والرؤية. فانتزع القناع فبدا وجهه متكدراً وقد تدلّى شارباه لكنّ رأسه أقرع، وهمس:

- فادينيو، يا شقيقي الصغير، ما فعلوا بك؟

« ماذا جرى له، ممَّ مات؟ » كانوا يُسائلون بعضهم البعض، ووُجد من اجاب: « إنها الكاشاسا »، وفي ذلك أسهل إيضاح لموت غير متوقع أبداً. وتوقّفت أيضاً امرأة عجوز مقوّسة الظهر، فألقت نظرة على الميت واستقصت قائلة:

- ما يزال جدّ فتيّ. فلما مات فتياً جداً؟

أسئلة وأجوبة كانت تتقاطع، فيما الطبيب يضع أذنه على صدر فادينيو، ليتأكد نهائيـاً؛ لم يكن له جدوى.

« كان يرقص السّامبا، بحيوية متدفقة، ومن دون سابق تبليغ سقط على جنبه وقد شبع موتاً » - فسّر أحد الأصدقاء الأربعة وقد طارت الكاشاسا من رأسه تماماً وصار، على حين بغتة، معتدلاً في تناول الكحول، وبدا متأثراً شبه مرتبك في ملابسه النسائية ذات الزي الباهيّاني، وجنتاه حمراوتان قانيتان، غائـر البشرة حول العينين السوداوين، وندوب بقشرة محروقة تحتهما.

الواقع يجب ألا يدفعنا كونهم كانوا يرتدون ملابس الفانتازيا [1]، للنساء الباهيّانيات إلى إساءة الظّنّ بالفتيان الخمسة، فجميعهم ذوو فحولة مبرهن عليها. لقد ارتدوا ملابس النساء الباهيّانيات ليلهوا بشكل أفضل، من أجل التمثيل الهزليّ، وعبث الأولاد، لميول أنثويّة، لشبهات مستهجنة. لم يكن بينهم أيّ منحرف، ليباركهم الله! فادينيو خصوصاً،

---

(١) FANTASIADO: الذي يرتدي في الكرنفال ملابس شعبية أو ملابس شخصيات خيالية أو تاريخية.

كان يربط تحت الغلالة البيضاء المنشّاة، جذر كبير الحجم من المانديوكا، وفي كل خطوة يرفع التّنورة ويعرض ذلك النصب غير العاديّ الماجن جاعلاً النساء يخفين وجوههن بأيديهن، وكذلك ضحكهن، بحياء خبيث. والآن يتدلّى الجذر مهملاً على أعلى الفخذ مكشوفاً عاجزاً عن إضحاك أيٍّ كان. تقدّم أحد الأصدقاء وحلّ حزام فادينيو. لكن ذلك لم يفد في إضفاء الفضيلة والحياء على المتوفى. كان أحد موتى الكرنڤال، ولا يعرض سواء دم من رصاصة أم طعنة سكين تُسيل له من صدره الدم ليقدر على التحرر من هيئته التنكرية.

الدّونا فلور التي تقدّمتها، الدّونا نورما التي أمرت بشقّ طريق لها، وصلت في الوقت نفسه الذي وصلت فيه الشرطة على وجه التقريب. وعندما مُيّزت بصعوبة في الناصية، مسندةً إلى أذرع العرّابات المتضامنة معها، تنبّأ الجميع بأنها الأرملة، إذ جاءت تنشج وتئنّ دون أن تحاول السيطرة على غصّاتها ودمعها ينهمر. هذا إضافة إلى كونها ترتدي رداءً بيتياً مستعملاً بما فيه الكفاية، فيما كانت تعتني به في إتقانها أعمال البيت، وتنتعل خفّين على شكل وجه القط، وشعرها غير مُسرّح، وحتى وهي على هذه الحال كانت جميلة مسرّة للنظر صغيرة ممتلئة الجسم، ببدانة بلا شحم، لونها برونزي كأهل الرأس الأخضر [1] وشعرها الأملس من السواد بحيث يبدو ضارباً إلى الزّرقة، عيناها مغازلتان والشفتان غليظتان منفرجتان قليلاً فوق أسنان ناصعة البياض. بدت شهيّة كما اعتاد فادينيو نفسه أن يصنّفها في أيام رقته التي ربما كانت نادرة لكنها لا تُنسى. ومن يدري! فربّما بسبب نشاطاتها في الطهي كان أثناء غرامياتها يقول لها «يا أقراصي من المانوية» [2] بالذرّة الخضراء، يا سمكي المصنوع بطريقة الأكاراجيه[3] العابقة بالرائحة الذّكية، يا فرختي السّمينة وغيرها من التشبيهات المستوحاة من الأكل المترف والتي كانت تعطي فكرة لطيفة عن سحر بيتي حسّي معيّن للدونا فلور تخفيه تحت طبيعة هادئة لذيذة. كان فادينيو يعرف فيها نقاط ضعفها ويعرّضها للشمس، فذلك الاشتياق المنضبط كامرأة متهيّبة، وتلك

---

(١) جزر الرأس الأخضر CABO VERDE في المحيط الأطلسي في مواجهة غينيا بيساو في أفريقيا الغربية. كانت مستعمرة برتغالية واستقلت في السبعينات.

(٢) MANUE: حلوى تعد من دقيق الذرة والعسل.

(٣) AVARAJE: سمك يُقلى بالزيت والدقيق مع التوابل.

الرغبة الخجولة يجعلانها عنيفة وشبقة عندما تتحرر منهما في السرير. فعندما يجري الدم في عروق فادينيو لا يعود هناك من هو أجمل منه، وتعجز أي امرأة عن مقاومته، وما استطاعت الدونا فلور يوماً أن ترفض سحره حتى حينما كان يجعلها مشحونة بالسّخط والغضب الشديدين، حتى بلغ الأمر في مناسبات متكررة أن تكرهه وتلعن اليوم الذي جمعها فيه حظها برجل بوهيميّ.

بيد أنها ـ وهي تمشي مكتئبةً للقاء موت فادينيو الذي أتى في غير أوانه، كانت الدونا فلور دائخة التفكير، لا تتذكر شيئاً، حتى ولا لحظات الرقة المكثّفة، ناهيك عن الأيّام القاسية، أيام الكرب والوحدة، كما لو أن الزوج حين مات بات خالياً من جميع نقائصه، فكأنه لم يمتلكها يوماً في «مروره القصير في وادي الدموع[1] هذا».

«كم كان قصيراً مروره في وادي الدموع هذا»، قال المدرّس المحترم إيبامينونداس سوزا بينتو المتأثر المرهق، محاولاً مجادلة الأرملة مقدّماً لها تعازيه حتى قبل أن تقرُب من جثة زوجها. لكنّ الدّونا جيزا ـ وهي أيضاً مدرّسة، وإلى حدّ معيّن محترمة أيضاً ـ فهمت تسرّع الزميل وأمسكت نفسها عن الضحك. فإذا كان مرور فادينيو في الحياة قصيراً في الواقع ـ إذ أكمل بالكاد سنته الإحدى والثلاثين، فالمؤكد أن الدنيا لم تكن بالنسبة إليه وادياً للدُموع ـ وهذا ما تعرفه الدُّونا جيزا جيداً، بل كانت، فعلاً، مقصورة هزليات ومصائد إغواء وأكاذيب وخطايا؛ بعضها كان مؤلماً ومربكاً بلا شك، أسلم قلبه لتجارب قاسية، لأحزان، لنوبات فزع: فهناك ديون تنتظر السّداد، سندات للحسم بأمرها، ضامنون احتياطيون للتثبت، التزامات ذات مسؤولية، مُهل غير قابلة للتأجيل، تهديدات بالإفلاس[2]، ودوائر كتّاب العدل، مصارف ومتلاعبون بالبورصة، أشخاص مقيّدون بكلّ ذلك، وأصدقاء يختبىء منهم، ناهيك عن العذاب البدنيّ والخلقيّ الذي تعانيه الدونا فلور. فإذا كان للدّونا جيزا أن تقول ببرتغاليتها التي تنطقها بصعوبة ـ فقد كانت بشكل غامض أميركيةً شماليةً تجنست، كانت برازيلية لكن شيطان اللغة، آه منه!، لم تستطع

---

(١) توصف الدنيا بأنها «وادي الدموع» في الكتاب المقدس.

(٢) PROTESTO

الرغبة الخجولة يجعلانها عنيفة وشبقة عندما تتحرر منها في السرير. فعندما يجري الدم في عروق فادينيو لا يعود هناك من هو أجمل منه، وتعجز أي امرأة عن مقاومته، وما استطاعت الدونا فلور يوماً أن ترفض سحره حتى حينما كان يجعلها مشحونة بالسّخط والغضب الشديدين، حتى بلغ الأمر في مناسبات متكررة أن تكرهه وتلعن اليوم الذي جمعها فيه حظها برجل بوهيميّ.

بيد أنها ـ وهي تمشي مكتئبةً للقاء موت فادينيو الذي أتى في غير أوانه، كانت الدونا فلور دائخة التفكير، لا تتذكر شيئاً، حتى ولا لحظات الرقة المكثّفة، ناهيك عن الأيّام القاسية، أيام الكرب والوحدة، كما لو أن الزوج حين مات بات خالياً من جميع نقائصه، فكأنه لم يمتلكها يوماً في «مروره القصير في وادي الدموع[1] هذا».

«كم كان قصيراً مروره في وادي الدموع هذا»، قال المدرّس المحترم إيبامينونداس سوزا بينتو المتأثر المرهق، محاولاً مجادلة الأرملة مقدّماً لها تعازيه حتى قبل أن تقرُب من جثة زوجها. لكنّ الدّونا جيزا ـ وهي أيضاً مدرّسة، وإلى حدّ معيّن محترمة أيضاً ـ فهمت تسرّع الزميل وأمسكت نفسها عن الضحك. فإذا كان مرور فادينيو في الحياة قصيراً في الواقع ـ إذ أكمل بالكاد سنته الإحدى والثلاثين، فالمؤكد أن الدنيا لم تكن بالنسبة إليه وادياً للدُّموع ـ وهذا ما تعرفه الدُّونا جيزا جيداً، بل كانت، فعلاً، مقصورة هزليات ومصائد إغواء وأكاذيب وخطايا؛ بعضها كان مؤلماً ومربكاً بلا شك، أسلم قلبه لتجارب قاسية، لأحزان، لنوبات فزع: فهناك ديون تنتظر السّداد، سندات للحسم بأمرها، ضامنون احتياطيون للتثبت، التزامات ذات مسؤولية، مُهل غير قابلة للتأجيل، تهديدات بالإفلاس[2]، ودوائر كتّاب العدل، مصارف ومتلاعبون بالبورصة، أشخاص مقيّدون بكلّ ذلك، وأصدقاء يختبىء منهم، ناهيك عن العذاب البدنيّ والخلقيّ الذي تعانيه الدونا فلور. فإذا كان للدّونا جيزا أن تقول ببرتغاليتها التي تنطقها بصعوبة ـ فقد كانت بشكل غامض أميركيةً شماليةً تجنست، كانت برازيلية لكن شيطان اللغة، آه منه!، لم تستطع

---

(١) توصف الدنيا بأنها «وادي الدموع» في الكتاب المقدس.

(٢) PROTESTO

تطويعه ـ أن ثمة دموعاً في مسيرة فادينيو الحياتـيّة القصيرة فلا شكّ في أن من بكتها هي الدّونا فلور، وكانت دموعاً غزيرة فاضت عن الزوجين.

أمام الموت المفاجىء، لم تفكر الدّونا جيزا في فادينيو إلا بحنين: بدا لها مليحاً، بالرغم من كل شيء؛ فيه جانب لطيفٌ آسرٌ. لكن ليس هذا هو السبب الذي من أجله واجهته هناك، في ساحة «الثاني من تموز» ميتاً، ممدداً في الشارع، مرتدياً ملابس امرأة باهيّانية؛ ومضت على حين بغتة تقدّسه، تُغيِّبُ الواقع، تخترع فادينيو آخر كاملاً. هكذا فسّرت الأمر الدونا نورما، جارتها وصديقتها الحميمة، لكنها لم تحصل من شريكتها [1] على الدعم المنتظر لتفسيرها، فغالباً ما قامت الدّونا نورما بتوجيه إهانات كثيرة إلى فادينيو، وكم تشاجرت معه ملقيةً عليه عظات احتفالية [2]، حتى بلغ بها الأمر أن هددته يوماً بالشرطة. لكن في تلك الساعة الكربة الأخيرة لم تكن تشعر برغبة في التعليق على جوانب المتوفي السائدة التي لا تسرّها، كل ما تريده هو إطراء جوانبه الحسنة ولطفه الطبيعي وتضامنه مع الآخرين الذي كان مستعداً دوماً لإظهاره، وفاؤه لأصدقائه، سخاؤه الذي لا نقاش فيه (والذي كان ـ فوق كل هذا ـ يمارسه بنقود الآخرين)، إضافةً إلى حبوره بالعيش حبوراً لا مسؤولاً. وبكلمات أخرى كانت جدّ منهمكة في مرافقة الدونا فلور ومساعدتها بحيث لم تُصْغِ للدونا جيزا وحقيقتها القاسية. فالدونا جيزا كانت على هذا النّحو: الحقيقة عندها فوق كل شيء، إلى حد يجعلها تبدو أحياناً حادة قاسيةً؛ ربما في نزوع إلى الدفاع ضد إيمانها المتين، إذ كانت مؤمنة بالبعث تثق بجميع الناس. لا لم تتذكر مساوىء فادينيو لتنتقده أو لتدينه. فقد كانت تحبه وكم نسيا نفسيْهما باستمرار يستغرقا في كلام نثري مستفيض: كانت الدونا جيزا مهتمة بتعلم سيكولوجية العالم التحتيّ حيث يتحرّك فادينيو، وكان يروي لها بعض الحالات وهو يسترق النظر من فتحة الثوب إلى تكوين ثدييها الرائعين المنقطين بالنمش. قد تكون الدونا جيزا فهمته أفضل مما فهمته الدّونا نورما، لكنها، خلافاً للأخرى، ما كانت تعبأ بأي من نواقصه، ولن يكذب لأنه مات وحسب. بل إنه لم يكذب على الدونا جيزا بالذات إلاّ حين كان يفعل ذلك اضطرارياً. وما كانت هذه هي المسألة بشكل واضح.

(١) PARCEIRA: الشريكة أو الرفيقة في لعب الورق.

(٢) العظات التي يوجهها القس في القداس الاحتفالي وهي هنا في معرض الشتيمة.

٣

كان يوم أحد من أيام الكرنفال، ومن لم يشترك ليلتها في عرض السيارات، أي حفلة سيلهو فيها، أيّ برنامج تبنّاه للفجر؟ حسناً: رغم هذا، كان السهر على فادينيو بمثابة نجاح، « نجاح حقيقي »، كما أكّدت الدّونا نورما معلنةً ذلك باعتزاز.

ترك رجال سيارة نقل الموتى الجثّة فوق سرير حجرة النوم، وبعد ذلك فقط نقلها الجيران إلى القاعة. كان أفراد دفن الموتى في عجلة من أمرهم: فعملهم تزايد في الكرنفال؛ بينما يلهو الآخرون، كانوا هم يصارعون الموتى، ضحايا الكوارث والمشاجرات. انتزعوا الملاءة المتّسخة من لفّ الجثمان وسلّموا الأرملة وثيقة الوفاة.

بات فادينيو عارياً كما وضعه الله على السرير الزوجي، وهو سرير حديدي له رأس وقوائم محفورة قد ابتاعته الدّونا فلور مستعملاً، في مزاد علنيّ للمفروشات قبل زواجها بست سنوات. وجدت الدونا فلور نفسها وحيدة في الحجرة، ففتحت المغلّف ودرست آراء الأطباء، وهزّت رأسها غير مصدّقة. من كان ليتنبّأ بذلك؟ فقد كان يبدو قوياً جداً وصحيح الجسم، وما زال جد فتيّ!

كانت تغبط فادينيو لأنه لم يتعرض قطّ للمرض ولقدرته على البقاء ثمانية نهارات وثماني ليال دون نوم، يلعب القمار ويعاقر الخمرة أو يصخب مع النساء. ألم يكن أحياناً يغيب ثمانية أيام عن البيت تاركاً الدونا فلور كالمجنونة؟ مع هذا، فها هو تقرير الأطباء يقول بأنه كان رجلاً محكوماً عليه بالموت. فكبده لا نفع منه، والكليتان تالفتان والقلب منهك. كان

سيموت في أي لحظة، وكيف مات؟ هكذا على حين غرّة. إن الكاشاسا والليالي التي قضاها في الكازينوهات والعربدة والركض المجنون وراء المال من أجل لعب القمار، كل ذلك قد حطّم ذلك الجهاز الجميل والقوي والذي لم يعد منه سوى مظهره. أجل، فمن يحكم بأنه قد صُفّي بدون رحمة عندما يلقي عليه نظرة سطحيّة؟

تأملت الدونا فلور جسد زوجها طويلاً، قبل أن تستدعي الجيران المتطوّعين للمساعدة وقد نفذ صبرهم لإنجاز المهمة الدقيقة ألا وهي إلباس الميت ثيابه. وهناك كان، عارياً كما كان يحب أن يبقى في السرير، ووبر أشقر يغطي ذراعيه وساقيه وغابة من الشعر الأشقر على صدره وعلى الكتف اليسرى ندب من طعنات سكين، كم كان جميلاً جداً، وكم كان فحلاً خبيراً باللذة! ومرة أخرى تجمعت الدموع في عينيْ الأرملة الشابة. حاولت ألا تفكر فيما تفكر فيه، فلم يكن لائقاً أن تفكّر هكذا يوم السهر على الميت.

لكنها عندما شاهدته هكذا ملقى فوق المخدع، عارياً تماماً، لم تستطع رغم ما بذلته من جهد إلا أن تذكر كيف كان في ساعة الرغبة المتحللة: لم يكن يحتمل وجود أي قطعة ملابس على جسديهما حتى ولا ملاءة خجولة تغطيهما؛ وكان حينما يدعوها إلى السرير، يقول لها: «هيّا نتعهّر يا ابنتي!» كانت ممارسة الحب بالنسبة إليه حفلة فرح غير متناه وتحرّر ينهمك فيها بحماسه الذي كانت تعرف أن لها فيه من تنافسها: نساء كثيرات من طبقات وفئات مختلفة. في الفترة الأولى من زواجهما كانت الدّونا فلور تخجل وترتبك إذ يصرّ بأن تتعرى له تماماً، ويقول:

ـ أين سمعت بتعهّر بقميص النوم؟
لمَ تختبئين؟ إن التعهّر شيء مقدس، فالله اخترعه في الفردوس، ألا تدرين؟

لم يكن ليكتفي بتجريدها من ملابسها تماماً بل كان يلمسها ويداعب تكاوين جسدها بانحناءاته العريضة والفجوات العميقة حيث يتقاطع الظل والضوء في لعبة الغموض. وعندما تحاول أن تغطي نفسها، ينتزع عنها الملاءة بين الضحكات، مستعرضاً ثدييها الصّلبيْن وعجيزتها الرائعة والفرج العاري تقريباً من الشعر. كان يتناولها كما يتناول لعبةً، لعبةً أو بُرعمَ وردةٍ مطبقاً فيجعله يتفتح له كل ليلة من ليالي اللذّة. وشيئاً فشيئاً بدأت تفقد

خجلها لتستسلم لدعارة ذلك الاحتفال، وتنمو في الانبتهاك، متحوّلة إلى عشيقة تتدفق حيويةً وجرأة. لكنها لم تتخلَّ كليةً بالكامل عن الحياء والحشمة، إذ كان عليها أن تستعيدهما كل مرّة؛ فحالما تستيقظ من تلك الأفعال الجريئة المجنونة وتلك التأوهات في غيبوبة النشوة تعود لتغدو الزوجة الخجلى المحتشمة.

عند هذه اللحظة بالذات، وحيدةً بموت فادينيو، أدركت الدونا فلور تماماً أنها أصبحت أرملة، وأنها لن تحظى به بعد الآن، ولن يغمى عليها مرّة أخرى بين ذراعيه؛ لقد عاشت هي، منذ لحظة النبأ الفاجع المتنقّل من فم إلى فم حتى وصول سيارة نقل الموتى، في نهاية فترة ما بعد الظهر، عاشت ما يشبه الكابوس المثير: صدمة النبأ والسير وسط دموعها إلى ساحة «الثاني من تموز» لمواجهة الجثة والحشد المحيط بها، المهتم لأمرها، يعرض عليها التضامن ويعزّيها، ثم العودة إلى المنزل محمولةً تقريباً على أيدي الدونا نورما والدونا جيزا والمدرّس إيبامينونداس والاسباني مينديز صاحب الحانة. كل ذلك جرى باضطراب وبسرعة كبيرة بحيث لم يترك لها وقتاً للتفكير فتستوعب تماماً أن فادينيو قدْ مات.

لقد حُملت الجثة من الساحة إلى المشرحة، لكن حتى في هذه الأثناء لم يتسنَّ لها لحظة هدوء واحدة. فقد أضحت فجأة مركزاً للحياة لا في شارعها وحسب وإنما في جميع الشوارع المجاورة ـ حدث ذلك يومَ أحد من أيام الكرنڤال ـ ومنذ أن أخذوه إلى أن عادوا به ملفوفاً بملاءة عارياً وملابس المرأة الباهيّانية في صرّة صغيرة ملوّنة، لم تتوقف عن تلقي التعازي، وعرابين الصّداقة وكلمات اللّطافة، في حجٍّ متواصل من الجيران والمعارف والأصدقاء. وتخلّت الدونا نورما والدونا جيزا كلية عن أعمالها المعتادة في منزليهما المهمَلَيْن للغاية نتيجة الكرنڤال، وتركتا أمر وجبات الغداء والعشاء لضمير الخادمات المتسرّعات ولم تترك أي منهما الدونا فلور بل تنافستا في الالتصاق بها ومؤاساتها.

هناك في الخارج كان الكرنڤال بمتنكريه، وبحلقاته وتجمعاته البشرية، وبأنماط الفانتازيا الثرية اللاهية، يضجّ بموسيقى الأوركسترات المضاعفة؛ الزيه ـ بيريرا [1]، الطبول الضخمة، الحلقات، التجمعات، الصاخبين بطبولهم الصغيرة، والاتاباكي [2]. ومن أن الآخر، كانت

(١) ZE-PEREIRA : إيقاع كرنفالي بواسطة الطبول.

(٢) ATABAQUE : طبل كبير أفريقي وآسيوي المصدر، له وجه واحد مغطى بالجلد يضرب عليه باليدين.

الدونا نورما تستطيع أن تقاوم فتركض إلى النافذة، لتسند رأسها إلى مرفقيها، وتجازف بإلقاء نظرة، فتتبادل نِكاتاً مع أحد المتنكرين من معارفها، تنقل خبر موت فادينيو، وتهتف لفانتازيا أصيلة، أو لحلقة جميلة. وأحياناً تنادي الدونا جيزا إذا ما ظهر تجمع حيوي مميز في الناصية، وعندما خيّم المساء دخل الشّارع الصّاخبون من «أبناء البحر» بأشكالهم التي لا تُنسى، حتى الدونا فلور اقتربت من النافذة تختلس النظر إلى الصاخبين الذين حازوا دعاية واسعة في الصحف، وهم أجمل ما في الكرنفال الباهيّاني. اختلست النظر دون أن تظهر لهم، مختبئة وراء كتفيْ الدونا جيزا العريضتين؛ أما الدونا نورما فقد تناست الميت والمشاركة في الحزن لتصفّق بحماس.

هكذا كان الوضع طوال النهار منذ ورود النبأ إلى أن نزلت الدونا نانسي الأرجنتينية الحذرة الجديدة في الشارع، وهي زوجة صاحب مصنع للسيراميك، بيرنابو المغمور، من مسكنها الفخم المكون من طبقتين، ومن عليائها لتقدّم تعازيها وعزاءها للدونا فلور، وأظهرت أنها لطيفةٌ ومثقفة بتبادلها مع الدونا جيزا تعليقات فلسفية حول قصر الحياة وعدم ضمانتها.

نرى، إذن، أنّه لم يتح للدونا فلور، وقت للتفكير في حالتها المستجدّة وفي تحولات وجودها. فقط حينما أحضروا فادينيو من المشرحة وتركوه عارياً في سرير الزوجية حيث مارسا الحب مرات كثيرة، عندها، وعندها فقط، وجدت نفسها وحيدة وجهاً لوجه مع موت زوجها، فأحسّت بأنها أرملة، وأدركت أنه لن يعود أبداً ليلقيها على السرير الحديدي، منتزعاً ثوبها وغلالتها وما تبقى من ثيابها الداخلية طارحاً الملاءة، على طاولة زينتها، ليأخذها بكل تفصيلات جسدها، دافعاً إياها إلى هذيان محموم.

«أوّاه! لن يحدث ذلك أبداً بعد الآن»، فكّرت الدونا فلور وأحست بعقدة في حنجرتها ورعدة في ساقيها، وأدركت آنئذٍ أن كل شيء قد انتهى. ظلّت واقفة هناك، بلا كلام وبلا دموع، متجرّدة من أي انفعال كان، بعيدة عن كل تمثيل يحيط بالموت. وحدها هي والجثة العارية، وحدها هي والغياب النهائي لفادينيو. لن تنتظره بعد اليوم عند الفجر، ولن تخفي عن نظره المال الذي تدفعه التلميذات، ولن تراقب علاقاته مع النساء الأجمل منها، ولن ينالها بالضّرب أيام الكاشاسا والمزاج السيّء، فتسمع تعليقات الجيران الخبيثة، كما لن

تتقلّب معه على السرير، وتتفتح له بكليّتها مستسلمة لرغبته، متجردة من ثيابها حتى الملاءة والحشمة من أجل حفلة حبّ، الحفلة التي لا تُنْسَى. الغصّة في حنجرتها تخنقها؛ وألم في الصدر، كطعنة حربةٍ حادّة.

ـ «فلور، ألم يحن أوان إلباسه ثيابه؟»، دوى صوت الدونا نورما ورجع صداه في الحجرة آتياً من القاعة. «لن يلبث أن يصل بعض الزوّار...»

فتحت الأرملة الباب، كانت قد أصبحت جادة صامتة، بلا نشيج ولا تأوهات، باردة صارمة الملامح، وحيدة في الدنيا. ودخل الجيران لمدّ يد المساعدة. وجاء السيد فيفالدو من محل «الفردوس المزهر» لدفن الموتى شخصياً ليسلّم التابوت الرخيص ـ وأجرى لها حسماً معتَبَراً، إذ كان رفيق فادينيو على موائد الروليت والباكارا حيث كان يلعب لعبة «التوابيت»[1] والحجارة ذات الكتابة[2] ـ وساهم بفعالية بخبرة في تحويل البوهيمي إلى ميتٍ محترم. راقبت الدونا فلور كل ما يجري دون أن تنطق بكلمة، دون أن تذرف دمعة. لقد أصبحت وحيدة في الدنيا.

---

(١) ATAUDE: في الأصل تابوت، نوع من العاب القمار.

(٢) LAPIDE: حجارة عليها كتابات، نوع من العاب القمار.

٤

أودعت جثة فادينيو التابوت، ثم حُمل إلى قاعة الزوّار، حيث أُعدت منصّة ارتجالية مع كراسي. وجاء السيد فيفالدو بزهور، كإسهام مجانيّ من محل دفن الموتى. وتدبّرت الدونا جيزا وضع زهرة لونها أحمر إلى بنفسجيّ بين أصابع فادينيو المتقاطعة. واعتبر السيد فيفالدو في نفسه ذلك التصرف عبثياً إذا يجدر بهم أن يضعوا بين أصابع الميت « فيش »[1] قمار، أجل « فيش » بدلاً من زهرة لونها بنفسجي ضارب إلى الحمرة. ولو اقتربوا بالتابوت إلى مكان يضجّ بموسيقى الكرنفال وضحكاته قرب ضجيج موائد الروليت وصوت مساعد مدير اللعب الأبحّ قليلاً ورنين الفيشات وهتافات اللاعبين العصبيّة، فمن الممكن جداً أن نرى فادينيو ينهض من التابوت، وينفضُ عنه موته، كما كان ينفض عنه بحركة كاريكاتورية يهزّ بها كتفيه التعقيدات التي تلاحقه ثم يمشي ليودع فيشة على الرقم ١٧، رقمه المفضل. ماذا تنفعه الزهرة ذات اللون البنفسجي الضارب إلى الحمرة؟ سرعان ما تذبل وتبلى، ناهيك عن أن أي روليت لن تقبلها.

لم يتأخر السيد فيفالدو، وهو المشغوف بالكرنفال والمتصلّب. فتح محل دفن الموتى في ذلك اليوم من أيام الآحاد في العيد، فقط ليلبي حاجة صديق مثل فادينيو. لو كان المتوفى آخر، لتدبّر الأمر كيفما كان، ولما كان هو، فيفالدو قد قطع كرنفاله.

كثيرٌ من الآخرين قطعوا خططهم في الكرنفال. كان قد وقف صفٌّ من الناس يسهر طيلة

---

(١) FICHA : قطعة مستديرة من البلاستيك توازي النقود.

الليل على البوهيمي. بعضهم جاء لأن فادينيو يتحدّر من فرع فقير ونغل من عائلة مهمة ،آل غيارايس. كان أحد أجداده شيخاً [١] إيالياً نافذاً في السياسة. وأحد أعمامه الملقّب بستيمبو، شغل مركز المفوض [٢] المساعد شهوراً معدودة. هذا العم هو من الندرة في آل غيارايس الذين اعترفوا بفادينيو كقريب شرعي لهم، وهو الذي دبّر له الوظيفة في البلدية كمفتش حدائق، مركز وضيع للغاية بمرتب بائس لا يكفي ليلة سمينة في التاباريس [٣]. لا حاجة للإشارة هنا إلى إهمال الموظف البلدي [٤] الشاب؛ فلم يفتش يوماً حديقة من أيّ نوع كان، ولا يظهر في الدائرة إلا ليتسلّم المرتبات الشهرية الهزيلة ذات القطع النقدية الصغيرة، أو ليطلب كفالة مستحيلة من رئيسه، ليستدين من زملائه عشرين أو خمسين ألف ريس [٥]. الحدائق ما كانت تهمّه، وما كان لديه وقت يضيّعه مع الأغراس والزهور، بوسع حدائق المدينة كلها أن تختفي، فما كانت تسبب له أي نقص. إنه طائر ليلي، خمائله موائد القمار، وأزهاره كما كان يعتبر السيد فيفالدو، الفيشات وورق اللعب.

الذين قدموا بتأثير من اسم غيارايس يُعَدّون على الأصابع، أقارب مبهمون في عجلة من أمرهم. وجميع الآخرين، ذلك الصف الذي لا يعد، قدموا ليودعوا فادينيو، ليتفرّسوا مرّة أخرى في وجهه، ويبتسموا له في ذكرى مسرّة، يقولون له وداعاً. كانوا يحبونه لذا كانوا يجدون له أعذاراً لتصرفاته الجنونية، يقدّرون الجانب الطيب فيه.

من أوائل الواصلين ليلاً وقد ارتدى ثياباً بشكل متزن لكنه مضى في ما بعد ليأخذ بناته (ثلاث فتيات رائعات) إلى الحفل الراقص في نادٍ كبير، كان هو الكوميندادور [٦] سيليستينو، البرتغالي المولد، صاحب مصرف ومصدّر. لم يكن الأمر أكثر من مهمّة يقوم بها، كمن يؤدي التزاماً مضجراً. لبث في القاعة يتحدث، متذكراً إنجازات فادينيو، بعد

---

(١) عضو مجلس الشيوخ.

(٢) DELEGADO : الضابط في الدرك الذي يشغل منصب آمر المخفر.

(٣) اسم أحد الكازينوهات.

(٤) MUNICIPAL : نسبة إلى البلدية.

(٥) كل ألف ريس يساوي كروزيرو واحداً في العملة السابقة.

(٦) COMENDADOR : لقب ورتبة عسكرية (مقدم) يمنح أيضاً لأشخاص مدنيين من ذوي اليسار.

أن :حتضن[١] الدونا فلور وقدم لها تعازيه .

من أين جاء تقديره لموظف البلدية الصغير ، لبوهيميّ الكاباريهات من الدرجة الثانية ، لمقامر يلاحقه القضاء دائماً ؟

كان فادينيو ذرب اللسان ، كم كان لسانه ذرباً ! ذات مرّة انتزع توقيع البرتغالي الفالح على سندات كل منها بقيمة بعض الكونتوات[٢] من الريالات. لم ينس الدفع ، إذ أنه ما كان ينسى أبداً مواعيد استحقاق السندات المختلفة الموقّعة منه والمنثورة في المصارف وفي أيدي المتلاعبين بالأوراق المالية ؛ لكنّه لم يستطع دفع المبالغ المختلفة . فهو على وجه العموم ما كان يستطيع الدفع أبداً ، وما كان يدفع ؛ في الوقت نفسه راح عدد السندات يتزايد كل يوم ، ويتزايد عدد الضامنين الاحتياطيين. فكيف استطاع هو أن يتدبّر الأمر ؟

لم يعد سيلستينو إلى ضمانته . فهو لا يقع مرتين في المكان نفسه . ومع هذا ، كان يلقي إليه بعض القطع النقدية من فئة المائة والمائتين وحتى الخمسمائة ألف ريس حينما يظهر فادينيو أمامه يائساً ، بلا توستون[٣] وبالتأكيد على أن يومه ذاك كان اليوم الذي يفجر فيه حصيلة اللعب. آخرون كانوا يضمنونه ، أيضاً مرتين أو ثلاثاً ، كما لو أن فادينيو أدقّ مسدِّد ، صاحب أفضل سجلٍّ مصرفيٍّ بالممتلكات . الجميع مقتنعون بحذاقته ، بحديثه الدّرامي المقنع .

زيه سامبايو ، زوج الدونا نورما بالذات ، الذي أنشأ محلاً لبيع الأحذية في « المدينة الواطئة » وهو شخص ، نادراً ما يخوض في الأحاديث ، عنيد لم يعتد الزيارات ولا العلاقات الحميمة مع الجيران ، مناقض لزوجته ، حتى هو نفسه قد دحرجه (★) فادينيو بعض المرّات ، ورغم ذلك لم يسحب تقديره له ولا الاعتماد الذي منحه إياه في المتجر .

حتى ولا حين اكتشف القذارة التي لا تصدّق : فادينيو اشترى ذات صباح بالدين من

---

(١) المصافحة في البرازيل تكون بين الأشخاص الحميمين نوعاً من الاحتضان .

(٢) CONTO : اصطلاح لورقة النقد من فئة الألف كروزيرو ، أي مائة ألف ريس أو ريال ، وقد أبدل الكروزيرو مؤخراً بالكروزادو ، كما أبدل قديماً الريال (ريس) بالكروزيرو .

(٣) TOSTAO : أدنى وحدات النقد البرازيلي قيمة ، قرش .

(★) في البرتغالية بمعنى « أوقع به » في العربية .

منشآته عدة أزواج من الأحذية الأجْوَد والأغلى ثمناً وعلى الفور باعها من جديد، وتقريباً تحت أبصار موظفي سامبايو المرتعبة، وبسعر أدنى، لمحل منافس حديث الإنشاء في الجوار. أما عن المال المستنفد فقد كان الأمر يتعلق بذات فادينيو المحتاج بإلحاح للنقود ليلعب القمار.

أخذ التاجر في الحسبان بالتأكيد الغمّ الناتج عن مسؤوليات المحتال. وهي أسباب تخفيفيّة بيّنةٌ قادرة على الإيضاح والتبرير.

وفادينيو المرح وغير المكترث، الذي أخبره في ذلك المساء بالذات أنه قد حلم طوال الليل بالدونا جيزا المتحوّلة إلى نعامة وهي تطارده في بريّة لا نهاية لها، وما كان يدري بالضبط ما إذا كان في نيتها التسكع معه في المراعي الخضراء ـ كانت نعامة أنثى في عينيها يلمع ضوء مخادع ـ أو بنيّتها التهامه بنقدات منقارها، فقد كانت تطارده بمنقارها الهائل المفتوح المهددة. وقد استيقظ مغتماً، فطرد الحلم خارجاً وحاول النوم مفكراً في شؤون أبهج، وهناك عادت المدرّسة النافرة تركض وراءه بعينها الداعرة ومنقارها العدوانيّ. هل كانت الدونا جيزا في صرّته اليومية من اللحم، وفادينيو ما هرب، إنما راح يواجهها وهي متوقفة، فيعاشرها وهي الغرينغا [1] البائسة فوق الحقول، بكل نبرتها ومعرفتها بعلم النفس. لكن معها وهي تكتسي بالريش، متحوّلة إلى نعامةٍ ضخمة الجسم، لم يكن متبقياً لها أيّ خيار، علاوةً على الانسحاب غير المحتشم. وتكرر الكابوس أربع أو خمس مرات، وفي الصباح يستيقظ تعباً من كثرة ما ركض، مغتسلاً بالعرق، فوجد نفسه وقد تملكه هاجس لكسب مؤكد في اللعب، وهو بلا توستون. ففتش البيت جيداً. كانت الدونا فلور أرضاً قاحلة. فقد أخذ منها في العشية حتى قطع النقد الصغيرة. خرج بأمل الاستدانة من بعض المعارف، وبدت له الساحة ضعيفة جداً. وفادينيو يسير مستخفاً برصيده القليل مؤخراً، وحدث حين مرّ أمام «محل ستيلا»، متجر زيه سامبايو المجهّز جيداً، أن خطرت له الفكرة المضيئة والمسلّية بأن يكرّس نفسه لمهلة قصيرة لتجارة بيع الأحذية الشريفة، وهي الوسيلة الوحيدة للحصول بسرعة على بعض النقود القليلة.

---

(١) GRINGA: أنثى GRINGO وهو الرجل غير اللاتيني وخصوصاً السكسوني بالنسبة لأهالي أميركا اللاتينية.

لم يكن قد ألمّ بالعملية التجارية، غير الفاضلةِ والكارثيّة في الظاهر، وفي الواقع ذكية ومُكسِبة، ولن يغفر لنفسه أبداً، إذ تعاطى مع النعامة ـ الدونا جيزا ما كانت تكذب حتى ولا في الأحلام ـ وحصل فادينيو على مبلغ كبير من المال. فبحث على الفور، وهو شاكر ومحترم، عن زيه سامبايو في المحل، وأمام الموظفين المندهشين، دفع له قيمة البضاعة المشتراة في الصباح، وعقّب ضاحكاً على الصفقة المحكمة ودعاه إلى كأس احتفالي.

مال زيه سامبايو إلى قبول الدعوة لكنّه لم يغضب على فادينيو، واستمر في التعاطي معه وبيعه أحذية بجسم وبمُهَل للدّفع. حسم عشرة في المائة من قيمة الحساب، اعتماد محدد لقاء كل زوج من الأحذية في كل شراء لكنه فقط بعد أن يصفّي الفاتورة السّابقة.

برهان آخر أيضاً أكثر دلالة على التقدير الذي يكنّهُ لفادينيو، كان في حضور زيه سامبايو مراقبة الميت. لدقائق قصيرة، إنها لحقيقة، لكنها كانت المرّة الأولى التي يحضر فيها التاجر السّهر على المتوفى في السنوات العشر الأخيرة. كان لديه رعب من أيّ التزام اجتماعي وفوق كل هذا من الطقوس الجنائزية والسهرات مع الميتين والمقابر وقدّاس اليوم السابع، مما كان يحمل الدّونا نورما على الصّراخ حينما يرفض مصاحبتها إلى إحدى عمليات الدّفن الأسبوعية العديدة التي تحضرها.

ـ حين تموت أنت يا سامبايو، لن يكون لديك أناس حتى ولا لحمل التابوت... وسيكون الأمر مخجلاً.

وكان زيه سامبايو يلقي عليها نظرة مخيفة، ولا يجيب، وقد دسّ أصبع يده اليمنى بين أسنانه، في حركةٍ خاصّة به اعتادها وبخضوع للقدر أمام اضطراب زوجته الدائم.

حضر المهمّون، مثل سيليستينو وزيه سامبايو، ومثل القريب شيمبو والمهندس المعماري شافيس والدكتور باريّروس، وهو شخصية بارزة في القضاء، والشاعر غودو فريدو فيليو، ووصل زملاء الدائرة مجتمعين، وكان فادينيو مديناً لكل منهم بمبالغ صغيرة. يقودهم الخطابيّ الجليل اللامع، مدير المتنزهات والحدائق مرتدياً بذلة سوداء. جاء الجيران، الأثرياء والفقراء منهم، والـمُكتَفون أيضاً. وجاء جميع الذين كانوا في باهيا في ذلك الوقت يختلفون

إلى كازينوهات القمار، والكاباريهات ومنصّات الحيوانات[1] وبيوت النساء المرحة: ميراندون وكورفيلو وبيه ده جيكي وفالدوميرو لينس مع أخيه الشاب ويلسون وأنا كريون وكاردوزو بيريبا وآريغوف. البعض، مثل الدكتور جيوفاني غمارايس الطبيب والصحفي، ينتمي إلى الفريقين: إلى أبناء العائلة الكبار وأبناء العائلة الصغار، أبناء العائلة المحترمين وأبناء العائلة غير المحترمين.

المهمون كانوا يتذكّرون فادينيو بين الضحكة والأخرى وقصصهم ملأى بقلّة الحياء والخبث، طرائفهم المسلّية، خداعهم الوقح، ارتباكاتهم واضطراباتهم، وقلبه الطيب، لطافته، ظرفه غير المعقول. والجيران أيضاً هكذا تذكّروه؛ بوهيمياً بلا توقيت أو حدود. البعض وآخرون كانوا يضخّمون الواقع ويخترعون التفاصيل، ويعزون إليه حالات ومغامرات. وأسطورة فادينيو بدأت تلد هناك قرب جثته، في ساعة موته بالذات تقريباً، الدكتور جيوفاني غمارايس المذكور كان يتخيّل قطعاً كاملة من القصص، يزهر الأحداث، وقد توصل إلى أكذوبة مدعومة جيداً بالتواريخ والأمكنة الدقيقة:

ـ ذات يوم، منذ أربع سنوات في شهر آذار، التقيت فادينيو في بيت « تريس دوكيس[2] يلعب على الرقم ١٧. كان يرتدي معطفاً من المطاط وتحته كان عارياً بلا ثياب. فقد وضع كل شيء في محل للرهونات: رهن السروال والسترة، القميص والسروال الداخلي، ليستطيع اللعب. وراميرو، ذلك الاسباني البخيل ابن السابعة والسبعين من العمر، كان يريد مجرد السروال والسترة. أي شيطان يهتم بقميص ياقتهُ مهترئة، وبسروال داخلي عتيق وبربطة عنق عاطلة؟ لكن فادينيو غشّه حتى أخذ زوج الجوارب، محتفظاً بالحذاء فقط. وكان معسول اللسان بحيث استطاع أن يجعل راميرو، ذلك الجني الذي تعرفونه، يعيره معطفاً من المشمّع شبه جديد، وبذلك لا يخرج عارياً إلى الشارع، في اتجاه بيت « تريس دوكيس »...

ـ « وهل كسب يومها؟ »، أراد أن يعرف ذلك الفتى أرتور، ابن السيد سامبايو والدونا نورما، وهو طالب ثانوي معجب بفادينيو، راح يصغي فاغر الفم لرواية الصحافي.

(١) BANCA DE BICHO: ضرب من ألعاب القمار رموزه الحيوانات بدلاً من الأرقام.

(٢) TRES DUQUES: الدوقات الثلاثة، اسم نادٍ للقمار.

تطلّع الدكتور جيوفاني إلى الفتى، وأتى بوضع معيّن، ثم ابتسم بكلّ وجهه:

ـ أي شيء من هذا... فعند الفجر خسر معطف الاسباني في الرقم ١٧ فحُمل إلى البيت ملفوفاً بأوراق صحيفة...

تحوّل الابتسام إلى ضحك مدوٍّ معدٍ، فلا أحد ينعش المراقبة على الميت مثل الدكتور جيوفاني.

وبما أنه في تلك اللحظة دخل القاعة روباتو الذي لا يمكن تحديده، أضاف الصحافي في البرهان النهائي على الكلمات التي ما زالت مبللةً بالضحك:

ـ ها هو هنا من لا يدعني أكذب... أما زلت تتذكر يا روباتو تلك الليلة التي عاد فيها فادينيو عارياً إلى البيت، ملفوفاً بجريدة؟

ما كان روباتو رجلاً متردداً؛ فحدّق بمن حوله، متفحصاً الجمع المرتاح في ركن من قاعة العشاء؛ خائفاً من أن تسمع النساء اللواتي يفشين الأسرار، وأن تصل إلى الأرملة الحزينة مثل تلك الذكريات، لكن بالنسبة إلى التردد فهو لم يتردد، ما كان يرفض التحديات، كان ذا بادرة سهلة، فأمسك بالموضوع:

ـ عارٍ، ملفوف في جريدة؟ كيف لا أتذكّر... (سعل لكي يوضح الصوت المنمّق ويحل عقدة المخيلة) إذ أن الجريدة كانت جريدتي... وحدث ذلك في شقة أونيسي أون دينتي صو[1]، وإضافة إلينا نحن الاثنين وفادينيو، أذكر كلاًّ من كارلينيوس وماسكاريتياس وجينز وفيرباتو تاناجورا... وكنا قد أمضينا الليلة بطولها نحتسي الخمرة، سكرة بلا قياس...

كان روباتو هذا أحد متسكعي الليل مع فادينيو، لكنه من نوع آخر. ما كان يحاول اللعب ولا يهرب من العمل؛ خلاف ذلك كان رجلاً له سبع أدوات موسيقية[2]، وهو

---

(١) UN DENTE SO: سن واحدة، المقصود «ذو السن الواحدة».

(٢) اصطلاح يعني في العربية «مسبع الكارات».

مشهور بأنه رجل حيوي وكفوء، وكـان يصنع أطقـم أسنـان، ويصلـح أجهـزة الراديـو والفونوغرافات، يسحب صوراً لبطاقات الهويّة، يخوض في كل ما هو آلة، مشحون بفضول حاذق. كانت روليته الشعر، حسن الوزن، حسن القافية (قواف ثرية). الكازينو عنده هو الحانات والكاباريهات حيث يجتاز كل فجر في صحبة مبهجة من أدباء آخرين حميمين وفتيات يمارسن البغاء متعاطفات مع ربّة الشعر وعبيداتها، فينشدون قصائد بدائية وأغاني فوضوية، قصائد غنائية داعرة، صونيتُوات [1] حب، وكلها من نظمه. وهو بالذات أعلن نفسه «ملك الصونيتو العالمي» وضرب جميع الأرقام القياسية المعروفة، فنظم إلى ذلك التاريخ عشرين ألفاً وثمانمائة وخمسة وستين من الصونيتو تتراوح ما بين ذات العشرة مقاطع والاسكندرانية [2] من فن صغير [3] ومن فن كبير [4]، والأناسكلية [5]. بداية صلع كانت تهدد الشعر الأسمر للشاعر، إنما ما كانت لتقلّل من لطفه المشع.

أخذ الكلام، ومجدداً راح فادينيو يعبر القاعة ملفوفاً بالجرائد، صورة لـن ينساها الفتى أرثور أبداً. سوف يذكره إلى الأبد ملفوفاً بأوراق «المساء»؛ فادينيو، بطل عالم ممنوع ساحر.

وتتالت القصص فيما الدونا نورمـا والدونـا جيـزا وريجينـا التي هـي في سـن الزواج، وأخريات من فتيات وسيدات يقدّمن فناجين القهوة الصغيرة مع أقراص الحلوى، وكـؤوس الكاشاسا وشراب الفاكهة. وقد حرص الجيران على ألا ينقص السهر على الميت أي شيء.

المهمون، الجالسون في قاعة العشاء، وفي الممشى وعند الباب المؤدي إلى الشارع راحوا يتذكرون فادينيو بين النكات والضحكات، أما الآخـرون، شركـاء اللعـب والاحتيـال، فكانوا يتذكّرونه بصمت، جديين متأثرين، لبثوا طويلاً في قاعة الزوار يقفون إلى جانب الجثمان. وعند دخولهم وقفوا أمام الدونا فلور، وشدّوا على يدها، خجلين، كما لو أنهم

---

(١) SONETO: قصيدة من أربعة عشر بيتاً مقسمة إلى رباعيتين وثلاثيتين.
(٢) القصيدة الإسكندرية في الأدب اللاتيني هي ذات المقاطع الإثني عشر.
(٣) القصيدة ذات المقاطع القليلة.
(٤) القصيدة ذات المقاطع التسعة مع توقف في المقطع الثالث والمقطع السادس والمقطع التاسع.
(٥) ANACICLICO: القصيدة التي يمكن قراءتها من اليسار إلى اليمين من دون أن يؤثر ذلك في معناها.

مسؤولون عن مساوىء فادينيو. كثيرون منهم ما كانوا يعرفونها أبداً، ولم يروها قبل ذلك، لكن لكثرة ما سمعوا عنها، كانوا يعلمون كيف أن فادينيو أحياناً كان يأخذ لها حتى نقود النفقات ليقامر بها في البالاس والتاباريس، في أباشادينيو وفي وكر[1] زيزيه مينينجيتي وفي وكر آبيليو موكيكا، في ألعاب الروليت المضاعفة وغير الشرعية في المدينة، وخصوصاً في بيت موائد القمار السيّء السمعة الذي يديره الزنجي باراناغوا فينتورا، حيث المبدأ أن مدير اللعبة وحده الذي يجب أن يكسب.

كم هو مزعج ومرعب هذا الزنجي باراناغوا فينتورا باستدعائه المتكرّر إلى مراكز الشرطة ولائحة اتهامات لم يقم عليها الدليل أبداً بشكل كامل؛ وكان معروفاً كلص ومغتصب نساء وقاتل. حمّله القضاء مسؤولية اقتراف جريمة قتل لكن أطلق سراحه لعدم توافر الشجاعة لدى المحلّفين أكثر من عدم توافر الأدلة. ويقولون إنه صاحب[2] جريمتيْ قتل أيضاً، ناهيك عن المرأة المطعونة بالسكين في لاديرا[3] سان ميغيل في رابعة النهار، إذ طويت قضيتها دون نتيجة. إن وكر باراناغوا لا يختلف إليه إلاّ المحتالون المحترفون للّعب بورق لعب عليه علامات، واللصوص، نشالوا المحفظات، السارقون، أناس ليس لديهم أكثر من ذلك ليفقدوه. حسناً؛ حتى إلى هناك وصل فادينيو بنقوده الهزيلة وضحكاته المرحة، وربما كان هو من المفضّلين القلائل الذين استطاعوا الزهوّ بأنفسهم بأنهم قد كسبوا بعض المرّات في العطاءات الشريرة من باراناغوا. وحسب ما قيل كان الزنجي يسمح من آن إلى آخر لشريك معيّن ممن يميل إليهم بأن يصيب إحدى الضربات.

هذا، كما جاءت تلميذات الدّونا فلور، جميعهنّ تقريباً. تلميذات وتلميذات سابقات اجتمعْنَ على الرغبة في مؤاساة المدرّسة المعتبرة القادرة، الطيبة جداً، المسكينة! من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة أشهر، تتوالى الدفعات في دروس الطهي العام (في الصباح) والطهي الباهيّاني (في فترة ما بعد الظهر) فكنّ يتخرّجن في الفرن والطبّاخ، مع دبلوم مطبوع وإطار التخرّج المعروض في محل في جادة سيتي، منذ أول دفعة

---

(١) ANTRO: في الأصل كهف يتعاطون فيه المخدرات.

(٢) في الأصل AUTOR: مؤلف كتاب.

(٣) LADEIRA: نزلة، انحناء أرضي.

قـديمة انتسبـت إليهـا الدونـا أوسكـارلينـدا وهـي ممرضـة لها مـركـزهـا، موظفة في المستشفى البرتغالي، رقيقة ومحبّة للاضطراب، مجنونة بالمكيدة. لقد ألحّت على الدبلوم والإطار، وحرّكت زميلاتها، فعلت اضطراب الشياطين، احتضنت الإسهامات، وتدبّرت رسامين مجاناً، طلت جادة سيتي، هذه الوقحة. هكذا وافقت الدونا فلور، تحت الضغط خصوصاً من الرسام، وهو أحد معارف الدونا أوسكارليندا، وليس من دون الإعلان، مع هذا، عن قدرة شقيقها آيتور ـ الذي رسم الملصق مع اسم المدرسة، وما يزال في لاديرا آلفو ـ ولسوء الحظ هو الآن مقيم في نازاريت داس فارينياس. وبأي وسيلة، شعرت بخيلاء وهي تقرأ في دبلوم وإطار التخرّج، بأحرف طباعية ضخمة:

مدرسة الطّهي تذوّق وفنّ

ويأتي تحته، في خط مُزّخرف:

المديرة ـ فلوريبيديس بايفا غيارايس

كان فادينيو، في الأيّام النّادرة التي ينهض فيها مبكّراً، يبقى في البيت، يدور حول التلميذات، مندساً في صفوف الطهي، فيزعجهنّ. وكنّ، وهنّ مجتمعات حول المدرّسة مرحات ظريفات، يسجلن الوصفات والمقادير المضبوطة من القريدس وزيت الدنديه[1] ومن جوز الهند المفروم مع قليل من الفلفل الزنجي[2]، يتعلمن كيف يتعاملن مـع السمـك، كيف يحضّرن اللحم، كيف يخفقن البيض. وكان فادينيو يقطع عليهن ذلك بنكتة ذات معنيين فيضحكن، عديمات الحياء.

بعضهن عديمات الحياء، بل جميعهن تقريباً. يمنحن الدونا فلور صداقةً وتملقـاً كبيريـن لكن عيونهن تـلاحق السّافل. وهناك كان، بهيئته الماكرة المتشامخة إمّا مسترخياً على مقعد أو ممدّداً على عتبة باب المطبخ يقيسهن من أعلى إلى أسفل، يطيل النظر بجرأة إلى السيقان، إلى الرُّكب صاعداً نحو أعلى الفخذين، إلى ارتفاع النديين. وكنّ يخفضن أعينهن، أما الشيطان في أنفسهن فما كنّ يخفضْنَهُ.

---

(١) DENDE : ريت يستخرج من النخيل الافريقي ويستعمل في الطعام كتوابل.

(٢) PIMENTA DO REINO : نوع من الفلفل يسمى نباته علمياً PIPER NIGRUM .

وكانت الدونا فلور تُعِدُّ الأطباق المالحة وأقراص البولو[1] و« التورتة » والحلوى في الدروس التطبيقية؛ بينما فادينيو يصدر المفاهيم، ويتجشأ ظرفاً ويأكل الأطعمة ويدور حولهن، يجرّ أجملهن إلى الحديث، مجازفاً باليد السافلة إذا اقتربت إحداهن وهي أشد إضراماً.

وكانت الدونا فلور تغدو متوترةً مكتئبةً لدرجة أن تخطىء في مقادير الزبدة تسكبها على المانويه الصعب، متضرّعة إلى الله أن يذهب فادينيو إلى الشارع، إلى الاحتيال، إلى شقاء القمار، شرط أن يترك التلميذات بسلام.

الآن في السهر على الميت، كن يحطن بالدونا فلور ويشجّعنها. بيد أن إحداهن الصغيرة ليدا، بوجهها الشبيه بوجه قطة شرسة، استطاعت بالكاد حبس دموعها ولم تكن تنحَرف بعينيها عن وجه الميت. وحالاً استشفّت الدونا فلور المغالاة في الإحساس، وأحسّت بريبة في الصدر. هل جرى شيء ما بينهما؟ ما لاحظت قط شيئاً مشبوهاً لكن من يستطيع أن يضمن أنهما لم يلتقيا خارج المدرسة، ولم ينتهِ بهما الأمر في إحدى شقق العازبين[2] ؟

كان فادينيو، منذ مسألة نويمي المضطربة، قد ترك ظاهرياً ملاحقة التلميذات. لكنه كان رجلاً مهووساً جداً، وبوسعه تماماً أن ينتظر عديمة الحياء في الناصية، فيجرّها إلى الحديث، وأي امرأة تقاوم طلاقة لسانه؟ تابعت الدونا فلور نظرة ليدا، مكتشفة برطم الفتاة الصغيرة المرتجف. لم يبق لديها شك، آه! فادينيو مرّة أخرى. تصرّف غير لائق...

لكن أي من المنغّصات التي سببها لها الزوج لم تكن لتُضاهي مسألة الفتاة نويميا، وهي عاهرة صغيرة من عائلة محترمة ومخطوبة، يا للحقد! لكن الدونا فلور ما كانت تريد أن تتذكر ذلك الحزن القديم في ليلة المراقبة، حينما حلقت للمرّة الأخيرة في وجه فادينيو. كل ذلك قد انقضى وأصبح بعيداً، والمذكورة تزوجت ورحلت مع عريسها، وهو شخص ذو

---

(١) BOLO : نوع من الحلوى الافرنجية، يتكون من الدقيق والبيض والسكر والحليب والزبدة ممزوجة، تخبز في الفرن، مثل « الكيك » أو الغاتو.

(٢) CASTELO : بيت يقطنه شخص عازب « غارسونيرة ».

خيلاء لكونه صحافياً محباً للقديم موهوباً، مع أنه فتيّ جداً وذو قرن[1] كبير، اسمه ألبرتو. وبعد الزواج شاب الحذلقة خجلٌ دفعة واحدة وتحولت إلى مجرّد معدة ضخمة.

عندما انتهى في تلك المناسبة، كل شيء إلى ما يرام بأعجوبة، قال لها فادينيو في حرارة المخدع والمصالحة: «المرأة الدائمة لي هي أنت فقط بالذات التي قد أتحمّلها. وما تبقى فكلّه نفحة[2] لقضاء الوقت». والآن في السهر على الميت، وهي محاطة بكثير من الناس وبكثير من التعاطف، لا ترغب الدونا فلور في تذكر تلك القصة المنسيّة، ولا حتى مراقبة حركات الصغيرة ليدا ونظراتها وبُكائها الذي لا يحبس سرّها الذي تفشيه دموعها. مع فادينيو وهو ميت لا شيء يهمها، فلمَ الاستيضاح وانتزاع صفاءها، الاتهام والتحسّر؟ لقد مات، ودفع ثمن كل شيء حتى مع الفوائد، إذ توفي وهو جدُّ فتيٍّ. أحسّت الدونا فلور بسلام مع الزوج، فلم يعد لديها حسابات تسوّيها معه.

أحنت رأسها، وتخلّت عن ضبط حركات الفتاة. كانت ترى، وهي تخفض عينيها، فادينيو متلمساً جسدها بيده، في السرير الحديدي، قائلاً في أسماعها: «كل شيء نفحة لتمضية الوقت، أنت الدائمة فقط يا فلور، يا زهرة الأكاسيا[3] التي لي، ولا أي امرأة سواك». أي شيطان كانت النفحة؟ ـ أرادت الدونا فلور بغتةً أن تعرف. يا حسرةً، فما سألته قط، لكنه ما كان شيئاً حسناً. ابتسمت. كل شيء نفحة، الدائمة هي فقط، فلور، زهرة فادينيو العارية من وريقاتها في يده.

---

(١) CORNO : زوج المرأة الخائنة الذي لا يبالي، الديّوث.

(٢) XIXICA : بقشيش.

(٣) FLOR DE MANJERICAO

٥

في اليوم التالي، عند العاشرة صباحاً، جرى الدفن بتشييع حافل. لم يكن ثمة حلقة أو تجمع من الناس صباح ذلك الاثنين من أيام الكرنفال يمكن أن يقارنا في الأهمية والحيوية بجنازة فادينيو، حتى ولا من بعيد.

- « إلقِ نظرة... على الأقل إلقِ نظرة من النافذة... »، قالت الدونا نورما لزيه سامبايو، متنازلة عن إلحاحها عليه ليذهب إلى المقبرة « مارس علاقاتك، إنه ما كان وحشاً من وحوش الغابة مثلك أنت... كان محتالاً مقامراً له نقائصه، بائساً، ومع هذا، أنظر... كم هناك من أناس وكم من أناس مهمّين... هذا في يوم كرنفال... وأنت حين تموت يا سيد سامبايو لن تجد لديك حتى من يمسك بمقبض التابوت...

لم يجب زيه سامبايو، بل ولم ينظر من النافذة، داسّاً نفسه في السرير في بيجامة عتيقة مع جرائد العشية، لكنّه أنّ أنيناً ضعيفاً ووضع إصبعه الكبيرة على فمه. كان مريضاً بالوهم، لديه خوفٌ مجنون من الموت، رعب من زيارات المستشفيات، من القيام بالمراقبة على الميت والدفن، وفي تلك اللحظة كان يجد نفسه متخماً بالمنغّصات. هكذا كان منذ العشية، منذ أن أعلمته زوجته بأن قلب فادينيو انفجر على حين غرّة. قضى ليلته ككلب ينتظر انفجار الشريان التاجي، يدور على نفسه في السرير، يتصبّب عرقاً بارداً، ويده تضغط على جانب صدره الأيسر.

أمّا الدّونا نورما، التي وضعت على رأسها ذي الشعر الكستنائي الجميل شالاً أسود،

مختصاً بالمناسبة، أكملت غير مشفقة:

ـ أنا، إذا لم يكن هناك على الأقل خمسمائة شخص في دفني أعتبر نفسي فاشلة في الحياة. من خمسمائة إلى ما فوق...

قياساً على هذا المبدأ يعتبر فادينيو منتصراً تماماً ومُحقِّقاً لما يريد. فنصف باهيّا جاءت إلى جنازته وحتى الزنجي باراناغوا فينتورا هجر وكره المعتم؛ وها هو هناك، بالبذلة البيضاء اللامعة بالساتان، وربطة عنق سوداء ورباط أسود على الكم الأيسر، وورود حمراء في يده. وكان يتهيأ ليمسك بأحد مقابض التابوت؛ وعندما قدّم التعازي إلى الدونا فلور، لخَّص التفكير بكل شيء في عظة جنائزية لفادينيو كانت الأقصر والأجمل:

ـ كان شخصاً عارياً!

استراحة

ملاحظة قصيرة (غير ضرورية تماماً) عن الجدل الـمُثار حول مَنْ نظم القصيدة المغفلة المنتشرة من حانة إلى حانة، والتي يبكي فيها الشاعر موت فادينيو ـ مع كشف نهائي لهوية الشاعر الجوّال المجهول الحقيقية، على قاعدة من البراهين الحسية.

كلا، لن تتحوّل بالتأكيد مع مرور الزمن، في الغموض اللامقروء لحروفها إلى أحجية مبهمة للثقافة العالمية متحدية بعد قرون، جامعات وحكماء ودارسين ومؤرخي سِيَرَ حياة وفلاسفة ونقاداً، متحوّلة إلى مادة للبحث، للإسهامات، لأطروحات تشغل المضاربين في البورصة، المعاهد، أساتذة مقاعد في الجامعات، مؤرخين ومحتالين متنوعين في البحث عن الوجود السهل والمبهج. لن تغدو قضيّة شكسبير جديد، فلن تتجاوز مجرد شك بسيط جداً إزاء الحدث الضئيل الذي يفيده موضوع ووحي؛ موت فادينيو.

ورغم ذلك فقد جرى تحقيق في الأوساط الأدبية في سالفادور [1]، وحوله ثار الجدل:

---

(١) عاصمة ولاية باهيا في البرازيل.

أي شاعر من شعراء المدينة آلّف ـ ونشر ـ « مرثية الموت القطعي لفالدوميرو دوس سانتوس غيمارايس، فادينيو بالنسبة إلى البغايا والأصدقاء »؟ وسرعان ما احتدّ النقاش حتى صار مثيراً، وغدا سبباً للعداوات وللهجاء، وحتى لبعض اللطمات. وقاموا بمحاولات تحديد للخط، وبمداولات، ضغائن، شكوك ويقين، تأكيدات ونفي وشتائم ولكمات على موائد البارات حيث يتجمعون طوال الليل، الشبان الموهوبون الذين لا يفهمهم الآخرون (يهدمون ويخربون كل أدب وكلّ فنّ، سابقين للظهور السعيد لهذا الجيل الحاسم) والأدباء الرديئون العنيدون السادرون في غيِّهم يقاومون جميع التجديدات، بجناسهم وطباقهم، بهجائياتهم، بجملهم الرنانة؛ يدعمون البعض والآخرين ـ عباقرة غير ملتحين محترفو أدب يُطلقون لحاهم ـ بنفس الاستعداد العنيف للقراءة، نتاجاتهم الأخيرة في النثر والشعر، كل منها وجميعها موجهة لتثوير الأدب البرازيلي، إن شاء الله.

بل لم يقتصر الأمر على وسط ولاية باهيّا (الولاية وليس فقط العاصمة، إذ انعكست المداولة في محافظات منطقة زراعة الكاكاو. وفي حوليّات أكاديمية الآداب في إيليوس[1] شهادات مضمونة عن أمسية أدبية مكرّسة لدراسة المشكلة) ولا لكونها لم تحظ بمساحة في الملاحق والمجلاّت، متلاشيةً في نقاشات شفوية؛ وليس هذا كلّه، بوسع المداولة الفضولية وأحياناً المثيرة، أن تفقد جدارتها بالاهتمام والاستفادة منها حين تروى قصة الدونا فلور وزوجيها الاثنين، التي يعتبر فيها فادينيو شخصية مهمة، بطل قائم في المخطط الأول.

أهو بطل؟ أم أنه، يا تُرى، سوقي ولص مسؤول عن آلام الفتاة الصغيرة، وفي حالة الدونا فلور، الزوجة التي كرّست نفسها وأخلصت له؟ هذه هي مشكلة أخرى منفصلة عن المسألة الأدبية التي تقلق شعراء وناثرين، وربما هي أصعب وأخطر وتصبح مهمتكم إعطاء الجواب، إذا قادكم صبركم العنيد إلى نهاية هذه الصفحات المتواضعة.

عن المرثية؟ نعم لا شك أن فادينيو كان بطلاً من غير منازع. « لم يأت أبداً آخر غيره جد حميم للنجوم، للزهر وللبغايا، صاحب نكت بذئية ساحر، كانوا يرنّون بالقصائد، في ثناء بلا إحجام. وإذا لم تحظ القصيدة ـ نموذج الجدل ـ بمساحة في الصحف الأدبية، فلم يكن ذلك مما ينقص من أهميتها. ذات شخص يدعى أودوريكو تافاريس، وهو شاعر

(١) ILHUS : مدينة في المنطقة الداخلية في ولاية باهيّا.

اتحادي[1] يحلّق فوق القال والقيل الصّادر عن الشعراء الإياليين[2] - إضافة إلى أن الجميع يأكلون في يده، ذو لجام قصير، إذ كان هذا الطاغية يهيمن على جريدتين ومحطة إذاعة - عندما قرأ نسخة من المرثية مطبوعة على الآلة الكاتبة تحسّر:

- يا حسرتي لأنني لا أقدر أن أنشرها!

واعتبر شاعر آخر هو كارلوس أدواردو:

- لو لم يكن مجهولاً...

كارلوس أدواردو هذا شاب يميل إلى الوسامة، خبير بالقطع القديمة، كان شريكاً لتافاريس في تجارة شبه مخفية تجارة أيقونات قديسين قدامى. الأدباء الرديئون الأشد تخلّفاً والنابغون الفتيون الأكثر حيوية، أولئك الذين لا أمل لهم في طبع أسمائهم في ملحق يوم الأحد في «أودوريكو» كانوا يتهمونه وكارلوس أدواردو بإخفاء أيقونات القديسين القديمة المسروقة من كنائس من قبل لصوص اختصاصيين بزعامة شخص ذي شهرة مريبة، شخص خفيض الصوت يدعى ماريو كرافو، وهو أيضاً صديق لفادينيو ورفيق له: نحيل الجسم ذو شاربين. وكان هذا الماكر يعيش من وراء قطع السيارات كاللوحات الحديدية والآلات المتنوعة، فيبرم ويوصل تلك الحاجيات جميعها، حائزاً على قيمة فنية في النتيجة، بهتاف من الشاعرين وغيرهما من المثقفين مجمعين في الخطوط العريضة على أن ذلك الحديد القديم أضحى من النحت الحديث، ومشيرين إلى الرجل السيء السمعة كاكتشاف لفنان ثوريّ ملحوظ. وهنا تبرز مشكلة أخرى لا تستوعب هذه الصفحات مناقشة القيمة الحقيقية للمعلم كرافو، ولن نحلل هنا العمل الفني، متقدمين فقط كمادة للمعلومات، بواقع أن النقد قد كرّس عمله السابق، وهو موضوع بشكل خاص، لدراسات الصحافيين الرديئين الأجانب. في ذلك الوقت، لم يكن قد صار فناناً معتبراً بل كان قد بدأ يمتلك ذات قدرة على الملاحظة، وهو مدين بها فوق كل شيء لتأثره القابل للأخذ والعطاء بخزائن المقدسات والمذابح في الكنائس.

---

(١) FEDERAL: نسبة للدولة الاتحادية.

(٢) ESTADUAL: نسبة إلى الولاية.

من اليقين أن فادينيو نفسه اشترك عندما عضّهُ العوز الشديد في حج ليلي صامت إلى كنيسة دو ريكونكافو العريقة في القدم، حج نظّمهُ الهرطوقي ماريو كرافو. أثارت سرقة الكنيسة جدلاً واسعاً. فإحدى القطع المسروقة، أيقونة تمثل القديس بينيديتو، وتخص الراهب[1] آغوسطينيو دابيبا داري، أشاع الرهبان ذلك الخبر في العالم. واليوم تتواجد هذه الإيقونة الثمينة في أحد متاحف الجنوب، ويُعتقد في أوساط المغتربين من الأدباء الرديئين أنّ ذلك من عمل ونعمة الشريكين في إلهة الشعر الغنائي وفي عبادة التجارة، وكانا هزيلين آنذاك.

وفي ذلك الصباح قبل الظهر، كانا يتحدثان في إدارة التحرير، متكلمين عن أيقونات القديسين واللوحات، حينها سحب كارلوس أدواردو من جيبه نسخة من المرثية وأعطاها للشاعر أودوريكو ليقرأها.

أبديا حسرة لعدم تمكنهما من نشرها ـ «ليس بسبب إغفال توقيع الشاعر، نستطيع أن نضع اسماً مستعاراً أياً كان...» لكن بسبب الكلمات النابية ـ وكرر تافاريس: «يا حسرةً...» وأعاد قراءة بيت آخر من الشعر بصوت مرتفع:

«إنهم في حداد: المقامرون وزنجيات باهيّا»

سأل صديقه:

ـ اكتشفت الناظم في الحال؟ أليس كذلك؟

ـ هل تظن أنه قد يكون هو؟ بدا لي، إنما...

ـ إنه بشخصه.. أصغ: «لحظة صمت في آلات الروليت، بيارق بطول نصف عمود في صواري شقق العازبين، مؤخّرات في قنوط، تغص».

قد يكون هو، أليس كذلك؟ إنه هو، بالتأكيد (ضحك) العجوز عديم الحياء!

الأوساط الأدبية لم يكن لديها ذلك الجزم. ونُسبت المرثية إلى شعراء مختلفين، شعراء

---

(١) FREI: راهب عضو الأخويات الكاثوليكية.

معروفين أو شبان ينشــرون للمرة الأولى. تعاملوا معها كما لو أنها لسوسيجينيس كوستا، لكارفاليوفيليو، لألفيس ريبيرو، لإيليو سيمونز، لأوريكو ألفيس. وأشار كثُرٌ إلى روباتو على أنه الناظم الأكثر احتمالاً. ألم يعلنها هو، متحمساً، وهو يتهادى بصوته الغنيّ الرخيم؟

« معه ارتحل الفجر ممتطياً القمر »

لم يستطيعوا استيعاب إلقاء روباتو لأبيات هي لغيره، وهو تصرف غير مألوفٍ كثيراً في تلك الأوساط؛ متناسياً الطبيعة السخية لناظم قصائد الصونيتـو، وطـاقتـه في الإعجـاب والهتاف لعمل أدبي من أعمال الغير.

يمكن على وجه الخصوص أن يحدد بداية رواج المرثية والجدل المتولّد حولها بدءاً من الليلة المرحة في شقة كارلا، « كارلا البدينة » المحترفة القادرة القادمة من إيطاليا تتجاوز ثقافتها مهنتها (التي ربما هي « ممتازة » فيها حسب نيستور دوارتي، المواطن المعروف، بذكائه والخبير الكثير السفر). قارئـة لـدانـونتسـو[1]، مجنـونـة ببعـض القـوافي. « إنها رومانطيقية كبقرة »، هكذا صنفها ذو الشارب كرافو، والذي كانت له علاقة معها لبعض الوقت. ما كان بوسع كارلا أن تقضي الوقت بلا غرام دراماتيكي وأن تبحر من بوهيميٍّ إلى بـوهيمـيٍّ، متنهـدةً متـأوّهـةً تمزّقهـا الغيرة، بعينيهـا الهائلتين الزرقـاويـن، ونهدي « البريمادونا »[2] والفخذين المدهشين. كان لفادينيو، حصته من نعمها الطيبة وقليل من النقود. حسناً، إنها تفضل الشعراء ينظمون فيها بالذات قصائد « بلغة دانتي[3] العذبة بكثير من الإلهام والوحي »، كما كان روباتو يتملّقها.

في ليالي أيّام الخميس، تعقد كارلا ضرباً من الصّالون الأدبي في شقتها الواسعة؛ فيحضره شعراء وفنانون وبوهيميون وبعض الشخصيات العالية المرتبة، مثل قاضي الأمور

---

(١) غابريال دانـونتسو، شاعر إيطالي مشهور وُلِد عام ١٨٦٤ وتوفي عام ١٩٣٩، أشهر مجموعاته الشعرية « نشيد البحارة » و« قصائد الجنة ».

(٢) PRIMA-DONNA: في الإيطالية ومعناها « السيدة الأولى » في الأوبرا.

(٣) دانتي اليغييري: أعظم شعراء إيطاليا في القرون الوسطى، هو أول من نظم أسفاراً بالإيطالية، عمله الخالد هو « الكوميديا الإلهية ».

المستعجلة آيروزا ، والفتيات البغايا الحاضرات في الشقة للثّناء على القصائد والضحك على النكات وتقديم الخمور والحلوى.

كانت كارلا ترأس السهرة، متكئة على أريكةٍ غاصّةٍ بالوسادات والمساند ، مرتدية ثوباً طويلاً يلتصق بجسمها حسب الزّي اليوناني أو تتزيّن بمجوهرات أثينية[1] ذات رسوم، أو مصرية من هوليوود ،حديثة الخروج من إحدى الأوبرات. وكان الشعراء يلقون القصائد ، يتبادلون جملاً عن الروح والهجائيات والجناس والطباق، وكـان قـاضي الأمـور المستعجلـة يصدر أحكاماً بديهيّة مُعدّة بمشقّة خلال الأسبوع. ولحظة الذروة في السمر كانت تحدث حين تنهض ربة المنزل، كارلا العظيمة، من بين الوسادات، كل تلك الأطنان من اللحم الأبيض المغطاة بالجواهر الزائفة في صوت رفيع غريب أن تكون لامرأة ضخمة مثلها ، منشدة في قصائد إيطالية معسّلة عن حبها لآخر شخص مفضّـل لـديها . أثنـاء ذلـك يقـوم الفنان كرافو وآخرون ماديون أجلاف يغتنمون شبه العتمة السائدة في القاعة ـ فالضوء الخافت في هكذا سهرة أي شبه عتمة، أفضل للاستماع إلى الشعر وتذوقه ـ دون احترام للوسط الروحي السّامي، بمشاعره الرّاقية جداً ، كانوا يحتكون بسيقان الفتيات البغايا خالعين الحياء ، محاولين الحصول على خدمات مجانية منهن ، مسيئين لصندوق الشقّة، كانوا حقاً أشخاصاً مزعجين.

كانت الأمسيات الأدبية تنتهي دائماً بالسّقوط من الشعر إلى درك النكت الداعرة في نهاية الليل. وآنذاك يتألّق فادينيو وجيوفاني وميراندون وكارلينيـوس مـاسكـارينيـاس، وقبلهم جميعاً ليفي، وهو مهندس معماري في بداية حياته العملية، ابن مهاجرين، ككيس حاجيّات طويل كزرافة، أخبار جعبته لا تستنفد وراوٍ جيد. كان اسم عائلته روسياً صعـب ثقيل على اللسان، والفتيات البغايا أطلقن عليه لقب ليفي اللسان الفضي، ربما بسبب نكاته.

في أحد هذه «اللقاءات الأنيقة للذكاء والمشاعر الرقيقة»، كما وصفها روباتو بصوته المتهدج، وهو يقدّم مرثية موت فادينيو بكلمات مؤثّرة حول غياب صديق لجميع مرتادي ذلك «الكهف اللذيذ الزاخر بالحب والشعر». ومرّ على واقعه كونه المؤلّف الذي يفضّل

---

(١) نسبة إلى أثينا عاصمة اليونان.

ضباب التوقيع المُغفَل على شمس النشر والمجد. وكان روباتو قد تسلّم نسخة عن القصيدة من يديْ ضابط في الشرطة العسكرية هو النقيب كريزوستوو: صديق آخر حميم لفادينيو. ولا يعرف في الوقت نفسه أن العسكري زوّده بمعلومات دقيقة حيال هوية الشاعر.

كثيرون نسبوا الشعر لروباتو نفسه، قبل احتجاجه بأنه لم يفعل ذلك، راحوا يشيرون إليه كناظم فيما الشاعر يلقي أشعاره في المدينة، خصوصاً في الأماكن الليلية البوهيمية المعروفة. ووُجِد أيضاً من لم يصدّق أبداً نفي روباتو آخذاً إياه على محمل التواضع، وأصرّوا على اسمه. وحتى اليوم ثمة من يظن أن مقاطع المرثية هي من نتاجه.

احتدّت المداولة لدرجة أنها تجاوزت ذات مرّة حدود الأدب[1] والتهذيب وسقطت في صدام كلاميّ، وذلك حينما أطلق الشاعر كلوفيس آمورين، لسان الأفعى، فم الهجائيات، وهو يرضع باستمرار وبرائحة كريهة، سيجاراً من السوق النموذجي، نافياً عن باردو إيرنيس كليماكو كلّ احتمال بأن يكون ناظم الشعر المتداول، إذ ينقصه الكثير من النّبوغ وقواعد اللغة.

ـ عن كليماكو؟ لا تقل هذه البلاهات.. بكثير من الجهد، لقد أتى بعمل في رباعية من سبعة مقاطع. إنه شاعر مخاطي...

وظهر في مجموعة مشؤومة الشاعر كليماكو في باب الحانة، ببذلته السوداء الأزلية، ومعطفه المشمّع ومظلة أزلية هي الأخرى. وهاجم بغضب:

ـ مخاطيّ، عاهرة التي ولدتك...

هاجم أحدهما الآخر، بين الشتائم واللكمات، مع ميّزات بيّنة لمصلحة آمورين، الأفضل أفضل من نظم الشعر وأعتى رياضيّ.

والغريب الجدير بالملاحظة هو ما حصل مع فلان، مؤلّف ديواني شعر والذي قام بعضهم بمقارنة غبيّة بين شعره وشعر القصيدة. وهو أوّل من نفى ذلك بجزم. وبعدها، بما أنهم مع

(١) الأدب هنا صناعة الأدب وليس التهذيب.

استمرارهم في الإصرار على ذلك، أصبح أقل إصراراً على نفيه، وانتهى به الأمر إلى أن يتصرف بردة فعل مرتبكة جداً وخجولة بدا معها النفي تأكيداً خجولاً.

« إنها له، لا شك في ذلك! » يقولون ذلك حين يرونه يفرك يديه ويغضّ من بصره، مبتسماً في همس:

ـ من حيث أنّها تبدو كأشعاري، فهذا صحيح. لكن، كلا، لا...

دائماً كان ينفي بيد أنّه في الوقت نفسه، لم يقبل قط أن تُنْسَب لآخرين. وإذا فعلوا ذلك، هرع يفنّد ذلك ويبرهن استحالتهُ. وإذا تشبّث أحدهم بالجدال في عناد، كان يهمهم حاسماً في غموض:

ـ ماذا؟ أتريد القول إنها لي... لديّ أسباب لأعرف...

وعندما كان يستمع إليها وهي تُلقى، كان يرافق المنشد، مصحّحاً له إذا بدّل كلمةً ما، غيوراً على القصيدة، حريصاً وكأن العمل الأدبي المذكور هو له. إنما بعد وقت، مع كشف اسم النّاظم الحقيقي جاء يودّع المجد الذي لا يستحقّه. أخذ يقول فوراً كلاماً مرعباً عن المرثية، نافياً عنها أيّ قيمة أو جمال:

ـ « شعر المواخير والمزابل! ».

وسط النقاش المتصاعد، أدّت المرثية غايتها: فقد قرئت وزُخرفَتْ، قيلت على موائد البارات عند الفجر، حينما كانت الكاشاسا تحل أنبل الأحاسيس؛ وغيّر المنشدون في مفاعيلها وأفعالها، ولعبوا أحياناً الورق أو جرعوا المقاطع الشعرية. لكن سواء قُدّمَتْ صحيحة أو مشوّهةً، مبللةً بالكاشاسا أو ساقطة على أرض الكباريهات، فقد كانت هناك دوماً لتثني على فادينيو وتمدحه.

لقد قام ناظمها بعكس شعور عام في العالم التحتي حيث تحرك فادينيو منذ المراهقة وفيه انتهى إلى نوعٍ من الرمز. لقد كانت المرثية ذروة الكلام المادح لذلك الشاب المقامر. ولو قُيِّض له أن يسمع مثل كلمات الإطراء الكثيرة هذه المليئة بالأشواق لما صدّق فلم يكن يوماً

في حياته هدفاً للثناء والمديـح ؛ وبل العكس هو الصحيح : فقد كانوا يُحَيُّونه بتقريع أذنيْه بالتأنيب والنصائح والمواعظ مستهدفين حياته السيئة ومشاعره، الشرّيرة.

لكن التسامح مع مساوئه، وهذا العرض العلني للميزات التي ادَّعُوها له، حوّله بطلاً للقصيدة وشخصية شبه أسطورية لم يدم إلا فترةً قصيرةً. فبعد أسبوع على موته بدأت الأمور تأخذ موقعها الطبيعيّ، ليروج رأي الطبقـات المحـافظـة المسـؤولـة عـن الأخلاق والفضيلة على شفاه الإشبينات. والجارات، في محاولات لتثبيته كشخـصٍ فوضويٍّ ومدّاح متحلل منغرس في الطبقة السفلى الانقلابية في شقق العازبين والكازينوهات، والتي اعتادت محاولة تدمير العادات والنظام.

وظهرت عندها مشكلةٌ جديدةٌ ومحببةٌ، كما لو أن مشكلة هوية من نظم الشعر لم تكن كافيةً. وفي معرض حديثنا عمن نظم القصيدة نشير إلى أن البراهين على الهوية الحقيقية للناظم قد ظهرَتْ وأُثْبِتَتْ إلى الأبد في كتاب ذهبيّ للآداب الوطنيّة.

عندما تسلم الشاعر أودوريكو، بعد سنين من مـوت فـادينيـو، عـدده مـن « المراثـي الفاجرة » ـ وهي إحدى ثلاث نسخ فقط قدّمها الشاعر مجّاناً ـ طبعة فاخرة رائعة، إصـدار اقتصر على مائة مجلد بخط المؤلف مزدانة بالرّسوم المحفورة على الخشب نفّذها كالازانس نيتو. والتفت إلى كارلوس أدواردو، باسطاً له الكتاب الثمين.

كانا جالسين في قاعة إدارة التحرير ذاتها حيث قرآ معاً في يوم بعيد، المرثية وناقشاها. أما الآن فقد أصبحا سيدين بدينين محترمين ـ وثريّيْن، ثـريّيْـن جـداً، يملكـان مجموعـات وعمارات.

تذكر أودوريكو:

ـ « أما قلت لك في تلك المناسبة؟ إنّه هو »، وخَلُص إلى القول بذات الابتسامة والكلمات السابقة: « العجوز قليل الحياء »

وضحك كارلوس أدواردو ضحكتَه الودود، ضحكَةَ رجل حقّق ذاته واستقرّ وأبدى إعجابه بالطبعة الـمُتْقَنَة. فقد حفر على خشب الغلاف اسم الشاعر: « غودو فريدو فيليو ».

وأخذ يقلّب الصفحات بتمهّل ؛ يستجوب نفسه بجسد معين : « يا لها من شوارع ومنحدرات مائلة ، أي أزِقّةٍ معتمة في الغسق ، أي فجوات سوداء عطرة ! ، كانا معاً : الشاعر اللامع المعروف المحبوب والمتشرّد الفقير ، وفي مكان ما بينهما تَتَفَتّح زهرة صداقة نادرة ! ! » وراح يفكر في هذه الألغاز بتمهّل ، كان كارلوس أدواردو يلمس الورق كمن يداعب بشرة امرأة رقيقة ، من يدري ؟ ربما كانت بشرةً سوداء ، مخمل ليليّ ؟ المرثية الرابعة من المراثي الخمس التي يتكوّن منها المجلد ، مكرَّسة لموت فادينيو ، « الفيش الأزرق المنسيّ على السجّادة » .

وهكذا وكما وعد حلّ مشكلة. بيد أن أخرى ظهرت فارضةً نفسها ، ومن يدري إذا كان بالإمكان العثور على حلّ ؟ إن فطنتك تبقى مستقاة منه ، من لغز فادينيو هذا .

من كان هو فادينيو ؟ ما كانت حقيقته ؟ ما كانت أهمّيته بالضّبط ؟ هل كان وجهه مغتسلاً بالشمس أم مُغَطّى بالظّل ، وجهه الذي هو وجه رجل ؟ من كان : أكان المهزار صاحب المرثيّة الذي لا يحسن التعبير (*) باراناغوا فينتورا ، أو المحتال النكد ، اللاسع الذي لا يمكن إصلاحه ، الزوج الشرير في صوت الجيران ، صداقات الدونا فلور ؟ من كان يعرفه أفضل ويحدده تحديداً أدق : التّقيّات اللواتي يختلفن إلى قداس الساعة السادسة في كنيسة سانتا تيريزا أم زبائن التباريس الفاسدون ، « الكرة تدور في الروليت ، ورق اللعب ثم هباته عند الموقف الأخير » ؟

(*) في الأصل : العاري من الجمل .

القسم الثاني

عن الوقت الذي تبدأ فيه حالة المرأة الأرملة، وقت القرف والحداد المغلق، مع ذكريات المطامع والخداع، عن الغزل والزواج، عن حياة فادينيو والدونا فلور الزوجية، مع الفيشات والهبات والانتظار القاسي الذي هو الآن بلا أمل (وحضور الدّونا روزيلدا المزعج).



مدرسة الطهي تذوّق وفنّ

وصفة الدونا فلور، موكيكا [١] السيري [٢] الرّخو

درس نظري:

لثمانية أشخاص: فنجان من حليب جوز الهند الصّافي دون ماء؛ فنجان من زيت الديندية [٣]، كيلو غرام من السيري الرخو. وللمرق ثلاث حصوص من الثوم، ملح حسب الذّوق عصير ليمونة حامضة، زهرة خيمية [٤]، صلصة، بصلة صغيرة خضراء، بصلتان، نصف فنجان من الزيت الحلو، فلفل حلو، نصف كيلوغرام من البندورة. بعد ذلك؛ أربع حبات بندورة، بصلة، حبة فلفل حلو.

درس عملي:

إفرِمْنَ بصلتين، دقّي الثّوم في الجرن؛ إن البصل والثوم لا يتعفّنان، كلا يا سيداتي، إنهما فاكهتا الأرض العطرتان. إفرمن الزهرة الخيمية فرماً ناعماً، ثم خذن الصلصلة وبعض

---

(١) MOQUECA: طعام معد من السمك المقلي.
(٢) SIRI: نوع من الحيوانات البحرية، قريدس وسرطان.
(٣) DINDE: زيت يستخرج من النخيل.
(٤) COENTRO: نوع من النبات الفطري يشبه المظلة.

حبات البندورة والبصلة الصغيرة ونصف حبة فلفل حلو، واخلطن ذلك كله مع الزيت الحلو وضَعْن حفنةً من كل شيء في هذا المرق العَطر الرائحة. (إنهن جميعاً يجدن البصل ذا رائحة كريهة! ماذا يعرفن هنّ عن العطورات النقية؟ فادينيو كان يحب أن يأكل البصل النيء وقبلته تضرم النار).

إغسلن السيري كله في ماء الليمون الحامض،

إغسلنه جيداً، ثم اغسلنه أكثر. والآن ضعن التوابل على كل قطعة بمفردها، وغطّسْنَها في المرق، ثم ضعنها في المقلاة، الواحدة فوق الأخرى، السيري مع توابله، وارشُشْن عليه ما تبقّى من المرق بكثير من التمهل فهذا الطبق هش جداً (أوّاه، كان طبق فادينيو المفضل!).

تناولن حبات البندورة الأربع المنتقاة وحبة فلفل حلو وبصلة، وضعنها جميعاً فوق السيري مقطعة شرائح مدوّرة لإضفاء لمسة من الجمال. وبعد أن تغطين الطبق ساعتين ـ ودعْكُنّ من التّذوّق ـ ضعْنَ المقلاة على النار. (كان هو الذي يشتري السيري الرخو، من زبونه القديم في السوق...)

حين يغدو مقلياً أضِفْنَ عندها فقط حليب جوز الهند والقليل من زيت الديندية، قبيل إطفاء النّار تحته. (كانت تذوق المرق باستمرار، فلم يكن أحد يملك مثل تذوّقها للطعّام).

ها هو ذا الطبق الرائع، الكامل مطهياً على أفضل وجه! بمقدور من تُعِدُّه التباهي بذلك فهي جديرة بأن تصير طاهية. لكن يجدر بمن لا تجد لديها الكفاءة لطهيه ألا تدسّ نفسها ضمن فئة الطّابخات، فما كل الناس يولدون فنانين في الطّبخ. (كان ذلك الطبق المفضّل عند فادينيو، ولن أقدمه بعد الآن أبداً على مائدتي. كانت أسنانه تقضُمُ السِّيري الرّخو، وشفتاه صفراوان من الدّيندية، آه! لن تعود بعد الآن أبداً شفتاه أو لسانه، لن يعود أبداً فمه الملذوع اللسان بالبصل النيء).

١

لكن في قداس اليوم السابع، الذي ترأسه الـدون[١] كليمينتي نيغرا في كنيسة القـديسـة تيريزا، التي بدَتْ رحابها المدهشة ملتفحة بنور صباحي شفّاف يميل إلى الزُّرقة آتٍ من البحر أمامها، كما لو أنّ المعبد سفينة على أهبة الانطلاق ـ عُبِّر عن التعاطف والتضامن في تعليقات هامسة وجّهَتْ إلى الدّونا فلور، الراكعة في الصَّفِّ الأمامي تجاه المذبح، وهي مُتشحـة بالسواد كلّها، يخفي الوشاح المخرّم المستعار من الدّونا نورما شعرها ودموعها، ممسكة بسبَّحة[٢] بين أصابعها. لكن الوشوشات ما كانت تتحسّر على فقدانها زوجها، بل نعم، على كونها قد تزوّجَتْهُ. منحنية في جثوها، ما كانت الدونا فلور تسمع شيئاً، كأن لا أحد غيرها في الهيكل، فقط هي والقس وغياب فادينيو.

تصاعد همس النساء التّقيّات، فئران هَرَمتْ متمسِّكة بالمقدّسات، مبالغات بتمسكهن بالقديم، ضدّ الظرف والضحك مع فقدان الإحساس، همس يقطُرُ سُمّاً:

ـ لا يستأهل ذلك المارق حتى ولاقرش[٣]. من الصلاة.

ـ لو لم تكن قديسة، لأقامت له بدلاً من القداس، حفلةً. برقصٍ إلخ...

---

(١) DOM: السيد، صفة تتقدم اسم الاسقف.

(٢) TERÇO: ثلث السبحة.

(٣) VINTEM: وحدة نقدية تساوي عشرين ريس.

ـ كان موته انعتاقاً لها منه...

على المذبح وقف الدون كليمينتي يقيم القداس على روح فادينيو معذباً بالأرق فوق الكتب القديمة، يتحسس في جو الصباح الساحر الذي ايقظ فيه اضطرابات معيّنة، بنسائمه المضرَّة، كما لو أن شيطاناً ما، لوسيفر[1] أو إيشو[2] ـ على الأرجح إيشو ـ يجوب طليقاً رحاب الكنيسة. لماذا لا يترك فادينيو في سلام، لا يسمح له بالرّاحة؟ كان يعرفه جيداً؛ فطالما كان يأتي ليتحادث معه في فناء الدّير، يجلس فوق السّور، يروي قصصا لم تكن تنسجم دائماً مع تلك الجدران الوقورة، لكنها تحظى بسمع وانتباه الرّاهب المستغرب والمشفق على مجمل التجربة البشرية.

كان في الممر بين رحاب المعبد وخزانة المقدسات مذبح معيّن فيه ملاك محفور في الخشب، منحوتةٌ شعبية مجهولةُ النّاحت تعود ربما هي إلى القرن السّابع عشر، لكن بدا وكأن الفنّان قد اتّخذ من فادينيو نموذجاً له. نفس الملامح البريئة القليلة الحياء والسفاهة ذاتها والرقّة ذاتها. كان هو راكعاً أمام أحدث أيقونة وأشدّها زخرفةً للقديسة كلارا، يمدّ إليها يديه. في أحد الأحيان أخذ الدون كليمينتي فادينيو ليرى المذبح والملاك، أراد أن يعرف هل سينتبه البوهيمي للشبه؟ وحالما شاهد فادينيو الأيقونتين انفجر ضاحكاً.

ـ فسأله الرّاهب:

ـ لم تضحك على هذا النحوّ؟

ـ ليغفر لي الله يا أبتاه... لكن ألا يبدو لك أن الملاك يضاجع القديسة؟

ـ ماذا؟ ما هذه الألفاظ يا فادينيو؟

ـ أستميحك عذراً يا دون كليمينتي، إنما لدى هذا الملاك وجه قوّاد[3] لا يبدو ملاكاً... أنظر إلى عينيه... عينيْ ناكح...

---

(١) LUCIFER: كبير الشياطين، إبليس.

(٢) EXU: أحد الآلهة في معتقدات الزنوج في باهيا المتلائمة مع المفاهيم الكاثوليكية عن الشيطان.

(٣) GIGOLO: الرجل الذي يستفيد من الجانحات.

وعندما عاد إلى المذبح ليمنح البركة، ويداه مرتفعتان، شاهد القس التقيّات يهمهمن: هناك يكمن الشرّ والارتباك آه! يا أفواه الوحل والسوء، آه! يا أبكاراً تقطر منهنّ رائحة السمّ والحقد، العانسات المسكينات اللواتي شجّهن الحب، بقيادة الدونا روزيلدا، ليغفر لهن الله، فلا حدود لطيبته!»

ـ المسكينة! كم عانت على يده، ورضخَتْ له. الشيطان!...

ـ لأنها أرادت ذلك، فأنا لم أُقصِّر في نصحها... لو لم تكن مهتاجة كثيراً لاستمعت إليّ... لقد فعلت كل ما أستطيع..

كان ذلك خطاب الدونا روزيلدا والدة الدونا فلور، التي وُلدت لتكون أماً قليلة الحنان، محاولة بالجرأة أن تفي بعملها.

ـ لكنها ما كانت تستطيع أن تكون هادئة، كانت عاشقة، لينجني الله! لم تشأ أن تصغي، وتمرّدت عليّ... ووجدت من يدعمها، بيتاً لتختفي فيه...

قالت ذلك، ونظرت باتجاه الدّونا ليتا، أختها، التي كانت تصلّي راكعةً، وأكملت:

ـ إقامة قداس من أجل راحة الرجل السيء هو تبذير للنقود التي لن تنفع إلا في إملاء بطن الكاهن..

أخذ الدون كليمينتي المِبْخَرة وبخّرَ ليطرد الرائحة الكريهة، عاد الشيطان في التنفس من أفواه التّقيّات. نزل عن المذبح، وتوقّف أمام الدونا فلور ووضع يده المتودّدة فوق كتفها، ثم قال لتسمعه الجوقة المنحوسة للعجائز السامّات:

ـ حتى الملائكة المنحرفون يجدون مكاناً لهم يرتاحون فيه إلى جانب الله، في مجده.

ـ «ملاك؟... كان شيطاناً من الجحيم...» زمجرت الدّونا روزيلدا.

واجتاز الدّون كليمينتي ـ وظهره مقوس قليلاً ـ رحاب الكنيسة متوجهاً إلى خزانة المقدسات. وفي الممر استوقفه التأمّل في تلك الأيقونة الغريبة حيث أثبتَ الفنان المجهول

الظّرف والبذاءة معاً. ترى أيّ إحساس دفعه إلى صنعه، أي رسالة أراد أن ينقلها؟ كان الملاك وقد أخذ العشق الإنسانيّ منه كلّ مأخذ يلتهم بعينيه الفاجرتين القديسة المسكينة، « بعينيْ الناكح » على حدّ تعبير فادينيو مع ابتسامتِهِ الفاحشة، ووجهه غير المغسول دون تزييف. مثل فادينيو بالتمام، شبه كبير لم يسبق له مثيل. ألا يبالغ هو، الدون كليمينتي؟ وهل تسرّع في توكيده على وجود فادينيو إلى جانب الله، في مجده؟

اقترب من النافذة المفتوحة في الصّخر، وحدّق في فناء الدير. هناك اعتاد فادينيو على الجلوس فوق السور، وتحت قدميه تقطع الزوارق البحر، ويقول:

ـ أبتاه، إذا شاء الله أن يظهر قدرته بالذات، فليجعل الرقم ١٧ يربح اثنتيْ عشرة مرّة على التوالي. هذه معجزة حقيقية! عندها سأصلي وأملأ الكنيسة كلها زهوراً..

ـ الله لا يدسّ نفسه في القمار يا بني..

ـ إذن يا أبتاه، فهو لا يعلم ما الحسن وما السيء، الكآبة في رؤية الكرة الصغيرة وهي تدور، تدور في الروليت، والناس يجازفون بالفيش الأخير، والقلب منطلق...

ـ وسأله في رنّة توحي بسرّ، سرّ بينه وبين الكاهن فقط.

ـ كيف لا يعلم الله يا أبتاه؟

ـ في المدخل، رفعت الدونا روزيلدا صوتها:

ـ مال يُبَذّر... ليس ثمة قداس يخلّص ذاك الشقي. إن الله عادل!

وفي الداخل بدت الدونا فلور والشال يخفي وجهها المتألم، مستندة إلى الدونا جيزا والدونا نورما. وفي ضياء الصباح الأزرق، بدت الكنيسة قارباً صخرياً مبحراً في الضباب.

٣

لم يبلغ نازاريت داس فارينياس خبر موت فادينيو إلا يوم الثلاثاء من أيام الكرنفال، حيث تقيم الدونا روزيلدا بصحبة ابنها المتزوج والموظَّف في سكة الحديد، مُمَرْمِرَةً حياة كنّتها، عبدة قيادتها الديكتاتورية. فانتقلت دونما إبطاء إلى باهيّا [١] يوم أربعاء الرماد [٢]، ذات يوم بدا لها أنها تعتقد بموت صهرها الآخر السيد أنطونيو موريايس الذي كان يقول عنها: «إن ذلك الشيء ليس امرأة، إنه أربعاء الرَّماد الذي يقضي على فرح كل إنسان» ولا شك في أن رغبته في إبقاء أكبر مسافة ممكنة بين بيته وبيت حماته هي من الدوافع التي جعلتْه يقيم منذ سنوات في إحدى ضواحي ريو ده جانيرو، إذ تقبّل بصفته ميكانيكياً ماهراً، دعوة أحد الأصدقاء ومضى يجرّب حياته في الجنوب، فحظي بالنجاح. وقد رفض العودة إلى باهيّا حتى ولو للنّزهة «ما دامت تلك المرأة القاسية تدمّر البيئة».

ومع هذا، لم تكن الدونا روزيلدا تكره انطونيو موريايس ولم تكره كنتها أيضاً. نعم كانت تكره فادينيو، ولم تغْفِر لفلور قط هذا الزواج الذي شكّل مكيدةً شريرةً ضدّ سلطتها وقراراتها. صحيح أنها لم تظهر ترحيباً كبيراً بالنسبة لزواج موريايس من روزاليا كبرى ابْنتيها، بيْد أنها لم تصعّب فترة الغزل، ولم تعترض على الخطوبة. لم تكن ترتاح إليه ولا إلى كنّتها لأنها ـ هي الدونا روزيلدا ـ كانت بطبيعتها ميّالة إلى تعذيب أقربائها تعذيباً جحيمياً. وعندما لا يعود لديها من تعارضه تشعر بالفراغ والتعاسة.

---

(١) يطلق أهالي الشمال الشرقي من البرازيل اسم باهيّا الولاية على العاصمة الإيالية سالفادور.

(٢) أول أيام الصوم عند الكاثوليك.

أمّا مع فادينيو فقد اختلف الأمر ؛ كانت تُكنّ له كراهيةً منذ أوقات الغزل مع فلور ، عندما اكتشفت شبكة الأضاليل والإغواء التي كان يمارسها طالب الزواج غير المرغوب فيه. حقدت عليه دائماً ، ولم تستطع حتى سماع اسمه. « لو كان ثمة شرطة في هذه البلاد لكان ذلك السافل في السجن ». كانت تكرر ذلك عندما يدور الكلام عن صهرها أو إذا طُلبت منها أخبار عن المتسكع ، أو إرسال أشواقهم إليه.

وعندما كانت تزور الدونا فلور في إحدى زياراتها النادرة ، فإنما تفعل ذلك لتحيل حياتها إلى جحيم ، فلا تتكلم إلا في موضوع أعمال الغش التي يقوم بها فادينيو ، مؤكدة أن وجوده الفاسق ، وتاريخه المخجل هما ، عبارة عن فضيحة يومية مستمرة.

ولم تتمالك نفسها حتى وهي ما زالت على سطح السفينة. أطلقت لسانها اللاذع تصرخ بالدونا نورما المنتظرة لها على رصيف المرفأ التابع للشركة الباهيّانية في انتظارها ، بطلب من الدونا فلور :

ـ أخيراً جرجر متقبل القربان السابق قدميه ، هه!

رست باخرة الركاب مزدحمةً بجمهرةٍ فاقدة الصبر من المسافرين الذين راحوا يتزاحمون مع طرود وسلال وأكياس صغيرة وصرر مختلفة تحوي الفاكهة ودقيق المنديوكا والإنيامي [١] والآيبين [٢] والقديد والشوشو [٣] والقرع. غادرت الدّونا روزيلدا السفينة وهي تزعق :

ـ لقد أصابني مسٌّ من الشيطان ، كان يجب أن أنفجر منذ وقت بعيد!

احسّت الدونا نورما أنها مهزومة. فالدونا روزيلدا تمتلك المقدرة على تجميدها بلا حراك في حالة قنوط كاملة فقد أبكرت الجارة إلى رصيف المرفأ الصغير وفي ذهنها أنها تؤدي خدمة ووجهها الطيّب يرشح عزاءً وقد استعدّت لتشجيع حماة في حداد دامعة العينين ، ولتتحسّر معها على تقلّبات الدّهر! فاليوم أنت حيّةٌ تثبين وغداً أنتِ في تابوت المُتوَفّين. كانت قد أعدت نفسها لتؤاسي حسرات الدونا روزيلدا ، وتخففها

---

(١) و(٢) جذور مثل الماندیوكا.
(٣) خضار مثل القثاء.

بالقول بأن المسألة قضاء وقدر من عند الله، فهو يحرف ماذا يفعل!؛ وستتداولا معاً، الأم والصديقة الحميمة، في الظروف المستجدة للدونا فلور، الأرملة التي أصبحت وحيدةً في الدنيا وهي في عزّ صباها. جاءت الدونا نورما محضرة نفسها لكل ذلك؛ لكل تصرّفٍ أو كلمات أو رد فعل، وباختصار لكلّ ما هو مخلص حسّاس ـ وهو ما كانت تفعله في سلوكها وتمنحه من كل جوارحها. لقد كانت تشعر بأنها مسؤولة إلى حدٍّ ما عن العالم بأسره، كانت الملاك الحارس للحي، فرقة إنقاذ عاجلة لجيرانها: فهم جميعاً عندما يطلبون المساعدة يلجأون إلى باب بيتها ـ أفضل بيت في الشارع، باستثناء بيت الأرجنتينيين أصحاب مصنع السيراميك، وبيت آل بيرنابوس اللذين يضاهيانه، أو هما ربما أفخم منه ـ كانوا يقصدونها للاستعارة، من الملح والبهارات إلى أواني المطبخ لمآدب الغداء والعشاء وحتى الثياب للحفلات:

ـ دونا نورما، أمّي أرسلتني لأسأل عمّا إذا كان بوسعك يا سيدتي أن تقرضيها فنجان دقيق الرينو [1] لأقراص حلوى تعدّها. ثم ستوفي بالدين...

والمتكلّمة هي آمينيا، أصغر بنات جارها القريب الدكتور إيفيس من زوجته الدونا أمينة والتي تغني أغاني عربية فيرافقها على البيانو.

ـ لكن، يا بنت، ألم تذهب أمك إلى السوق أمس؟ يا لها من امرأة كثيرة النسيان... هل يكفي الفنجان؟ قولي لها، إذا احتاجت إلى المزيد، أن تُرسل من يأتي به...

أو كان الولد في مسكن الدونا آميليا يعوي صوته كالكلب:

ـ دونا نورما، أرسلتني معلمتي لأطلب ربطة العنق السوداء لزوجكِ السيد سامبايو، التي لها عقدة الفراشة؛ إذ أن ربطة عنق السيد رواس قد قرضتها حشرات العث...

ومرة أخرى صرخت لها الدونا ريزوليتا وهي تبدو دراماتيكية بهيئتها المُنهكة:

ـ نورمينيا [2]، أغيثيني حبّاً بالله...

---

(١) مزيج من السمك المجفف.

(٢) تصغير لاسم «نورما».

ـ ما بك يا امرأة؟

ـ سكير انتصب على باب بيتي ولا أجد طريقة لإخراجه، ما أفعل؟

اتجهت الدونا نورما إلى باب البيت فعرفته فوراً وقالت مبتسمة:

ـ لكنّه باستيون كاشاسا، يخصني... هيّا انصرف يا باستيون، أخرج من هنا وخذ إغفاءة في مرآب البيت هناك...

وهكذا الحال طيلة اليوم، قصاصات من الورق تستقْرِضُها نقوداً واستدعاء مستعجل لمساعدة معتوه، أو للاعتناء بمريض، وزبائن الحقن ـ الحق أن الدونا نورما تقوم بمنافسة مجانية للأطباء والصيدليات، ناهيك عن مستودعات الألبسة وعن أن جميع القطط في الجوار تقصد إلى الفناء الخلفي لمنزلها لتَلِد صغارها، حيث لن ينقصها لا المعونة ولا الغذاء. وكانت توزع عيّنات من الأدوية ـ التي يزوّدها بها الدكتور إيفيس ـ وتفصل فساتين ونماذج[1] ـ كانت تحمل دبلوماً في التفصيل والخياطة ـ تكتب رسائل الأشخاص العاملين في المنازل، توزّع النّصائح، تستمع لحسرات، تساعد في مشاريع الزواج، تدعم لقاءات الغزل، تحلّ مختلف المشكلات وهي منفعلة دائماً ممّا يدفع زيه سامبايو إلى الاستنتاج:

ـ إنهاغائط يحوّم (أثناء تنقلها) فلا صبر لديها للجلوس على كرسي المرحاض... ويضع إصبعه الأكبر في فمه، خاضعاً.

ـ أعدت الجارة الطيبة نفسها لترحّب بكسيرة الخاطر الدونا روزيلدا، فاحتضنتها إلى صدرها معزّية، فخرجت من الأخرى حالة الإحساس المعادي العبثي تلك، كما لو أن موت الصهر كان نبأ مفرحاً. كانت قد هبطت السلم، في يدها صرة دقيق نازاريت التقليدية العطِر المحمّص جيداً، إضافة إلى سلّة يضطرب فيها حبلٌ من السرطانات حصلت عليها على سطح الباخرة، وفي يدها الأخرى المظلّة والحقيبة الصغيرة. حسناً، فكرت الدونا نورما، لم تكن الحقيبة كبيرة مما يوحي بأنها لن تتأخر في مكوثها، فالصندوق الخشبي معدٌّ للأسفار السريعة التي لا تستغرق إلاّ أياماً قليلة؛ تقدّمت منها لتساعدها ولتحتضنها كما هو معتادٌ في التعْزية،

---

(١) MODE

فلن يحول أي شيء في الدنيا دون قيامها بواجب المؤاساة الحزين.

ـ تعازٍ؟ لي؟ كلا يا عزيزتي! لا تهدري تهذيبكِ. لقد مات بالنسبة لي منذ أمدٍ بعيد، إني لا أحسّ بفقدانه بل بوسعي الآن أن أقرع صدري وأعلن من جديد أنه لم يعد هناك أي منحطّ في عائلتي. ويا له من عار، هه؟ اختار أن يموت متنكراً وسط الكرنفال... عن قصد...

ثم توقّفت أمام الدونا نورما، ووضعَتْ الحقيبة الصغيرة والسلّة والصرّة على الأرض وراحت تتفحّص المرأة الأخرى مليّاً، تقيسها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قالت في إطراء ماكر:

ـ حسناً أيتها السيدة... لا أنوي إطراءك لكن حضرتكِ سمنت قليلاً.. أنت جميلة وعصرية وسمينة شهيّة، ليبارككِ الله ويحرركِ من النظرات الشريرة...

ركزت السلّة التي كانت السرطانات تحاول الهروب منها ومضت في إصرار:

ـ هكذا أحب المرأة: لا تعير لسخافات الموضة أي انتباه... واللواتي يسرن ههنا ويمارسن الحمية ليهزلن، لينتهي بهنّ الأمر إلى أن يغدين مسلولات.. حضرتكِ...

ـ لا تقولي هذا يا دونا روزيلدا. وأنا التي ظننت أني قد أصبحت أنحف... واعلمي بأني أمارس حمية من تلك الحميات القاسية... أنام بلا عشاء ومضى عليّ شهر لا أعرف فيه طعم الفاصوليا...

عادت الدونا روزيلدا تتفحّصها بعين نافذة:

ـ لكن لا يبدو عليك ذلك... أمسكت مرة أخرى بحاجيّاتها وسارت بمساعدة الدونا نورما إلى مصعد لاسيردا وهي تردد:

ـ والسيد سامبايو؟ أما زال يدسّ نفسه دائماً في السرير؟ لم أر رجلاً قط عديم الظّرف مثله. إنه يبدو ككلب هرم...

لم تحب الدونا نورما التشبيه، فابتسمت وقالت محتجة:

ـ إنه بطبعه كئيب.

لكن الدونا روزيلدا لم تكن ممن يتقبلون الأعذار للضعف البشري:

ـ أقسم لكِ... إن زوجاً معتداً بنفسه مثل زوجكِ يجب أن يلقى العقاب. إن زوجي... المرحوم جيل... حسناً، لن أدّعي أنه كان يساوي شيئاً كثيراً، فما كان قديساً قطّ... لكن مقارنةً مع زوجكِ... آه! يا ابنتي، أقول لكِ: لو كنت مكانك لما تحمّلت، أبداً ـ رجلاً لا يخرج، لا يذهب إلى أيّ مكان متقوقعاً دائماً داخل المنزل...

حاولت الدونا نورما إعادة الحديث إلى سياقه المنطقي: ففي النهاية الدونا روزيلدا فقدت صهراً، ولهذا أتت إلى العاصمة، أما هذا الموضوع الدراماتيكي والملحوظ جداً فيجب أن يُطوى فلم تكن الدونا نورما مستعدة لمثله:

ـ ما زالت فلور حزينة جداً مصعوقة. لقد تألّمت أكثر ممّا ينبغي..

ـ لأنها خرقاء، بلهاء. هكذا هي دائماً إنها حتى لا تبدو ابنةً لي فهي تشبه أباها، حضرتك لم تعرفي المرحوم جيل: أنا كنت الرجل في البيت، ولا أقول ذلك مفاخرةً! ما كان يقشّر ذرةً أو يصدر خوُاراً[1]. محسوبتك التي كانت تحل وتربط كل شيء. فلور تشبهه، فهي كسولة، عديمة الشخصيّة وإلا كيف تحمّلت هذا الزوج المذكور طيلة هذا الوقت؟

واعتبرت الدونا نورما في داخل نفسها أنّه لو لم يكن المرحوم جيل هو الآخر، موزة كسولة دون شخصية، لما تحمّل بالتأكيد هذه الزوجة طيلة حياته! وتحسّرت على والد الدونا فلور، وعلى الدونا فلور المهددة الآن بتواصل زيارات أمّها لها، و ـ الله أعلم ـ فقد تأتي لتقيم مع ابنتها الأرملة، مفسدة الجو الودود في سودريه وفي الجوار.

---

(١) تعبير اصطلاحي يعني: «لا يحل ولا يربط».

في عهد فادينيو ، حين كانت الدونا روزيلدا تأتي كانت تمرّ مروراً سريعاً ؛ فحاجتها القصوى لإساءة القول بحقّ صهرها غالباً ما حملتها على العودة قبل ظهور كلامها السيء بنوادره البذيئة ذات الذوق الممجوج . لكن الدونا روزيلدا لم تكن محظوظة مع فادينيو ، فلن تُسيطر عليه مطلقاً ، كما تعجز عن جعله متوتراً مُثاراً . فحالما يتبيّن أنّ لسانها قد بدأ يشتغل ، يأخذه الضحك ، ويشيع الرضا في قسمات وجهه ، كما لو أن الحماة هي زائرته المفضلة ، النكتة :

ـ أنظروا من هنا ؛ حماتي الصغيرة القديسة ! أمي الثانية ، هذا القلب الذهبي ، الحمامة التي لا حقد في قلبها كيف لسانُكِ ؟ ، أما زال حاداً جداً ؟ أجلسي يا قديستي هنا قرب صهرك الصغير العزيز ولنكنّس معاً قمامة باهيّا . . .

ثم يضحك ضحكته المجلجلة والمرحة ضحكة رجل متهتّك راض بحياته ؛ فإذا كانت كل تلك السّندات المستحقة والديون هنا وهناك وعوز المال ذلك والهرع لترقيم الرّهانات ، إذا كان ذلك كله قد عجز عن إصابته بالحزن أو بالقُنوط فكيف تأمل الدونا روزيلدا أن تصيبه بأي منها ؟ لهذا السبب كانت تكرهه ، وبسبب ما فعله معها في فترة الغزل الأولى .

وبصفعة حانقة تفِرّ من ساحة المعركة المعدِّية على وقع ضحك فادينيو ، لتصُبّ جامَ غضبها على الدونا فلور ، متهمة إياها في الشارع خارج البيت في مهرجانات خطابية هائجة :

ـ لن أضع قدميَّ في هذا البيت أبداً ، أيتها الإبنة اللعينة ! إبقي مع الكلب زوجك ، دعيه يُهين أمَّك ! تنسين الحليب الذي رضعته . . . سأنصرف قبل أن يضربني . . . فأنا لست مثلك أحب أن أُضرب !

ومع تعقب ضحك فادينيو لها في الزوايا ، ليدوي في الأزقّة قهقهات ساخرة ، تفقد الدونا روزيلدا رأسها . مرّة فقدتها كلياً ، فنسيت مكانتها كسيدة أرملة متواضعة حين وجدت نفسها في الشارع الذي يعجّ بالناس ، فالتفتت إلى النافذة ، حيث كان الصهر يمسك خاصرتيه من شدّة الضحك ، ونزعت عقب قرط موز وبذراعها العارية ، أرفقت الحركة الفظة بشتائم وإهانات دوى بها صوتها المخنوق :

ـ خذ ، أيها القذر يا فاقد الحشمة خذه وأدخله فيك...

سلوكها الفاضح أخجل المارة: المدرّس الوقور إيبا مينونداس، المهذّبة الدونا جيزا:

ـ «امرأة بلا تهذيب...» انتقدها المدرّس.

ـ «إنها مصابة بالهستيريا...» حدّدت المدرسة.

وبالرغم من أن كل ذلك معروف عن الدونا روزيلدا وأنها مشهورة بتلك النّوبات من الغضب المألوفة في شخصيتها الصعبة، في خلقها المُمتعض، مع هذا، انبغتت الدونا نورما هناك أمام المصعد. فما تصوّرت يوماً أن يدوم النفور بين الحماة والصهر إلى ما بعد الموت فلا تمنحه ولو كلمة تحسّر واحدة، حتى لو كانت لا تعنيها، محض شكلية تخرج من فمها وانتهى الأمر. لكنّ حتى هذا لم يحصل.

ـ حتى الهواء الذي يتنفسه المرء هنا صار أخفّ بعد أن مات الشقي...

لم تستطع الدونا نورما تمالك نفسها:

ـ ياه! أكنتِ غاضبة إلى هذا الحد على فادينيو، هه؟

إلى هذا الحدّ؟! إنسانٌ متسكّع غارق في البؤس، متشرّد مقامر لا يساوي شيئاً... اندسّ في عائلتي، برم رأس ابنتي، وانتزع البائسة من البيت ليعيش على حسابها..

الحقيقة أنه كان مقامراً معاقراً للكاشاسا متسكعاً وزوجاً سيئاً فكّرت الدونا نورما لكن كيف يستمر إنسان ما على حقده إلى ما بعد الموت؟ من واجبنا تجاهل الضغائن والخلافات حتى عندما يكون الميت من أشقى الناس؟

كان للدونا روزيلدا رأي آخر:

ـ كان يدعوني المتملقة العجوز، لم يحترمني أبداً بل كان يضحك عليّ... خدعني حين عرفني، وجعلني بلهاء، جرجرني في شارع المرارة... فلمَ يجب أن أنسى؟، ألمجرد كونه أضحى ميتاً في المقبرة؟ ألهذا السبب فقط؟

٣

لنعُدْ إلى سيرة أفضل من هذه، ترك المذكور جيل، الخانع عديم الشخصية أسرته في ضائقةً خطيرة، في وضع متزعزع. في حالته لم تكن المسألة مسألة جملة كاملة ـ « غادر هذه الدنيا إلى أفضل مكان عام؛ وأجل، بتعبير عن الحقيقة، ليكن ما لا بد منه، ولينتظره في الغموض فوق: فردوس النور، الموسيقى والملائكة المضيئون؛ جحيم معتم بقدور تغلي، ليمبوس [١] رطب؛ الحجيج في دوائر النجوم؛ أو لا شيء، إذا لم يكن فقط ـ أي شيء أفضل بالمقارنة مع حياته المشتركة مع الدونا روزيلدا.

نحيل وصامت، وكلّ يوم يزداد نحولاً وصمتاً، وكان يعيل قبيلته بتمنيلات [٢] تجارية متواضعة، منتجـات قليلة الرواج، وعائد زهيد بالكاد يكفي للنفقات: للطعام اليومي التافه ولإيجار الطابق الأول في لاديرا دو آلفو وثياب الأولاد وتطلعات الدُّونا روزيلدا البرجوازية مع نزوات حبِّ العظمة لديها، وطموحها للتعايش مع العائلات المهمة والتسلل إلى دوائر الأثرياء. وكانت تصبّ غيظها على معظم الجيران الذين لم يحالفهم الحظ ـ فظلّوا باعة في المتاجر والمخازن وموظفين في المكاتب، وباعة جوّالين وخيّاطات ـ وتُعرِب عن احتقارها لأولئك الناس غير القادرين على إخفاء فقرهم؛ وكانت تشيع أجواء محمّلة بالحثالة، متنبّهة فقط إلى بعض سكان لاديرا، إلى « العائلات البارزة ». وتردد مغتاظة من المرحوم جيل حينما تقبض عليه بالجرم المشهود وهو يحتسي الجعة بصحبة غير المحترمين أمثال كازوزا فونيل،

---

(١) LIMBO: مكان في الدنيا الآخرة تتواجد فيه أرواح الأطفال غير المعمدين حسب الاعتقاد المسيحي.

(٢) REPRESENTAÇAO: عملية بيع منتوجات المصانع إلى المتاجر عن طريق وسيط يتقاضى عمولات.

لاعب قمار البيشو المستدين الذي يعتبر نفسه فيلسوفاً، وهو أحد المستأجرين في آلفو الأكثر إثارة للنقاش. على فكرة «فونيل» ليس اسم عائلته، هل من اللازم أن أوضح أكثر من ذلك؟ كان لقباً ذا مغزى يعني الحلق المفتوح دائماً والظمأ الذي لا يرتوي.

لماذا لم يكن جيل يتردد على الدكتور كارلوس باسوس، الطبيب الكثير الزبائن أو على المهندس فالي، ذي النفوذ في نظارة الطيران أو موظف التلغراف بيشوتو، الطاعن في السن وقد بلغ، على مشارف التقاعد، قمة وظيفته البريدية، والصحافي ناصيف الذي لا يزال شاباً، لكنّه جمع مبلغاً محترماً من المال من وراء «صاحب المتجر الحديث»، مؤلّف كرّسه كما كتب في مقدّمته «لدفاع لا يلين عن التجارة الباهيّانية»، كانوا جميعاً يسكنون متجاورين في لاديرا، أفراد «العائلات البارزة» أقلّ ما يقال عن الزوج الوضيع الشأن إنه لم يعرف اختيار صداقاته: فعندما لا يكون مع فونيل في «بونتو فينو»[1]، في باشا دوس ساباتيروس[2]، يدسّ نفسه في منزل أنتينور ليما ليلعب الغامون[3] أو الدّاما. وربما كان ذلك المرح الوحيد الفعليّ في حياته. كان أنتينور ليما التاجر صاحب المتجر في تابويون ـ من أبرز زبائن جيل ـ وكان جديراً بأن يصنّف في لائحة الجيران البارزين، لولا معاشرته العلنيّة الفاضحة للزنجية جوفينتينا، التي كانت طاهيةً لديه. وهي الآن تقبع في نافذة المنزل الخاص بالتاجر، ولديها خادمة تقوم عنها بالأعمال المنزلية، وهي سليطة اللسان وقحة تهوى طقّ الحنك[4] مع الدونا روزيلدا الذي يستمر طويلاً في لاديرا دو آلفو. حسناً؛ أثناء تلك التنزّهات التافهة كان جيل يجلس، يوزّع السلامات[5]، ويعامل المرأة الوضيعة كما لو كانت سيدة متزوجة بعقد شرعي.

ولم تسفر عن نتيجة جهود الدونا روزيلدا لتحقيق صداقات مؤثرة: فأسرة كوستا متحدّرة من سياسي قديم وصاحبة حقول شاسعة في ماتاتو ـ لقد سمّي شارع باسم السياسي

---

(١) معناها: المكان الرفيع، وهو اسم حانة.

(٢) معناها: نزله الإسكافيين.

(٣) نوع من لعب الورق وقد يصبح ضرباً من القمار.

(٤) BATE-BOCA: المعنى الحرفي هو: «ضرب الفم»، الثرثرة.

(٥) SALMLEQUE: إلقاء التحية ورد السلام، من أصل عربي: «السلام عليك».

والحفيد نيلسون كان مصرفياً وصناعياً، وهناك آل مارينيو فالكون، من فيرا [1] دو سانتانا، الذين تعلّم جيل المهنة في مخزنهم في صباه والسيد جوان مارينيو هو الذي أقرضه المال ليبدأ عمله في العاصمة؛ ثم الدكتور [2] لويس إينريكي دياس تافاريس، مدير الدائرة، رأس من ذهب، وكان له مقالات في الصحف موقّعة باسمه، اسم رنّان تلوكُه بلسانها متذوقة بلذة قربها منه: « إنه عرّابي، وقد عمّد ابني إيتور ».

وأثناء قيامها بخلق مثل هذه العلاقات العالية المستوى كانت تسخر في الوقت نفسه من عائلة جيل، كانت تسائل بسحنة دراماتيكية كل من يخاطبها من الجيران واللاديرا والمدينة بل العالم بأسره: ماذا فعلت هي للرب كي تستحق كعقاب مثل هذا الزوج العاجز عن توفير المستوى الحياتي الجدير برفعة نسبها ووسطها؟ فجميع الذين كانوا ممثلين تجاريين ذاقوا طعم النجاح وزادت زبائنهم وتوسَّعت مكانتهم وانتفخت أرباحهم الشهرية من المبيعات، وحصلوا على عمولات جديدة قيِّمة. وكثيرون اشتروا منازل خاصة بهم، فيما لم يكونوا يملكون قطعة أرضٍ واحدة يشيدون عليها بيوتهم بل إن بعضهم عاش ترف السَّيَّارات، مثل روزالفو ميديروس أحد معارفهم. كان من الآغواس [3] وصل من ماسييو [4] منذ سنوات قليلة ويداه إحداهما إلى الأمام والأخرى إلى الوراء وكلاهما الآن في مقود سيارة ستود يباكر. وصار لورداً بحيث أنّه لم يعرف الدونا روزيلدا ذات يوم وهو يقود سيارته في شارع تشيلي، وكاد أن يدهسها، فاندفعت متودّدة أمام السيارة، مشتاقة للسلام على زميل زوجها الناجح. ولم تجزع وترتعب بسبب زموره المنفلت بقدر ما انزعجت من الشتيمة التي صرخ بها في وجهها:

- هل تريدينْ أن تموتي يا « برغوث أفعى الكوبرا » [5]؟

---

(١) FEIRA: في الأصل: السوق.

(٢) لا يُطلق هذا اللقب على الأطباء وذوي الرتبة العلمية « دكتوراه » فقط، بل يشمل موظفي الحكومة والمحامين والسياسيين.

(٣) ALAGOAS: ولاية في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٤) MACEIO: عاصمة ولاية الأغواس.

(٥) شتيمة بمعنى: المرأة القبيحة.

ها هو هذا الفظّ يحصل خلال ثلاث أو أربع سنوات، بمنتوجاته الصيدلية وطلاقة لسانه وظرفه، على سيارة وصار شريكاً للباهيّاني تينيس، وصديقاً حميماً لسياسيين ولأثرياء، يعيش من عائدات أملاكه بلا عمل مفعم بالاعتزاز، وملك في البطن [1] ! وصرَّت روزيلدا على أسنانها، أمّا جيل الخانع؟

آه! جيل! كان يتنقل على قدميه أو بالتّرام، مع عيّناته من الشّرائط النسيجية والأربطة والعقود والأواني الصلدة. فقد كان اختصاصه المنتوجات التي تجاوزتها الموضة، ويقتصر زبائنه على بعض أصحاب المتاجر في الضواحي ومحلات الخرضوات القديمة. ولم يحد عن خطّه هذا، بل مشى على هذا النحو طيلة عمره. لم يكن ثمّة من يؤمن بمقدرته، حتى ولا هو نفسه.

وفي يوم من الأيام ضاق ذرعاً بكثرة الشكوى والاحتجاج، بكثرة الجهود التي يبذلها دون نتيجة أو بهجة. صحيح أن بورتو عديله زوج ليتا أخت روزيلدا، كان يكافح من أجل لقمة العيش، فيعلّم الرسم والرياضيات للفتيان في إحدى المؤسسات الإيالية، ولتلاميذ الحرف، في مساحات من الأرض في باريبي. يذهب بالقطار، كل يوم في الصباح الباكر، إذ ينهض مع الشمس، ويعود في نهاية فترة العصر. لكنه كان يخرج أيام الآحاد إلى شوارع المدينة، مع صندوق الألوان والفراشي ليرسم بيوتاً ريفيّة الطّابع ملوّنة وينتزع من ذلك الشغل فرحاً شديداً، لدرجة أنّ أحداً لم يره قطّ في مزاج سيء أو مكتئب. أضف إلى ذلك أنه تزوّج ليتا، لا روزيلدا، وهي بخلاف اختها، كانت إمرأة قديسة لا تتكلم بالسوء عن أيٍّ كان.

جيل لم يحالفه الحظ حتى ولا في لعب الداما أو الغامون: ناهيك أن أنتينور ما كان ليقبله شريكاً في اللعب إلا عندما لا يأتي من هو أقوى منه. بالنسبة إلى السيد زيكا سيرا، بطل لاديرا، فلم يكن الأمر هكذا، حتى ولا لقتل الوقت ـ لم تكن لديه نعمة الصراع على لوحة جد ضئيلة الحجم، وهو غير مبال أو فطن. ورغم ذلك أصرَّت الدونا روزيلدا على أن يقطع علاقته نهائياً بكازوزا فونيل، حين كان هذا الصديق في أمسّ الحاجة إلى تضامنه معه بعد خروجه الحديث من السجن، فراح جيل يقطع ناصية الشارع، غارقاً في خجله

---

(٢) أي نهم.

ليتجنبه، خاضعاً لأوامر الزوجة.

وتوصّل جيل إلى قناعة بأن عمله وتضحياته لا فائدة منها، فانتهز بعض أيام الشتاء الرطبة ليُصاب بفقر دم رخيص - «حتى إنه ليس فقر دم شديداً» تهكّم الدكتور كارلوس باسوس - وهجر الدنيا إلى ما وراء النجوم بهدوء، في سعال مكتوم خجول. لو كان شخصاً آخر لاستطاع النجاة، ولتغلّب على المرض الذي هو أكثر بقليل من مجرد نزلة صدرية. لكن جيل كان تعباً، تعباً للغاية! لا يقدر على انتظار مرض جدي خطير. ناهيك عن كونه واثق من أن ذلك لن يحصَل عنده؛ فالمرض المميّز المهم هو علّة على الموضة، عزيزة، يتكلمون عنها في الجرائد، لذا لن يصله يوماً. فالأفضل له أن يقنع بفقر دم هزيل. وهذا ما فعله، ودون وداع غاب بجسده وارتاح.

٤

كانت الدونا روزيلدا منذ وقت بعيد تبسط سيطرتها بيد من حديد، على النقود الزهيدة مسلمة الممثل التجاري اسبوعياً نيكلات محدودة للترام ولعلب السجائر العطرة: علبة كل يومين. ومع ذلك كانت النقود المُقْتَصَدة بالكاد تكفي نفقات الدفن وثياب الحداد وأيامه. كانت آخر عمولات قبضتها عن المبيعات الأخيرة، لم تكن موجودة على وجه التقريب، زهيدة للغاية، والفت الدونا روزيلدا نفسها مع ابنها الغلام، التلميذ الثانوي، وابنتيها الشابتين ـ كانت فلور آنذاك مجرد مراهقة ـ دون أي مورد.

بيد أن كونها بطبيعتها قاسية ممتعضة، ليس في التعايش الصّعب معها مسرّة ما، يجب أن لا نتجاهل الخصائص الإيجابية في شخصيتها ألا وهي تصميمها وقوة إرادتها وكل ما فعلته لتربي أولادها محتفظةً على الأقل بالموقع الذي تركها فيه موت الزّوج دون أن تهبط من لاديرا دو آلفو إلى زوايا الشوارع أو إلى الغرف القذرة في البيوت المتواضعة في بيلو رينيو.

لقد تمسكت بالطابق الثاني من المبنى حيث ظلت تقيم بعنادها العنيف. فالانتقال من هناك إلى مسكن أرخص كان يعني وضح حدٍ لآمالها في الارتقاء الاجتماعي. وكان عليها إبقاء إيتور في المدرسة حتى نهاية المرحلة الثانوية، ومن ثمّ توظيفه، إضافة إلى تزويج ابنتيها، حسناً! وهذا ما حصل. من أجل ذلك كان عليها أن تحافظ على مستواها ولا تترك الفقر يجرجرها وينزع سترها، فتظهر للعيان مرئية وغير خجولة، بلا حياء ولا خفر. كم كانت هي، الدونا روزيلدا، تخشى عار الفقر، آه! عار شديد كما لو كان جريمةً تستحق العقاب.

كان عليها البقاء في الطابق في لاديرا دو آلفو مهما كلّف الأمر: هكذا فسّرت الوضع لصهرها حينما قدِم إليها ليُقرضها توفيرات الدونا ليتا (دُفعت بعد ذلك من قبل الدونا روزيلدا توستوناً توستوناً، قبل الاستحقاق من أجل شرفها). لم يبق في لاديرا دو آلفو بيت بسعر معقول في نهاية العالم، في بلاتافورما، ولا مسكن أرضي في لابينيا، ولا حجرة أو قاعة مؤجرة من مستأجرين في بورتاس دوكارمو. فبقيت منزرعة في لاديرا دو آلفو، في الطابق الثاني المرتفع الإيجار نسبياً، وفوق كل شيء من أجل من؟، كما أنها لا تتصرّف بالممتلكات، لا كثيراً ولا قليلاً.

هناك استطاعت من شُرفات الطابق الأول الفسيحة التطلّع إلى المستقبل بثقة؛ فلم يضع كل شيء. لقد غيّرت مشاريعها السابقة من دون التخلّي عن ادعاءاتها. فلو تخلّت عنها الآن وتركت البيت المؤثث جيداً والمفروش بالسجاجيد والستائر، لتذهب إلى مسكن جماعيٍّ ما، فلن يكون مسموحاً لها على الأقل أن تأمل أو تتوهم؛ ولرأت إيتور خلف طاولة البيع في حانوت بقالة، وفي أفضل الأحوال في متجر ما، بائعاً صغيراً طيلة عمره ولرأت البنتين مع مصير مشابه، هذا إذا لم ينته بهنّ الأمر نادلتين في الحانات أو المقاهي، مطية لأرباب العمل وللزبائن أقصر طريق إلى الرذيلة، إلى رعب شوارع النساء الجانحات. أما من هنا، من الطابق الثاني، فبوسعها مقاومة كل هذه الأخطار التي تهددها. وهجره بمثابة إعلان استسلام من دون صراع.

لذا رفضت عرضاً كوظيفة بائع في متجر لإيتور، تدبّرها انتينور ليما. ولم تقبل حتى بمناقشة روزاليا، حين أظهرت الإبنة استعدادها للعمل كعاملة استقبال وسكرتيرة في «فوتو إليغنتي»، وهي مؤسسة نامية في باشا دوس ساباتيروس، حيث يستغل أندريس غوتييريز - الاسباني الأسمر صاحب الشارب المقصوص - الفن الفوتوغرافي بمختلف أنواعه: من الصور الفورية بمقاس $\frac{3}{4}$ إلى بطاقات الهوية والبطاقات المهنية (التسليم خلال أربع وعشرين ساعةً) إلى «الصور المكبّرة الملوّنة التي لا تضاهي، الروائع الحقيقية، مروراً بالصور المختلفة الأحجام وفي مناسبات العمادة والزفاف والمناولة الأولى والوقائع الاحتفالية الأخرى الخليقة بأن تُخلّد مصغرةً في الألبومات العائلية. وحيث يكون هناك مجال لالتقاط صورة، يظهر أندريس غوتييريز مع آلته ومساعده الصيني الذي لا تستطيع تقدير

عمره لشدة هرمه، وهو متغضّن الوجه متردد. فقد انتشرت شائعات وصلت إلى أسماع الدونا روزيلدا، المستعدة دائماً لهذا اللغو ـ بشأن أندريس واستوديو « فوتو اليغانتي » قالوا إن الصيني يبيع طوابع بريدية معيّنة ضمن مغلّفات مغلقة هي من إنتاجه، وهي ذروة الفن الطبيعي، « صور عارية فنية » نجاحها مضمون. وقالت العرّابات إن فتيات صغيرات فقيرات سهلات المنال كن يتموضعن له في أوضاع خلاعية مقابل بضعة آلاف من الريالات[1]، ومؤكّد أن أندريس سيتمتع بهنّ فيما بعد، ومن يدري؟ ربما الصيني أيضاً. وروَتْ التَّقيّات قصصاً مرعبة عن مشغل التصوير الفوتوغرافي. فلا عجب في أن الدونا روزيلدا قد وبّخت ابنتها عندما كشفت لها أمر العرض المقدّم من الاسباني، وهي متحمّسة بسذاجة:

ـ إذا كلمتني مرّة أخرى في هذا، سأسلخ جلدكِ، أضربك ضرباً مبرحاً كما نضرب الحيوانات لنربّيها..

وهددت أندريس بالسجن، قاذفة بوجهه كل وسط علاقاتها على أعلى المستويات؛ فإذا تورط مع ابنتها فسوف يتحمل النتيجة، هذا الغاليسي[2] الخنزير ابن العاهرة، بقذارته، بفسقه؛ ستذهب إلى الشرطة بنفسها، هي الدونا روزيلدا.

أندريس صاحب الشعر المنحدر إلى أنفه، الاسباني السيء الطبع، ردّ بدوره على شتيمتها بشتائم من نفس العيار: فالغاليسي هو أبوها ذو القرنين، وكم يؤلمه وضع العائلة بعد موت السيد جيل، المثقف الطيب، والذي كان يستحق زوجة أفضل منها وأنه عرض الوظيفة على الفتاة ـ وهو بالكاد يعرفها ـ بهدف وحيد هو مساعدتها، وثوابه على ذلك أنّ تلك البقرة الهستيرية تقف مولولةً عند أبواب منشأته، مهددةً الله والعالم بقصص مختلقة وافتراءات تعيسة؟ فإذا لم تغلق ذلك المرحاض الذي تستعمله كفم، فسوف تتفتح أبواب جهنّم وبسرعة، ويقوم هو باستدعاء السلطات، هو المواطن الرزين المنفذ للقوانين، الذي يدفع الضرائب، هو، الأندلسي الطيب المحتد الذي تشتمه هذه المرأة المشعوذة بأنه غاليسيّ...

---

(١) REIS: جمع REI أي ملك، وفي النقد ريال، أي ملكي.

(٢) GALEGO: نسبة إلى غاليسيا في أسبانيا.

اما الصيني اللامبالي بالنزاع فراح ينظف بعود كبريت ، أظافره الطويلة كالمخالب ـ على حدّ وصف بعض ذوي الألسن السيّئة . . .

سواء أكانت تلك القصص حقيقة أم لا ، فالواقع أن الدونا روزيلدا لم ترب ابنتيها ، لم تثقفها ، فأبقتها سجينتين ، كيلا ينالها لسان أيٍّ كان سواء أندريس غوتييريز الأندلسي الغاليسي ، أو الصيني . . . وأضحت البنتان طريقها لتغيير اتجاه مصيرها ، سلّمها للارتقاء ، لترتفع هي . رفضت وظائف أخرى أكثر فاعلية لروزاليا وفلور ، فلم ترد تعريض ابنتيها للأخطار وللنّاس . إن مكان العذراء هو البيت ، وهدفها هو الزواج : هكذا كانت تفكر الدونا روزيلدا . كان إرسال البنتين إلى طاولات البيع في محلات النوفوتية أو مقاصير بيع البطاقات في دور السينما أو قاعات الانتظار في عيادات الأطباء وأطباء الأسنان ، كان بمثابة استسلام واعتراف بالفقر ثم التعرّض له ، وكأنّه جرح كريه ومُنْتِن . نعم ، سمحت للبنتين بالعمل لكن في البيت ، بالحرف البيتية التي تقوم بتجميعها ، واضعة نصب عينيها عريسين لها . وإذا كانت الحرفة والزواج تفاصيل مهمة في خطط الدونا روزيلدا ، فقد تحولتا الآن إلى جزأين لا يتجزّءان من مشاريعها .

حينا كان جيل حيّاً ، خطَّطت الدونا روزيلدا ليتخرّج ابنها من الجامعة طبيباً أو محامياً أو مهندساً ، فتدعمها سمّاعة الطبيب ودبلوم الكلية ، فتضرِم النار في النخبة ، ويلمع وسط القادرين في العالم . إن خاتم التخرج الذي سيشعّ في إصبع إيتور سيكون مفتاحها لفتح أبواب الناس من الطبقة الراقية ، من هذا العالم المغلق والنائي في فيتوريا ، في كانيلا ، في غراسا . أضف إلى ذلك في النهاية الزيجتين الصالحتين لابنتيها من زميلين لابنها ، دكتورين لهما مرتبتهما الاجتماعية وأمامهما المستقبل .

لقد جعل موت جيل ذلك المخطط مستحيلاً لفترة طويلة . فإيتور كان لا يزال في المدرسة الثانوية أمامه سنتان لإنهاء المرحلة الثانوية .

وإذا تخلّف ، فسيكون غير مؤهل للامتحانات . كيف ستعيله خلال خمس أو ست سنوات في الكلية ، وفترة الدّرس طويلة مُكلِفة ؟ بالجهد والتضحية تمكنت من إبقائه في المدرسة ـ مجتازاً ثانوية باهيّا ، وهي مؤسسة إيالية مجانية ـ حتى يختم المرحلة الثانوية . وعندما يقطع كل

المرحلة الثانوية ربما يتمكن من الحصول على مركز في أحد المصارف، أو ـ ولم لا ؟ ـ وظيفة رسمية بلا عمل، وظيفة في القطاع العام، مع ضمانات وحقوق ومكافآت وعلاوات وترقيات، سلفاً وإضافات أخرى. وكانت الدونا روزيلدا كثيراً ما تعتمد على علاقاتها النّافذة.

لم تعد تحسب بعد ذلك لقب الدكتور ـ خاتم التخرّج المشع زمرداً، أو ياقوتاً أو فيروزاً ـ بين وسائل بلوغ الارتقاء إلى المراتب العالية التي تحلم بها. يا حسرةً!، لم يكن لديها وسيلة ما. ومرة أخرى يحطّم زوجها القَميء مخططاتها بموته الأبله.

وما عاد بوسعه تدمير خططها المعدّلة التي نضجت في أيام حدادها عليه. ففي هذه المشاريع الجديدة كان المفتاح الأساسي الذي يفتح أمامها أبواب الترف والاستقرار، الزواج، زواج روزاليا وزواج فلور: لتتزوجا (« لتستقِرّا »، بتعبير الدونا روزيلدا تقول) أفضل زيجة ممكنة، من شابين ذوي حسب ونسب من عائلتين محترمتين، مثلاً: ابنيْ عقيدين أو صاحبيْ مزرعتين، أو من رجال التجارة ـ الأفضلية لتجار الجملة ـ مستقرين، لهما أموال وأرصدة في المصارف. إذا كان هذا هو الهدف الذي يجب بلوغه، فكيف تجازف البنتان بذلك من أجل وظيفتين حقيرتين؟ كيف تجازف المسكينتان، ظرفها وشبابها لا يوقظان في الأثرياء المهمين، سوى الغرائز السفلى، والرغبات الآثمة، فتستحق اقتراحات، بالتأكيد، إنما هناك أخريات لسن شريفات للخطوبة والزواج؟

أرادت الدونا روزيلدا ابنتيها قابعتين في البيت، خجلتين يساعدانها بالعمل وبالتصرّف، على الاحتفاظ بذلك المظهر من الترف وعلى التشبث بذلك القناع أمام الناس؛ وإذا لم يكنّ ميسورات فهنّ على الأقل مستورات مهذبات. وحينما كانت الفتاتان تخرجان لزيارة عائلات معروفة صباح كل[1] أحد، وبعض الحفلات الصغيرة في بيت صديقة ما، كانتا تذهبان أنيقتين ومرتديتين ملابس جميلة، في مظهر خادع كأنهما وريثتان لعائلة راقية. كانت الدونا روزيلدا اقتصادية، تحسب القروش[2] في محاولة لإيجاد توازن مع الشؤون المالية البيتية، ثم تمضي قدماً، لكنها ما كانت تتحمل إهمال البنتين في اللباس، حتى

---

(١) MATINE: حفلة ما قبل الظهر.

(٢) VINTEN

ولا في حميمية البيت العائلي. فتصرّ على أن تظلا على أتمّ استعداد، جديرتين بأن تستقبلا في أي لحظة الأمير المسحور حينما يظهر فجأة. من أجل ذلك لم توفّر روزيلدا أي جهد.

ذات مرة دُعيت روزاليا إلى حفلة راقصة صغيرة في عيد ميلاد الابنة الكبرى للدكتور جوان فالكون الثري؛ داره فخمة بثريات من الكريستال وملاعق وشوك وسكاكين من الفضة، ونادلين صارمين. وحسبك أن ترى المدعوين الآخرين، وجميعهم من أرفع المستويات تفوح منهم رائحة الثراء، لوردات. حسناً، تركت روزاليا انطباعاً جيداً، فقد كانت الأكثر تألقاً وأناقةً، لدرجة أن الدونا ديتينيا المضيفة الطيبة أطْرتها قائلةً:

ـ إنها أجمل الفتيات... روزاليا تحفة، دُمْية...

ونعم، كانت تبدو الأثرى والأكثر أرستقراطية. وفي نفس الوقت، كانت في الحفلة فتيات أثرى منها وأنبل، بنات نبلاء المنطقة ذوات الدم الأزرق، إضافة إلى حاملي إجازات جامعية في الحقوق والفلسفة والآداب وأطباء، وموظفين وأصحاب مصارف وأصحاب متاجر وتجار. كانت روزاليا ببشرتها الباهتة الناعمة الشاحبة كبشرة أهل الرأس الأخضر كانت ذات حسن أصيل اكثر من جميع تلك الملامح البيضاء الباهيّانية الممزوجة بالسُّمْرة! بيني وبينك: كنّ من الخلاسيات جمالهنّ هجين!

إن أياً ممن رآها بتلك الأناقة لم يخمّن أن فستانها الذي أجمع الكلّ على إطرائه هو من صنع يديها بالذات ويدي الدونا روزيلدا، الفستان وكل ما لبستْهُ، خصوصاً تحويل زوج قديم من الأحذية إلى عمل رائع من الساتان. بين ثياب روزاليا، كانت الخياطة هي الأكثر بروزاً، فقد فُصّلت ودُرزت وطُرّزت وحيكت بالصنّارة.

أجل، إنها ابنتاها بثيابها، وبتوجيه حازم من الدونا روزيلدا، صانعتا تلك المعجزة في البقاء؛ وظلّ إيتور في المدرسة لينهي المرحلة الثانوية وإيجار الطابق الأول يدفع في موعده مثله في ذلك مثل أقساط المذياع والطبّاخ الجديد، إضافة إلى توفير بعض النقود القليلة لخاتمة جهاز الزفاف، لثياب الزواج، كالطّرْحتين والتّاجيْن المزدانيْن بالزهور؛ وشيئاً فشيئاً راحت الملاءات وغطاءات الوسادات وقمصان النوم والغلالات تُجمع في الصّناديق.

إنّ الابنتان، روزاليا على آلة خياطة تتحرك بالقدم، تخيط بالأجرة، تفصّل الفساتين،

وتطرّز البلوزات الناعمة. وفلور، تنطلق بإعداد أطباق الأطعمة المالحة والحلوى للحفلات العائلية والاحتفالات الصغيرة وأعياد الميلاد والمناولة الأولى. وإذا كانت الخياطة نقطة قوّة عند روزاليا، فقد كان الطهي نقطة ضعف عند الصغرى التي ولدت بحسّها المرهف، مع هبة التذوّق واستعمال التوابل. كانت منذ صغرها تصنع أقـراص الحلـوى والأطعمـة الدقيقـة، وتدور دائماً حول الفرن، تتعلّم ألغاز الفن السامي عن خالتها ليتا، وهي متطلّبة. فلم يكن لدى العم بورتو من إدمان ـ إلى جانب الرسم أيام الآحاد ـ سوى الأطباق الجيدة. وغالباً ما كان يختلف إلى مطاعم الكارورو[1] والساراباتيل[2]، ويتهالك على أكلة فيجوادا[3] أو لحم يُقلى مع كثير من الخضار. فضلاً عن أطباق الفطائر باللحم والمُعجَّنات المحشوَّة بالقريدس، المعدّة للغداء، الأمر الذي استحوذ على اهتمام فلور فأصبحت في النهاية مُدَرِّسةً للطهي.

واحدة على آلة الخياطة تفصّل وتخيط وأخرى في المطبخ، مع الفرن، والدونا روزيلدا تقودُ على الدِّقَّة، وكن يمضين، بتواضع واعتدال بانتظار الفارسين الجوّالين اللذين سيظهران في إحدى الحفلات أو النُّزهات تغمُرُهما الأموال والألقاب؛ فيخطف الأول روزاليا، ويسوق الثاني « فلور »، على أنغام لحن الزفاف إلى المذبح وإلى عالم القادرين المَرِح. لكن روزاليا أولاً، فهي الكبرى.

كانت روزيلدا العنيدة ترصد منعطفـات الشـوارع منتظـرةً الصهـر الذهبي والفضي، مطعّمةً إياه بالماس. أحياناً يجتاحها القنوط: ماذا لو لم يأت الأمير السّحري؟ لقد آن أوان ظهوره، ومن المستحيل الانتظار مدى الحياة، فستصل الفتاتان إلى السِّنّ الحَرِجة. روزاليا، عشرون سنة، تفككها التنهدات في النافذة، وأتخمتْ من تحريك قدميها على آلة الخياطة، وتطلب حضوراً عاجلاً لهذا الدوق، هـذا الكـونـت، هـذا البـارون ـ فمتى يُفْتَـرض أن يُحرِّرها؟ كم تأخّر، ويا له من انتظار مُتْعب. وتتخيّل روزاليا نفسها فجأة في قعر البيت، عانساً عذراء قاسية القلب، مع تلك الرائحة الحامضة لدى العوانس القاسيات، كما يصفها العم بورتو الطيب مبتسماً ساخراً من اندفاعات ابنة حميه الأرستقراطية.

---

(١) نوع من الطعام يُعَدُّ من نبات الكارورو مع القريدس والسمك، يقلى بزيت الديندية مع كثير من الفلفل.

(٢) نوع من الطعام يعد من كبد الخنزير أو الخروف، أو كليتيه أو رئتيه.

(٣) فاصوليا مع لحم الخنزير المطبوخ.

بين حين وآخر تظنّ روزاليا أنها تستشفّ طالب الزواج المشتاقة إليه؛ في حفلات الرقص النادرة أو في نزهاتها إلى بيت الخالة في ريـو فيرميليـو، أو في حفلات السينما الصباحيـة أو أثناء تنقّلها بالسيارة مرتدية لباساً أبيض يوم أحد يُجرى فيه سباق للزوارق: أكاديمياً محباً للسخرية، أو محباً للدرس يتأبّط مجلدات ضخمة في العلوم، أو مقوس الظهر في بهلوانية رقصة تانغو أرجنتينية، تراه بكل نزواته رومانطيقياً يقيم لها سيريناتا [1] في الليل.

والدونا روزيلدا من جهتها، كانت تنتظر أيضاً، ويتضاءل صبرها مع الأيام؛ فمتى؟ متى يظهر هذا الصهر المعروف، هذا المليونير، هذا اللورد، هذا النبيل، هذا الدكتور ذو الشرّابة والقبّعة، هذا التاجر الذي يبيع بالجملة في أسفل المدينة، هذا المزارع [2] الذي يزرع الكاكاو أو التبغ، هذا التاجر صاحب متجر الأقمشة أو محل الخرضوات أو على الأقلّ هذا الغرنغو الناضح عرقاً في مخزنٍ البقالة؟

★ ★ ★

---

(١) SERENATA: سهرة يقيمها العاشق تحت نافذة حبيبته مع عزف موسيقى وغناء.

(٢) FAZEN DEIRO: صاحب مزرعة كبيرة.

٥

وطال انتظارهما أسابيع شهوراً وسنين وهما على أتمّ استعداد ولم يظهر أي نبيل؛ حتى ولا غلام أرستقراطي من بارّا أو غراسا، ولا ابن عقيد[١] من عقداء مزارع الكاكـاو، ولا أيّ سيد من كبار التجّار، حتى ولا غاليسي أثري في الأعمال القاسية في المخازن والمخابز. الذي وصل كان أنطونيو مواريس مع مرآبه الميكانيكي، وكفاءته العِصاميّة وبذلة عمله بالشّحم. لقد وصل في الساعة المُحددة، لذا استُقبل بجفاوة. كانت روزاليا قد بدأت تذرف الدموع متأكدة من أنها ستصير راهبةً محكوماً عليها بالوحدة؛ أما الدونا روزيلدا فلم يعد لديها لعَزْم على المعارضة. صحيح أنه لم يكن الصهر الذي طـالما انتظرته لياليها الطويلة وهي تعمل على دواسة آلة الخياطة أو في حرارة الفرن. ولم يعد بإمكانها أن تحدّ من اندفاع روزاليا بتعليقات منها أو مجادلة أو أن تهددها بسورة غضب: عشرون سنة (وهذا كثير!) دون العثور على زوج ما أمرٌ يقلق فعلاً.

وعلاوة على ما تقدّم، يكفي أن أنطونيو موريس ليس أجيراً عند رب عمل ما، وليس مهماً أنه لم يكن ثرياً. فلديه ورشته الصغيرة التي يقصدها الزبائن، وهو يكسب ما يعيل به امرأته وأولاده. وهكذا انحَنَتْ الدونا روزيلدا أمام القدر، نصف انحناءة، المهم انها انحنت، فهل من وسيلة أخرى؟

في ذلك الوقت كان إيتور قد استقر في السّكة الحديدية في نازاريت بوساطة من عرّابه

---

(١) يطلق هذا اللقب العسكري على صاحب المزرعة الكبيرة.

الدكتور لويس إينريكي، ومضى يعيش في مدينة دو روكوكافو، لا يأتي إلى العاصمة إلا نادراً. كان له مستقبل في الوظيفة، فلا ضرورة لأن تقلق الدونا روزيلدا عليه. كما أن فلور، شرعت تعطي دروساً في الطهي للفتيات والسيِّدات، وتكسب المال والشهرة كمدرّسة طهي كفوءة. إنها الآن تتحمَّل القسم الأكبر من نفقات البيت، لأن روزاليا، الخائفة من انصرام الوقت، تنفق كل ما تكسبه على التزيّن، والثياب والأحذية والعطور والمُطرَّزات.

وعوّض أنطونيو مورايس روزاليا عمّا فاتها، وذلك عندما التقاها في حفلة صباحية في دار سينما أوليمبيا، حيث، علاوة على الفيلمين والمسلسل، عرض السيد موتا المتعهّد فنانين كانوا يمرّون بباهيا: من مسوخٍ رديئي التمثيل يجولون في البلاد ونجمات شبقات يمْلن في الأضواء الخافتة. فيما كانت «ميرابيل، حلم فارصوفيا الشهوانيّ» وهي بولونية محترمة استهلكتها الحرب وأضواء المسرح ومخادع شقق العازبين، تهزّ مؤخرة عتيقة رخوة من أجل هذيان الأطفال الذين يتعلمون التهذيب. هناك لمح أنطونيو مورايس الدونا روزيلدا والابنتين: روزاليا في ذلك الانتظار المثير، وفلور النامية الصَّدر والردفين.

لم يعد الميكانيكي يعير اهتزاز «حلم فارصوفيا» المستهلك أي انتباه. ومرّت عليه نظرات روزاليا الضّارعة المتعجرفة في آن. وعند الخروج رافق الشاب، الأم وابنتيها، القاطنات في المسكن البرجوازي في لاديرا دو آلفو على مسافة حذرة. وظهرت روزاليا للحظة على الدّرج ورمته بابتسامة رنّانة.

وفي اليوم التالي بعد العشاء، كان أنطونيو موارايس يتمرّن على الرصيف المحاذي للمنزل ذي الطبقتين يفكر: لاديرا فوق لاديرا تحت. ومن النافذة راحت روزاليا تختلس النظر إليه متشجعة. أخذ الميكانيكي يصعد ويهبط، وعيناه على الشرفة العالية، وهو يصفّر ألحان الأغنيات. وبعد قليل، ظهرت روزاليا تواكبها فلور، عند أسفل الدَّرج. وفي خطوة طائر البغاث المحتال، اقترب مواريس منهما.

لاحظت الدونا روزيلدا المتيقظة دوماً حتى في حفلة السينما الصباحية الغزل الدائر. وعندما رأت روزاليا مضطربة جموحاً قصدت الحصول على معلومات عن الشخص. ومن

حسن الحظّ أن أنتينور كان يعرفه فزوّدها بأنباء صحيحة في صالحه: قال إنه ميكانيكي ميسور الحال. مرآبه له في غاليس، وحش عمَل. فقد أباه وأمه وهو في التاسعة من عمره في حادث تدهور أوتوبيس، فنزل إلى الشوارع، لكن بدلاً من أن ينضم إلى قباطنة الرمال[1] وينخرط في مغامرات حياة التشرّد وحياة الشرّ، دسّ نفسه في مرآب بيه ده بيلون، وهو زنجي أضخم من كاتدرائية، ميكانيكي وعمله مزدهر. وفي المرآب راح الولد يقوم بكل شيء، ينفذ كل الأعمال، كان فطناً لا نظير له. لم يكن له مرتب ثابت لكنّه منح حقّ المبيت في المرآب، ناهيك عن الإكراميات، وبعضها سخيّ. وتعلّم القراءة والكتابة بمفرده، وبيه ده بيلون علّمهُ المهنة، ثم شرع يعمل لحسابه الخاص وهو ما يزال فتياً، ويقبض لقاء أعمال إضافية. كان يتمتع بيدين ماهرتين ورأس حيوي؛ واسألوا محركات السيارات عن تطلعاته. صحيح أنه ليس طبيباً أو ملاّكاً، لكنّ ميكانيكيين قلائل يدّعون منافسته. كان كسبه للمال مضموناً، قادراً على أن يكون زوجاً من الدرجة الأولى، أي عفريت آخر تريده روزاليا إذا كانت أميرة تملك حقل كاكاو؟ - راح القليل التهذيب ليا يسأل جارتها البلهاء المزمجرة.

وأكد معارف آخرون لها نفس الحقائق، فتشاورت الدونا روزيلدا مع عرّابها الدكتور لويس إنريكي، الحكيم مثل روي باربوزا[2] ونصائحه لا تُثمّن، ووازنت كثيراً بين من هم معه ومن هم ضده ثم قررت أخيراً لصالح الميكانيكي.

وراحت تردد أنه ليس الصهر الذي تحلم به، الأمير النبيل الدم بخزائنه من الذهب. فالدم النبيل الوحيد الذي في عروق موررايس ورثه عن أحد أسلافه البعيدين، أوبيتيكو الذي كان أمير قبيلة أفريقية استورد كعبد إلى باهيّا، دم أزرق امتزج بدم الرّعاع المنحطين البرتغاليين والهولنديين المُرتزقة. وأنتج هذا الامتزاج خلاسياً مشرق الوجه سهل التبسّم، لطيفاً أسمر. أما خزائن الذهب، فإن مدّخرات وتوفيرات الميكانيكي لا تسمح له إلا بتأسيس بيت بالكاد. بيد أن روزاليا دافعت عن غرامها المندفع، ولم تقبل أن تناقش الأصول الغامضة أو المهنة المشرّفة وهزالة توفيرات الفتى. وأمام هذا الإصرار من روزاليا السريعة الانفعال والتأثر بالإهانة، طأطأت الدونا روزيلدا رأسها. وعندما ظهر موررايس

---

(١) لقب يطلق على الأولاد المتشردين.

(٢) كاتب ومفكر برازيلي معروف.

خامس أو سادس مرة عندهنّ ليلاً ـ لم يكن يُقاوَم بثيابه البيضاء المنشّاة، وقبّعته المعوجّة الطّرف فوق عينه، وحذائه ذي اللونين ـ اتجهت إليه بكلّيّتها.

كـان الاثنان عاشقين بلا شك، العينان في العينين، واليدان باليدين، يتكلمان بأمور سخيفـة، حينما قطعـت عليهما الدونـا روزيلـدا خلـوتهما وراء الدّرج دون إنـذار وكمـن يحقّق معهما بصوتها المُرهِب القاسي:

ـ روزاليا، يا ابنتي، ألا تريدين أن تقدّميني إلى الفارس؟

ـ تمت التقديمات: وتأتأت روزاليا بالكلمات في حين ارتبك موريس كليةً، وفي الحال اندفعت الدونا روزيلدا، بلا مراسم ولا اعتبارات:

ـ إن ابنتي لا تُغَازل عند أسفل الدَّرج ولا في ركن الشارع، إنها لا تخرج بمفردها للتنزه مع الحبيب، ليس لدي بنات لتسلية الفتيان العاطلين.. فأنا لا أربي بنتـاً لتسليـة أي فتى..

ـ لكن، أنا...

ـ من يريد محادثة ابنتي عليه أولاً أن يعلن عن نواياه.

أكد أنطونيو مواريس نقاء نواياه العميقة المتعلقة بالزواج، فما كان ممّن يعبثون ببنات الناس. أجاب بسرعة وتواضع على الاستجواب الدقيق، وتحقّقتْ الدّونـا روزيلـدا مـن المعلومات التي أعطاها وعلى رأسها إيراد المرآب.

ـ زُكّيَ الميكانيكي وجرى تقبّل رسميّ لحضوره الليلي إلى باب المنزل ذي الطبقتين ابتداء من تلك المحاضرة، وكانت روزاليا تنتظره جالسة على مقعد. ومن النافذة كانت الدونا تقوم بمراقبتها الخلقية العائلية؛ فابنتها لن تكون متعة لأي متسكع. وهكذا، حين قرّب موريس يده الرقيقة من يد الفتاة الرقيقة سقط عليه التقريع الأبحّ للدونا روزيلدا من فوق:

ـ روزاليا!

مع هذا تسارعت أيام الخطوبة. وموريس مشتاق إلى حرية أكبر، وإلى مراقبة أقل للحميمية. وأخذ الخـاطب يتردد إلى البيت، ويخرج مع روزاليا لمشاهدة الحفلات الصباحية أيـام الآحاد، في دار السينما، مصطحباً فلور لموازنة الوضع مزوّدة بأوامر حاسمة لمراقبة الحبيبين وضبطهما ومنع القبلات والتصرفات الرقيقة؛ فقد أصرّت الدونا روزيلدا على أكبر

قدر من الاحترام. لكن فلور لم تولد لتكون جاسوسة، بل هي متفهمة متضامنة مع أختها، تدير ظهرها لها ولصهر المستقبل، مركزة حواسها على الفيلم، تمضغ بذوراً محلاّة، تاركة العاشقين في أمان بتسرعهما، وبالفمين والأيدي الجوّالة.

خلال فترة الغزل والخطوبة، بدت الدونا روزيلدا جدّ ودودة قدر الإمكان مخفيةً ما في طبيعتها من حدةٍ قاسية. فقد كانت بحاجة إلى تزويج البنتين، إذ وصلت روزاليا إلى السن المحددة، ناهيك عن أنّ الفتيات اللائي يطلبن أزواجاً يتكاثرن بينما يتناقص عدد الفتيان القادرين على الزواج. كانت المعركة قاسية، معركة تزويج ابنتيها، هذا ما أدركته جيداً. ومعظم معارفها من النساء اعتبرْنَ الميكانيكي مشروعاً جيداً. وإحداهن، على وجه الخصوص الدونا إلفيرا، كانت والدة ثلاث عذراوات قبيحات يؤذي منظرهن العين ولا شك في بقائهن مترهبّات، جعلت بُوماتِها الثلاث يحاصرن المتقدم للزواج، ويلجأن إلى ابتسامات ونظـرات واعـدة، بحيـث لا ينقصهـنّ إلا جـرَّه إلى السريـر! الوقحـات الفظّـات!! وعلاوة على ذلك، كان مورايس عاملاً مجداً معتدلاً، لن يصعب على الحماة أن تأمره فتسوقه حسب هواها بعد الزواج. وفي هذا خُدعت، فالصهر قد فاجأها.

هكذا، فالحقيقة الكاملة حول روزيلدا، أن الحرفي لم يعرفها على حقيقتها إلا بعد الزواج. فقد قرروا السكن جميعاً في لاديرا دو آلفو، وهو حل اقتصادي وعاطفي. إذ أنهم سينفقون أقل ويستمرون معاً. إضافة إلى أنّ مواريس والدونا روزيلدا أظهرا كل رغبة في البقاء معاً إلى الأبد. وكانت روزاليا تقاوم هذه المخططات المتهوّرة، وتذكّره أن «من يتزوج يطلبُ بيتاً»[1] لكن ماذا تفعل أمام شهر العسل هذا بين أمّها وعريسها؟

لم يطل شهر العسل ستة أشهر، فتلاشى الوفاق، وكما أعلم الصهر معارفه: «المسيح وحده الذي يستطيع السكن مع الدونا روزيلدا، حتى هذا غير مؤكد فيجب أن يجرّب العيش معها كي نحكم على ما إذا كانت للناصري مقدرة كافية، فربما لن يَحتمل!».

انتقلا إلى أبعد مناطق العالم، إلى كابولا وهي منطقة شبه ريفية. وفضّل موريس أن يستقل ذلك الترام المتأخّر والبطيء في سفرة لا تنتهي أبداً والذي ينحرف عن السكّة في كل

(١) هذه الجملة في البرتغالية تصبح ضرباً من السجع: «QUEM CASA QUER CASA».

ساعة، فيتأخر دائماً؟ لقد فضّل الخروج فجراً ليصل في الوقت المحدد إلى المرآب الكائن في جوار لاديرا دوس غاليس، داساً نفسه في تلك الغابات المخابىء حيث تفح أفاعي سامة من نوع الكاسكافيل [1] وحيث ممارسو السحر [2] كثيراً ما يقومون بطقوس الكاندومبليه [3] في الجوار، يفلتون في الطرقات ويأتون بأعمال بائسة، تعذب المخالط اليومي بجماته. ومن قبل الكاسكافيل وممارسو السحر.

في الطابق الأول في لاديرا دو آلفو، كانت فلور هي المراهقـةالتي غدت شابّةً جميلةً ـ بوجه رقيق، وثديين ناهدين وردفين متكبّرين ـ والدونا روزيلدا هي الدونا روزيلدا، تزداد فظاظة مع مرور الأيام وقد صبّت جهودها الآن واقتصرتها على لطائف تلك الابنة ومزاياها، كآخر إنجاز في معركة الارتقاء الاجتماعي، وهي معركة خسرتها عدة مرات.

مع هذا لم تتخلَّ عن كفاحها ولم تتناقص رغبتها الثّابتة في الصعود بخطوات متسارعة على السلم الذي سيوصلها إلى عالم الأغنياء. وفي أرق لياليها المتعبة، إذ لا تنام إلا قليلاً لتفكر في مشاريعها، وصمّمت على ألاّ تُسلم الابنة الصغرى لموريس آخر. لقد أعدت فلور لتكون من نصيب إنسان أفضل. شاب مُمَيَّز أبيض نقيّ، لدكتور متخرّج أو لتاجر. سوف تدافع بأظافرها وأسنانها عن ذلك التحصين الأخير، ولن تكرر الذي حدث مع روزاليـا. هـذا لا يعني أن فلور كانت أكثر انصياعاً لها أو أذكى من اختها، أو أنها كانت تخْشى أن تبقى عانساً، فلم تكن قد تحدثت بعد عن الزواج، ولا تنتفض ضد أمها حينما تمنعها من ملاطفة مستخدمي المكاتب الصغار أو بائعي الخرضوات الجـوّالين أو الغاليسيين العاملين على منصة البيع في المخبز. كانت تطيعها من دون أن تزجر، لا تتمرد صارخةً بالزعيق، ولا تغلق على نفسها باب حجرتها مهددة بالانتحار، كما كانت تفعـل روزاليا حينما كانت الدونا روزيلدا القلقة على مستقبلها، تحول بينها وبين مغازلة أحد أبناء الطبقة الدنيا. والنتيجة؟ تزوجت من ذلك التافه من آل موريس، شخص لا قيمة له، ليس حتى بائعاً جوّالاً بل مجرد حرفي بسيط، عامل، يا له من أمر مرعب! لقد كان دون مستواهم اجتماعياً. ربما يكون هائلاً في

---

(١) CASCAVEL : أفعى سامة لا يزيد طولها عن المتر.

(٢) EXU : شخص زنجي يمارس السحر حسب الطريقة الأفريقية ـ الباهيانية.

(٣) CANDOMBLE : طقس من طقوس السحر.

العمل، يكسب مالاً، ويغدو زوجاً حسناً رفيقاً مرحاً؛ لكن تبقى الحقيقة هي أن المرتبة الاجتماعية لابنتها قد هبطت بدلاً من أن تصعد كانت تلك هي على الأقل، المرارة في نفس الدونا روزيلدا المرارة المتطلّعة إلى مراتب أخرى. أمّا مع فلور فسيختلف الأمر: لن يتكرر ذلك الالتباس.

فيما كانت الدونا روزيلدا تخطّط لمستقبل فلور أصبحت هذه الأخيرة مدرّسة معروفة في الطهي، خاصة في المطبخ الباهيّاني. فقد ولدت ولديها موهبة التوابل؛ ومنذ طفولتها، كانت تعود مع وصفات عديدة متعلّمة أطعمة معقّدة، راشّة الملح والسكر؛ ومنذ فترة طويلة وهي تستلم توصيات على أطباق باهيّانية، وتُستدعى بانتظام لتُساعِد في أطعمة الفاتاپان [١] والإيفو [٢]، في الموكيكا [٣] والشينشين [٤]، خصوصاً في الكارورو [٥] الخاص بكوزمي وداميان مثلما هو في بيت خالتها ليتا وعند الدونا دوروتي ألفيس، حيث يجتمع عشرات المدعوين ومع ذلك يتبقى طعام يشبع الكثيرين. كارورو سنوي، نذور مقدمة للقدّيسين التوائم. وبمرور الوقت انتشرت شهرتها، وأخذ الناس يقصدونها لوصفات معيّنة، أو يأخذونها إلى بيوت الأثرياء لتعلمهم كيفية صنع هذا الطبق الصعب أو ذاك. الدونا ديتينيا فالكون والدونا ليجيا أوليفا والدونا لاوريتا تافاريس والدونا إيفاني سيلفيرا وسيدات أخريات «من ممثلات الطبقة العليا» والتي كانت الدونا روزيلدا تطري صداقتهن كثيراً، كنّ يوصين بها صديقاتهن، وما كانت لدى فلور يدان لتقيس بها [٦]. إحدى هؤلاء السيدات الطريّات أوحت لها بفكرة المدرسة، إذ طلبت منها وصفات نظريّة وعروضاً عمليّة مصرّة على أن تدفع لها لقاء عملها، موضحة أنّ المال هو للمدرّسة الرائعة، الصديقة الطيّبة، لا لأنها مجرد طاهية. كانت لفتة رقيقة من الدونا لويزا سيلفيرا، السيرجيبية [٧] النبيلة الملأى كلها بالكيد.

---

(١) VATAPA : دقيق المنديوكا المطبوخ بزيت الديندية والتوابل مع السمك أو اللحم.
(٢) EFO : قريدس يقلى بزيت الديندية مع التوابل.
(٣) MOQUECA : سمك يقلى بالزيت مع التوابل.
(٤) XINXIM : دجاج يقلى بزيت الديندية مع شرائح بصل وثوم يخلط بقريدس جاف مع قطع القرع.
(٥) CARURU : سمك يقلى مع زيت الديندية والتوابل.
(٦) أي لم تعد قادرة على تلبية الطّلبات الكثيرة.
(٧) نسبة إلى ولاية سيرجيبي SERGIPE في الشمال الشرقي من البرازيل.

بدأت فلور جدياً بتجهيز مدرستها وشرعت في التعليم إثر رحيل روزاليا وموزايس إلى ريو ده جانيرو. فقد استخلص الميكانيكي بأن المسافة بين مرتفعات كابولا ولاديرا دو آلفو غير كافية، فأراد أن يضع بين بيته وبيت حماته المحيط كلّه، مؤكداً كراهية مقدسة للدونا روزيلدا «المرأة القاسية» وكما كان يصفها: «إنها الطاعون والمجاعة والحرب!»

وسرعان ما حظيت المدرسة بالازدهار، حتى أن سيدات من كانيلا وغراسيا، ومن بارّا نفسها قدمن لاكتشاف ألغاز الزيت الحلو وزيت الديندية؛ من أوّل تلميذاتها الدّونا ماغا باتيموسترو، وهي ثرية لها علاقات كثيرة، داعية متحمسة لبائنات فلور.

أخذ الوقت ينصرم، والسنين تجري، وفلور ليست مستعجلةً على العريس، والآن بدأت الدونا روزيلدا تقلق، فالبنت الصغرى لم تعد صغيرة. أما فلور فكانت تهزّ كتفيها ولا تهتم إلا بمدرستها. وفي إحدى زيارات شقيقها آتياً من نازاريت، قام برسم لافتة بالألوان علقتها تحت الشرفة (أثنوا كثيراً على طريقته في الرسم):

مدرسة الطهي تذوّقٌ وفنٌ

كان إيتور قد قرأ في الصحف خبراً مفصّلاً عن مدرسة «معرفة وفن»، تجربة أنيزيوتيشيرا القادم من الولايات المتحدة. فتبنّاه لمصلحة شقيقته مع تبديل كلمة في العنوان. وإلى جانب الحروف المتحفّزة رسم ملعقة وشوكة وسكيناً متقاطعة في ركيزة جميلة ذات ثلاث قوائم، مّا شكل اللمسة النهائية على عمل الفنان (لو حدث ذلك الآن لفكّر إيتور بإقامة معرض فردي يبيع فيه بعض اللوحات بسعر جيّد، لكن ذلك حدث في وقت اكتفى فيه موظف السكة الحديدية بإطراء أخته وأمه وتلميذة معيّنة لفلور، تلميذة نَديّة العينين اسمها سيليستي).

قدّمت دروس الطهي ما يقوم بمصروفات البيت والنفقات الزهيدة للأم وابنتها، ولتوفير قليل من المال لنفقات زفاف مستقبلي. والأهم من ذلك كلّه أنّها ملأت وقت فلور وحررتها نوعاً من الدونا روزيلدا التي ما فتِئت تردد على مسامعها كم كلّفتها تربية أولادها وتعليمهم من تضحيات، خاصة تربيتها هي الابنة الصغرى وتعليمها، وكم من الضروري العثور على زوج ثري ينتزعها من هنا، من لاديرا دو آلفو، ومن الفرن، إلى أمكنة البارّا

وغراسا وفيتوريا.

بيد أن فلور ما كانت تعبأ بمغازلة أو خطوبة ما: ففي الحفلات الصغيرة ترقص مع فلان هنا، وفلان هناك، تسمع كلمات الإعجاب فتبتسم شاكرة لا أكثر ولا أقل. لم تتجاوب حتى مع نداءات طالب دكتوراه في الطب عشقها وكان من ولاية بارا، مرحاً، محباً للحفلات شديد الأناقة. لم تبد اهتماماً به، رغم تشجيع الدونا روزيلدا: فأخيراً أتاها طالب يكاد أن يصبح طبيباً، يتوق إلى طلب يد ابنتها.

وأعلنت فلور جازمةً:
- لا أحبه... بشعٌ كالكلب...

لم تُجْدِ أيّ نصيحة أو توبيخ من الدونا روزيلدا التي تغلي بالغضب في حَمْلها على تغيير رأيها. أصيبَتْ الأم بالرعب: فهل ستكرر حالة روزاليا، وهل فلور عنيدة مثل أختها، عنيدة، مستعدة لأن تحل مسألة العريس والزواج على حسابها الخاص؟ وعندما يخطر على بالها أن شخصية ابنتها الصغرى هي طبق الأصل عن طبيعة المرحوم جيل خاضعة لأهوائها فلا تستلطف الدكتور الشابّ الذي على قاب قوسين أو أدنى من الحصول على الدبلوم، وابن إقطاعي في بارا صاحب بواخر وجزر وحقول أشجار المطاط وغابات من أشجار الكستناء وقبائل الهنود المتوحشين، والأنهار الهائلة.. مدماك من الذهب. وشرعت الدونا روزيلدا تستعلم عنه فعادتْ بعد مقابلة مع بعض معارفها تحلم بنفسها في أمازونيا [1] تحكم على فراسخ من الأرض، تأمر وتنهي الهُجَناء والهنود؛ وأخيراً ظهر الأمير الساحر، وما كان انتظارها بلا طائل، ولا تضحيتها بلا مردود. سترسو في نهر الأمازون وترسو في البيوت المتغطرسة في بارّا، في الدّارات التي طالما أقْفِلَتْ بوجهها في غراسا، وسيحتفي بها أصحابها بإلقاء التحية عليها وتملّقها.

بيد أن فلور ابتسمت بوجهها اللطيف المستدير، بلون الماتي، تبتسم بغمازتَيْ خديها الرائعتين، بعينيها المندهشتين، وتكرر بصوتها المتعب، صوت متمارض بليد:
- لا أحبه... إنه قبيح مثل الحاجة...

«أي شيطان تفكرين فيه؟» بالكاد استطاعت الدونا روزيلدا أن تتمالك نفسها. ففلور

---

(١) أكبر ولايات البرازيل وأشدها تخلفاً وثراء ينبع فيها نهر الأمازون، عاصمتها ماناوس.

تتصرف كما لو أنّ الزواج هو مسألة حب أو لا حب، كأنما هناك رجلٌ قبيح ورجل جميل وكأن هناك فيض من طالبي الزواج أمثال بيدرو بورجيس في لاديرا دو آلفو!

ـ الحب يا كونتيستي التافهة يأتي مع المعاشرة، مع الفوائد المشتركة، مع الأولاد، يكفي ألا يكون ثمة نفور. هل تنفرين منه؟

ـ أنا؟ معاذ الله، إنه طيب. لكن المسألة هي أني أريد رجلاً أحبه... فبيدرو هذا هو وحش لشدة قبحه... كانت فلور تلتهم الروايات الرومنطيقية، وتشتهي غلاماً فقيراً جميلاً، جسوراً وأشقر.

وتروح الدونا روزيلدا تزبد منفعلةً غاضبة؛ ويعوي صوتها عبر الشارع مرجّعاً صدى النّزاع؛ بحيث يسمعه كلّ الجيران:

ـ قبيح! أين رأيتِ رجلاً قبيحاً أو جميلاً؟ إن جمال الرجل، أيتها الشقية، ليس في وجهه، بل في خُلُقِه، في مركزه الاجتماعي، في ممتلكاته. أين رأيتِ رجلاً ثرياً يُعتبر بشعاً؟

بالنسبة إليها لم يكن هناك مجال للمقارنة بين بورجيس البشع (لم يكن بشعاً إلى هذا الحدّ فهو قوي طويل القامة، صحيح أن وجهه كان بشعاً نوعاً ما...) وذلك الحشد من الأولاد الوقحين والمهينين في ريّو فيرميليو، بلا أي توستون (قرش) في جيوبهم، لا يملكون أي مكان حيث يرقدون أمواتاً، بعض العاطلين. أما الدكتور بورجيس ـ فكانت تستبق اللقب ـ كان شاباً خيّراً، كما تستشف من سلوكه فوراً، وأسرة فاضلة من بارا، عتيقة في الثّراء، لقد علمت هي، الدونا روزيلدا أنهم يسكنون قصراً في بيلين وخدمهم أكثر من دزينة، دزينة! أسمِعت يا ابنتي السيّئة؟ صاحبة النزوات البلهاء المغرورة العابثة. كل بلاط قصرهم من المرمر، سلالمه من المرمر أيضاً. وبسطت يديها بحركة مسرحية قائلة:

ـ أين رأيتِ رجلاً ثرياً يُعتَبَر بشعاً؟

وتبتسم فلور في وجهها (ما أجمل غمازتيها!) لم تكن مستعجلة على الزواج. وقد أغلقَتْ فم أمها نهائياً إذ قالت:

ـ يا سيدتي أنتِ تتكلمين كما لو أنني عاهرة، أقيس الرجال بالمال... أنا لا أحبه، انتهى الأمر...

دار الصراع بين الدونا روزيلدا ، المتحفّزة والمثيرة المتوتّرة توتراً ملحوظاً وبين التي بدت هادئةً كأن شيئاً لم يحصل، صراع موضوعه بيدور بورجيس المذكور ، ووصلت الأزمة إلى ذروتها في احتفالات تخرج تلك السنة عندما دعاها. طالب الطب إلى حضور الحديث المهيب والحفل الراقص.

وبمناسبة التخرج المهيبة في القاعة النبيلة في الكلية ، ارتدت الدونا روزيلدا ثياباً تليق بحماةٍ ما ، وحصّنت نفسها بالتافتا حتى بدت جليلةً بقدر ما هو جميل أي ديكٍ حبشيّ، وقد شبكت في عرفها مشط راقصة اسبانية. في حفل التخرّج الرّاقص ، تألّقت فلور بالمطرزات وبقماش الفيلو [١] . لم تهدأ قطّ ولم تهمل رقصة كونترا دانسا [٢] واحدة. كثيرون هم الفرسان الذين سعوا إليها . لكنّها لم تقم حتى هنا بتشجيع آمال حديث التخرج.

حتى عندما قدم عشية عودته إلى أمازونيا النائية ، لزيارتها مصطحباً معه أبيه ، واسمه ريكاردو الثري البارايي ، وهو عملاق صوته يرعد وأصابعه مزدانة بالجواهر ، كاد يُغمى على الدونا روزيلدا عندما حدّقت بهذه الأحجار الثمينة الكثيرة. كان ثمة ماسة سوداء كبيرة الحجم، تساوي على الأقل خمسين كونتواً [٣] من الريالات ، أوّاه ، يا آلهي!

تكلم العجوز عن أراضيه ، عن ترويض الهنود وعن المطاط ، عن قصص نهر الأمازون ، كما تكلم عن فرحته برؤية ابنه دكتوراً يحمل سماعة الطبيب. ولا ينقصه الآن إلا أن يراه متزوجاً ، من فتاة مستقيمة متواضعة مخلصة ، لا أهمية للمال: فقد جمع منه ما يكفي الجميع - كان يحرّك أصابعه ، فتشع وتلمع منيرةً القاعة - يريد كنّة تمنحه أحفاداً وحفيدات ليملأوا بالضجيج والحرارة أرجاء ذلك المنزل القاسي المرمريّ في بيلين، حيث عاش عجوزاً متفرداً وحيداً طيلة سني وجود ابنه بيدرو في الكلية. كان يتكلم ويتطلّع إلى فلور كمن ينتظر كلمة ، أو حركة أو ابتسامة! إذا لم يكن ذلك تمهيداً لطلب الزواج فهي ،

---

(١) FILQ : نوع من نسيج اللينو الرفيع.
(٢) ضرب من الرقص.
(٣) CONTO : ألف كروزيرو وكل كروزيرو مائة ألف ريس، في العملة البرازيلية القديمة المعاصرة لتأليف الكتاب.

الدونا روزيلدا أميّة، إذاً، في هذه المسائل. راحت ترتعد من الانفعال والقلق. فها قد حانت الساعة المباركة، ولم تكن يوماً أقرب إلى تحقيق أهدافها ممّا هي الآن؛ وأخذت ترمق ابنتها الحمقاء منتظرة موافقتها الخجول، لكن القاطعة، لكن فلور قالت فقط بصوت مغرور:

ـ لن تعدم فتاةً جميلةً مستقيمة تتزوج من بيدرو، فهو يستحق ذلك حقاً! وكم كنت أود أن يحصل ذلك هنا في باهيّا، كي أكون أول من يحضّر مأدبة الزفاف.

أعاد بيدرو بورجيس بلا ضغائن، خاتم الزواج الذهبي إلى جيبه، سعل الهرم ريكاردو، وغيّر الموضوع فأحسّت الدونا روزيلدا أنها على غير ما يرام، مختنقة، يكاد قلبها ينخلع من مكانه. فخرجت من القاعة في حركة مباغتة ساخطة، وخشيت على نفسها من نوبة قلبية ووَدَّت لو رأت ابنتها ميتة مدفونة، تلك الجاحدة البهيمة البلهاء عدوة أمها بالذات، الملعونة! كيف جرُؤت هي على رفض يد دكتور ـ هو الآن دكتور فعلاً ـ يد شاب ثري، يد وارث جزر وأنهار وهنود، صاحب قصر كله من المرمر، خواتمه متلألئة مشعّة، أوّاه، كيف جرؤت تلك النغلة البائسة؟

آه! أيّ سور من الحقد والعداء من سوء فهم لا يغتفر ومن ضغينة دفينة، انتصب بين الأم وابنتها، فانفصلتا عن بعضهما البعض إلى الأبد. ألم يظهر فادينيو، في مطلع تلك السنة ومباشرة بعد رحيل بورجيس خائباً؟ آه! أمام الألقاب، مركز وثروة فادينيو ـ لقد استعلمت الدونا روزيلدا بشكل واف عن فادينيو بالذات وعن أصدقائه ـ فإن البارايبي لم يكن أكثر من فقير بائس، مع كل المرمر في قصره وخدمه الاثنيْ عشر؛ فقير بائس، مع كل أراضيه وكل مياهه.

٦

في انحناءة سريعة ومهذّبة، استأذن ميراندون، واللطف يشعّ من وجهه وجلس قرب الدونا روزيلدا. كانت كراسي القش مصفوفةً على طول محيط القاعة مسندة إلى الجدار. الطالب المزمن («المواظب»، كان يستدرك فيقول: «المواظِب» عندما يشيرون إلى سنواته السبع في مدرسة الزراعة) مدّ ساقيه، وقوّم بحذر استقامة بنطلونه، متفحّصاً كل زوجين يرقصان التانغو الأرجنتيني العاطفي بحركاته الصعبة، وخطواته شبه البهلوانية، وابتسم بسمة رضا: فلم يكن هناك بين الرّاقصين من يضاهي فادينيو، فلا أحد يرقصُ كما يرقص هو، ليباركك الله وينجيك من إصابة العين الشريرة، يا حسرة! كان ميراندون ممن يؤمنون بالخرافات؛ وهو خلاسي صافي البشرة مغرور يبلغ من العمر ثماني وعشرين سنة؛ وله شعبيّة واسعة في شقق العازبين وفي بيوت القمار في باهيّا.

شعر بنظرة الدونا روزيلدا تتابع نظراته، فالتفت إليها رامياً إياها بابتسامته الآسرة، يتفحصها بعين ناقد خبير. «عاهرة قطعاً، لا فائدة منها»، استخلص بأسف. ليس بسبب العمر. فمنذ وقت طويل دوّن ميراندون في دستور سلوكه مع النساء فقرة تنصّ على ألا يخيّب مطلقاً آمال أي امرأة لمجرد كونها ناضجة أو هرمة، ولو فعل عكس ذلك لوقع في خطاء مميتة: فأحياناً تظلّ النساء فوق الخمسين يتمتّعن بقالب جسدي وبشباب نادرين مدهشين، قادرات على أن يفاجئنك بما لا تتوقّعه، ويحطّمن أرقاماً طالما ظننتها قياسية. هذا ما علّمته إياه التجربة الحيّة. والآن، فيما هو يحدّق في الدونا روزيلدا المنهارة، يتذكر البهاء الغسقي لسيليا ماريا بيا دوس فاندرليز وبراتا، كل هذه الأسماء هي لامرأة من هذا الحجم،

سيدة من المجتمع الراقي، امرأة مفعمة بالحيوية، تحرّكها الشياطين. كانت تتجاوز الستين سنة ـ وتعترف بذلك ـ وقد وقَرت لزوجها ولعشاقها غابة من القرون بشبقها رغم أنّ لها حفيدات بالزاكيّات[1] وحفيدات في سن الزواج وهي تمنح جسدها إحساناً ويا له من إحسان! كم كانت أنثى نارية كريمة ـ مع الطلاب الـمُعْوزين. وأغلق ميراندون عينيه كيلا يرى المرأة الـمُجاورة له القبيحة الهرمة بلا موارد ولا مفر من جهة، وكي يتذكر على نحو أفضل شبق رحم سيليا ماريا بيا دوس فاندرليز وبراتا الذي لا يُنْسى وما كانت تدسّه في جيب سترته من قطع النقود من فئة الخمسين والمائة ألف ريس خفية؛ كانت تسعى وراء النشوة ثريةً ومتلافةً. آه! يا لتلك الأوقات الطيبة حين كان ميراندون يبدأ بالدّرس وبالغوص في متاهات الحياة، كطالب في السنة الثّانية في كلية الهندسة الزراعية، وكطالب تحضيري في الليل، وكانت ماريا بيا دوس فاندرليز ترشّ عطوراً باريسية أصيلة على غضون عنقها وعلى قسمها الأسفل.

فتح عينيه ثانية على القاعة، وهو يشمّ أريج الجدة الذي لا يُنسى؛ وبجواره هذه المرأة التافهة بوجهها الشبيه بوجه ساحرة تمارس السحر والشعوذة ـ شر نضر، بذبول وجنتيها، وعرف شعرها ـ كانت مصرّة على التحديق به بعينيها الصغيرتين، إنها فزّاعة، لا بد أن رائحةً كريهةً تنبعث من تحت غلالتها من كتلة لحمها المهترىء، وبسرعة استعاد ميراندون رائحة بقايا عطر فرنسي من أبعاد ذاكرته ـ آه! فاندرليز النبيلة، أين أنت الآن، أصبحتِ سبعينيّة؟ أما هذه الهرمة الرّابضة على الكرسيّ فيا لها من عجفاء قبيحة بلا رأفة!

وهو مثقف، يشرّفه أن أصبح طالباً دائماً في الهندسة الزراعية، لذا لم يدع نفسه يبتسم للدونا روزيلدا: فهي بغيّ، عاهرةٌ رخيصةٌ، بقايا سمكة مقدّدة، لا تنفع لأفكار أو التصرّفات الداعرة، وهي حتى في ذلك لم تستوجب الاحترام والانتباه؛ بدت أرملةً أمّ العائلة المنهوكة؛ وميراندون كان في أعماقه أخلاقياً ممّا لم يكن مألوفاً في بيوت القمار. إضافة إلى ذلك فقد حانت لحظة نشوته:

ـ حفلة صغيرة حيوية، أليس كذلك؟ ـ سأل الدونا روزيلدا منطلقاً في حواره التقليديّ.

---

(١) امرأة في الثلاثين من العمر، نسبة إلى رواية الكاتب الفرنسي بالزاك «امرأة الثلاثين من العمر».

وكان هكذا، دائماً، في كل سكراته المتكررة. باديء الأمر يحس بسرور عارم يعبّر عنه بالصفير، ومعه يصبح العالم كله كاملاً حسناً، والحياة مرحة سهلةً، وفي مثل تلك اللحظة يصبح قابلاً لتفهم الأمور وتقديرها، ويحس برابط فكري مشترك شامل بينه وبين سائر الكائنات، حتى بينه وبين هذه الببغاء المتغطرسة جارته على كرسيّها برائحتها الكريهة. وبدا رقيقاً محافظاً وبدأت مخيّلته تعمل دون توقف. وهكذا تراجعت شخصية الطالب الفقير، « الطالب الدائم العطشان إلى الأبد » ـ وهي شخصية خلقها بنفسه يعيشها فعلاً ـ لتترك مكانها لشخصية الشاب المهم المهندس الزراعي الناجح الذي يترقّى في المركز الذي يشغله في أوقات فراغه بإضافة مزايا أخرى إلى مزاياه: فيقوم بمهمّات خطيرة ويغوي النّساء. كانت روايته للقصص تصعق المستمعين له؛ كيف كان يرويها! كان بارعاً في الرواية مبدعاً في أسلوبه تقليدياً في نثره الجيد.

لكن حالما يمتد السكر إلى آخر الليل، يأخذ هذا التفاؤل المُفرط والانبساط، بالاضمحلال؛ وتنتهي العربدة ليروح ميراندون يغلّف نفسه بالتحسّر والنَّدب، يتقوقع على نفسه يطعن ذاته بسكاكين النقد الذاتي بلا شفقة، متذكراً زوجته ضحية الذل الذي تعانيه، وأبناءه الأربعة بلا طعام، وكيف أن العائلة كلها مهددة بالطرد من البيت، « كم أنا بائس ماجن سافل! » ويفتخر ميراندون بأنه قد تألّم، وإن متأخراً، ألماً صادقاً فقد كان، امرءاً أخلاقياً. بيد أن ظهور هذا الجانب الآخر المنتحب كان نادرَ الحدوث، إلا في مناسبات السكر العظيم.

عند الساعة العشرين والدقيقة الثالثة والثلاثين، أجل، في المنزل، في حفلة المقدم بيرجينتينو بيمنتيل، المتقاعد من الشرطة العسكرية في الولاية، وجد ميراندون نفسه راضياً عن العالم، ودوداً يغتنم الفرصة لتبادل الأفكار مع الدونا روزيلدا. فقد انتهى من الأكل والشرب في قاعة العشاء، متذوقاً جميع الأطباق، ساكباً مراراً من بعضها مسرفاً في الأكل، كان هناك على طاولة العشاء ليتوني باهيّاني، وفاتابان وإيفو وآبارّا وكارورو وموكيكا السيري الرخو والقريديس والسمك والأكاراجيه والأكاسا ودجاج الشينشين وأرز الهاوسا، علاوة على أكوام من الفراريج والديك الرومي المشوي وأفخاذ الخنزير وشرائح من السمك المقلي لأولئك الجهلة الذين لا يتذوّقون زيت الديندية (وكان يقول ملء فمه وبلا مبالاة، إن

هناك ضواري من كل نوع في هذا العالم، أشخاصاً هم قادرون على أي عار). وبعد كل هذه المآكل ارتوى من الآلوا [1] والكاشاسا والجعة والنبيذ البرتغالي لقد دأب المقدّم على إقامة حفلته هذه منذ أكثر من عشر سنوات وفاءً لنذرٍ نذره عندما أنقذت الآلهة [2] زوجته من خطر الموت بسبب حصى في كليتيها. وما كان يوفّر شيئاً، بل يجمع المال طيلة السنة لينفقه في هذه الليلة وهو راضٍ. ويتابع ميراندون غيَّه: ملعقة من هنا وكأس من هناك.. وهو الآن شبعان، مخنوق لكثرة ما أكل وشَرب، لا شيء يساعده على الهضم إلا إجراء محادثة طيّبة.

في القاعة راح كل ثنائيّ راقص يدور على أنغام التانغو الأرجنتيني، كان جوانزينيو نافارو على البيانو. يكفي أن تقول: جـوانزينيو نافارو. فلم يكن في باهيا من هو أشهر منه في العزف على البيانو. وراح أناس معروفون، مثل القاضي كوكيجو الخبير بالموسيقى، بإدارة المذياع ليسمع العازف وهو يلعب على البيانو عازفاً أغاني شعبية. ألم يكن يبعث الحيوية في فجر التاباريس بعزفه على البيانو؟ من الصعب أن تحصل عليه لحفلة خاصة. فلا وقت لديه لأولئك الهواة. لكنّه أتى إلى حفلة المقدّم المنزليّة التي لا يستطيع تجاهلها، ملاطفات قديمة يدين بها إليه.

كان ميراندون يتطلّع إلى الراقصين بِرضى، معبراً عن إعجابه بعزف جوانزينيو بهز رأسه ـ فيا له من ماهر! ـ وابتسم لجارته وقد تـأكـد مـن غيـاب مطلـق متطفّـل آخـر، باستثنائه، هو، وفادينيو، كان التسلل إلى حفلـة المقـدم تيريـركـا (كما لقّب الأولاد في ريو فيرميليو بيرجينتينو الشجاع) مأثـرة مستحيلـة، مثـار مـراهنـات وتحديـات. واعتبر ميراندون أنه فاز في الرهان؛ إذ تمكن هو وفادينيو، من اختراق الحاجز الذي أقامه المقدم أمام الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط، والمغلق بالمفتاح ـ الممر الوحيد الذي لا يفتح إلا للمدعوين، وللمدعوين فقط وجميعهم وجوههم مألوفة لصاحبيْ البيت، أصدقاء منذ عهد طويل ـ فقد تمكنّا من جعله يفتح أمامها وسمح لها بالدخول. بل لقد استقبلها المقدّم وزوجته الدونا أورورا بالأحضان رغم حرص الزوجة على التأكد من هوية من تعـاشر. وفي

(١) ALUA : شراب مسكر يصنعه أهالي الشمال الشرقيّ من دقيق الأرز أو الذرة.
(٢) ORIXAS : آلهة من الميتولوجيا الأفريقية ترمز إلى الخير والشر.

الخارج، في ذلك الهدوء المُفْعَم بالانتعاش أحسّ المحبطون بمرارة الهزيمة وهم يرونهما يدخلان الحفل بعد حوار سريع مع المقدم تيريريكا، مجتازين العتبة المستحيلة العبور إلى حيث الهتافات الصاخبة من الدونا أورورا. فكيف تمكنا من ذلك؟

تنهد ميراندون ببطن ممتلىء، وابتسامة طوباوية. وهناك في القاعة يراقص فادينيو سيّدة جميلة شيطاً إياها بذراعيه. كانت سمراء، ممتلئة مشحونة باللحم، فالكلب وحده الذي يحب العظام! ذات عينين بلون الزيت وبشرة نحاسية بلون الشاي، رائعة الردفين والنّهدين.

«- إنها الإغواء بعينه، شريحة من ضلال، يا للسمراء التي تقود إلى الهلاك!» - أبدى ميراندون إعجابه بالشابة التي تراقص صديقه.

تنبهـــت جارته دهشةً، ونفخت صدرها الأعْجف، ونبحت بصوت ينذر بالمعركة:

- إنها ابنتي...

لم يبدل ميراندون موقفه:

- إذن تقبّلي تهانيَّ، يا سيدتي. فالمرء يرى على الفور أن الفتاة مستقيمة، ابنة عائلة محترمة. إن صديقي...

- هل صديقك من يرافقها؟

- صديقي؟ بل هو صديقي الحميم، يا سيدتي! أخ...

- ومن هو، هل تستطيع أن تخبرني؟

استوى ميراندون على الكرسي، وسحب من جيبه محرمة معطّرة، ومسح بضع قطرات عرق من على جبينه العريض وقد ازداد سروره فأحب شيء إليه هو رواية قصة كاذبة، قصة مسلية للغاية.

- اسمحي لي أولاً ان أقدم نفسي: الدكتور جوزيه رودريغيز ده ميراندا، مهندس زراعي، معيّن في مكتب المفوّض المساعد... ومدّ يده متودداً.

في بادرة ارتياب أخيرة قاست الدونا روزيلدا من يخاطبها بنظرة نفّاذة. لكن وجهه الذي ينضح كبرياء وابتسامته الصريحة أخمدا كلّ اشتباه وقضيا على كلّ مقاومة، كانا يجرّدان أي كان من سلاحه ويستوليان عليه حتى لو كان خبيثاً ومشاكساً كالدونا روزيلدا.

٧

بين معترضتين
مع شيمبو وريتا ده شيمبو

في عصر ذلك اليوم، عند نهاية فترة ما بعد الظهر، حين كان الطقس الحار والرطب متعاظماً، والجو كثيفاً، وعلى الإسمنت المسلّح انتصب فادينيو وميراندون في سان بيدرو، في بار آلميدا، ليشرب كلّ منهما أول كأس كاشاسا له ذلك اليوم، يضعان الخطط لليل الاحتفال في ريو فيرميليو. ثم شاهدا عند باب الحانة شيمبو آتياً بوجهه المشتعل، كان قريباً مهماً لفادينيو، مفوضاً مساعداً بالوكالة، أو قلْ، الشّخص الثاني في الشرطة.

وكان كاتب وقائع الزواج وابن سياسي له نفوذه مؤيّد للحكومة، بلا احترام من قبل الصرامة التقليدية للوالد، من دون أن يبدي اهتماماً للمنافع، ابن العم البعيد لفادينيو هذا، غيمارايس الثري الأصيل كان بوهيمياً، مرحاً مدمناً على الشرب، وعلى لعب النَّرد والعاهرات، يقول لجميعهن: صيحة غضب مجنونة. لكنّه اعتزل اللهو فيما بعد نوعاً ما مُجبراً ليصبّ اهتمامه على المركز الذي أصبح فيه والذي لم يستمر فيه طويلاً، إذ فضّل حريته على المركز، لا يبدلها بترقية مهما كانت رفيعة، ولا بلقب مهما كان مستواه. فقد استقال من منصبه الذي دبّره له أبوه (عضو مجلس الشيوخ الإقطاعيّ) كمحافظ لمدينة بيلمونتي بعد انتخاب صُوَريّ. وتخلّى عن المركز واللقب، وعن الواجبات والمميزات، ودفع في سبيل ذلك ثمناً باهظاً. فأهل بيلمونتي لم يقتنعوا بميزاته الإدارية الحقيقية، وكانوا يلحّون على حاكمهم بالالتزام بعاداتهم التي لا تُمَسّ، في تعسّف لا يُحتمل.

وانفتحت أبواب جهنّم إثر انفجار فضيحة لا سابقة لها لمجرّد أنه تجاسر واستقدم من

باهيًا عدداً من الجانحات، في رغبة منه لإبعاد الملل والوحشة عن البلدة: فاستقدم ريتا ده شيمبو، وهي من معالم ليل التاباريس الحيوية. ولقبت بشيمبو لغرام قديم وطيد وحّدهما، حبّ مبهج كتب البوهيميون فيه شعراً ونثراً. وكم تشاجرا، وتشاتما وانفصلا نهائياً ثم اصطلحا بعد أيام وعادا إلى غرامهما، متحابين. من هنا أضافت ريتا اسمها إلى لقب حبيبها، كعروس تتبنّى اسم عائلة العريس في الزواج. وحين علموا بـأمـر المحافظ، رب الحبل الذي يشنق به، والحذر، الذي يمارس حق الحياة والموت على السكان المجرّدين من إمكانية الدفاع، أصرّوا في رسالة برقية، على أن تشاركه السلطة. أيّ سرور في العالم يمكن أن يضاهي السّرور بالسلطة وبالحكم؟ أراد أن يذوّقه لـريتـا شيمبـو الشّهـوانيـة، وهـو يجد نفسه وحيداً في ليالي بيلمونتي الطويلة المملة الفارغة، ودرس بإمعان الطلب الحار، ثم أمر بإحضار الجانحة.

كان شيمبو محافظاً أي ملكاً على مدينة، ونزول ريتا ده شيمبو من الباخرة إلى هذه الامبراطورية لم يمرّ مرور الكرام، فقد كانت المحْظيّة الملكيّة الأثيرة. لقد دعاها لتكون في حاشيتها ثلاث نساء رائعات الحسن، مختلفات عن بعضهن البعض لكنهن ممتازات جميعاً: زُليخة مارّون، الخلاسية اللامبالية صاحبة الأهواء، بردفيها المهتزّين اللذين يغلقان الشوارع، فيتعثر بها المارّة، وآماليا فوينتيس، البيرويّة[1] الغامضة بصوتها الناعم، وأصولها المختلطة، وزيزي كوليوندينيا شقراء هشّة ككوز ذرة عندها أسلوب خاص بها في مطارحة الغرام. القافلة المذكورة الرائعة ـ والثقيلة كما يقال ـ لم تلقَ في بيلمونتي الاستقبال الحماسيّ الخليق بها؛ بل العكس: فقد أضحت هدفاً لعدواة مفتوحة من جانب السيدات وحتى السّادة. وإذا استثنينا جماعات اجتماعية معيّنـة: الطلاّب الذيـن لم تنبـت لحاهـم ومتسكعـي الليـل النادرين، معاقري الكاشاسا عموماً نستطيع التأكيد بأن النـاس كـانـوا عمـومـاً مـرتـابين متباعدين.

ثم شوهدت ريتا ده شيمبو عند منتصف الليل، عند أسفل درج دار المحافظة سكرى

(١) نسبة إلى بيرو في أميركا اللاتينية.

لدرجة السقوط مراراً على الأرض، تحيي المدينة بمجموعةٍ لا تنضب من النّعوت القَذِرة. وانتشرت الأخبار المذهلة: كيف أن الهرِم إبراهيم التاجر والجَدّ يزحف على بطنه تحت قدميْ زُليخة مارّون بشكلٍ مضحك، مبذّراً إرث أحفاده على القصف مع خليلته؛ ثم بيريكو، وهو مازال غلاماً آنئذٍ، مستقيماً وعفيفاً، موظفاً في البريد، رئيس أعمال بياس الإبداعية، هام بآماليا فوينتيس، واكتشف فيها نقاء جذورها وتديّنها فقدّم لها خاتم الخطوبة جاعلاً عائلته صاحبة المفاهيم التقليدية بلا حولٍ ولا قوة؛ أما ذروة الفضائح فكانت لدى كوليوندينيا التي أضحت المحبوبة المفضلة عندَ كلّ الطلاب الثانويين: حلمهم وملكتهم المتوجة، رايتهم في المعركة ومثالهم الأعلى. وكانت تجلس بكل شقارها في ليالي بيلمونتي، محاطة بأولاد المدارس وبالشاعر سوسيجينيس كوستا الذي كرّس لها عدداً من السونيتوات. آواه! يا للعار!

حتى الاسقف بالوكالة، الأب المُختال بكلامه الشبيه بالنّباح راح يعظ ضد شيمبو، اتّهامات كاتيليناريّة[1] مشبعة بالحماس ضد غلمتهِ الفاضحة. فصنّف الجانحات العزيزات بـ «قمامة البغاء الآتية من العاصمة» و«نصيرات الشيطان». يا للبنات المسكينات! طقس مضطرم، والكنيسة ممتلئة بالناس في قداس يوم الأحد، والمحترم يتهم شيمبو بأنه يحوّل بيلمونتي الوادعة إلى سادوم وعمورة، يدمّر بيوتها ويشتّت عائلاتها، هذه البلدة التعيسة المنكوبة بالمحافظ الفاسق، «نيرون بسراويله الداخلية». وكان شيمبو يمتلك حسّ الفكاهة. فضحك من عظة الأب اللاذعة. وبكت الجانحات، وطالبت ريتا ده شيمبو بالانتقام، فاقترح ميغيل التركيّ[2] ـ وهو عربي يحب التمجيد، أمين سر المحافظة، معروف بتملّقه غير المحدود لآل غيمارايس، أن يقوموا بالانتقام عن طريق إرسال اثنين من القبضايات موضعُ ثقة، فيمزقان رداءه الكهنوتي من على جسده.

مسح شيمبو دموع ريتا، وشكر للسوري[3] وفاءه لآل غيمارايس، وأثنى على الشريرين المجرمين القاتليْن قاطعي الطريق من إيليوس. فقد كان شيمبو حذقاً متبصراً بالأمور، وما

---

(١) CATILINARIA: نسبة إلى إتهامات شيشيرون في خطبه العنيفة ضدّ كاتيلينا.
(٢) TURCO: التّركي، لقب يطلق على المغتربين من أصل عربي في أميركا اللاتينية.
(٣) SIRIO: سوريّ، تسمية تُطلق على المغتربين اللبنانيين والسوريين معاً.

كانت الحنكة السياسية تنقصه. فقد تخيّل ردة الفعل لدى الشيخ الهرم إذا دخل في حرب مع الكنسية، وضرب قسيساً لإرضاء بعض العاهرات! علاوة على ذلك، للأب الحق في أن يغضب على هذا النحو بهذا الشكل. ففي وصفه له «بنيْرون بسراويله الدّاخلية»، كان يشير إلى ما حدث تلك الليلة عندما اجتاز المحافظ اللامع المدينة لا يستر عورته سوى سروال داخلي مُقَلَّم فقد باغته القسّ في مرحلة متقدمة من تعاطي الغرام مع ماريكوتا الطيّبة ـ وهي ربة بيت محترمة تخدم الكاهن على المائدة وفي السرير: نعجته المفضلة.

لم يتبقَّ للمحافظ شيمبو إلا جمْع المُهانات اللائي ينزلن بضيافته وتأبّط ذراع ريتا ده شيمبو ليستقلّوا جميعاً باخرةً تابعة للشركة الباهيّانية. وهكذا استقال من منصبه، من فضائله، لجنة القمار على الحيوانات[1] المدرّة للكسب. وغدت بيلمونتي محرومةً من طاقته الإدارية وتعاطفه مع حسناوات العاصمة. ويشهد على كفاءة إدارة شيمبو ترميم جسر النّزول من البواخر وتوسيع المجمع المدرسي وإصلاح سور المقبرة؛ وظلّ منظر الجانحات وهن يهربْن يقضّ مضجع بيلمونتي.

التجأ شيمبو إلى مركز مغمور، لكن مُكْسِب في خدمة القانون ككاتب محلّف لوقائع الزّواج ومفوض مساعد لرئيس الشرطة حيث لا يوجد من يحاسبه على خطواته: واستسلم مرة أخرى لحياة الليل في التاباريس (حيث عادت ريتا ده شيمبو تهيمن على ليله من جديد) إلى بالاس، إلى أباشادينيو، إلى بيت «الدوقات الثلاث»، إلى شقة كارلا، إلى إيلينا بيجا فلور. إلى الاحتفالات الليلية. ومن وقت إلى آخر كان يلجأ إلى والده الشيخ ليستخدمه في مناوراته السياسية، فيتسلم منه تزكية بمراكز لآخرين طموحين لكنه لم يطلب قط شيئاً له: كل ما كان يرغب فيه هو أن يعيش حراً على هواه.

وكان شيمبو يحب فادينيو، ليس بسبب القربى البعيدة بينهما، بل بسبب خصائص الشاب رفيقه في الروليت والكاباريهات. وهكذا عندما سمع في مناسبة معيّنة شخصاً ما يقرّع فادينيو بأنه عاطلٌ عن العمل وبلا مورد للعيش، دبّر له وظيفة متواضعة كمفتش حدائق البلدية، إذ يجب أن يكون «لكل فرد من آل غيمارايس مركزه المحدّد في المجتمع».

---

(١) نوع من ألعاب القمار تستخدم الحيوانات بدلاً من الأرقام.

ـ لا أحد في عائلة غيماريس، عاطلٌ عن العمل..

انها متناقضات شيمبو اللطيف هذا، فهو متقيد للغاية بالقناعات والأعراف، مع حسٍّ عميق بعائلته وحرصه على سمعة قبيلته: آل غيماريس.

حسناً، عصر ذلك اليوم، التقى فادينيو وميراندون شيمبو في سان بيدرو، بينما المفوّض المساعد متجهاً نحو مبنى قيادة الشرطة. بدا ضائقاً بحياته وقد حشر نفسه بثياب داكنة تحتفظ بحرارة الجسم وهي الثياب التقليدية لمراسم الدفن أو الزواج ـ ياقة منشّاة بقبة واقفة وصدار القميص وصدرية وطاق للحذاء وعصا بمقبض ذهبي ـ كم كان شيمبو متوثباً ذلك النهار الحاد من شباط[1]، والهواء الساخن الرّطب خانق، والقيظ مميت، والأفواه متعطشة لكوب جعة متلجة للغاية.

قال فادينيو محتضناً قريبه الحامي لظهره: «لا ينقذ حياتنا اليوم إلاّ هبوب عاصفة قطبيةٍ ثلجية».

لعن شيمبو حظّه بأقصى ما يجود به لسانه المرن الحادّ موزّعاً الشتائم قائلاً بامتعاض: «إنها لحياة خُرائيّة لا يوجد أتفه منها، كم هي بنت عاهرة هذه الوظيفة» فأنا مُلزمٌ بمرافقة الحاكم إلى كلّ مكان إلى كل المراسم الاحتفالية، إلى كل جهة قذرة خُرائيّة... لم يكونوا قد اعتادوا على رؤيته ساخطاً بهذا الشكل. لكن تبيّن لهم أنه مضطرٌّ بحكم مركزه إلى حضور مؤتمر علميٍّ مهيب هو المؤتمر الوطني للتوليد، في كلّيّة الطّب، مع خُطَبٍ وأُطروحات، ومداولات وتبادل آراء حول الولادة والإجهاض، إزعاج عظيم. جرع شيمبو بسرعة كأس الجعة، محاولاً إخماد الحرّ والغضب في نفسِه، لاعناً والده بأسلوبه الأزليّ في استخدامه في السياسة...

وممّا زاد في الطين بلّةً ـ وهنا التعاسة! ـ أن ذاك المؤتمر المقررة إقامته يوافق في توقيته حفلة المقدم بيرجينتينو، المقدّم تيريريكا من ريو فيرميليو، وعرفوا فوراً بالتأكيد عمّن يتكلّم. لقد عمل معروفاً مع العسكري فأطلق حسب طلبه فوضوياً من السجن، والآن المقدّم يريد إكرامه بأي ثمن محضراً له تكريماً ضخماً. وحفلات تيريريكا، كما يقولون

---

(١) شباط في البرازيل من أشهر الصيف القائظة.

رائعة، تستحقّ عناء الحضور، يأكل فيها المرء ويشرب إلى التُّخمة. وهو شيمبو ضيف الشرف، تخيّلوا كم كان سيلهو!

ـ بدلاً من ذلك عليّ أن أصغي لطبيب يتكلم في شؤون الولادة وشجونها. ما هذه الوظائف التي يدبِّرها لي والدي!

وتساءل كيف يقنع أباه عضو مجلس الشيوخ بأن يتركه بسلام حيث هو. فالعجوز كان قوي الشخصية لدرجة أن الحاكم كان يخافه! وهنا أخذت عينا فادينيو تلمعان، وابتسم ميراندون، فقد فتح شيمبو لتوِّه أمامهما باب المجد: باب بيت المقدم.

٨

تلك الليلة أمام مكان الحفلة، راهن المحتالان متسكّعين آخرين بأنهما يتسللان إلى الحفلة الراقصة وسيستقبلان استقبال ضيوف الشرف. وهذا ما حصل: دخلا فاستقبلا بكل مظاهر التقدير على الرحب والسّعة، ذلك أن فادينيو عرّف المقدّم والدّونا أورورا بنفسه كابن أخ المفوّض المساعد الذي يعتذر لعدم تمكّنه من مغادرة مركز عمله؛ فيما قدّم ميراندون نفسه كأمين سر لشيمبو، أمين سرّ غير موجود قطعاً.

ـ لقد اضطرّ عمّي الدكتور آيرتون غيمارايس إلى مرافقة الحاكم إلى مؤتمر للتوليد. لكنه ارتأى ألا يتخلّف عن دعوتك، فأرسلني وأمين سره، الدكتور ميراندا، نيابةً عنه. أنا الدكتور فالدوميرو غيمارايس...

اعترف المقدم بتأثره بهذه البادرة اللطيفة من المفوض. وأبدى أسفه لعدم تمكّنه من حضور الحفلة؛ فقد كان بودّه أن يكرّمه كما يستحق؛ ثم استقبلا، هو وزوجته، بالأحضان ممثّل صديقهما المحترم. مدّ يده لفادينيو، عندما صحّح ميراندون، بوقاحة مذهلة، واضعاً الأمور في نصابها:

ـ إغفر لي تدخّلي أيها المقدم، لكنّ ممثل الدكتور المفوّض المساعد هو شخصي المتواضع، أنا الدكتور جوزيه رودريغيز ده ميراندا، معلم حرّ في مدرسة الهندسة الزراعية، استدعاني الدكتور آيرتون... وإن صديقي الدكتور فالدوميرو، وهو ابن أخي المفوض، فلا يمثله هو، بل، نعم، يمثل السّيد الحاكم...

ـ «الحاكم؟» ـ هتف المقدم، مسحوقاً بهذا الشّرف العظيم.

« نعم »، صوّب فادينيو وضعه. « حينما سمع الحاكم المفوض المساعد يطلب من أمين سره وابن أخيه أن يذهبا إلى حفلة المقدم، طلب منه (إذ كان يخدم في ديوان سعادته) بأن يحتضن « صديقه الطيب بيرجينتينو ويُحيي زوجته الفاضلة ».

انتفخ المقدم والدونا أورورا زهواً، ففتحا أمامهما الطريق وقدّماهما إلى الحاضرين، وأمرا بأن تملى الكؤوس لهما، وتحضر الأطباق فكل شيء كان قليلاً على فادينيو وميراندون.

وفي الخارج، وقف رفاقهم في أعمال قلّة الحياء مصعوقين لا يصدّقون أعينهم. أي حيلة اخترعها السافلان ليحظيا بمثل هذه الحفاوة؟ لم يسبق أن تمكّن أيّ شخص من التسلل مجتازاً مصاريع باب المقدم الذي يعتبر اقتصار الحفلة على مدعويه، وأصدقائه المعروفين الفاضلين مسألة شرف مقسماً على ذلك برتبه العسكرية المجيدة، مفاخراً بزهو: « تسلّل، وإلى حفلتي؟ لن يمرّوا إلا على جثتي! » وها هما أكبر طُفيليّيْن طالما تسلّلا إلى حفلات مغلقة مهيبة، تحرسها الشرطة، ناهيك بحفلات قصر الحكومة وبيت الدكتور كليمينتي مارياني، حفلات تبدو بجانبها حفلة المقدم حفلاً راقصاً مرتجلاً، بسيطاً، مرقص فقراء، مجرّد مأدبة في أحد الأحياء، ومع ذلك فشل كل هؤلاء الطّفيليون جميعهم، في كل محاولة بذلوها للتسلل إلى حفلة المقدم، محاولات تتجدّد سنوياً ولم يتجاوز أيٌّ منهم حدود عتبة المنزل المحميّة جيداً.

نبالغ إذا قلنا إن أحداً ما لم يستطع التسلل إلى هذه الحفلة. فهناك إيديو غانتويس الطالب الجسور، وطالب جامعي شاب فتيّ مثله كان يلقّب بـ « ليف اللسان الفضي » وقد استطاعا التسلل مرّة قُرابة النصف ساعة داخل الحفلة لكي يُطردا في النهاية بالضرب واللّكم بعد ان انخرط إيديو صاحب العضلات المفتولة في عراك جسدي مع المدعوين، وراح ليف الضّخم يتبادل الرّفسات مع المُقدّم.

كيف انتصرا ثم فشلا؟ حسناً هذه قصّةٌ أخرى، يجدر بنا أن نرويها لنقدّر ما صنعه فادينيو وميراندون حقّ قدره. لقد قَدِم آنذاك من باهيّا موسيقار غريب تسبقه حملة دعائيّة له في الجرائد لتقديم عرضين فقط لا غير في الكونسرڤاتوار. كان موسيقاراً غير عاديّ يستعمل آلة موسيقية فريدة من نوعها: ألا وهي منشار يصدر أنغاماً كأي كمان رفيع

المستوى. كان المذكور روسياً يحمل اسماً غريباً، هو «الرّوسي صاحب المنشار السّحري» كما وصفته ملصقات الدعاية واخبار الصّحف. وكان لدى إيديو منشار نجارة قديم، أما ليف، فقد كان روسي الأصل، يحمل اسما أجنبياً. وفي جنونهما لتحقيق عمل صبيانيّ جيد، لفّا المنشار بورق بُنّيّ، وجرعا قليلاً من الكاشاسا لينتعشا، ثم قدّمّا نفسيهما عند باب المقدم على أنهما الروسي صاحب المنشار ومُتَعَهْده.

وكان المقدم تيريريكا يمتلك حدْساً خاصاً وعندما يتعلّق الأمر بمتسللين يشمّ رائحتهم من على بعد ميل. حدّق بليف وإيديو ودقّ في داخله ناقوس الخطر: لكن المدعوين بادروا حالما أعلمُوا بحضور «الروسي صاحب المنشار السحري» إلى تحيتهما متحمّسين لاحتمال سماع الروسيّ يعزف. وفي صمت، فتح المقدم الباب سامحاً بدخول المحتالين والشكوك تتنازعه. لكنّه ظلّ يراقبهما. وأسندا المنشار خلف قطعة أثاث، ولمس المقدم الجشع في أعينهما وهما يندفعان نحو القاعة حيث العشاء، متلهفيْن إلى الأكل والشُّرب. فتبادل نظرة مع الدونا أورورا التي لم تهضم ـ مثله ـ كل ذلك التّمثيل. وحينئذ ألحّ المقدم عليهما مدعوماً من قبل جميع المدعوين المشوّقين لسماع الروسي، على أن يعزف ليف حالاً: أولاً العزف، ثم يكون لكل منهما حصّته من الطعام. وبرغم محاولات إيديو تأجيل لحظة الكارثة بحديثه الماكر لم يستطع أن يؤجّلها.

وممّا زاد في الطين بلّة أن تحوّلاً غريباً طرأ على شخصيّة ليف، الذي أحسّ فجأةً أنه ملهم، وراح يعيش دوره فعلاً حتى اعتبر نفسه في الحقيقة الروسي العازف!. وهكذا، وقبل أن يزيد أحدٌ ما في التضرّع إليه للعزف، تناول المنشار القديم في خضمّ التصفيق والهتاف. وفي حركة متقنة ببراعة: ـ انحنى هيكله الهزيل والطويل بشكل زاوية، وشعره منفوش وعيناه تنظران إلى السماء كأنه مايسترو حقيقيّ ـ بحيث خدع الجميع ومؤثراً حتى في المقدم بالذات وفي الدونا أورورا، فيما لم يخدش هو بملعقة قهوة، جسم المنشار. لكن مع الضربة الأولى أدرك الحاضرون جميعاً أنهم أمام مهزلة. وحده ليف استمرّ وكأنه عازف فعلاً ويمتلك المقدرة على إحداث الذّبذبة بضربات الملعقة على المنشار؛ لكن لا المقدم ولا زوجته أو أحدٌ من المدعوّين أظهر أدنى تعاطف مع فنّه وإصراره على متابعة العزف.

وتقدّم المقدم يتبعه بعض أصدقائه ممن ساءهم ذلك المزاح السمج. وكان اجتياز الممر

المؤدي إلى الباب الموصل إلى الشارع طويلاً ملحمياً، ولا يُنسى حقيقةً. سوف يتذكر إيديو وليف طيلة العمر الخنق والرّفس والتقريع، والسقطات. كان بودّ الدونا أورورا لو تقتلع عيونهما، لكن المقدم اكتفى بقذفهما إلى الشارع، وسط الناس رابطي الجأش ورموْا فوق الجسدين المتمدّديْن على الأرض المنشار الذي أصدر صوتاً ضئيلا :.

أما مع فادينيو وميراندون فلم يحصل شيءٌ من هذا القبيل، فلا المقدم ولا الدونا أورورا ساوَرَتْهما حولهما أدنى الشّبهات. فأكلا وشربا من أطيب وأفضل الموجود وراح فادينيو يرقص الڤالس حول القاعة، فيما كان ميراندون يتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان لزاماً عليه أن يقف منتصباً ليشرب باسم شيمبو، نخب المقدم والدونا أورورا. وابتسم جالساً في مقعده عندما سمع الدونا روزيلدا تسأله عن هوية الشاب الراقص، الفارس الذي يشكل ثنائياً مع ابنتها. فأجابها بسؤال مضادّ من أجل تحقيق أبلغ الأثر في نفسها :

- ألم يقدِّمه إليك المُقَدَّم ؟

- كلا. لقد كنت في الدّاخل هناك، فلم أره حينما وصل.

- إذن، أيتها السيدة المبجلّة، أتشرف بإعلامك. أنه الدكتور فادينيو غيمارايس، ابن أخي الدكتور آيرتون غيمارايس، المفوّض المساعد، حفيد الشيخ...

- لا تقل لي إنه حفيد الشيخ غيمارايس، هذا الذي يتكلم عنه الناس كثيراً!...

- هو بالضَّبط، يا سيدتي الفاضلة. صاحب النفوذ، الآمر الناهي، مسيح السياسة، إنه بالذات إشبيني...

- إشبينك ؟

- بالزيت المقدس[1]. وجدّ فادينيو.

- فادينيو ؟

- إنه لقبه، لقب الولد، الحفيد الأثير لدى الشيخ.

- هل هو طالب ؟

- أما قلت لكِ دكتور ؟ محامٍ متخرج ياسيدتي، موظف رسمي في ديوان الحاكم، بلدي

---

(١) CRISMA : زيت مقدس يستخدم خلال الطقوس الكنسية مثل العمادة وغيرها.

رفيع المستوى، مفتش...

- «مفتش على الرسوم؟» راحت هذه المعلومات تداعب أقصى آمال الدونا روزيلدا.

«مفتش قمار، يا صاحبة السيادة»، وهمس لها: - «إنه التفتيش الذي يعود عليه بثروة في الشهر، ناهيك عن الإكراميّات، فيش صغير هنا وآخر هناك... هذا، إضافة إلى كونه شخصاً مهماً في ديوان الحاكم...

وتمادى في السَّخاء، فسألها: «سيدتي أليس عندك قريب فقير يريد أن يتوظف؟ لو كان عندك، يكفي أن تقولي لي اسمَه..» أخذ نفساً عميقاً، راضياً عن نفسه واستمر بلا هوادة «أتريْنَه وهو يرقص؟ لا تعجبي إذا صار نائباً في الانتخابات المقبلة..

- ما زال صغيراً...

- ماذا تريدين يا سيدتي؟ لقد وُلِدَ وفي فمه ملعقة من الذّهب، وجد كل شيء جاهزاً، أمامه، دربه مفروشةٌ بالورد».

- كان ميراندون يشعر أنه شاعر المجد تلك الليلة إلى حدٍّ، أنه ارتجل خطاباً مهيباً استدّر الدموع من عينيْ الدونا أورورا نفسها، جنيّة ريو فيرميليو.

زمّت الدونا روزيلدا عينيها الصغيرتين وهي ترى أمامها لهيب طموحها يشتعل. وراح جوانزينيو نافارو ينهي التانغو بضربات عاطفيّة في حين يبتسم فادينيو وفلور كلّ منهما في وجه الآخر. ارتعدت الدونا روزيلدا من انفعالها؛ فلم ترَ يوماً وجه ابنتها على هذا النّحو، وهي تعرفها جيداً. وتساءلت: هل هذا الفتى هو المقدّر لها أن تحصل عليه إلى الأبد؟ كان على وجه فادينيو مسحة من البراءة، والطيبة والصراحة. وهاجت الدونا روزيلدا آه! أيها الرَّبّ دو بونفين[1] القادر على اختراع المعجزات: أيكون هذا الصهر الغني المهم الذي أرسلته إليها السماء؟ إنه أغنى وأهم من ابن بارا بيدرو بورجيس ما يملكه هذا الأخير من فراسخ الأرض وعشرات الخدم، إنه صهرٌ حفيدُ شيخ مقرَّب من الحكومة وهو بحدّ ذاته حكومة؛ «آه أيتها السيدة العذراء، احميني! لا تتخلي عني! أيها الرب دو بونفين

(١) DO BOMFIM: ذو النهايات السعيدة.

أحدك على هذه المعجزة وسأسير حافية القدمين في زيّاح[1] الغسل، أحمل زهوراً وإبريقاً فيه مياه نقية».

تقدم المقدم، فشكرت الدونا روزيلدا ميراندون، واتجهت نحو صاحب البيت، وأشارت إلى مجموعة تتألف من فادينيو وفلور والدونا ليتا وبورتو، في ركن من أركان القاعة. ولحظ ميراندون مناورة العجوز الشمطاء. فجاهد حتى وقف على قدميه، ومضى يحتسي كأسَ الجعة. وطلبت الدّونا روزيلدا من المقدّم:

ـ أيها المقدّم، قدّمني إلى ذلك الشاب...

«ألا تعرفينه؟ حسناً إنه قريب الدكتور آيرتون غيمارايس، المفوض المساعد، صديقي الحميم...» كان ابتسم بخُيَلاء مضيفاً: «بالنسبة إلى أصدقائه الحميمين، اسمه شيمبو... هو نفسه قال لي. بيرجينتينو نادني بشيمبو، ألسنا صديقين؟ إنه رجل مستقيم... أدى إليّ خدمةً كبيرة...» كان يتكلم ليسمعه الجميع، مبالغاً في صداقته مع المفوّض.

ضغطت الدونا روزيلدا على يد الشّاب. وأوضحت فلور:

ـ أمّي، الدكتور فالدوميرو...

ـ فادينيو بالنسبة إلى الأصدقاء...

ـ الدكتور فالدوميرو يعيش في حمى رئيسنا السامي، الحاكم، ويعمل في ديوانه...

ـ الحاكم يحبك كثيراً أيها السيد. حتى أنه قال لي اليوم بالذّات: «عانق صديقي بيرجينتيو، صديقي العزيز...»

احمّر المقدّم خجلاً من فرطِ سعادته!

ـ شكراً يا دكتور...

بورتو، الذي يشعر بالارتباك عندما يواجه مثل هذه الحميمية الأرستقراطية، علّق:

ـ مسؤولية كبرى... وأيضاً أهمية كبرى...

تظاهر فادينيو بالتواضع:

ـ تفاهات... بل إنني لا أدري ما إذا كنت سأستمر في القصر الحكومي..

---

(٢) موكب ديني من طقوس الكنيسة الكاثوليكية.

« ولماذا ؟ » استعلمَتْ الدونا ليتا .

ـ فأسّر لها فادينيو :

ـ جدي ، الشيخ . . .

ـ « الشيخ غيمارايس . . . » ، همست الدونا روزيلدا . فابتسم لها فادينيو ، واكتسى وجهه طيبةً ، وابتسم بحزن في وجه فلور ، الجميلة جداً :

ـ يريدني جدي أن أذهب إلى الرّيو ، يعرض عليّ مركزاً هناك . . .

« وأنت هل ستقبل أيها السيد ؟ » . سألت فلور وقد مات شيء ما في عينيها اللتين بلون الزيت .

ـ لا شيء يربطني إلى هنا . . . لا أحد . . . فأنا وحيد للغاية .

وتنهدت فلور :

ـ وحيدة للغاية . . .

وطلبوا المقدم ، إلى مائدة العشاء فلم تكن لديه لحظةً يستريح فيها كان عليه أن يقوم بتلبية حاجات مدعوّيه ، فهو مضيف ممتاز ، ثم صفّق أحدهم فوراً ، طالباً صمتاً مُطْبِقاً إذ سيحيي الدكتور ميراندا صاحبيْ البيت . وسُمع صوت فرقعة زجاجة شمبانيا تُفتح ، وطارت سدادتها إلى السقف .

مشى فادينيو وفلور مبتسميْن ليسمعا الخطاب ، « فخطاب ميراندون » نبّهها فادينيو ، « لا يُفَوّت » . وعلّقت الدّونا روزيلدا ، وقلبها يكاد يقفز من صدرها على مسمع الدونا ليتا وتاليس بورتو وهي ترى الاثنيْن يسيران نحو غرامٍ محتوم :

ـ ألا يشكلان ثنائياً متكاملاً ؟ أليس من الواضح أن أحدهما قد خُلِق للآخر ؟ إن شاء الله . . .

« ما هذا يا امرأة ؟ لم يتعرفّا ببعضهما البعض إلا اليوم حضرتك تعدين زواجاً بينهما ؟ هزّت ليتا رأسها ، معتبرةً أن أختها قد جُنّت بوسواس إيجاد عريس ثريّ لابنتها .

نفخت الدونا روزيلدا صدرها الأعجف وحدّقت بخيلاء إلى المتشائمة . ومن قاعة العشاء وصل صوت الخطيب صريحاً مبللاً بالجعة ، يشرب النّخب ويلقي التحية وتوجهت الأرملة

إلى هناك وكلها أمل. وحيّت الأكف عبارةً مفرِحة قالها ميراندون، ثم واصل رابط الجأش:

- سيّداتي سادتي، إن صفحات تاريخنا الخالدة ستظل تحمل بأحرف ذهبية برّاقة، الاسم المبجل للمقدم بيرجينيتو، المواطن البارز الفضائل (ورنّ صوته في القاعة باسم المقدّم)، واسم زوجته الفائقة النبل، زينة مجتمع الأرض الطيبة، الدونا أورورا، الملاك... أجل، إنها، سيداتي سادتي ملاك طاهر (وردّد الصوت المغرّد «طاهر») المزايا، الزوجة المخلِصة، عذراء البرونز...

وسط القاعة، وقف ميراندون الطَفيْلي ذراعه مرفوعة بكأس الشّمبانيا وقد استحوذ كليةً على المدعوين وعلى صاحبيْ البيت، وأسرهم ببلاغته. كان المقدّم يبتسم ابتسامة إلهية، وزوجته المخلصة، عذراء البرونز، غضّت من بصرها متأثرة: فلم تصِلْ حفلتها يوماً إلى هذا المستوى الرفيع من النّجاح.

- ... «الدونا أورورا، الإنسانة المحبوبة، القدّيسة، القديسة إلى أبعد حدود القداسة...».

وهنا فاضت عينيْ القديّسة بالدموع المحْرِقة!.

٩

انتهى الغزل بين فلور وفادينيو رأساً إلى الزواج، دون فترة الخطوبة المتعارف عليها. وسنبرّر ذلك حالاً بتقديم السبب وراء هذا الشذوذ عن المسلك المعتمد المألوف لدى كل العائلات المحترمة. لقد انقسمت فترة الغزل إلى مرحلتين واضحتي الحدود لكل منهما ميزات خاصة بها: الأولى، كلّها اطمئنان ومَرَح، ورديّة، آفاق مشرَعة، عيد حقيقي، وفاقٌ عالمي. أما الثانية فكانت في الخفاء كلها ارتباك وملاحقة ملوّنة بالسمّ والحِقد انفتحت فيها أبواب جهنّم وحَفَلت بالضغينة والنّفور، بحرب لا هوادة فيها. أثناء الفترة الأولى عجزت الدونا روزيلدا عن رؤية الحقائق، فكانت تذوب لطفاً وتفهّماً، وساهمت بإيجابية رائعة في إنجاح حكاية الغرام. ثم شوهدت بعدها تزبد وترغي مناديةً بالويل والثّبور ـ مشهد ربما هو أصيل لكنه لا يُسِرّ المشاهدين ـ مستعدة لتكريس جميع إمكانياتها لتمنع زواج إبنتها من ذلك النّوع القذر ـ « دودة، دُمَّل، خرّاج القيح »، النتانة هذه ـ « الدودة، الدُمَّلة، خرّاج القيح » ـ كان فادينيو الذي اعتبرته يوماً العازب الأفضل في باهيّا، طالب الزواج النّموذجي، الجميل اللطيف، صاحب القلب السخيّ، الشاب اللؤلؤة صاحب الخلق الطاهر، الماسيّ.

استمرت الدونا روزيلدا غارقة حوالي الشهرين بالسّعادة المتأتّية عن تلك الخِدعة الضاحكة والرّواية المعقّدة التي طرحها عليها ميراندون في حفلة المقدم تيريريكا، شهرين جديرين بالتذكر حتى عرفته من وطأة قدمه كل منطقة لاديرا وجوارها، خادعاً، حتى الزنجية جوفينتينا بمظهرها كسيدة، بل حتى الدكتور كارلوس باسوس وزبائنه المعروفين.

كان يؤكّد على نفوذه وقربه الحميم من الدوائر الحكومية، والأوساط العليا، بعلاقته الوثيقة بالحاكم. ناهيك عن استحواذه على ابنتها بغزله وأناقته الشرّيرة وفصاحته وحديثه العذب، وكلامه المنمّق. لقد جعلها تراه كالطفل الإلهي، وأصبح كل شيء بالنسبة لها. واعتبرت أن ذلك قليل، فكانت الدونا روزيلدا تحرص على إبهاجه، كي تمسك به وبربطه إليها.

ولكي يُبقي الدونا روزيلدا أسيرة عماها المطلق هذا، بالغ في إحاطة نفسه بشكل متعاظم بالغموض. وصودف أن إحدى صديقات فلور، زميلتها في المدرسة، الفقيرة سيليا، العرجاء، بحياتها المليئة بالحسرات القاسية، «كانت تقرض حافة الطشت» كما لخصت الدونا روزيلدا. اجتازت المرحلة التعليمية في مدرسة المعلمين، وحصلت على دبلوم كمدرّسة مرشَّحة لمركز في التعليم الابتدائي الإيالي، وهي تناضل منذ أشهر لتحصل عليه من دون نتيجة باستثناء استقبال مدير الثقافة لها. وكانت الدونا روزيلدا تكنّ لها تقديراً، وتحميها. ربما لأن الفتاة كانت جد بائسة ووضيعة، حتى لتبدو هي وفلور بقربها ثريتين. وكانت تصغي بكل جوارحها للعرجاء تشكو الحياة والكبار في العالم، راوية أموراً مريعة عن الموظفين، مظهرة خصوصيات سافلة لأولئك «الوطاويط مصاصة دماء الثقافة» كما كانت تفحّ من بين أسنانها المسوسة الداكنة. هناك كن يحصلن على التعيين فقط اللواتي يتقدمن إلى الوظيفة، وكلهن استعداد لقبول دعوات للتنزّه ليلاً في آمارالينا وبيتوبا وإيتابووا أو لحفلة صغيرة حميمة في شقة من شقق العازبين! أما هي الفتاة المستقيمة فلم يكن لديها حظ معهم، وطالما سخروا منها وهي جالسة على المقعد الجلدي في حجرة الانتظار. ولكثرة ما سخروا منها، صارت سيليا مخزناً للنكات اللاذعة السّيئة عن الموظفين ورؤساء الشعب، ناهيك عن مدير التعليم، الشخصية المنظورة والتي كانت طالبة الوظيفة المرفوضة تعلم عنه كل شيء: عاداته وأملاكه وما يُفَضّله وزوجته، وأبناءه والبغي التي يعاشرها، لم يكن يخفاها شيء. ومع هذا لم تحظَ يوماً بمقابلته لينظر في مسألتها البائسة.

وهكذا ذات ليلة في مستهل فترة الغزل، قدّمت فلور في بيتها إلى فادينيو المدرّسة القانطة وكانت قد انتهت مهلة تعيين المدرّسات الجديدات ذلك الأسبوع. كانت الدونا روزيلدا تحب أن ترى الفتاة موظفةً وتحب أكثر من ذلك أيضاً التّوكيد أمام الجارات على أن ما يحظى به الفتى طالب الزواج والصهر المستقبليّ من تقدير لدى أصحاب النّفوذ في

إدارة الدولة إنّما يوظّفه من أجلها هي، الدونا روزيلدا ، من أجل مَسَرَّتها.

كانت الأرملة بلا شك، أسيرة شبكة من أحابيل أضلّتها عن خداع ذلك المُحتال الذي يدور حول ابنتها، لكنها اقترفت خطأً حين أثنت على قلبه الطيب وهي تصف لمعارفها فضيلةً لديه لا تشوبها شائبة، ألا وهي أنه لا يسمح بمعاناة معيّنة ليست في محلّها. وحالما روت الدونا روزيلدا أمامه قصة سيليا، مضفية شيئاً من المأساوية على المسألة، مركّزةً على تشوّهها الخَلْقِيّ («حتى لو أرادت ذلك، فإنها عاجزة عن تقبل الدعوات الداعرة من أولئك الأنذال في الدائرة، فليس لديها ما تقدّمه») وغالت في المظالم، وبالغت في وصف جوع الفتاة وإخوتها الخمسة وأمها التي تعاني من الروماتيزم، وأبيها الخفير الليلي. وحالاً تعاطف فادينيو مع هذه القضية النبيلة، جاعلاً من نفسه بطلها. كان قد نوى في الواقع التكلم في الموضوع مع شركائه في لعب القمار ممّن لديهم نفوذٌ معيّن ـ فأقسم بجدّة أمام الدونا روزيلدا وفلور أنه سيُلِحّ على مدير التعليم صباح اليوم التالي حالما ينصرف من عند الحاكم، بأن يعيّن المدرِّسة فوراً. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. فقد عادت سيليا إلى المديرية عصر اليوم التالي تسأل عن التعيين والمركز الموعودَيْن.

ـ اتركي المسألة لي.. وردّدت الدونا روزيلدا:
ـ اتركي المسألة له...

لم تقل فلور شيئاً وإنما ابتسمت. ما همّها إن كان فادينيو يحظى بالتقدير الكثير أم لا؟ بل إنّها لتفضل أن يكون أقل نفوذاً وبالنتيجة أقل إنهاكاً في العمل. وقد انصرمت أيام من دون أن يظهر، من دون أن يأتي ليتحادثا أسفل الدرج، وحين أتى كان وجهه كالمستيقظ فجأة من النوم تَعِساً بسبب الليالي التي قضاها ساهراً يَصرِّف أعمال الحكومة!

كتب فادينيو لديه الاسم الكامل للمرشّحة إضافة إلى معطيات أخرى ضرورية. وكتبت سيليا مجدداً نفس الكلمات الباردة على قصاصة من الورق دون أي أمل؟ فطالما كتبتها دون نتيجة. طلبات وتوصيات لا تُعدّ ولا تحصى، بلا نتيجة. فلمَ سيقدر زير النساء المتأنّق هذا الذي له هيئة رجل محتال، ساخر، بالتأكيد، أن يحصّلْ لها في الحال على الوظيفة؟ الأب باربوزا نفسه أعطاها بطاقةً للمدير، وإذا كان الأب لم يستطع شيئاً. فكم بالحري حبيب

فلور هذا، ومن المفتقد إلى التقدير هل سيوفّره له هذا النوع من الناس؟ لم يكن شخصاً سيئاً، وكان يُرى بوضوح أنه لا يخلي بقسط وافر من النوم. لقد دأبت سيليا على اختزان الإحباط والمرارة وهي تجرجر ساقها العرجاء في قاعات مديرية الثقافة التي لا ترحّب بها، بحيث أن سعادة الآخرين لا تلين قلبها. حتى ولا جهود أولئك الراغبين في مساعدتها. فلقد كان قلبها جافاً وقاحلاً، راحت تكتب اسمي أبيها وأمها وتاريخ مولدها وسنة تخرّجها معتبرة ذلك هدراً لوقتها وجهدها، فهذا الرجل السيّء لن يتّخذ أي إجراء، لقد أتخمها هؤلاء التافهون المغرورون: مجرد وعود سهلة فقط لا غير. لكن «ما العمل؟» فالدونا روزيلدا واقعة تماماً تحت تأثير المزهوّ بنفسه. دكتور فالدوميرو تعالَ إلى ههنا، دكتور فالدوميرو اذهب إلى هناك، وسيليا تهدف إلى تناول عشاء المرأة العجوز ذات الحيوية. وبالنسبة إلى الشّاب يكفي المرء النظر في وجهه ليعرف قصده توّاً: يلتهم كل ما تقدمه له فلور من ذاتها، ثم يغدر بها ويختفي دون وداع ولا من يراه بعد ذلك.

بيد أن سيليا لم تكن مُحِقّة بالنسبة إلى فادينيو لقد قصَدَ الفتى أن يخدمها، فقام تلك الليلة بجولة استكشافيّة كاملة على بيوت القمار، ليصاب بنحس مزدوج: خسارة ما في جيبه، وعدم التقائه بأيٍّ من معارفه المهمين كي يكشف له مأساة المدرسة ويطالبه بتحقيق مطلبها: لا جيوفاني غيمارايس ولا ميرابو سامبايو ولا سميّه فالدوميرو لينس، لم يظهر أحدٌ منهم وكأنهم اختفوا جميعاً، تاركين الروليت والباكارا، الكبيرة والصغيرة والمستديرة والواحد والعشرين [١]. انتظر فادينيو طوال الليل، ولكن أهم من ظهر كان ميراندون فانتهيا إلى التوجّه معاً لتناول عشاء من الساراپاتيل [٢] الرائع في بيت أندريزا ابنة أوشون [٣] وإشبينة طالب الهندسة الزراعية.

وعلّق فادينيو في طريقهما إلى كوخ زنجيّة أوشون: «البنت منحوسة حقاً... عرجاء، عجفاء ناهيك عن هذا النحس كلّه...».

---

(١) ضرب من ضروب القمار.

(٢) SARAPATEL: كبد وكلى خنزير أو خروف يطهى مع المرق.

(٣) OXUM: ربة المياه والأنهار في الميثولوجيا الزنجية ـ البرازيلية ذات المنشأ الأفريقي. المقصود امرأة زنجية.

نصح ميراندون فادينيو بأن لا يضطرب. فهناك أناس مثل هذه الفتاة يعشقون البؤس، فلا جدوى من التصميم على إغاثتهم، ناهيك عن أن القلق يفقد الشهية. والساراپاتيل الذي تعده أندريزا مجيدٌ جدير بالاحتفال به حتى من قبل الدكتور غودو فريدو فيليو، رغم كل ما يتمتع به من سُلطة.

في اليوم التالي سيكون على فادينيو أن يقدّم تبريراً لفشله وفي النهاية أن الفتاة القلقة قد انتظرت مطوّلاً ولن تنتحر بسبب يوم أقلّ أو يوم إضافي تنتظره. أما الساراپاتيل الذي تقدمه إشبينته أندريزا، فبأي عبارة وصفه بالضبط المعلم غودو فريدو؟ أو بالأحرى شعر المعلم غودو فريدو؟

لم يلتقيا إلى مائدة ابنة القديس سوى الشاعر غودو فريدو بالذات، يشرّف طعام أندريزا، ولا يُسَوِّف في إطراء التوابل والطّاهية: قطعةٌ ملكية هي هذه الزنجية، نخلةٌ إمبراطورية، نسمةٌ صباحية، حيزوم المركب. وكانت اندريزا تبتسم بكل نسبها وملوكيتها، وهي تفرك توابل المرق.

حتى ميراندون: «أنظروا من هنا! عزيزي الأزلي، معلمي، إنني أركع أمام ثقافته».

- «كلّنا نجثم راكعين أمام هذه الساراپاتيل الإلّهي» - ضحك الشاعر وشدّ على يديْ الشابيْن.

جلسا وسرعان ما استشفّت أندريزا القلق على وجه فادينيو. إنه دائم الفرح وشديد السخرية زاخر بالمكر والحيلة، فما الذي دهاه ليعتريه الغمّ ويكتسي وجهه بالكآبة؟ أخبرني يا قديسي، إغسل روحك، ضع المنغّصات خارجاً. أندريزا المرتدية ملابس صفراء، أساور في ذراعيها وعقوداً حول عنقها. هي أوشون ذاتها متحوّلة بكلّ خيلائها وجمالها. أخبرني يا رجلي الأبيض، لا تبق مكتئباً، فزنجيتك هنا لتصغي إليك وتؤاسيك.

جلسوا إلى المائدة الممسوحة تتضوّع برائحة البتولا، والأرض المعطّرة بأوراق كبش القرنفل. بين الساراپاتيل وكاشاسا سانتو آمارو الصافية، روى فادينيو تعاسة المدرّسة الابتدائية البائسة تأثّرتْ الزنجية الجالسة على الوسادة بما رواه، فضغطت بيدها على صدرها الذي يتنفس بصعوبة.

« يا للفتاة المسكينة بتشوهها الخَلْقِيّ وجوعها ، ورغم رغبتها في العمل تظلّ بَلا وظيفة ! تُرى ، ألا يستطيع غودو ، الذي يظهر اسمه في الجرائد ، وهو نفسه موظف رفيع المستوى ، أن يقول شيئاً ، أن يتحرّك من أجل البائسة الصغيرة ؟ » ارتعـدَتْ أنـدريـزا وهـي تتضرع . لفادينيو الحقّ بأن يكتئب ، كيف يشعر إنسانٌ ما بالفرح بينما هناك من يعانون على هذا النحو ، حياةً قاسية للغاية ؟ ولامَتْ نفسها لأنها طلبت الاستماع إلى هذه القصة البشعة : فلن تستطيع التبسّم بعد اليوم إلا إذا علمت أن الفتاة قد عُيّنت . وعد الشاعر غودو فريدو بالتوسّط ، فربما استطاع أن يفعل شيئاً من أجلها حين تعود إلى المديرية ؟ في اليوم التالي . . . بل عصر ذلك اليوم بالذات ـ إذ الفجر كاد أن يطلع ـ هكذا كانت حال فادينيو . . حسناً ، مهما كانت هويتها فسينظر غودو فريدو في أمرها . . . لم يوضح لهم أنه قريبٌ مباشر لمدير الثقافة وصديقه الحميم وأن طلباته أوامر مُجابة . فلم يكن يحبّ أن يعرض عضلاته رغـم رواج قصائده في ماندر . كل ما يريده هو إعادة البسمة لأندريزا ، فالليل حزينٌ من دون ابتسامتها والدنيا قاحلةٌ باردة .

هكذا ، عصر اليوم التالي ، جرّت سيليا قدمها العرجاء بمثابرة ، لكن بشتائم على الدرج ودلفت إلى حجرة الانتظار في ديوان مدير الثقافة ، فوجئت مفاجأة عظيمة عندما قام أمين سرّ سعادته يحييها بشوقٍ وحرارة ، وطالما كان معها جافاً فظّاً :

ـ الدونا سيليا كنت أنتظركِ يا سيدتي . تهانيّ ، فتعيينكِ قد صدر ، وقد وُقِّع

« هيه ؟ ماذا ؟ » ، ارتعدت المدرسة الصغيرة

وازدادت لطافته وهو يُسِرُّ لها :

ـ اسمعي ما أقوله لكِ . . . أول ما فعله المدير حالما وصل . . . لابد أن شخصاً على أرفع المستويات قد أعطاه الأوامر ، لا أشكّ في ذلك لقد كان آخر مركز شاغر ، فكلها كانت محجوزة أتريدين النصيحة ؟ اذهبي حالاً وقدّمي نفسك ، لا تهدري الوقت .

قدّمت نفسها وتسلّمت منصبها ، وجمعت عائلتها الهزيلة ومضت إلى الطابق الأول في آلفو لتقديم الشكر . « شخص ما على أرفع المستويات » ، أخبرت الدونا روزيلدا التي رددت كلماتها ، وهي تتذوقها بلسانها ملتذّة بها وتلفظها ملء فمها ، كان لها مذاق السُّلْطة . ثم عبّرت عن رضاها : « ما كنت أنتظر تعييناً سريعاً كهذا ، صاعقاً ماحقاً لا بد أنّها أوامر مباشرة من

الحاكم بالذات. الحاكم يا ابنتي، الحاكم بالذات لا أي شخص آخر ففادينيو يصدر الأوامر ويلغيها في الحكومة.

وعـرف النبأ طريقه إلى لاديرا، حتى إذا ما قدم فادينيو ليلاً آملاً في الاختلاء بفلور وحيدين في عتمة الدّرج رحّبت به شبه تظاهرة تقدير من الجيران. وفوجئت الدونا روزيلدا بعبارات الشكر والعناق والتمجيد في إفراط هستيريّ. كان الشاب قد قضى النهار نائماً وقد نسي تقريباً شقاء المرشحة التي لا تنسى. فقال: «آه! ليس هذا بشيء، لستم مدينين لي بأيّ شيء، اعملوا معروفاً!».

لقد وفى الشاعر بوعده وفعل ذلك من أجل أندريزا أكثر مما فعله من أجله هو فادينيو. لكن كيف يـوضـح لهم الحقيقـة، ويكشـف الحيلـة؟ كلا، إن الدونـا روزيلـدا وجيرانها، والمدرّسـة التي تـذوّقـت طعـم المرارة وأهلها الهزالى الوسخين، بلـون القـذارة المتجمعين هناك ليشكروه، لن يفهموا أبداً الطرق المعَقَّدة التي يسير عليها العالم والبشر، لن يصدقوا أبداً أن سيليا مدينة بتعيينها لزنجية طاهية أفقر منها بكثير، مرحة في كوخها المصنوع من الخشب عند شاطىء البحر في «آغواس ده مينيونوس» تزوّد عمال القوارب والحمّالين بوجبات الطعام، إنها الزنجية أندريزا ده أوشون.

واشتهر الأمر فانهالت عليه المطالب كالمطر: من تـوسلات بتعيين مـدرّسـة ابتـدائيـة أجـرت ثماني مقابلات في أقل من أسبوع، إلى مطالبته بوظيفة سائق ترام أو مفتش ضريبة الدخل. لم يعد هناك من مرشح يتطلّع إلى أحد المراكز إلا وتملّق الدونا روزيلدا، إلا وصفّق بيديه [١] أمام باب المنزل المؤلف من طبقتين في لاديرا دو آلفو. حتى وظيفة قندلفت في كنيسة كونسيبسون دا براتا، التي سمعت أنها شغرت، لكن لم تتأكد من ذلك حتى قصدوها ليطلبوا منها المركز. لن يستطيع فادينيو أن يكفي الجميع حتى لو كان حاكماً ومطراناً، في نفس الوقت.



(١) العادة في البرازيل أن يصفق الغريب أمام باب البيت الذي يقصده.

١٠

سكِرت الدونا روزيلدا بنواقيس السلطة، واستطابَتْ مذاق الشّهرة الذي لا يضاهى؛ في حين راح فادينيو يقرع نهدي فلور الصّلبين في عتمة الدّرج، ويتحسس المذاق الذي لا يضاهى من فمها المرتجف والظامىء عاضّاً على شفتيها. ويكشف لها عالماً من المتع المحرّمة، منتصراً كل ليلة من ليالي الغزل على قطعة من جسدها ومن مقاومتها، ومن حشمتها، بقدراتها الهاجعة. وكانت الرغبة تستنفدها كشعلة ضارية، فتضطرم النّار في رحمها، لكن فلور حاولت أن تسيطر على نفسها وتسحق رغباتها. لكنّها أحسّت أنها تصبح مع مرور الأيام أقل هيمنةً على رغبتها الخاصة بهشاشة رفضها وضعف ممانعتها، وأنها تصبح عبدةً للشابّ الجسور الذي تمكن تقريباً من كل جسدها المشتعل بحمى لا دواء لها، أواه، لا دواء!

يا له من سفيه فادينيو هذا! لم يعلن لها حبّه أو يعرض أحاسيسه الغراميّة، لم يطلب منها إلا السماح له بمغازلتها وبدلاً من العبارات الشاعرية والكلمات المنمّقة، كان يُسمعها مفاهيم مشككة، تلميحات رذيلة. وبينما كان يصعد درج لاديرا دو آلفو، وراء فلور (التي كانت عائدة من بيت خالتها ليتا في ريو فيرميليو، بعد أيام من حفلة بيرجينتينو) همس السفيه عند قراءته الإعلان عن «مدرسة الطهي» في أذنها، في وشوشة رومانطيقية كمن يتصنّع ملاطفة بريئة:

- مدرسة الطّهي تذوّق وفن.

ثم كرر:

- «تذوّق وفن...» خفض صوته فيما شاربه يداعب أذن الفتاة «آه! أريد أن

أتذوّق...». لم يكن هذا الجناس اللغويّ ينم عن ذوق رديء فقط بل كان بمثابة إعلان صريح عن نواياه الدنيئة، ونواياه بالنسبة للمغازلة.

لم يسبق لفلور أن كان لها حبيب مثله، فهو جد مُختلف عن الآخرين، وما كانت تتصور أن تقع في الحبّ هكذا. فكيف لم تطرده فوراً؟

ما كانت فلور من الفاسقات اللواتي يلازمن النّوافذ ولهنّ قصص غرامية فاضحة عند زوايا الشارع، عند أسفل الدرج ووراء الأبواب. لم يجرؤ أيّ ماجن على أن يذهب معها إلى ما يتجاوز قبلةً خجولة. أما بيدرو بورجيس فحالما ظهر أمامها نفرت منه. يكفي أن يمدّ الوقح يده الجريئة ليلمسها، حتى تتّقِد غيظاً وتبعده؛ كانت تحفظ نفسها كليّةً لمن ستقَع في حبّه. لذلك لن ترفض له شيئاً، لذلك، لم تصرف فادينيو هذا عنها كما صرفت الآخرين قبله، بلا فظاظة ولا فضائح، لكن بحسم نهائي.

لم تصدّه إلا في المرّة الأولى ولم يكونا قد تعرّفا إلى بعضهما البعض إلا منذ ساعات قليلة. حدث ذلك في أحد باندو آنونسيادور»[1]، اليوم التالي لحفلة المقدم تيريريكا جاءت فلور بصحبة صديقاتها يقمن الحلقات الرّاقصة فظهر فادينيو مقترباً منها. عندها ابتعدت الأخريات ضاحكات: مؤكدّ أن ساعة الإعلان الذي لا مناص منه (إعلان يتخذ منحى عنيفاً أو مَرِحاً حسب مزاج طالب الزواج ورغبته وهناك من كانوا يتهيّبون الموقف فيفضلون أن يعلنوا عن أنفسهم بالرسائل، مستخدمين، إذا لزم الأمر، مساعدة «أمين سر العشاق»). لقد قدمن وهن يعلّقن على الفتى الماجن الذي لم يترك فلور بمفردها في الحفلة بل شكل معها ثنائياً دائماً. سوف يعلن عن نفسه الآن، حانت اللحظة الحرجة، على التوّ قرّرت الفتاة حق منح إجابته بالقبول أو أن تطلب وقتاً لمزيد من التفكير لا أكثر من أربع وعشرين ساعة. وأعلنت فلور لصديقاتها قصدها في أن تترك فادينيو يقاسي بضعة أيام، لكنهن شككن في ذلك، فهل لديها الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة؟

لم يفتح فمه بأيّ تصريح ودارت بينهما محادثة مسلّية حول مسائل متنوّعة؛ كم هو رائع فادينيو هذا! كانت ثمة حلقتان من حلقات الكرنفال تمرحان بكل حيوية وتحدٍّ، لصق الجدار

(١) مناسبة احتفالية في البرازيل يعلن فيها كل فتى رغبته في فتاة معينة.

الخارجي لكنيسة سانتانا، فانتهز حالة الهياج الناشئة عن لجوء الناس إلى هناك مضغوطين، ليلتصق بها ويحتضنها من الخلف، مغطياً نهديها بيديه، مقبّلاً عنقها بنهم. وكانت ترتعد وعيناها شبه مغلقتين، وسمحت له أن يفعل ذلك وهي تكاد تموت خوفاً وبهجة.

مرّت أيام الغزل الأولى دون تصريح شكليّ أو موافقة شكلية لكنها كانت أياماً لا تُنسى. وكان من عادة فلور أن تقضي بعض الوقت مع خالتها وزوجها في الصيف وفي الأعياد في الحي، كانت تحبّها جداً، ففي شهر شباط كانت مدرسة الطهي تغلق أبوابها [١].

كانت تأتي إلى الموكب [٢] ممثّلة شخصية يمانجا [٣]، في الثاني من شباط حينما يقطع ملاّحو القوارب الأمواج حاملين الزهور والهبات للدونا جانايينا [٤]، أم المياه، والعاصفة، والصيد، والحياة والموت. كانت تقدم لها مشطاً أو قارورة طيب أو خاتماً مبتكراً. تقطن يمانجا ريو فيرميليو وينتصب معبدها [٥] على رأس من الأرض فوق المحيط.

كانت تلهو برفقة فتيات الحي في برنامج احتفالي مكثّف: في الصباح استحمام في البحر، وبعد الظهر نزهات إلى منارة الميناء في آمارالينا، وأحياناً كنّ يذهبن حتى إلى بيتوبا؛ ثم التدرّب على دورة الكرنفال؛ عجلة مرحة ونزهات إلى إيتابووا يتناولن فيها الطعام في الهواء الطلق، أو في منزل الدكتور ناتال، وهو طبيب صديق للعم بورتو، أو في بحيرة آبايتيه، مع قيثارات وأغان، معارك بقصاصات الورق الملونة. وفي الليل كن يدرن في ساحة كنيسة سانتانا أو في ماريكيتا، بين الأكواخ الملوّنة، حين لا يكون ثمة رقص مُبرمج في مساكن العائلات الصديقة فيجتحن قاعة الزوار ويحتللنها ليقمن حفلة رقصٍ سريع مُرتجلة.

منزل بورتو المزهر بالطلح والنباتات المتسلّقة، كان يقع في لاديرا دو باباغايو ودوماً يخرج العم بورتو أيام الآحاد مع عاشق رسم آخر وهو سيد من ولاية سيرجيبي مقيم في

---

(١) شباط في البرازيل من أشهر الصيف.

(٢) موكب يسير فيه الناس وراء محمل عليه تمثال.

(٣) YEMANJA: ربة الأنهر والمياه في الميثولوجيا الزنجية ـ البرازيلية ذات المنشأ الأفريقي.

(٤) JANAINA: إحدى الآلهة في الميثولوجيا السابقة الذكر.

(٥) PEJI: معبد لعبادة وثنية.

لارغو ، لا نظير له في حيائه وخفره. يدعى جوزيه ده دومي ، فيخرجان ويرسمان سلسلةً من البيوت والمناظر الطبيعية. وقبل سنتين ، حين رحلت روزاليا وأنطونيو موررايس إلى الريو ، أحست فلور الحزينة الوحيدة ، بميل غامض إلى الرسام الذي صار رجلاً ناضجاً ، في سنيه الأربعين لكنه يبدو أقلّ سناً ، هجين قوي وجاف. وتغلّب على خجله الشديد يوماً ليقترح عليها أن يرسم صورتها ، وشرع برسمها على لوحة بألوان طينية وصفراء صارخة ، تغيّر معه لون فلور النّقي. « عمل مجانين ، هراء ، وبعبارة أخرى هذا الشخص أبله » ، حددت الدونا روزيلدا التي لا تفهم في الفن شيئاً ، ما عدا أوراق الزينة ، عندما رأت تلك الألوان الصارخة وذلك الضوء الفاقع. ولم يتوصل جوزيه ده دومي أبداً إلى إنهاء الصورة. قبل كل شيء لم يكن لديه متسع من الوقت ، وكانت فلور تعود إلى لاديرا دو آلفو ، واعدةً إيّاه بأن تأتي لتقف أمامه أيام الأحاد ، ولم تفعل ذلك مطلقاً. فهي قلّما تفهم رسم السيرجيبي. كانت تتعاطف ، أجل ، مع ابتسامته ووحدته. بيد أنّ ذلك الإحساس لم يبلُغ الحب ، فلا يمكن أن نعتبر حباً فترات الصمت الطويلة وتلك الابتسامات السريعة في ساعات الوقوف أمامه. لم يكن أكثر من ميل آني لا يدوم إلا أيام الصيف. غير قادر حتى على إزالة خجل الفنان. وعند عودتها إلى ريو فيرميليو تلتقي فلور مجدداً صديق العم بنفس التودد ، لكنها تكسر افتتان العطلات السابقة ، كما لو أن شيئاً لم يحدث بينهما. وبالنسبة إلى الصورة ، ومتى تنتهي ، فما تزال إلى اليوم على جدار مشغل الرسّام ، في الطابق الثالث من بيت عتيق ، متعدد الطّوابق ، في زاوية ساحة سانتانا ؟ يستطيع كل من يريد أن يراها ، شرط أن تكون لديه الشجاعة لارتقاء السُّلّم الذي نخر السوس درجاته.

الأمر مع فادينيو مختلف تماماً... لقد سيطر عليها وقرّر مصيرها كأنه انهيار ثلجي لا يمكن كبحه أو إيقافه. وأدركت فلور في نهاية تلك الأيام المتكاملة السريعة في ريو فيرميليو ، أنها لن تقدر بعد اليوم أن تعيش من دون لطف الشاب وفرحه وحضوره المجنون. وفعلت كلّ ما طلبه هو منها : فلم ترقص في الحفلات الصغيرة إلا معه ، وراحت تتأبّط ذراعه في مهرجانات الكِرْمِس في الساحة ، كما انحدرا معاً نحو عتمة الشاطىء كي يتبادلا القبلات بشكل أفضل في ظلمة الليل ، على حدّ قوله. وراحت تتحسّسُ بارتعاش اليد التي تداعبها وهي تصعد من تحت فستانها مضرمة النار في أعلى فخذيها وفي ردفيها. أما الدونا روزيلدا فمن كان يتخيّلها ديمقراطية هكذا تسمح بهذا القدر من الحرية ؟ كانت تغمض

عينيها عن سوء التصرف الواضح لذلك الحب الجامح وغير المراقب؛ حتى أن الخالة لبتا، القليلة التمسّك بالتقاليد القديمه أبدت استغرابها وحذّرتها:

ـ ألا ترَين يا روزيلدا، أن فلور تنجرف مع هذا الشاب؟ يخرجان معاً إلى كلّ مكان كأنهما مخطوبان، ولم يتعرفا إلى بعضهما بعضاً إلا قبل أيام...

أتت ردة فعل الدونا روزيلدا هائجة تنذر بالشّجار:

ـ لا أعلم أي شيطان يدفعك أنتِ وزوجكِ ضدّ فادينيو... لمجرّد أن الفتى ثري يشغل منصباً بارزاً! هذه مجرّد شائعات ضدّه؛ لا أدري لِمَ تسيئان الظّنّ به... إنكما متأثران أكثر مما يلزم بذلك القذر البائس المدّعي أنه رسّام؛ ولو كان الأمر لكما لأعلنتما زواجه بابنتي هذه الساعة، هه كما لو أنني أرضى بتقديم ابنتي لهذا الصرصار!!. إنكما لا تظنّان بفادينيو إلا السّوء. إني لا أرى أكثر من أنه يغازل فلور، وهي في العمر المناسب للزواج، وحين أصغى رب النهايات السعيدة لدعائي، وأرسل لي وسيلة كهذه تحقق أحلامي، تبدأين أنتِ وبورتو تزعجانني بطنينكما، فتريان هذا وذاك... اتركيني في حالي يا امرأة، انتبهي...

ـ إني لا أرى شيئاً، يا قديستي، أنتِ انتبهي. كنت أتكلم فقط... لِمَ أنتِ مشحونة هكذا بالتوتر والألم؟ يكفي أن يرى الناس فتاةً تمرُّ بمفردها مع فتى فيقال عنها حالاً إنها فتاة ضائعة... والآن تحولت المياه إلى نار، وفقدت الفتاة مقاومتها...

ـ هل تعتبرين أنها أصبحت فتاة ضائعة؟ إذا كان هذا ما ترينه فقولي حالاً...
ـ مهلك يا روزيلدا، فأنتِ تعلمين أني لم أقل ذلك..
أنهت الدونا روزيلدا المناقشة قائلة:
ـ إني أعلم ما أفعله، فالبنت هي ابنتي، سيتزوجان فليساعدنا الله، هذا العام...
ـ يمكن أن يصير، إن شاء الله...
ـ يمكن أن يصير؟ سيصير حتماً... لا تأتيني بأهزوجة باللهجة العامّيّة، فأنتما تنفُران من فادينيو...

كلا، لا أحد يبدي نفوراً من فادينيو، لقد أغوى الجميع بفصاحته وخياله: أغوى أولاً معارفه في ريوفيرميليو، وبعدهم الذين في لاديرا دو آلفو. والدونا ليتا وبورتو يعتبرانه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صديقاً لهما ويرغبان في رؤيته زوجاً لفلور، فيما تنكر الدونا روزيلدا رغبتهما هذه، وتراقب نزوات العاشقين.

نزوة واحدة فقط في الحقيقة هي أن ينفرد بفلور ويحتضنها، ويتغلب على مقاومتها وحيائها، وراح يمتلكها شيئاً فشيئاً، في كل لقاء. لقد قيّدها إليه بحبال الرغبة، بيد أنه قيّد نفسه بها أيضاً، فصار اسير هاتين العينين اللتين بلون الزيت والدهشة فيهما، أسير هذا الجسد المزبجر المذعور، الشره إلى اللذة، المردوع بالخجل، وأسير أولاً لوداعة فلور، لجوّها البيتي، لبيئة بيتها بالذات ونفسها اللطيفة البسيطة بجمالها الهادىء، وهو جوّ سحر فادينيو سحراً.

ولم يكن قد عاش يوماً حياة عائلية حقيقية: لم يعرف أمّه التي ماتت لدى الولادة، أو الأب الذي اختفى باكراً من حياته. كان نتاج علاقة عابرة بين الابن البكر لأبوين برجوازيين ميسوري الحال وخادمة البيت، وكان آنذاك عازباً. لكن حالما تزوّج زواجاً محظوظاً حاول الخلاص من ابن الزنا، الذي كانت زوجته التقية الأمية، تحسّ تجاهه برعب مقدس - «ابن الخطيئة!» فادخل إلى مدرسة رهبان ثانوية داخلية، واجتاز فادينيو كلّ العوائق حتى وصل إلى سنته الأخيرة في الدراسة الثانوية. لكنه لم يجتزها. فقد هام، في أحد آحاد الزيارات، بوالدة زميل له، وهي أربعينية تلفت الأنظار وزوجة تاجر في سيدادي باشا [1]، وكانت معروفة في أوساط المجتمع الراقي في العاصمة بأنها أسهل العاهرات فيه؛ وكان عشقاً ملتهباً متبادلاً.

كما كان عشقاً رومانطيقياً أيضاً. وقد ألقت المرأة المشهورة عليه نظرة من عينيها الفاترتين، فتنهّد فادينيو وراح يدور حولها في قاعة الزيارات في المدرسة الكئيبة كسجن. سجن محزن للأولاد. كانت تعطيه الشوكولاته والبسكويت من لفّة تجلبها لابنها. وقدّم فادينيو لها زهرة أوركيديا خفيةً، سرقها من البيت الزجاجي في حديقة الرّهبان. وفي يوم خروجه المقرّر (الأول من الشهر - وهو يوم أحد لم يكن أحدٌ ما يأتي ليأخذه، وهو لا يعلم إلى أين يذهب) أخذته لتناول الغداء في بيتها، وهو قصر في لارغو دا غراسا وقدمته إلى زوجها:

---

(١) CIDADE BAIXA: المدينة الواطئة، المقصود حي من أحياء المدينه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ زميل زيزيتو ، يتيم لا عائلة له . . .

كان زيزيتو فتىً شبه أبله يربي سمك البـريـا [1] وفي أيـام الآحـاد التي يخرج فيهـا مـن المدرسة ، يكون لديه قليل من الوقت ليدرك ما يجري حوله حيث يقضي وقته في قعر المنزل مع قوارضِه الصغيرة ، فيما يغطّ التاجر في قيلولته . وسرعان ما جرّت المرأة فادينيو إلى حجرة الخياطة ، تغمره بالقبلات والحنان ، وتمتلك جسده « يا ولدي ، يا ولدي التلميذ الثانوي ، يا تلميذي ، إني مدرّستك ، أوّاه يا فتاي » . كانت تعلم كم هي ظريفة كمدرّسة ، وعلمته .

ـ كيف كانت تعلّمه !

لقد نما العشق ، نهماً ووحشياً . وكانت تعبّر عنه بتأوّهاتها وأقسامها : « لن تحب أحداً أبداً » ، ظلت تردّد له تلك السافلة الهادئة ، مضيفة أن فادينيو هو عشيقها الأول ، وأنها لا ترغب في أي شيء قدر رغبتها في الفرار معه إلى حيث يعيشان غرامها الكبير ، مختفيين في أيّ ركن منعزل لكنه للأسف تلميذ داخلي في مدرسة ثانوية . . .

وسألها « إذا خرجت من المدرسة الثانوية فهل ستأتين لتعيشي معي بالفعل ؟ » .

وهرب من المدرسة ، ظهر أول الليل ليأتي بها ، ليحررها من « البرجوازي الوغد » الذي طالما عذّبها وأشعرها بالضعة عندما يمتلكها . استأجر حجرة بائسة في بنسيون من الدرجة الثالثة ، واشترى خبزاً ومارتاديللا (كان يعبد المارتاديللا) ونبيذاً رديئاً وباقة زهور . وبقيت لديه بعض ألوف الريالات [2] : فزملاؤه المتعلّقون به قاموا عندما وقفوا على المسألة بالتضامن معه واجتمعوا لتمويل عملية فرار العاشق . فبالنسبة إليهم كان فادينيو المتحدي .

وكادت السيِّدة المبجّلة أن تموت فزعاً حين اجتاح بيتها بينها زوجها في القاعة المجاورة ينكش أسنانه ويقرأ الصحف . وردت عليه ساخطةً بأنه مجنون بالتأكيد . فما كانت مغامرة بحيث تترك بيتها وزوجها وابنها وترفها ومكـانتهـا في المجتمـع لتـذهـب وتعيش بشقـاء وفضيحة عشيقة لطفل . فادينيو بلا عقل ، وربما إذا عاد إلى المدرسة ، لم ينتبهوا إلى فـراره

---

(١) PREA : نوع من السمك متوحش يهاجم حتى الإنسان رغم صغر حجمه ، يعيش في أنهر البرازيل مثل الأمازون وسان فرانسيسكو .

(٢) كل ألف ريال أو ريس يساوي كروزيرو واحداً في العملة البرازيلية السابقة للكروزادو ـ الحاليه .

وفي الأحد، أحد الزيارة المقبلة تعدُه بأنّها... آه!

لم يشأ فادينيو الإصغاء إلى وعدها بل تملكه الغيظ والعار، وأحس بأنه مخدوع. ومن دون أن يأخذ في الحسبان قرب التاجر بقرنيْه، أمسك بشعرها الطويل المصبوغ بالأوكسجين، وصفعها على وجهها مراراً، ونعتها بصفات حقيرة حتى تجمّع لإسعافها لا الزوج والخدم فقط، بل أيضاً الجيران في شارع لارغو دا غراسا الأنيق. ويشهد فادينيو فيما بعد أنّ ذلك اليوم جعل منه رجلاً، ورجلاً حقيقياً إلى الأبد وأنه استفاد من تجربته تلك.

بعد هذه الفضيحة تسلل فادينيو إلى حياة الليل في المدينة، غلاماً في السابعة عشرة من عمره. فأعجب أناكريون، وهو من روّاد بيوت القمار المشهورين، موزّع روق رفيع الأسلوب. لا يضاهيه أحد ما، في تعريف عديم الخبرة على المهارة، وتدريبه على الخفّة في لعب الزّهر، والواحد والعشرين [1]، والباكارا والروليت، والبوكر وتعريفه إلى ديالكتيك موائد الروليت وتصوّف الزّهر، ولم تكن لديه الكفاءة فقط بل كان صاحب قلب وفيّ كذلك لمن يواجهون الحياة، من النمط الذي يكثر الشكوى.

وحصل لقاء سريع بين فادينيو وأبيه، رفض فيه العودة إلى القسم الداخلي في المدرسة، فرفض غيمارايس السّافل في المقابل أن يعطيه بركتَهُ أو أي مساعدة مالية. «فلا موارد لديه لإعالة الفوضوي». لقد أصبح بخيلاً أخلاقياً بعد حصوله على ثروة امرأته، ناهيك عن ان اسمه أصبح يذكر في أعمدة الصحف في باب المجتمع، ثم تناهت إليه شكوك جدية بصدد أبوّته لفادينيو: هل هو ابنه فعلاً؟ فالديتي المتوفاة كانت تتهمه بين القبلات، بأنه صاحب عذرتها وأنها حبلت منه. لكن أيمكن أخذ كلمة خادمة في البيت كوثيقة يجب أن تُصَدَّق؟ كما أكّدت صديقاتها الباكيات على جثمانها أنها ما عرفت قط رجلاً غيره. لكن كلمة هؤلاء الخادمات لا تقدّم ولا تؤخّر، فهل يمكن الحصول على برهان قاطع مهما كان؟ لقد حدث ذلك منذ وقت بعيد ـ وذكريات الشباب مضطربة. أثناء مراهقة لا مسؤولةٍ حمقاء. ربما يكون ابنه، وربما لا يكون. فمن يستطع الظهور ليبرهن ذلك علناً؟ أين الدليل الأكيد؟ المؤكد فعلاً أن فادينيو هو ابن عاهرة، بل ابن عاهرة من أردأ صنف؛ وها هو حين لا يزال

---

(١) ضرب من القمار.

ولداً يحاول انتهاك عرض سيدة شريفة طيبة، أمّ زميل له، استقبلته في بيتها كابن لها... وصنّفَ شيمبو أبا فادينيو الذي لم يرحّب به يوماً في العائلة الكريمة العالية المقام، قائلاً: «لقد كان غيماريس والد فادينيو مسحوقاً تحت وطأة الحياة».

منذ ذلك الوقت، لم يعد يشتَمّ لا من قريب ولا من بعيد عطر الإحساس العائلي لكن ذلك لم يسبّب له أية عقدة نفسية. فحياته العاطفية كانت ثرية ومتنوعة.

كان له عشيقات كبيرات في السن، من مختلف المراكز الاجتماعية ومن مختلف الألوان. وكان يقضي معهن وقته معظم الأحيان في شقق العازبين والكاباريهات حيث يغازل الجانحات، ويتخذ العشيقات، إضافة إلى مغامرات مع متزوجات من دون أن يكون لأيٍّ من هذه الارتباطات قوة الحب. لم تجعله أية مغازلة يشعر بامتلاء الحياة أو ألقها، ولم يجعله غياب أي أنثى عن مسرح حياته أو غرام ما يوماً مهموماً ضائعاً ميّالاً إلى الانتحار. كان يرحل من جسد امرأة إلى أخرى كما يتنقل من مائدة لعب إلى أخرى حين يخذله رقمهُ السبعة عشر.

ثم التقى بفلور في حفلة المقدم، ودون إنذار اشتعلت فيه ثانية تلك الحاجة القديمة للبيت ولحياة الأسرة والمائدة المبسوطة والسرير عليه الملاءات النظيفة. لم يكن لديه حتى عنوان ثابت، متنقّلاً من نزل رخيص إلى آخر شهرياً لعجزه عن الدفع. كيف تنتظر أن يهدر مالَهُ على الإيجار وهو لا يملك إلا القليل منه للعب؟

أعطت فلور حياته مذاقاً جديداً، الهدوء والطّمأنينة، مذاق الحنان العائلي:

ـ أحبكِ لأنكِ هادئة كحيوان صغير يا حبيبتي...

وهكذا كان مفتوناً بها إلى حدّ تحمل أمّها، العجوز المُرعبة، اللجوج، المثيرة للسخرية والإحباط. كان يحب بساطة الفتاة ووداعتها ومرحها المطمئن وتهذيبها، مناضلاً يومياً ليكسر مقاومتها وينتهك عفتها، وفي الوقت نفسه يحسّ بالفخر والرّضا بحيائها وبرصانتها. ولماذا كان عليه أن يُروّض هذا الخفر ويختزل متعة استمتاعه بذلك الحياء! اكتشف أصدقاء فادينيو البريق في عينيه، وكان يحدث أن يقف طويلاً أمام الروليت ناسياً وضع فيشة عليها، حالماً.

لم يفاجأ أصدقاؤه الحميمون أمثال ميراندون حين شاهدوه في الكرنفال ضمن عصبة « باعة الجرائد المرحون » التي تنظمها عائلات ريو فيرميليو ، بزخرفة من العم بورتو ؛ فتيات وفتيان متنكرين كباعة صحف ، يبيعون « دياره ده باهيّا » و« آثاردي » و« أو دياريو دو نوتيسياس » و « أو إيمبا رسيال » . كرنفال قصاصات وشرائط الورق الملوّنة والأغاني ، حيث تستهلك القوارير النّفّاثة للعطر على الحبيبات لا للتنشق ، كرنفـال مـن دون كـاشـاسـا ! كم يتعارض مع كرنفالات فادينيو التي تطول من السبت إلى الثلاثاء يقضيها في السكر فقط ، وينخرط في حلقات المقنّعين ، يدور مع البنات الجانحات ، يرقص السامبا وسط الشارع ، والشراب حسب الرغبة ، فيسقط ثملاً في إحدى خمارات المنطقة ، وهكذا دواليك طيلة أيام الكرنفال الأربعة .

« أنظروا من أتى في تلك العصبة ، وبيده دفّ . إنه فادينيو يخرج مع هذه الزمرة ! من كان يحلم بهذا ؟ » كان المارة العاديون يتعجبون عندما يرونه في ذلك التصرّف الهَزَلي الكامل ، يرقص على إيقاع الدفوف السّريع . لقد كان فادينيو هناك بمعيّة فلور التي تغطيها قصاصات الزينة . ويغمرها حنانه .

لكن على الرغم من كلّ ما تقدّم لم يجد مانعاً في الغوص في وحل أردأ الأمور : يتناول الكاشاسا بإفراط عبثيّ ، بعد أن يودّع فلور عند منتصف الليل . وينطلق رأساً إلى التاباريس أو ميبا ـ لوز أو فلوزو ؛ وتذرّع يوم الاثنين بعمل مستَعْجل في القصر الحكومي ، وذلك عند العاشرة ليلاً ، لكنه لم يستطع الوصول ولو متأخراً إلى الاحتفال الرّاقص الكبير المُقام في غافييرا دو بينغويلو حيث أندريزا ونساء زنجيات ملكيات غيرها يتقمّصن شخصيات سيدات بلاط ماري أنطوانيت ، منفقات أموالهنّ على شراء قماش الساتان والمخمل وعلى الشعور المستعارة البيضاء المصنوعة من القطن .

ولم يخطر ببال فادينيو أن يُغيِّر من نمط حياته حتى ولا في أعنف لحظات الغرام وأعذبها التي تستثير في ذهنِهِ صوراً عائلية حميمة ، أو أن يبدل عاداته القديمة بعادات جديدة فيجدّد نفسه . وقد هدّد ميراندون يوماً بأن يفعل ذلك دُفعةً واحدة :

ـ يا شقيقي ، سوف أجدّدُ نفسي ... ابتداءً من الغد ...

لم يتكلم فادينيو في هذا الموضوع قطّ. صحيح أنه متيّم بفلور حتى أنه يخطط للزواج منها، لكنه لم يكن مستعداً للتخلي عن التزاماته السامية، سواء مقامراته واحتيالاته اليومية أم السُّكر والمشاجرات في أندية القمار أم ارتياد شقق العازبين!

١١

البحر بحرٌ من الورود ، آفاقه زرقاء رائعة ، وتحت تلك الزرقة السماوية يرقد العالم بسلام وعذوبة : ففلور وفادينيو حبيبان. وفجأة ، تثور الزّوبعة وتجتاح العاصفة السّلام ، وتصبح السّماء رماديةً ، وتهبّ حربٌ عاتية على فلور وفادينيو لوضع حدٍّ لحبهما .

ميراندون الخَلُوق خجل إلى حدٍّ ما شاعراً بذنبه في ما حصل ؛ أليس هو الذي بدأ لبناء قصر الرّمل ذاك الذي لا يتحمّل هبّة تساؤل واحدة ؟ لكنّه فلسف الأمر قائلاً :

ـ أن تكون لدينا ضمانة أو لا تكون : تلك هي المسألة ! وأي ضمانة تلك ؟ حتى محرّك الشّاحنة عندما يُصلّح يُضمن على مدى ستّة شهور ... لكن حالما ننظر في واقع الحياة ونأمل أن تنضبط الأمور في النهاية يُلطّخ كلّ شيء حتى القدّيس يسقط عن المِحمَل [1] ويتحول إلى قمامة ...

ورأى ميراندون أن فادينيو سيسقط عن المحمل ، ويتحول القدّيس إلى قمامة تنثر على مزابل المدينة ، ولن ينفع أي ترقيع مهما كان في إصلاح أمر إقالته الرسمية من الحكومة أمام الدونا روزيلدا . وذنْب فلور يعادل ذنْبه : فكيف تستمرّ بالالتقاء بالكذّاب ليخدعها بوعود زائفة ؟ إن ميراندون يعرف حقاً أولئك الوديعين الرقيقين حينما يفقدون الثقة بشخصٍ ما يتمسكون بكبريائهم بعناد فلا يتراجعون .

(١) القديس هنا هو التمثال المحمول على المحمل في الزيّاح (أو الموكب الديني)

« ترى متى ستغضبان معاً دفعةً واحدة؟ »، تساءل متشائماً. سافل، حقير، خسيس، مرذول: كانت الدونا روزيلدا ترى كل هذه النعوت تفتقر إلى العنف والإقدام اللازمين لوصف نموذج الإنسان المنحطّ هذا. وإلى عشية ذلك اليوم كان لا يزال طالب الزواج النموذجي، القديس على محمل، والإطـراء يَغمرُه. أما الآن بوسع ابنتها أن تتزوج حتى شرطياً أو مجرماً قاتلاً محكوماً عليه بالسّجن، لكنّها لن تدعها تتزوّج من هذا السّافل الشّقي أبداً! وبلغت هذه الأقوال الفجّة جوار آلفو، فهزّ ميراندون رأسه الواقعيّ النّادم ،معتبراً أن فادينيو إذا اختار الاستمرار في الغزل أثبت أنه لا يفهم النساء. فطالما كان ماجناً والآن أعماه العشق حتى لم يعد يحسب حساباً للواقع يستهتر بكل شيء. وطلب ميراندون القلق كأساً أخرى من الخمر في بار تريونفو لتساعده على التغلّب على اضطرابه.

لم يلق فادينيو كبير اهتمام لإصلاح وضعه مع الدونا روزيلدا أو ليخفف من غضبتها عليه، المرأة العجوز المسكونة بالشياطين، العاهرة التي لا تُحتمل، الدواء الـمُسهِل. ما كان يقبل بأن يقطع علاقته بفلور، أن يفقد ابتسامتها الوديعة، ورقتها الهادئة وتنهدها المجروح. بل ازداد تصمياً الآن على الزواج منها. ما يهمه في الأمر هو ذلك الحنان والإدراك، والرغبة الطيبة في الحب بينهما، والباقي ليس أكثر من مجرّد مزاح غبي. فمن تحب فلور؟ تحبه هو، فادينيو لِشخصه، لا للمركز الذي ادّعاه، أو الوظيفة التي اختلقها أو المال الذي لا يملكه.

بيد أن هناك أمراً واحداً فيما جرى اشمأزّ منه: فسيليا هي التي كشفت قناعه! نعم! سيليا مَحْمِيَّتهُ تلك التي تعاني عيباً في ساقها ورغم ذلك هي الآن مدرّسة في القطاع العام بفضل تَدَخُّله. هي التي أثارت الفضيحة، وحلّت رموز حِيَله ووشت به إلى الدونا روزيلدا. وصلت إلى الطابق الأول وهي تكاد تختنق منفعلةً انفعالاً شديداً لدرجة أنها كادت تفقد صوتها. ورمت بالخبر في وجه الحاضرين:

« أيّ شخص رفيع المستوى؟ هه! لم يصل ذلك المحتال يوماً إلى درج القصر الحكومي، والقصر الوحيد الذي يعرفه حقّ المعرفة، هو الـ « پالاس »[1]، وكر القمار والضياع، وكر المومسات... التقدير؟ لا تقدّرونه إلا في أحطّ شوارع البغاء حيث المواخير وضروب

---

(١) PALACE : بالإنكليزية، معناه: قصر بالعربية.

الاحتيال... موظف في ديوان الحاكم؟ لو تجرّأ ودخل ديوان الحاكم فسوف يُعتقل ويوضع في السجن. تعيينها مدرّسة؟ احتمالٌ بعيد، بل مستحيل. فمن يعلم الأضرار والأماكن التي يمارس السافل فيها ضروب الاحتيال؟

كيف تسنّى لسيليا، المدرّسة الابتدائية التافهة، أن تكتشف كل خيوط شبكة أضاليله، راسمةً بكل وضوح تفاصيل المهزلة من البداية إلى النهاية من دون أن تَدَع ظلاًّ واحداً من الشك تتمسك به الدونا روزيلدا الغارقة في بحر الوجود القذر؟ أي تصميم على فضح المحتال الغاوي الرخيص دفعها إلى الوشاية به؟ هذا ما فاجأ فادينيو وآلَمَهُ:

ـ ومن؟... لم أسِيء إلى هذه الفتاة أبداً، بل خلاف ذلك...

ربما هنا يكمن السَّبب: فحين تدبَّر لها فادينيو الوظيفة، شعرت سيليا بأنها ممتنة له وأنها مُهانة في الوقت نفسه. ففي أعماقها لم تغفر له كونه قد احتال في موضوع يخصّها، ولم يكن وهو زير النساء، يهجس بأثر الامتعاض والشر؛ فالوجود الحقير جعلها حسوداً وسيئة. وفي كل يوم يقلّ امتنانها وتكبر مهانتها. لا وسيلة لدى هذا الانسان تجعله نافعاً... وبالصّدفة عثرت على طرف الخيط فانكبّت على تتبّعه قلقةً حتى كشفت كل التفاصيل الصغيرة لمكيدة الأكاذيب التي بدأها ميراندون في منزل المقدم والتي غذّاها ونمّاها سلوك فادينيو نفسه. وحالما وصلت إلى هنا شعرت بأنها حققت ما تريده. فهي لا تُخْدع بهذه السهولة، فلديها نظرة خبير حتى لو قدّم لها ما يتجاوز الوظيفة فلن يخدعها، حتى ولا بالتعيين والمركز. وأحسَّت أنها راضية، سعيدة بقلة حيائها، حتى لم تعد ساقها العرجاء تغمُّها وهي ترتقي سلّم الطابق الأول حيث جلست الدونا روزيلدا وفلور تخيطان قطعاً لجهاز العرس. «لن ينام على وسادة حرير زير النساء البائس، إنها سيليا، لم تشكّ يوماً في حقيقته السيئة، وأشرق وجهها القبيح. قلّما أحست بمثل هذا الفرح، الكثيرون سيبكون هذا اليوم، سيضطرب الشيطان، وتصطكّ اسنانه. وهل هناك في الدنيا ما هو أروع وأكثر إثارة من رؤية الآخرين يتعذّبون؟ هذا أروع ما يمكن أن تحصل سيليا عليه؛ فلم ينظر مطلق رجلٍ إلى جسدها نظرة اشتهاء، أو يبتسم لها بسمةَ حبّ، حتى الأطفال في المدرسة يخافونها، ويهربون منها.

دعَت الدونا روزيلدا في نوبة توتر عصبي، أن تُقتل أو تموت ثم أنّتْ طالبةً كأس ماء.

لكنّ فلور لم تعرها اهتمامها ولم تسمع أنينها، إذ انهمكت في شجار مع سيليا.

ـ انصرفي من هنا أيتها الكلبة البغي، ولا تعودي بعد الآن...

ـ أنا يا فلور؟ هل تتكلّمين جدياً؟ لماذا؟

ـ حتى لو كان ما قلته صحيحاً ما كان يجدر بك أن تأتي هنا لتكيدي له، إنه هو الذي وظّفكِ... كان عليكِ أن تستري ما علمتِه ضدّه، كنتِ تموتين جوعاً، وهو الذي تدبّر لكِ المركز...

ـ وما يدريني أنه هو الذي قام بذلك؟... ومن رآه يتدبّر لي الوظيفة؟ بالنسبة إليّ المسؤول عن تدبّرها هو رسالة الأب[1] باربوزا...

لم ترافع فلور صوتها إلا بالكاد، لكن كلماتها كانت تنفث قرفاً وتنضح يأساً:

ـ انصرفي من هنا قبل أن أعلّمكِ بألا تحشري نفسكِ في حياة الآخرين، أيتها الكلبة المتشرّدة...

ـ إذن إبق معه، سيستغلك أحسن استغلال! حقاً، لقد وُلدت لتكوني فاقدة الحيـاء...

هبطت السلّم وهي تصرخ مستنكرةً نكران الجميل لدى البشر.. حرب؟ أجل، أي كلمة أبلغ وصفاً لما جرى؟ كانت حرباً بلا شفقة ولا رحمة بدأت ذلك اليوم بالذات، في تلك الساعة بالذات بين فلور وأمها. عندما صمت صوت الباب وهو يُطرق بوجه سيليا تمالكت الأم نفسها وتخلّت عن الإغماءة مناديةً المدرسة بأعلى صوتها، وهي ترغب بمواصلة الحديث عن فادينيو، نكأ الجرح:

ـ سيليا! سيليا! لا تغادري...

فقالت فلور بصوت مثقل:

ـ لقد طردتها...

ـ جاءت تفعل معنا معروفاً وأنتِ تطردينها بدلاً من أن تشكريها!

---

(١) PADRE: الأب الراهب أي القِسّ.

ـ لن أدع هذه الكائدة تضع قدميها ههنا بعد الآن..
ـ منذ متى أنتِ تأمرين وتنهين في هذا البيت؟
ـ إذا دخلت هي أخرج أنا...

أصاب ميراندون في ما تنبّأ به من هبوط رصيد فادينيو عند الدونا روزيلدا. بيد أنه أخطأ تماماً في تقديره لردة فعل فلور وأربكه الأمر. يعني بوضوح أنه قد أساء التقدير. وأربك ذلك فادينيو أكثر ممّا أربكه. فبرغم كل أكاذيبه لم تفكر في أيّ لحظة بقطع علاقتها به، ووضع حدّ لحبها. كانت تحبه، وقلما تهتم بمهنته أو بوظيفته أو بمركزه في المجتمع، ناهيك عن أهميته في عالم السياسة.

هذا ما قالته له عندما تحدّثْ، دون تبصُّرٍ بعواقب الأمور، أوامر الدونا روزيلدا ومضت تلك الليلة لتتحدث مع الحبيب في زاوية قريبة. استمعت إليه وتقبّلت تفسيراته، وأراقت بعض الدموع وهي تدعوه «مجنوناً بلا عقل، مجنونيَ الجميل». كانت تلك أوّل مرّة يكلمها فيها فادينيو عن حبّه لها، وكيف يريدها ويرغب فيها، هو الجائع والظامىء إليها؛ يريدها ويرغب أن تكون زوجةً له. كان هذا بالنسبة إلى فلور يمحو كلّ الانزعاج، والألم اللذين أقْحَمَها فيهما.

قالت له إن عليهما أن ينتظرا ويلوذا بالصبر ـ عشرة أشهر على الأقل ـ حتى تصبح في الواحدة والعشرين فهي لا تزال قاصراً، تحت وصاية الأم، وفادينيو لا يفكر في الحصول على موافقة الدونا روزيلدا المستحيلة.. ولم تر فلور أمّها قطّ منفعلةً غضبى على هذا النحو. حتى اللقاءات بينهما لم تعد سهلة، فيجب أن يدرسا الطريقة الفضلى للالتقاء لماماً من دون أن ترتاب العجوز. فالغزل الذي كانت الأم ترعاه وتتقبّله وتسهّل الأمور أمامه صار عليه أن يتمّ بطرق ملتوية لا شرعيّة. فقد حُرِّم عليهما تحريماً نهائياً ولم يعد فادينيو يساوي ذرّةَ غُبار من الشارع ومسح دموع فلور بالقبلات في تلك الزاوية بالذات غير عابىء، بالمارّة.

كان لدى الدونا روزيلدا المزمجرة سَوْطٌ في متناول يدها: قطعة من جلد غير مدبوغ لمعاقبة الحيوانات والأبناء العاقّين. لقد مرّ زمن طويل لم تستعمله فيه، منذ كانت لسعاته مقصورة على إيتور، التلميذ المُذنب؛ أضف إلى اللائحة روزاليا التي نالت نصيبها منه. أمّا فلور فلم تنل غير بضع صفعات وهي صغيرة. وعُلّق السَّوط البدائيّ على جدار قاعة

الطّعام رمزاً صارماً لسلطة الأم، وإن خفّ تأثيره نتيجة عدم الاستعمال. لكن ما أن اجتازت فلور الباب حتى رَفَعت الدونا روزيلدا السَّوْط فطالت بأول ضربة منه حضنها وعنقها تاركةً وراءها ثلماً أحمر علامة حرب دامت أكثر من أسبوع.

ضُربت من دون أن تبكي، مدافعةً عن وجهها بيديها، مؤكدة على حبّها مجدداً مما دفع أمّها إلى الزمجرة: «لن تتزوجي منه ما دمت حيَّة!». في اليوم التالي لم تستطع فلور النهوض إلا بالكاد، فجسمها كله يؤلمها، وأثر اللسعة بدا أزرق في عُنقها. علّقت اللاديرا كلها على الحدث؛ كانت الزنجية جوفينتينا الملكة توزّع التفاصيل من نافذتها وانتقد الدكتور كارلوس باسوس أسلوب الدونا روزيلدا في التربية دون أن ينفيَ حقّها في الغضب والاشمئزاز.

ظهر فادينيو في السّاعة المُحدّدة المعتادة ليجد الطابق الأول كلّه مغلقاً، والشُّرفة فارغة، والباب الحديدي عند عتبة الدّرج مقفلاً؛ أما نافذة حجرة فلور المطلة على الشارع فكانت موصدة، ومن بين شقوق الأباجور يتسرّب الضوء. وفي الحال وُجد من يخبره بما نالها من ضرب عشيَّة البارحة. وحسب العرّابات، كانت فلور تتنهَّد حبيسة حجرتها، المُقْفَلة بالمفتاح.

وأقرّ فادينيو تحديد الزنجية جوفينتينا عشيقة أنتينور ليما للدونا روزيلدا مستعملةً تشبيهاً أدبياً دقيقاً: «إنها ضبعٌ متوحشٌ، إنها كذلك يا سيد فادينيو» واستمع بصمتٍ إلى الأخبار ثم قال: «إلى اللقاء»، وانصرف.

عاد بعد منتصف الليل ليفتح جميع نوافذ الجوار، ليوقظ اللاديرا [1] والشوارع القريبة، بسيريناتا [2] تعزف أرق الأغاني الغرامية التي قد تسمعها على الإطلاق. كلّ من استمع إليها خلّد ذكرها في أذنيه وفي قلبه.

لقد استطاع أن يُكوّن الفرقة هذه! وجمع لفلور أفضل الموجودين: أتى بالهزيل

---

(١) LADEIRA: الشارع المتفرع من الشارع الرئيسي، وهو يمضي صعوداً.
(٢) SERENATA: جوقة موسيقية تعزف أنغامها تحت شرفة الحبيبة بناءً على طلب من الحبيب.

كارلينيوس ماسكارينياس، الكافاكينيو الذهبي. وقد عثر عليه في شقّة كارلا، وجرّه من سرير ماريانينيا بينتيليودا المضياف. وعلى الكمان، شوهد إدغار كوكو الشعبيّ، الذي لا مثيل له اللهمّ إلا في ريو ده جانيرو أو في البلدان الأجنبية؛ وكان ينفخ بالمزمار ـ وبأية عظمة وأية أستاذية ـ المجاز في الحقوق فالتر ده سيلفيرا، وقد انتزعه فادينيو من بين الكتب، حيث كان حديث التخرّج ويحضّر الأساس لمسابقة القضاء، وسرعان ما سيعيّن قاضياً له هيبته وكرامته بحيث يتوقّف عن استعمال مزماره الشهير، حارماً الجماهير من هذه المتعة السّماوية. أما القيثارة، فراح يداعب أوتارها بأنامله شابٌّ عزيزٌ على جميع الناس لثقافته ومرحه، ولسلوكه المتواضع مع كونه نبيلاً، ولكفاءته في معاقرة الخمرة ولرقّته في التعامل، ولموسيقاه؛ لقد كان لقيثارته ميزة فريدة لم تكن لغيرها، ناهيك عن صوته الغامض الفاجر. لقد عزف وغنّى مؤخراً في الإذاعات فكلّله النجاح حتى شاع اسمه، دوريغال كاييمي، ومجّد الأصدقاء الحميمون مؤلفاته الموسيقية غير المنشورة، نعم، حالما ستنتشر موسيقاه سيغدو هذا الأسمر مشهوراً جداً. كان صديقاً حميماً لفادينيو، شاركه تناول كؤوس الخمر الأولى، وكم سهرا معاً حتى الفجر. هذا، كما أتى على سبيل الاحتياط بجينير آوغوستو مغني الكاباريه الشّاحب، وغاب ميراندون لأنه كان ثملاً.

عند مطلع اللاديرا توقفوا بضع دقائق، ثم اختار كمان إدغار كوكو النغمات الأولى المُعذّبة. ودخل على الأثر، الكافاكينيو فالمزمار ثم القيثارة وخرق كاييمي الصمت، مطلقاً العنان لصوته في غناء ثنائيّ مع فادينيو، الذي لم يكن لتغريده قيمة كبيرة، لكن كبيرةً قضيته، غرامه الممنوع، تتملكه الرغبة في التخفيف عن الحبيبة، وشفاء أحزانها، وتوفير نوم ٍ هادىء لها، فراح يؤاسيها بالموسيقى معبّراً عن حبّه:

« الليل في هزيعه الأخير
والسماء ضاحكة
الهدوء شبه حلم
وضوء القمر يهمي
على الغاب
حيث للمطر الفِضّي
بهاء نادر نادر...

فإذا نمتِ أنتِ،
فلن تصغي
إلى من يغنّيكِ...»

تعالّت أغنية كانديدو داس نيفيس في سماء اللاديرا بسرعة فظهرت رؤوس فضولية، لبثت طويلاً في النّوافذ أسيرة سحر الموسيقى وصوت كاييمي. وصفّقت الزنجية جوفينتينا مُحيّية، كانت من حزب فلور وفادينيو مجنونة بالسيريناتات. البعض استيقظوا حانقين عازمين على الاحتجاج، لكنّ عذوبة الأغنية تغلّبت عليهم، وسرت في أجسادهم كالخدر فراحوا يصغون إلى نداء الحب. من هؤلاء الدكتور كارلوس باسوس الذي قفز عن سريره في غضب قاتل فنهاره زاخر بالعمل؛ يبدأ عمله في المستشفى عند السادسة صباحاً وأحياناً لا يعود إلى البيت إلا عند التاسعة ليلاً. لكن أثناء خروجه من الحجرة إلى النافذة أخذ غضبه يستكين وجعلته الأنغام يشبك ذراعيه عند حافة النافذة ليصغي بارتياح:

« أيّها القمر، أرسل
ضوءك الفِضّي
ليوقظ حبيبتي...»

توقفوا تحت ضوء مصباح الشارع عند الزاوية المقابلة تماماً للمنزل بطابقيْه. ابتعد فادينيو قليلاً عن المجموعة ليتّخذ موضعاً أفضل تحت ضوء المصباح الكهربائي بحيث يسهل على فلور أن تراه. وكانت أنغام مزمار الدكتور سيلفيرا ترتقي الجدران، وآهات الكافاكينيو تتسلل إلى الشرفة، وكمان إدغار كوكو يفتح نوافذ حجرة الفتاة، بل يهمّ بانتزاعها من السرير برجفة. « يا ربّ السموات، إنه فادينيو! » ركضت إلى النافذة، وشرّعتها فرأته هناك تحت الضوء، بشعره الأشقر، يمد ذراعيه نحوها:

« أريد أن أقتل رغباتي
أخنقها بقبلاتي...»

تجمّع بعض الساهرين حولهم وخرج كازوزا فونيل مرتدياً بيجامة قديمة، منجذباً بالموسيقى أو باحتمال استفادته من زجاجات الخمر في أيدي أفراد السيريناتا.

وظهرت في عتمة شرفة الطابق الأول الدونا روزيلدا، فقاطعت سورة غضبها الموسيقى والشعر.

ـ متشردون! عاطلون!

وزادت الأغنية في الارتفاع حتى صعد صوت كاييمي إلى الثّريّا:

« أغنّي...
والمرأة التي أُحبها كثيراً
نائمة، لا تسمعني... »

أين عثرت فلور على تلك الوردة التي من شدة احمرارها كادت أن تكون سوداء؟ التقطها فادينيو وهي في الهواء يا لها من ليلة رومانطيقية للمحبين، قمر يشعّ في السماء وعطر شجرة تاج الجبل يفوح في الأرجاء، واللاديرا بأسرها تغني لفلور سجينة حجرتها:

« هناك في العالي
القمر يبتعد
في السماء في تفكير عميق
والنجوم جدُّ هادئة... »

وصلت الدونا روزيلدا إلى الباب المطلّ على الشارع، ففتحته على مصراعيه، ملتفة برداء مهلهل وهي منفوشة الشعر، مشحونةً بالحقد. واندفعت قدُماً في نوبة هذيان من الغضب، تزعق بيأس: « إلى الخارج، اخرجوا من هنا. سأدعو الشرطة وسأشكوكم للمخفر [1]، يا كلاب، ».

كان ظهورها عنيفاً غير منتظر

فقدوا شموخهم للحظات، فتوقفوا عن الغناء. وانتصبت الدونا روزيلدا منتصرةً في الشارع الذي ساده الصمت.

ـ انصرفوا، يا عصبة الكلاب! إلى الخارج!

لكنّها كانت لحظةً ومرّتْ. وسرعان ما أسمعها مزمار الدكتور سيلفيرا نغماً كضحكة استهزاء، كصفير أحد الصبيان، موسيقى فيها استهزاء وسخرية أكثر مما فيها من الموسيقى:

---

(١) في الأصل «DELEGAÇIA» أي مندوبيه الشرطة.

« إيايا ، دعيني
أصعد اللاديرا ... »

وعندها شاهد الجميع فادينيو يتقدم باتجاه حماته المستقبلية ، وأمامها متابعاً نغم المزمار ، أخذ يقوم برقصة السيري ـ بوسيتا باتقان وهزل، في إيقاع القدمين وتمايل الجسم ، خطوة السيري ـ بوسيتا ، نعم الخطوة الصعبة والشهيرة للسيري ـ بوسيتا استجمعت الدُّونا روزيلدا ، المختنقة بهلعها ، الفاقدة لصوتها آخر قواها لتصعد الدرج راكضة.

عادت السيريناتا تغزو الليل والشَّارع حتى الفجر. وعزَّز العائدون من السهر الليلي وهم شبه سكارى الجوقة؛ والحارس الليلي قَدِمَ في دورته وظل هناك يستمع ويصفّق؛ والزجاجة التي هجس بها كازوزا فونيل ظهرت، واتَّسعت المجموعة شيئاً فشيئاً. غنّى فادينيو وكاييمي ، غنّى جينير أوغستو ، غنّى الدكتور فالتر بصوت خافت، عميق، حتى الحارس الليلي غنّى، كان حلمه أن يغنّي في الإذاعة. غنّى الشارع بأكمله في السيريناتا المكرّسة لفلور ، وفلور منحنية في نافذتها العالية ، ترتدي مِريلة مُطرَّزة، وضوء القمر يلفُّها . تحتها ، في الشارع ، يقف فادينيو ، الفارس المقدام ، ممسكاً بوردة من شدّة احمرارها كادت أن تكون سوداء . إنَّها وردة حبه.

١٢

حين هربت فلور من البيت لتتزوج فادينيو طلبت الفتاة ملجأ وحصلت عليه فوجدته في حنان وبيت خالتها ليتا وزوجها تاليس بورتو في ريو فيرميليو . تردّد بورتو فلم يكن يريد مشاجرات صعبة مع الدونا روزيلدا ، الوقحة التي ينمو الشَّعر في منخريها . كان يحب العيش الطيب الهانيء مطمئناً في ركنه راضياً بوظيفته الصغيرة وهوسه بالرَّسم . لم ينسَ أنّ ابنة حميه سبق لها أن اتهمته وزوجته بأنهما ناهضا حب ابنتها ، في حين راحت هي أثناء العطلات ، تثقل هامة فادينيو بالفضائل حتى بدا وكأنّه يسوع الطفل الرب المنقذ لا ينقصه ليكونه سوى البهاء . حمقاء متغطرسة تعتبر نفسها فهيمة ، مشحونة بالصراع والمزاج السيء ، هذه هي الدونا روزيلدا ، وهو لا يريد أن يكيد لهذه المتعجرفة المضطربة للغاية . لكن ماذا يفعل ، إذا ظهرت فلور تبكي منفوشة الشعر وفادينيو يجلس بقربها رصيناً وقوراً مستعداً لتحمّل تبعة مسؤوليّاته؟ جاءا يعترفان بحدوث ما يمكن علاجه : لقد سلبها عذريتها ، أكل عنقودها ، والآن يجب أن يتزوّجا سواء رضيت الدونا روزيلدا أم لم ترض؛ وسواء بلغت سن الرشد أم لم تبلغْه؛ يجب أن يتزوجا ، فهي لم تعد عذراء والزواج وحده يعيد لها شرفها الذي استحوذ عليه فادينيو .

وطلبت فلور بدموع بلا حياء من الخالة وزوجها أن يغفرا لها . فإذا كانت قد بلغت هذا الحد من تجاوز المبادىء العائلية الثابتة وانتهكت الخوف والحياء ، مسلّمة عذريّتها لمفتش حدائق مِلحاح ، فالمذنبة الحقيقية هي الدونا روزيلدا بسبب مكائدها وعدم تساهلها ومنعها الاتصال بحبيبها ، وأسرها داخل البيت وكأنها طفلة مع أنها تكاد تكون امرأة كاملة

ولا ينقصها سوى أعوام قليلة تضاف إلى عمرها. حتى الضَّرب! نعم، ضربتها! فمن ذا يتحمل كل هذا التخلّف؟ وفي النهاية فإن فادينيو ليس مجرّد طائش أو لصّ ما، طريد العدالة أو كانغاسيرو [1] من عصابة لامبيون [2]، وليس هي، فلور، ابنة الخمس عشرة سنة، بريئة كل البراءة، لا تفقه من أمور الحياة شيئاً. ثمّ نفقات البيت: أليستْ فلور هي التي تتكفّل بها، فتسدّد الايجار وتدفع للطعام؟ أما مساهمة الأم فكانت محدودة جداً: إذْ بعد رحيل روزاليا اقتصر عمل مشغل الخياطة على طلب من هنا وطلب من هناك. وفي المقابل تطوّرت مدرسة الطهي، ومنها كانت الأم وابنتها تعتاشان. فلما تدّعي الدونا روزيلدا حق التقرير لنفسها وتدينها دون أن تمنحها حق الاستئناف؟ لقد رفضت حتى الإصغاء إلى عقلاء مثل الخالة ليتا والسيد أنتينور ليما والدكتور لويس إينريكي بالذات، عرّاب إيتور، الذي طالما قدّرت رأيه من قبل، أما هذه المرّة فقد تصدّت لنصائحه بحدة. بينما تتكلم فلور راح تاليس بورتو يهزّ رأسه موافقاً: لقد فقدت قريبته رشدها تماماً.

لم يكن باستطاعة فلور ولا فادينيو تحمل الوضع، لقد تحول الأمر عند الفتى إلى عناد كعناد من يضع كل أمواله مراهناً بها في لعبة من ألعاب القمار كالروليت أو النَّرْد، مغامراً بحظّه. أما فلور فكانت ترغب في أن تمتلكه امتلاكاً تاماً، من رأسه حتى أخمص قدميه، فذهبت بعقله وكأنها المرأة الوحيدة في الدنيا، وكأنّها هي بجسدها الممتلىء ووجنتيها المستديرتين ـ أجمل وأشهى أنثى في باهيّا ـ الوحيدة القادرة على إشباع جوعه وإرواء عطشه، وإلغاء وحدته. وما فتئت الدونا روزيلدا تردّد: «كلا، أبداً ما دمت حية»، رداً على اقتراحات بالزواج، تتجدّد من فادينيو، ينقلها إليها أقارب وأصدقاء.

حتى الخالة ليتا بالذات تدخّلت قبل أيام، كما تذكر فلور، وعادت هي الأخرى بخفَّيْ حُنَيْن وبموعظة من الشّتائم:

ـ لن يتزوّج هذا السافل من ابنتي طالما يمّتعني الله بالحياة والصحة. ليس لأنها تستحق مني

---

(١) لاانغاسيرو: جمع كانغاسيرو وهو فرد من عصابة قطاع الطرق.

(٢) لامبيون: أحد رجال العصابات المشهورين في المنطقة الداخلية في البرازيل عُرف بقصة حبه مع ماريا بونيتا.

هذا الموقف الحذر، فهي مخدوعة ناكرة الجميل، وُلدت لتكون خانعةً. لكني لن أكِلّ ولن أملّ من معارضة هذا الزواج طالما هي تحت وصايتي. أفضل أن أراها ميتة على أن أراها متزوّجة من هذا المتشرد...

صرّت الدونا روزيلدا على أسنانها متهمة شقيقتها:

حاولت ليتا أن تجادلها، أن تقنع شقيقتها، وتكسر جدار الحقد ذاك قائلةً إن الحبّ يفعل المعجزات، فلم لا تحاول إصلاح أمر فادينيو؟

«يكفي العار الذي ألحقته أنتِ بالعائلة حينما تزوجت من بورتو. على أمل أن يَصْلُحَ أمره، لِمَ لم يصلُح أمره؟ لِمَ واظب على قلّة الحياء طوال عمره؟» لفظت «قلّة الحياء» ملء فمها بنيّة خبيثة شريرة.

كانت تشير إلى ماضي بورتو، الذي قضى شبابه في ريو ده جانيرو، في الوسط المسرحي، وقام بجولات داخل البلاد يجوب المدن ككاتب سيناريو، يراقص في أمكنة السوء، بل صار أيضاً، بقوة الظروف، ممثلاً ومديراً [1] وراسماً للشخصيات؛ وبعد الزواج استقامَ واستقرّ في باهيا. ولم يعد هناك ما يذكّره بحياته تحت الأضواء [2] سوى ألبوم قصاصات من الصحف وحفنة من النّكات. وكان يجد دائماً المناسبة لعرض ألبومه ورواية نكاته.

«أوَ لم ينجحْ؟» ردّت الدونا ليتا الفخورة في أعماقها بماضي زوجها البوهيميّ. «هل رأيتِ أنتِ زواجاً أسعد من زواجي؟ ذلك، لا يُعيّرني بشيء عمله السابق في المسرح. لم يكن يسرق أو يخدع أحداً، أو يزني منتهكاً عفاف العذارى...».

ـ وكيف كان ينتهك عفاف العذارى إذا كانت كل النساء حوله عاهرات حتى أدبارهنّ مفتوحة؟ أين كان سيتدبّر فتاة عذراء ليغتصبها؟ ما كانت الرغبة تنقصه، ولم يكن شخصاً مرموقاً...

لم تتحمّل الدونا ليتا النقيض لشقيقتها أن تستمر في تودّدها لها وتقرّبها منها، فالإهانات

---

(٢) DIRETORI: الكلمة تحمل أكثر من معنى، منها معنى «المخرج» السينمائي او المسرحي.

(٣) الأضواء المسلطة على المسرح.

الموجّهة إلى زوجها جرحتها وجعلت الدّم يندفع إلى رأسها:

ـ اعملي معروفاً أيتها السيدة ضعي لسانكِ في ذيلكِ[1] ولا تتكلمي عن زوجي بالسوء، فلم أجيء إلى هنا لأسمع وقاحتكِ...

أطاعتها الدونا روزيلدا وأغلقت فمها مهمهمةً بالاعتذار. فالدونا ليتا هي الوحيدة في الدنيا التي تحميها وتقدّرها، ولم تتشاجر معها أبداً.

ـ جئت لأني أريد الخير لفلور، كما لو كانت ابنتي... فلِمَ بحقّ الشيطان لا تتركينها تتزوج؟ إنها تحب الفتى وهو يهيم بها حباً. لأنه بلا سلطان كما كنت تظنين؟

ـ لم أظنّ شيئاً، وأنت تعلمين جيداً لماذا، لقد سخرا مني، الشقيان (طالما أغضبها الاستهزاء بها) أتعلمين؟ أظنّ من الأفضل لنا أن نضع حداً لهذا الحديث: لن تتزوج من ذلك العاطل ما دامت تحت وصايتي. بعد أن تبلغ الحادية والعشرين، بوسعها ترك البيت لتلحق الشقاء بنفسها، إذا كانت لا تزال تريد ذلك. لكنّي لن أسمح لها بالزواج قبل ذلك. انتهى الموضوع.

ـ إنّك تسعين إلى الجرب لتهرشي جسدك[1].. سترين...

وهذا ما حدث. فبعد فشل هذه السَّفيرة الأخيرة صمَّمت فلور على الاستجابة لصوت العقل، أو، لنقل الاستجابة لوسوسة فادينيو محاولاً إقناعها بالحل العمليّ الوحيد الممكن والذي لا يخيب، وهو، في نفس الوقت، برهان عذب رقيق لذيذ على حبها له وثقتها به.

واقتنعت وتورَّطت، فتحَتْ له فخذيْها وتركته يفضّ بكارتها كما طلب منها وألحَّ عليها. واسمحوا لنا أن نقول الحقيقة، كلّ الحقيقة دون إخفاء التفاصيل (حتى وإن كانت النّيـة وراء إخفائها المحافظة على مظهـر بطلتنـا في عيـون الجمهـور ببراءتها وخفـرهـا، فنصوِّرها كضحيَّة ساذجة لدون جوان لا يُقاوم). والحقيقة تُقال إن فلور جُنّت حتى أعطَتْ

---

(١) شتيمة بمعنى: الزمي حدّك.

(٢) تعبير معناه: تسعيْن إلى المصيبة ثم تندبين حظك، أي، أنت المسؤولة عمّا سيحصل.

وأعطَتْ وأعطَتْ، وهبت نفسها كليةً. كانت النّار تحرق رحمها واللهب المجنون أتى على خفرها.

استعار فادينيو بيتاً لصديق ثريّ هو ماديو بورتوغال العازب الشّاذ، بيتاً متوارياً عن الأنظار في ناحية من نواحي إيتابووا. وحلّ النسيم شعر فلور الأسود الأملس، وأعطته أشعّة الشمس ظلالاً زرقاء. هاج الموج وهبّت الريح. انتزع ملابسها عنها قطعةً قطعةً، قبلةً قبلةً. وقال ضاحكاً بينما يعريّها ويتمكّن منها:

ـ لا أستيطع أن أتمتّع وملاءة تغطيني، فما بالك بالملابس على جسدينا؟ أأنت، يا حبّي، خَجلى؟ ألا نتزوّج لهذا بالذّات؟ حتى لو لم يَكن ذلك فإن خوض غمار المتعة هو أمرٌ من عند الله، فهو الذي أمرنا بالمتعة: «فلتتمتّعوا يا أبنائي، وليكن لكم ذرية يا أبنائي» هذا أفضل ما قاله الله وأحسنه.

ـ معاذ الله أن تكون هرطوقياً يا فادينيو.

لفّت فلور جسدها بشرشف أحمر. كل ما في الغرفة كان مثيراً: لوحات نساء عاريات معلقة على الجدران ونسخ عن لوحات تطارد فيها آلهة الحقول الحوريات مطاردة عنيفة، وقبالة السرير مرآةٌ كبيرة. إن ماريو المذكور لورد، فنان بخلق جو الإثم! وعلى طاولة الزينة قوارير العطور وشراب معتّق مع الثلج. وأحست فلور بالبرد حتى العظم.

ـ لو شاء الرّبّ ألا يتمتع الناس لَخصَاهُمْ جميعاً، وجعل الأولاد يولدون من دون أمٍّ أو أب. هيا! لا تكوني بلهاء! اتركي هذا الغطاء...

وأزال عنها القماش الأحمر فبَدَت فلور وردةً تتفتّح في شرشف أبيض. وندت عن فادينيو صيحة مرح مباغتة.

ـ لكنك يا حبّي شاحبة، بل ممتقعة تقريباً. كم هذا جميل غير متوقّع..

ـ فادينيو.

تشرب جسدها بحمرة الخجل فأطبقت عينيها. وتناثرت المسرّة فوق بحر إيتابووا، وحمل النسيم آهات الحب إليه فصمت السمك يصغي إلى صوت فلور المختنق باللذّة؛ في البحر وفي

الأرض اللذّة، وفي السماء وفي الجحيم اللذّة!.

صباح ذلك اليوم، خرجت فلور لتساعد الدونا ماغاباتيرنوسترو، تلميذتها القديمة الثريّة، في غداء عيد ميلاد، احتفال لأكثر من خمسين شخصاً، وأيضاً موائد للحلوى وللأطعمة المالحة لفترة ما بعد الظهر. وتركت الحفل إلى حيث التقت بفادينيو، وحدث ما كان لا بد من حدوثه. وبينما تعمل الدونا روزيلدا بفرن الدونا ماغا، كانت هي تعبّر بفخذيها مع فادينيو في إيتابووا.

منذ ذلك اليوم فصاعداً أخذت تختلق الحجج لتعود مع فادينيو إلى البيت الصغير عند الشاطىء. وسعت إلى صديقاتها وتلميذاتها: «إن سألتك أمي إن كنت قد خرجْتُ معك، فقولي لها نعم» وكنّ يقلن ذلك فجميعهن يحتفظن لها بالمودة وكثيرات منهن يتعاطفن مع قضيتها. وبعد الدرس تعلن إحداهن:

ـ سآخذ فلور معي إلى حفلة السينما الصباحية، فالبائسة بحاجة إلى السّلوان.

وبدا أنها نسيت ما كان، فأعربت أمّها عن فرحها. ففي هذه الأيام لم يَعد لفلور تلك السّحنة المتوترة، ناهيك عن أنها تخلّت عن البقاء داخل حجرتها بانتظار ظهور حبيبها في الشارع.

كانت حتى ذلك الوقت تظهر في النافذة، بتحريض صريح. الشيطان يتجاذب الحديث على رصيف منزل جوفينتينا الزنجية ذلك الوباء. والجارات الفاقدات الحياء رحن يخزّنّ أخبار الحبّ وقلق الدونا روزيلدا التي سيجعلنها تدفع لهن الحساب مع الفوائد. كانت فلور تلقي بقصاصات من الورق لفادينيو وتبعث إليه قبلات بأطراف أصابعها. حتى فقدت الدونا روزيلدا رشدها، وانفجرت في تصرُّف غير مألوف ضد ابنتها والغشّاش السافل الذي يستهزىء بها في الناصية.

مع هذا شعرت هذه ببشائر التغيّر، فتصرّف فلور قد تبدّل فلم تعد تغنّي أغنيات حزينة، ولم يعد على شفتيها طيلة الوقت لقب الحبيب المقرف، ناهيك عن أنه تخلّى عن الظهور في الشارع. وأشرقت من جديد ابتسامة فلور، عادت لتلقي عليها تحية الصباح وتحية المساء، وتجيبها عندما تكلّمها.

في باشا دوس ساباتيروس[1] أوصتها الصديقة الطارئة وهي تودّعها:
ـ كوني عاقلة، هيه! ـ وضحكت ضحكة غامضة.

وضحكا هما أيضاً، فلور وفادينيو بينما يدلفان إلى سيارة أجرة[2] ـ دائماً هي ذاتها، تخصّ الغجري، وهو سائق قديم في الساحة ورفيق قديم لفادينيو ـ التي تتّجه بسرعة قصوى نحو إيتابووا، أيديهما متشابكة، يختلسان القبلات في الطريق، ومع الغسق يعيدهما الغجريّ ويأتيان على مهلٍ إلى السيارة، ورأس فلور يرتاح على كتف فادينيو وشعرها الأسود يلاعبه النسيم، متكاسلين يرغبان في أن يظلاّ معاً، فلِمَ يجب أن يفترقا؟

وازداد فادينيو، عليها إلحاحاً بقضاء ليلة بطولها معها، فلم يعد يكتفي بأن تكون إلى جانبه ويمتلكها، بل يريد أن يغفو مع تنهداتها، وينام في نعاسها. فلور من جهتها كانت ترغب في هذه الليلة الكاملة، وتحدي السّاعات المحدودة، الساعات المحسوبة التي لم تعد تستوعب أشواقها.

قالت له ذات مساء حين طلب منها ذلك: «لكني لن أستطيع العودة إلى المنزل بعد أن أمضي الليل خارجه».

ـ ولِمَ تعودين؟ لقد تمسك كل منا بالآخر وانتهى الأمر. أنتِ التي لا تريدين إلى الآن أن تعرضي الحقائق كاملة.. ولا أدري لماذا!

وأين سأبقى حتى الزواج؟

بقيا في بيت الخالة ليتا والخال بورتو، في ريو فيرميليو. كان منزلها الثاني. وعندما اتخذت فلور قرارها أغلقت في اليوم التالي على نفسها باب حجرتها وأعدّت حوائجها، فملأت حقيبتين وصندوقاً. وبعدها أغلقت الباب ووضعت المفتاح في جيبها وخرجت مدّعيةً أنها ستذهب إلى سوق يانسا في باشا دوس ساباتيروس. وهناك كان فادينيو

---

(١) BAIXA DOS SAPATEIROS، نزله الاسكافيين.
(٢) TAXI

بانتظارها مع سيارة الأجرة، ومرّة أخرى اخذها الغجري، لكنّه لن يعيدهما في الصّباح التالي

وأخبرت الدونا روزيلدا امرأة من معارفها قَدِمت لتخيط لها:

- خرجت فلور لتشتري شيئاً ما وستعود حالاً. لحسن الحظ لم تعد تتكلم عن الشخص الذي تعرفين، وهي أقلّ غضباً...

- سينتهي بها الأمر إلى أن تنساه... هذا ما يحصل دائماً...

- عليها أن تنسى، شاءت ذلك أم أبَتْ.

طالت الزيارة وطال الحديث، والدونا روزيلدا تروي أموراً عن عائلة حديثة العهد في اللاديرا من آل آمارغوزا:

- حسناً تأخرّت فلور، سوف أنصرف. بلّغيها تحياتي.

انتظرت الدونا روزيلدا وحيدة. اعتراها بادىء الأمر شكٌّ ضعيف، ثم القلق ومع هبوط الليل تاكّدت أن فلور فقدت رشدها وهربت من البيت. خلَعت باب حجرتها مستعينةً بسكّين، وشاهدت الحقيبتين المعدّتين والصندوق الملآن. لقد خدعتها الماربة بتصرّفها وكأنّها قطعت علاقتها بالسافل، لتتمكن من الخروج طليقةً لتشقي نفسها. وظلّ النور عند الدونا روزيلدا مضاء طيلة الليل والسكين في متناول يدها. آه! يا ليتها تتجرأ وتعود...

وحين قُدمت في اليوم التالي أختها وصهرها قبل الغداء، وكان بورتو مرتبكاً تماماً مثَّلت مشهداً تقليدياً مقتلعة شعراً من رأسها:

- لا أريد أن أعلم شيئاً... فلن تدخـل بيتي امـرأة بغـيّ، ومكـان العـاهـرات شقـق العازبين...

انزعجت الدونا ليتا:

- اعملي معروفاً واحترمي وجودي. ففلور في بيتي، وبيتي ليس شقة عازبين. وإذا كنتِ لا تأبهين لسعادة ابنتكِ فهذا شأنكِ. أما أنا وتاليس فنهتمّ لها كثيراً. جئت لأقول لكِ إن

فلور ستتزوج، وإذا شئتِ يتمّ الزّواج هنا حسب الأصول، وإذا لم ترغبي، فسيتم في بيتيّ وبسرور.

ـ الفاجرة لا تتزوج، إنها تعاشر...
ـ اسمعي، أيتها المرأة...

لم تسفر مجادلة الخالة ليتا وحضور بورتو الصامت عن شيء فلن تحضر ولن تعطي موافقتها على الزواج، فليحصلا على ترخيص من القاضي، وإذا أرادا ليكشفا أمامه كل ما جرى معلنين عار الجاحدة. عليهما أن لا يعتمدا عليها لتغطية النّذالة، ولسدّ ثقب بكارة عديمة الحياء تلك!

في اليوم التالي سافرت الأم إلى نازاريت، حيث استقبلها ابنها دون حماس كبير. كان يفكر في الزواج، ولم يستطع إلى الآن، لأن مرتبه لا يسمح له.

لكنّه مستعد لأن يتزوج حالما تأتيه ترقية ما، واستطاع توفير بضعة آلاف من الريالات. وله خطيبة معروفة كانت إحدى تلميذات فلور السابقات، صاحبة العينين النديتين التي يدلّعها بمناداتها سيليستي[1].

(١) CELESTE : سماويّ، سماويّة.

١٣

هرعت فلور إلى سودريه [١] حيث ثمة بيت معروض للإيجار، فجهزته مع إحدى تلميذاتها السابقات، سيدة ذات بهاء، زوجة تاجر في سوق المدينة، هي الدونا نورما سامبايو، المرحة ومجدّدة المَلاحة المعروفة بطيبتها الطبيعية وكرم قلبها. وكانت تقيم في الجوار. أما البيت فهو ما تطلبه فلور وكأنه بُنِيَ ليكون سكنها ومدرستها، وعلاوة على ذلك إيجاره رخيص نسبياً. وبما أن الدونا نورما مستأجرة سابقة، فقد كفلتها، وكان المالك من معارفها، فكان من الطبيعيّ أن يفضّلها على غيرها، وأن يترك المسألة لها.

كانت الدونا نورما السلوى والعزاء للفتاة في محنتها. متغلبة على العوائق التي تكتشفها أمامها. مساهمة في حلّها جميعها بأسلوبها المميّز.

بدأت برفع معنوياتها المنهارة: تأتيها فلور أحياناً، تقدم لها تقريراً دقيقاً، فتتذوّق الدونا نورما التفاصيل وتجمّعها إلى بعضها البعض لتكوّن صورة واضحة عما جرى. وتولّد لدى فلور انطباع بأن كل الناس على علم « بخطوتها السيّئة » (على حدّ تعبير الخالة ليتا) كأنها تحمل وصمة عارٍ على جبينها؛ امرأة عديمة الحياء، تعرف رجلاً وتتظاهر بأنها بِكر.

ـ حسناً يا فتاتي، لا تكوني بلهاء... من ذا الذي يعلم أنكِ مكّنتِهِ من نفسكِ؟ أربعة أو خمسة أشخاص، نصف دزينة على الأكثر وانتهى الأمر... بوسعك إن شئت أن تتزوجي بالطرحة والإكليل ومن ذا الذي سيحتجّ؟ أمّكِ سافرت، وهي، أجل، كانت قادرة

(١) حيٌّ من أحياء المدينة حيث مسرح الرواية.

على أن تحضر وتفضحك عند باب الكنيسة..

ما كان بوسع فلور إخفاء عارها، لقد أساءت التصرّف حقاً، لكنّ هذا كان الحلّ الوحيد أمامها. وبالنسبة إلى الدونا نورما ما حدث لا يجب أن يؤدي بها إلى هذا الذعر:

ـ هذا التعاطي قبل الزواج يحدث لاثنين من بين كل ثلاثة، لأناس طيبين جداً، يا عزيزتي...

راحت تروي نشرة أخبار موسّعة طريفة، أمثلة تواسي بها الفتاة: «فابنة فلان الدكتور في الكلية، ألم تسلّم نفسها لصديق خطيبها عشيّة الزواج، منتهكة عهد الخطوبة، هاربة مع الآخر، لتتزوجهُ على عجل؟ ألا تُعتبر اليوم من صفوة المجتمع، يرد اسمها في الصحف: «الدونا فلانة استقبلت أصدقاء... الخ..، وهكذا...»؟ وتلك فلانة ابنة القاضي في محكمة الاستئناف، ألم تُضبط وهي تسلّم نفسها لخطيبها ـ على الأقل هذه سلّمت نفسها للخطيب ذاته ـ خلف منارة المرفأ؟ والحارس[1] الذي باغتها بالجرم المشهود، لم يأخذها إلى المخفر لأن الفارس الواعي رمى إليه بإكراميّة باهظة. لكنّه عرض وسط الناس، سروالها التحتي القصير المصنوع من القماش الشفاف الأسود؛ كان قطعةً جميلةً من المطرّزات؛ ومع ذلك وبرغم عرض ملابسها الدّاخلية على الملأ لم تتخلّ عن الزفاف بالطرحة والأكليل، وبفستان من التافتا رائع الجمال؛ كانت حقاً ذات ذوق رفيع ومال كثير. ثم هناك أخرى ـ أبوها شرس الطباع، أين منه الدونا روزيلدا، يضيّق الخناق على بناته ويتركهنّ حبيسات البيت ـ وقد دهموها في أوندينا، في الأدغال، تسلم نفسها لرجل متزوج، إشبين لأبويها! ثم تزوجت رجلاً بائساً وهي الآن تسلم نفسها لأيٍّ كان متى استطاعت إلى ذلك سبيلاً وشعارها: «في الإكثار فضيلة» تتعاطى مع العازبين والمتزوجين، الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم، الأثرياء والفقراء. كثيرات يا ابنتي، لم يتعاطيْن الجنس قبل الزواج، إما لأن لذّته كانت خافيةً عليهنّ أو لأن الخطيب لم يطلب ذلك. وأخيراً، ما الفرق في أن يحدث ذلك قبل الزّواج وبعده؟ بربّك قولي لي!».

لمْ تقلّص خطيئتها إلى أقصى حدّ بل أعادت إليها الحيوية، ورافقتها في عمليات الشراء

(١) GUARDA: حارس وتطلق التسمية على الشرطي غالباً.

التي لا غنى عنها لتأهيل البيت: أثاث وحاجيات للاستعمال اليومي، خصوصاً السرير الحديدي برأسه وقوائمه المحفورة والذي ابتاعته مستعملاً من جورجي طرّاب، وهو بائع مزاد علني في متجر لبيع التُّحف والأشياء القديمة في شارع روي باربوزا، ناهيك عن أنه قطعاً صديق الدّونا نورما؛ كان طيباً جورجي هذا، سورياً طويل القامة وأحمر الشعر، مصاباً بالقلب، وحين علم بقرب زواج فلور قدّم لها إكراميَّةً وهديةً نصف دزينة من كؤوس الكحول. وساهمت الدونا نورما بزوج من مناشف للحمام وللوجه، منشفتين من صنع ولاية آلاغوواس[1] من الصنف الممتاز. وتنازلت لها بسعر الكلفة القديم أي بلا مقابل تقريباً، عن شرشف رائع من الساتان الأزرق بلون الأورتنسيا، طبعت عليه أغصان زهر المنثور بلون ليلكي، كان قطعة فنية راقية. كان في جهاز عرس الدونا نورما الفخم قطعةٌ لا يمكن مقاومتها، هدية ثمينة من أحد أعمامها والمقيم في الريّو. حسناً لم يرتح زيه سامبايو المهووس للشرشف، لأنه قرأ في مكان ما أنّ زرقة الاورتنسيا هي لون جنائزي بين الأحمر القاني والبنفسجي، فاعتبر أن الشرشف لا ينفع إلا لتغطية التوابيت. وبسبب الشرشف اللعين كادا يتشاجران ليلة الزفاف ذاتها. ولو لم تكن الدونا نورما فتية تتطلع بكل جوارحها وبفضول إلى ما سيحدث تلك الليلة، لكانت لها ردة فعل على زمجرات زيه سامبايو وسوء تهذيبه. ولم يرتح حتى خبّأته نهائياً، فلم يستعمل بعد ذلك اليوم فظلّ جديداً بورقته كما اشترته من تشيلي وكلّف مبلغاً من المال.

وما دمنا في معرض الحديث عن الشراشف يجدر بنا أن نتذكر هنا أن إسهام فادينيو الوحيد في جهاز العرس كان شرشفاً ملوّناً من قطع قماش مختلفة خاطته في عمل جماعي عاهرات بيت[2] إيناسيا. كنّ جميعهنّ معجباتٍ بالعريس؛ وصاحبة الفكرة كانت إيناسيا النبيلة الخلاسية التي نقّش الجدري وجهها. كانت أصغر صاحبة بيت دعارة في باهيا، لكن هذا لا يعني أنها صاحبة تجارب أقل؛ وطالما لجأ فادينيو بين الفينة والأخرى إلى سريرها ولبث فيه في حمى الغرام أياماً بل أسابيع.

ولم يحسّ بالذّنب لكونه لم يقدّم غير هذا الإسهام الضئيل جداً في هذه النفقات التي لا

---

(١) ALAGOAS: ولاية في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٢) CASTELO: في الأصل شقة المرء العازب، وتستعمل كوكر للدعارة.

تنتهي والتي سرعان ما استنفذت توفيرات فلور خلال سني عملها. لكن كان بودّه أن يتكفّل بكل النفقات أو القسم الأكبر منها، وفي سبيل ذلك بذل جهوداً هائلة. ولم يره أصدقاؤه يوماً على مثل هذا التوتّر والمثابرة على مائدة الروليت، لكن رقمه السبعة عشر نادراً ما أتى، وكأنه أصبح ملغى من بين الأرقام. وحاول في الروندا وفي الباكارا، حاول مع الأرقام الكبيرة والصغيرة على حد سواء، لكن الحظ ظل بعيداً عنه وتواصل النحس. أجهد نفسه حتى لم يعد هناك من يستقرضه المال، فاضطر أن يهرع إلى العروس ذاتها ليستولي منها على بعض المئات، قائلاً:

- لا يمكن أن يستمر نحسي اليوم يا حبّي. سآتي صباحاً إليك مع عربة مثقلة بالمال، فتشترين نصف باهيّا، على أن لا تنسي شراء صندوق شمبانيا ليوم زفافنا!

لم يجلب مالا ولا شمبانيا، كان حقاً منحوساً، فإلامَ يدوم سوء حظّه؟

وهكذا، لم يكن ثمة شمبانيا إلا في الزواج المدني الذي عُقِد في بيت الخالة. فقد فتح تاليس بورتو زجاجة، وشرب القاضي نخب العروسين والعائلة. ناهيك عن أن الزواج الكنسيّ كان بسيطاً وسريعاً، لم تحضره إلا بضع صديقات فلور الحميات وصديقها أنتينور ليما، إضافة إلى الخالة ليتا والعم بورتو (والدونا نورما بالطبع). الدونا ماغا باتيرنوسترو المليونيرة لم تستطع القدوم لكنها أرسلت صباح يوم العرس طاقم أدوات المطبخ؛ وهي قطعاً هدية نافعة. أما من جانب فادينيو فلم يأت سوى مدير دائرة المنتزهات والحدائق في البلدية (اغتنم فادينيو الموظّف مُناسبة زواجه ذريعةً ليستقرض مالاً من زملائه) ثم ميراندون وزوجته الهزيلة الشقراء، تبدو أكبر من عمرها وأخيراً شيمبو. حضور المفوض المساعد حمل تاليس بورتو على التعليق أمام الدونا ليتا: «لم تكن قصة فادينيو مختلقة كلها لا أساس لها من الصحة، على الأقل، قرابة فادينيو لغيمارايس المهمّ ليس مختلقة».

أقام مراسم القداس الدون [1] كليمينتي، راعي كنيسة سانتا تيريزا بطلب من الدونا نورما. وقد تألّق فادينيو في أناقته الوسيمة التي عرفته بها الكاباريهات؛ أمّا فلور فلبسَتْ

(١) DOM: السيد، تطلق على القساوسة.

الأزرق وظلت خافضةً عينيها وعلى شفتيها ابتسامة دائمة. لم تتمكّن الدونا نورما من إقناعها بارتداء الأبيض مع الطرحة والإكليل، فلم تجد الحمقاء في نفسها الشجاعة الكافية. وكان خاتما الزواج مستعارَيْن من ميراندون قبل قليل. ذلك أن روّاد التاباريس قاموا في العشيّة بتجميع المال اللازم كي يدفع فادينيو ثمن الخاتمين المختارَيْن في محل الصائغ رينوت، لكنه خسره بعد نصف ساعة في بيت « الدوقات الثلاث » حتى آخر توستون. وكان بوسعه الحصول عليهما بالدين لو مضى ليأتي بهما. فالصائغ المشهور بفطنته لم يكن يصمد أمام فصاحة فادينيو ومراراً أقرضه نقوداً. أمضى العريس الليل ساهراً، ثم نام طيلة الصباح، وخرج مسرعاً إلى ريو. فيرميليو بسيارة الأجرة التي يمتلكها الغجري.

إثر مغادرتهم الكنيسة، قَدِمَ المصرفي سيليستينو ممسكاً باقةً صغيرةً من البنفسج قدّمها إلى فلور ـ الدونا فلور منذ اليوم كما لمحت سيدة متزوجة. قبّل يدها معتذراً عن تأخّره فلم يعلم إلا الآن تواً ولم يكن لديه وقت لشراء هدية الزواج. وبدلاً من ذلك مرّر إلى فادينيو سنداً بمبلغ من المال. سارع المدعوّون وأولهم شيمبو والدون كليمينتي إلى تحية النّافِذ البرتغالي.

ودّعوا المتزوجين حديثاً في فناء الدير. وحدها الدونا نورما رافقتها إلى باب مسكنها الجديد حيث عُلقت على مدخله لوحة خشبية عليها « مدرسة الطّهي: تذوُّقٌ وفنٌّ ». وعند باب المنزل دعت الدونا فلور جارتها إلى الدخول:

ـ ادخلي لنتحادث قليلاً...

ضحكت الدونا نورما، بخبث وردّت:

ـ سأكون فظة بليدة الإحساس لو فعلت... وأشارت إلى الغيوم السوداء فوق البحر وأردفت:

ـ الليل يقترب وقد حانت ساعة النوم...

ووافق فادينيو:

ـ تكلمت قليلاً لكنها أفصحت والحقّ أنني دائماً مستعد لهذا ليلاً نهاراً، لا فرق لديّ ولن أتقاضى منك أجراً لقاء أعمالٍ إضافية!

احتضن خصر الدونا فلور وقطعا معاً، وسرعان ما بدأ يفكّ أزرار ملابسها ويعرّيها.

في الحجرة، ألقاها على ظهرها على الشَّرشف الأزرق بلون الأورتنسيا، منتزعاً غلالتها وسروالها. أمسَتْ الدونا فلور عاريةً ممدّدةً على السَّرير، وظلال الشَّفق الأولى تسقط على نهديها.

- «أعوذ بالله! هذا الشرشف الذي جلبته يا حبي، يبدو كفن ميت. اسحبيه عن السرير، يا امرأتي الجرداء من الشعر، وافرشي ذلك الشرشف ذي المزق: سيبدو عريك عليه أوضح. أما هذا الشرشف فعلينا الاحتفاظ به بعناية فلا شك أنه يساوي مبلغاً كبيراً من المال...»

فوق الشرشف الملوّن ذي المزق، استلقت الدونا فلور متزوجة أخيراً وقد أخرسها خجلها لا يغطي عريها سوى ظل الشّفق. الدونا فلور مع زوجها فادينيو، الذي اختارته بنفسها متجاهلةً نصائح المُجرِّبين، معارضة رغبة أمّها الصريحة، بل سلّمته نفسها وهي تعرف كل شيء عنه قبل أن يتزوجا. ربما أقدمت على عمل جنوني، لكن لو لم تفعل ذلك لما كان هناك ما يدفعها إلى العيش؛ وأخذت النار تلتهمها، نار تنبع من لهاث فادينيو، من نَفَسه المحموم وأنامله التي تلهب جلدها. الآن، وهما متزوجان، فله كلّ الحقّ في أن يفعل بها ما يشاء، أن يعرّيها، وهي إلى جانبه على السرير الحديدي، يتطلّع ويبتسم لها. زوجها جميل، ووبرٌ ذهبيٌّ اللون يغطي ذراعيْه وساقيْه وعلى صدره غابة من الشعر الأشقر، ندبة طعنة موسى على كتفه اليسرى. كانت تبدو بجواره امرأة زنجية سوداء جرداء وقد تعرَّت من الداخل أيضاً وراحت الرغبة تمرمرها، يتسارع أنينها ويتسارع، كما لو كان فادينيو يجرّدها من روحها، وكان يقول أشياء مجنونة.

تمتّعا حتى لم يعد بوسعها التمتّع بعد، آنذاك سحبت الشَّرشف وغطَّتْ نفسها، واستسلمت للنّوم. كان فادينيو يبتسم وأنامله تتخلل شعرها ليساعدها على الرقاد. كان زوجها الجميل الفحل، الرقيق الطيِّب.

استيقظت الدونا فلور عند الفجر والمنبّه عند الوسادة يشير إلى الثانية صباحاً لم يكن فادينيو في السرير. هبّت واقفة وخرجت تبحث عنه في أرجاء البيت. لكنه اختفى فادينيو

من المؤكد أنّه مضى ليقامر بالنحاسات [1] التي أعطاها له صاحب المصرف. كان ذلك أكثر من أن تتحمله ليلة زفافها بالذات. وبكت الدونا فلور وسالت دموعها الأولى كامرأة متزوجة. على الشرشف، كان السُّخط يأكلها والشهوة تحرقها فتصرّ على أسنانها من الرغبة.

---

(١) COBRE : تعني أيضاً نقوداً.

١٤

سبع سنوات تفصلُ بين تلك الدموع الأولى التي ذرفتها الدونا فلور ليلة زفافها والدموع التي ذرفتها في صباح يوم الأحد الحزين حينما سقط فادينيو ميتاً، أثناء رقصة سامبا في إحدى الحلقات، بين الفانتازيا والأقنعة. « لقد مات اليوم، إلى الأبد »، على حدّ تعبير الدونا جيزا حالما رأت جسد الشاب ممدداً على حجارة « ساحة الثاني من تموز ». طالما بكت الزوجة في تلك السنوات السبع بسبب خطاياها التافهة ومن زوجها ـ وكم كانت ذنوبه وعيوبه عديدة وثقيلة ـ وطالما فاضت دموعها: دموع العار والعذاب، دموع الألم والمذلّة.

إضافة إلى تلك الدّموع المسكوبة ليلاً: دموع ليالٍ أقْحلَها غياب فادينيو، ليالي أرق وانتظار طويلة لا تكاد تنصرم وكأن الفجر يتقهقر فيها إلى ما لا نهاية. أحياناً تسمع ترانيم المطر المنعشة على السطح، والبرد يطلب وجود جسد الرّجل لتسعى إلى دفء صدره بغابة شعره وتلجأ إلى قوة ذراعيه، في الهزيع الأخير من الليل. ويستحيل على الدونا فلور أن تخلد إلى النوم. كانت الرغبة في احتضانه تصبح جرحاً مفتوحاً فترتعد مرتعشة، في حزن مضطرب، في ذلك السرير الفارغ إلا من الشوق والهجران.

أما بوجود فادينيو ـ آه! لو كان موجوداً! ـ لا برد ولا أحزان. منه يأتيها الدفء والمرح الذي يتصاعد من ساقيها إلى وجهها، ويروح الليل ينفتح في ابتهاج، وتحسّ الدونا فلور أنها في أمان، مرغوب فيها، منتشية قليلاً وكأنها شربت كوب نبيذ أو كأساً من الكحول. حضور فادينيو الليلي كان يسكرها، كالنبيذ المعتّق، وأنّى لها أن تقاوم إغواء لسانه وفمه بكلماته المعسولة؟ ليالي اندفاع مثير، ويا لها من ليالٍ سحرية اللذة.

مع هذا. نادرة كانت الليالي التي لم يكن يخرج فيها بعد العشاء، فيرتاح على الأريكة المستطيلة، رأسه في حضنها، يستمع إلى المذياع أو يروي لها قصصاً، ويده تتحرّش بها بطيش، يثيرها محاولاً إذكاء غلمتها، لينتهيا معاً في السرير الحديدي، في ركوب خيل طويل.

أمّا النادر جداً أن يحدث، فهو قيامه فجأة دون إنذار بهجر البوهيمية، والعربدة والكاشاسا والقمار على مدى ثلاثة أيام أو أربعة، وربما لأسبوع كامل في نوبة قرف مفاجئة. ويبقى في البيت، ينام معظم الوقت أو يبحث في الخزائن ويناكف تلميذاتها، ملحاً على الدونا فلور بأن تستسلم له في أي ساعة كانت وبمختلف الظروف الجريئة غير اللائقة. كم كانت تلك الأيام القصيرة ممتلئة حين يتدخّل في كل شيء. وترنّ ضحكتُهُ المشاكسة في الممرّ، يتحادث عبر النافذة مع الجيران مصغياً إلى نقاشات الدونا نورما الحادة، وينخرط في أحاديث طويلة مع الدونا جيزا، مشيعاً الحركة والبهجة حوله وفي الشارع. كانت تلك ليالٍ تُعدّ على الأصابع كلها نشوة ومسرّة وضحك طليق ورغبات ومداعبات وكلمات ملاطفة، ثم التحام جسدين منطلقين بلا قيود في السرير الحديدي. كان يخاطبها: «يا حلو جوز الهند الذي أحبه، يا زهرة الغاب، يا ملح حياتي، شوكولاطك هي العسل بشهده بالنسبة لي». لهفي على ما كان يقوله!

وتكرّرت ليالي الانتظار، مع صلوات لا تحصى للسيدة العذراء وللرب نعم، كانت تنام في هذه الليالي قلقة، وتستيقظ عند أقل ضجة. أو كانت تقضي طيلة الليل لا تنام متكئة بغضبٍ وألم على الوسائد حتى تسمع وقع قدمه من بعيد، وتسمع المفتاح يدور في القفل. حالما يفتح الباب تعرف مقدار الكاشاسا التي شرب، ونتيجة اللعب الذي لعب. فتغلق عينيها متصنّعة النوم.

أحياناً يصل عند الفجر فتستقبله بجنانها، وتحتضن نعاسه المتأخر، ووجهه المتعب وابتسامتهِ القسْريّة، كان يلف نفسه ككرة من الخرق في حمى جسدها. عندما تبتلع دموعها كي لا ينتبه إلى بكائها وحزنها. فقد تكاثرت أحزانه، ونخر عظامه الكفاح المستميت مع حظه السيء. عادةً يتناول قليلاً من الخمرة، لكنّه مراراً ما يأتيها وهو سكران فينام على التو، لكن ليس قبل أن يمد لها يده يلاطفها ملاطفة ويهمس: «زنجبيتي الجرداء من الشعر،

اليوم قد دُفنت، وغداً أنتزعكِ مما أنتِ فيه...» وسواء في السهر والرغبة كانت الدونا فلور تتحسس جسد فادينيو لصق جسدها يرتعد في نومه؛ فحتى في أحلامه كان يلعب ويخسر ويكرر أرقاماً في رقصة الروليت: «ستة عشر، ثمانية عشر، عشرون، ثلاثة وعشرون». أرقامه المحتومة. أو كان يعلن بغضب: «كسِبَت القطّة»[1] وتتابع فلور تبدّلات حلمه، فتسمعه يراهن على «الأرنب الفرنسي» ويفضّل كلمة: «الكبير والصغير». وعلمت أنّ مدير اللعبة يأخذ فيشات الكلّ حالما تكسب القطة. وقد انتهى بها الأمر إلى أن تعرف جميع المصطلحات، وتدور الأرقام المجنونة والإغواء السّرّيّ لأكذوبة القمار. وأخيراً، عند الفجر، تحول بينه وبين العالم والفيشات والزهر، ومساعدي مدير اللعبة والنّحس. فتغطيه بجسدها وتدفئه. ويغدو فادينيو النائم طفلاً أشقر، ولداً كبيراً.

وكان يحدث أيضاً أن لا يأتي أبداً. فتنتظره طوال اليوم إلى ليلِ اليومِ التّالي حتى يتآكلها الذّل. وإذ تشاهدها التلميذات صامتةً حزينة، يتجنبن إحراجها بالأسئلة كيلا تنطلق دموع العار المرتبكة من عقالها. لكنهن يعلّقن فيما بينهن على سوء سلوك وحياة ذلك السافل بانتقادات مُرّة. كيف يجد الجرأة على إبكاء زوجته الطيبة جداً؟ لكن، يكفي أن يظهر بينهنّ بصوته المجرّب، وأحاديثه المُنمقة وحِيَله، حتى يذبْن شبقاً، وكان يعتريهن حكاك في الأرداف.

أثناء النهار يضاعف فادينيو جهوده وركضه، بلا جدوى أحياناً، ليتدبّر مالاً يقامر به لا استدانة على مائدة الروليت فالفيش لا يباع إلا نقداً. كان يدور على المصارف، يتسكّع حول المديرين ومساعديهم، من أجل ضمانة حسم أحد السندات، يستعمل سحر أحابيله ليقنع الضامنين الاحتياطيين أصحاب الرهونات من أجل هذا الحسم الموعود، أو لانتزاع بضع مئات من الريالات تقريباً، بالقوة وبفوائد عبثية، من براثن شحيحة لمتلاعب بالبورصة، إنّه قادر على ملازمة بخيلٍ معيّن طوال ما بعد الظهر، ممّن يُظَنّ أنهم أمْنَع من أن يقعوا بيده. فقد كانت لديه قناعة بأنه سيتغلّب عليهم، وفي النهاية ليراهم وهم يأخذون قلم الحبر ليوقعوا على السند المطلوب دون أن يبذل كبير جهد. لا فرق بين كفالة سندية أو إعطاء نقدي فالأمر سيّان بالنسبة إليه. لكن بعضهم كان يميل إلى إعطائه المال. كان فادينيو يتوجه إليهم مع سند

(١) في لعبة قمار «BICHO» تُستَخْدَمُ رموزٌ عن الحيوانات بدلاً من الأرقام.

بقيمة كونتو [1] واحد من الريالات، ويطلب الكفالة فيلقي إليه الضحية بورقة نقد من ذات المائة أو المائتين ليتخلّص منه، وإلا يعرّض نفسه لخطر التوقيع، وسرعـان ما يعود إليه بعد ثلاثين أو ستين يوماً، مع سند مستحق يلزمه التسديد. وهذا خطرٌ جدّيّ لأن فادينيو لا يبالي بأيٍّ كان ففصاحته لا تُقاوم بالبُخل وحده، بل تتطلّب مقاومتها إنساناً له قناعات عقائدية راسخة لا يتأثر بمآسي الحياة، متعصبٌ، متشيّعٌ لمذهب بلا قلب. فكيف يا ترى استطاع الايطالي غيلييرمو ريتشي، من لاديرا دو تايوون، الأسطوري في بخله أن يقاوم فادينيو طوال سنين؟

هناك شخص آخر قاوم بعناد، ألا وهو المكتبي دميغال شـافيس، منـذ كـان مـديـر مكتبة بسيطاً، حتى أصبح الثريَّ الذي نعرفه اليوم. لكن ذات يوم لزمَهُ فادينيو منذ الصباح الباكر، وتناولا الغداء معاً، ثم دخلا في المساء. وأنهكه طوال ست ساعات متواصلة، وهي فترة كان يحسبها ميراندون بساعته السويسرية الأصلية حتى داخ، وتعبت أذنيه فاستسلم دميغال الفطن:

ـ فادينيو، أقسم لك أن هذا أول سند أكفله في حياتي...

ـ إذن هذه بدايةٌ حسنة يا عجوزي أفضل انطلاقة ممكنة. من الدرجة الأولى؛ لا ينقصك الآن إلا أن تواصل، فمن يضمنني مرة لا يتوقّف بعدها يَسْتذوق الأمر...

هرول إلى المصرف، تاركاً المدير البدين فـاغـراً فمـه، منحنيـاً على طـاولـة الكتـب المستطيلة، مغتماً من دون أن يفقه سبب تصرفه الأحمق، وتوقيعه العبثيّ.

في الأوقات التي كان يمارس فيها القمار في المساء وفي الليل، لم يكن فادينيو يـأتي حتى ولا للعشاء. كان يأكل أي شيء: طبق أكاراجيه أو طبق آبارا أو شطيرة، ولم يكن يتناول عشاءه إلا في ساعات الفجر الأولى، بعد أن يوصد آخر باب لآخـر منـزل سيء السمعـة. فيعمـد آنذاك هو ومن ظلّ معه إلى نهاية السهرة مثل جيوفاني، وآناكريون وميرابو سامبايو ومبيا يوركون والزنجي أريغوف الأنيق ـ كأمير الرواية الروسية ـ إلى التوجّـه معـاً نحو رامبـا دو ميركادو أو الأبواب السبعة أو بيت أندريزا أو إلى أي بيت في الريف القريب، حيث

(١) كل كونتو يساوي ألف كروزيرو في العملة القديمة وكل كروزيرو يساوي مائة ألف ريس أو ريال.

يتوافر كارورو ده فوليا [1] وفاتابا [2] بالسمك وجعة مثلجة وكاشاسا صافية.

وعندما يصدف أن يأتي المنزل ليتناول فيه العشاء لا يلبث أن يخرج سريعاً قبيل التاسعة ـ وهو دائماً على عجلة ـ قاضياً على آمال فلور في أن تراه يصل من الشارع مثل أزواج الأخريات الذين يعودون من أعمالهم فيفعل كما يفعلون: يرتدي البيجاما، ويقرأ الصحف ويعلق على الأحداث، وربما يدعوها للقيام بزيارة معينة أو إلى دار سينما. كم من الوقت مضى عليها منذ ذهبت إلى السينما آخر مرة؟ كان لازماً أن تجرها الدونا نورما إلى حفلة ما بعد الظهر [3]، فمن النادر جداً أن تذهب مع فادينيو ـ نادراً لدرجة أنه أضحى غير منتَظر ـ، وقد تنقضي شهور وهما لا يخرجان معاً. لكنّها لم تيأس يوماً وتتخلَّ عن سؤاله حالما تراه يخلع سترته ويرخي عقدة ربطة عنقه:

ـ لن تخرج فيما بعد، أليس كذلك؟

وكان فادينيو يبتسم لها قبل أن يجيب:

ـ سأخرج لكن سرعان ما أعود يا حبي. لن أتأخر أبداً، إني ملتزم بموعد لكني سأقضيه بسرعة...

كانت إجابته دائماً هي نفسها.

مرات معينة كان يصل قبل العشاء لكن لغرض في نفس يعقوب. يحدث ذلك أيام الهزيمة الشاملة، حين لا يحصل على أيّ مال مع هبوط المساء، ويفشل فشلاً مطلقاً في كل محاولاته للحصول عليه، فتخيّم عليه خيبة هاجس الكسب في البيشو؛ عندما يصبح مدراء المصارف بلا إحساس ويختفي الضامنون الاحتياطيون، ولا يجد من يقترض منه. في تلك الأيام المتواصل نحسُها يأتي إلى البيت يئنّ ويشكو. كان عادةً شرهاً يحب تذوّق حلوى الدونا فلور مثنياً على طعمها الذي لا يُضاهى. أما في فترات بعد الظهر تلك فقد كان يأكل بصمت، قلقاً، يأكل القليل، وبسرعة، لا مبالياً بالطعام، ومن حين لآخر يوجّه نظرات

---

(١) و(٢) ضربان من الأطعمة البرازيلية الشمالية.

(٣) MATINE .



كان

ليتحمل تلك

يحدث جرماً أو

إنها تسالي متنوّعة!

كثيرين يقررون أن يفر

القمار فلا يرتاد الكازينو

الانفعالات الجيدة.

وتذكر كيف حاول، تلك الليـ

نقودها فقاومت، لأن هذه النقود كان

وعلا الصراخ والاحتجاجات، وفي النهاية

فادينيو مسيرة مجيدة. ففي آباشادينيو تـدحر

فادينيو عشرة آلاف على «الكبير» ـ كان لا يرا

كسب «الكبير»، صدّق أو لا تصدق، أربع عشر

وازدحم حوله اللاعبون والمومسات في توتـرٍ وقلـق،

«الكبير» إلى ما لانهاية. حالما علم ميراندون بالخبر اندفع

حيث كان يلعب «المستديرة»[1] وصرخ به:

ـ توقف حباً بأبنائك، فالحظّ سينقلب عليك.

لم يكن لفادينيو أبناء، لذا لم يكن ليتوقـف. لكن ميراندون ا

وضع يديه على الفيشات وسحبها بنفسه، دافعاً فادينيو من على الطاولة. و

كسب «الصغير» وبعده كسبت القطة، ومجدداً «الصغير» والقطة مرّة أخـ

فادينيو، رغم إرادته، ثرياً.

في تلك الليلة، وجيوبه ممتلئة، تذكّر الدونا فلور تقول له دامعة العينين «أنت

منك، لا تساوي شيئاً ولا تجني ولو قدر قيراط». أراد أن يصل إلى البيت مبكراً ومع هـ

لكنها هدية ثمينة تماماً لا مجرد شيء بسيط زهيد الثمن. عقد، خاتم، سوار، حلية ثمينة. لكـ

---

(١) RONDA: ضرب من القمار.

من أين يحصل عليها ، والسوق التجاري مغلق؟ اقترح ميراندون أنهما قد يجدا هدية مدهشة عند عاهرة في المنطقة! فالبغايا يتقبلن أحياناً عطاءات ثمينة ، إذا ما ارتبطن بعلاقة حب مع عقيد [1] من عقداء الكاكاو ، أو مزارع في السرتون [2] ، فيغتنمن الفرصة ليملأن جيوبهنّ بالمال ، بل بعضهن يتركن ممارسة البغاء ليؤسسْن صالونات تجميل أو محلات نوفوتية . وميراندون يعرف اثنتين انتهى بهما الأمر إلى الزواج وصارتا سيدتين شريفتين جداً .

خرجا يبحثان ، جالا هنا وهناك من ملهى ليليّ إلى آخر ، من شقة عازبين إلى أخرى ، ومن نَزْلٍ إلى آخر ، وحيثما كانا يصلان يبتاعان الجعة والفيرموت والكونياك لكل من يريد أن يشربَ على حساب فادينيو . استعرضا وقلّبا عشرات الحليّ الفقيرة لعشرات البغّايا فلم يعثر إلا على خرضوات معدنية مطلية بالكروم أو من الزجاج الملوّن ، أو الصفيح - والليل يتقدم .

« أريد الوصول مبكراً مع مفاجأة كاملة » . فادينيو في عجلة من أمره ، يعتريه الخجل ، يتخيّل وجه الدونا فلور وهي تراه قبل منتصف الليل ، والهدية في يده . لا ينقصه سوى أن يحظى بهدية ثمينة ، تملأ العين ، لا مجرّد تفاهة معدنية من التي يبيعها المسكاتي [3] . وأخيراً عثرا على بُغيتهما في لاديرا سان ميغيل في غرفة مدام كلوديت التي انتهت بغياً تعيش على حساب قلة من الزبائن من الطلاب الجامعيين الذين كانوا يختلفون إليها بسبب من جنسيتها الفرنسية ومزاياها « الفرنسية » المعروفة ، وبسعر متدنٍ !

عقدٌ من الفيروز الأزرق رائع الجمال لدرجة أن فادينيو وميراندون انبهرا بجماله اللامع وسحره . كله مشغول بالذهب . كانت البغي الهرمة تضغط عليه بين أصابعها كأنها تدافع عنه . حلية العائلة ، وأسرّت لهما أنه حلية عائليّة جلبتها معها من أوروبا ، كان لأمها ولجدتها ، قبلها لذا قيمتُهُ مضاعفة . لن تتخلى عن العقد الغالي على قلبها إلا لمال كثير ، فهو ذكرى عالمها الضائع في اللورين ، ذكرى من طفولتها . إلا بمال كثير ، كثير :

---

(١) لقب يطلق على أصحاب المزارع الكبيرة .

(٢) SERTAO : منطقة في داخل الولايات االشمالية الشرقية من البرازيل تعاني الجفاف غالباً .

(٣) MASCATE : البائع الجوال وهي مهنة صغار المغتربين العرب في البرازيل .

«LE PETIT VADINHO, LE PAUVRE»[1] لم يلمس يوماً مبلغاً كبيراً كالذي تطلبه أبداً، ولا تظنّ أنه إذا فعل يوماً قد ينفقه على شراء حلية لامرأة.

مدام: متى اهتم فادينيو بالمال؟ حتى وهو مفلس تماماً لا يهتمّ بالمال إطلاقاً، وإذا كان يسعى إليه سعياً حثيثاً فإنما ليقذفه على طاولة الروليت. وهكذا اندفع يُفرغ جيوبه من المال المحشور فيها حتى كادت تصبح فارغة، واشتعلت عينا مدام كلوديت الصغيرتان بالطمع تحت قناع مسحوق الأرز[2] والكريم، وراحت تلك المومياء ترتعد وهي ترى أوراق النقد من فئتي المائة والمائتين.

حملته سيارة التاكسي التي يقودها الغَجري إلى باب البيت عند الحادية عشرة والدقيقة الأربعين، قبيل منتصف الليل، كما شاء هو. ولمّا تكد الدونا فلور تغلق عينيها وتغطّ قليلاً حتى صار فادينيو في الحجرة وانتزع الملاءة التي تخفي جسدها، ووضع فصوص الفيروز البرّاقة بين ثدييها المتورّمين وقهقه في وجهها:

« وأنتِ التي ما أردتِ إقراضي النقود، أيتها السيّدة البلهاء... » نثر أوراق النقد على السرير، إذ ظلّ معه أكثر من كونتوين[3] من الريالات.

كيف تتوقّع « مصيراً مرعباً » لمن كان هكذا، مقامراً مرحاً يضحك من الحظ ومن النحس، مفعماً بفرح العيش؟

مصير مرعب، ربما كان مصير الدونا فلور، من وجهة نظرها، من موقعها ـ وبتعبير أدقّ ـ من موقع انتظارها له. كم ارتعبت وهي تنتظره في سريرها. ظلّت تنتظره طوال السبع سنوات، عمراً كاملاً. وكم بكت بدموع غزيرة، وكم تمتّعت بلحظات الرّقة الحلوة والتملك تعويضاً عن ساعات الغياب المرّ والإذلال. ذات يوم استعانت الدونا جيزا بخبايا علم النفس والتحليل النفسي ووصف الحالات النفسية وظواهرها وكل المُبتكرات الأميركية الأخرى لتفسّر لها أنها ـ الدونا فلور ـ كانت متزوجة من شخص شاذ ـ وليس استثنائياً[4] بالمعنى

---

(١) بالفرنسية: فادينيو الصغير، المسكين.

(٢) نوع من مساحيق التجميل.

(٣) CONTO: يساوي ألف كروزيرو وكل كروزيرو ألف ريس أو ريال (حسب العملة السابقة).

(٤) كلمتا « استثنائي » و« شاذ » في البرتغالية لها مدلول لفظي واحد هو: EXCEPCIONAL.





١٥

الآن، وهي مضطجعة على السرير الحديدي، حاولت الدونا فلور ألا تصغي إلى الإزعاج الذي تحدثه الدونا روزيلدا عند الباب المطل على الشارع، وهي في محادثة منعشة مع الدونا نورما، لكي تستضيف في الذاكرة الضائعة بشكل أفضل، في مدى الزمن، أصوات المغنين، إيقاع الآلات الموسيقية، تلك السيريناتا المؤثرة في لاديرا دو آلفو، لتملأ ساعاتها وتضبط قلبها في هذه الليالي التي لم تعد تنتظره فيها، فزوجها قد مات. كانت تحسب نفسها الآن جد وحيدة مع عالم من الذكريات، فيه تستضاف ملتجئة إلى رماد الذكريات، تطفىء فيه جمرة الرغبة الحيّة. كما لو أن سوراً لدير يحرّم الدخول إليه قد انتصب، يفصلها عن التهامس والوشايات، عن الأحاديث والتعقيبات التي أزعجت كثيراً ترمّلها الحديث، ذلك الواقع الجديد المؤلم للغياب، في الأوقات الأولى للحداد، كانت تتحرك فقط في الألم والاشتياق، في الاحتياج وفي إمكان الحصول عليه هناك، إلى جانبها. إنه المستحيل الآن وإلى الأبد.

مسحوقة تحت ثقل الموسيقى والغناء الباعثين على الذكرى، صوت الدونا روزيلدا وسخريتها يلجآن الدونا فلور إلى ذكريات الماضي؛ تلك الليلة، حينما وصلت إلى النافذة مع أوّل نغمة، كان جسمها يؤلمها، فجلد السوط القاسي ترك لها ندبة على عنقها كانت خرقة، خرقة بالية موسومة بالعار. صعد فادينيو اللاديرا وهو يغني، وقد رفع ذراعيه إلى أعلى. وتعرفت على الآخرين: الصوت غير الخجول الذي لا يُضاهى كان صوت كاييمي، جينير أوغستو الشاحب ما يزال تحت القمر، ويرافقها على الآلات الموسيقية في

الجوقة كارلينيوس ماسكارينياس وإدغار كوكو والدكتور فالتر دا سيلفيرا وميراندون. لقد استدارت لتجلب تلك الوردة الداكنة والنّادرة، التي قطفتها في العشية من حديقة الخالة ليتا. كل شيء في حياتها كان يتمرّد ويتململ في ارتباك واضطراب كلي، حتى هي خاضعة لسلطة الدونا روزيلدا الحديدية. ومنحتها الموسيقى القوة والشجاعة. وبغتةً شعرت برضا لكون فادينيو ليس أكثر من موظف بلدي بسيط، وظيفة بائسة، ولم يعد يهمها أن يكون مقامراً لا رجاء منه.

مع ذكرى ليال كهذه، ليالي ضوء القمر والرّقة، قضت الدونا فلور ليالٍ أرقة تحاول تخفيف ألمها وقنوطها الناتجين عن معرفتها بأن فادينيو لن يأتي بعد اليوم ليلمس جسدها ويشعل فيه الجمر. في ليل الانتظار الطويل، لن تعود لتصغي في الشارع لصوته الناشز في سيريناتات أخرى.

وكان يحدث أحياناً أن يتجاوز فادينيو جميع الحدود - ليالٍ متواصلة لا ينام خلالها في البيت أو كما حدث تلك المرّة عندما كانا حديثي عهد بالزواج وقامر بنقود الإيجار ولم تقل له شيئاً، لكنّه دفعها إلى التهرّب من سداد الإيجار - ثم يحاول التّصالح معها. آنذاك كانت تتجاهله ولا توجّه له الكلام وكأنه ليس زوجها. أما فادينيو فكان يدور قلقاً حول تنورتها يتملّقها بكلامه ودعواته وتحريضاته ليثيرها ويقودها نحو اللذة. وكانت تقاوم في خنادق الألم والعار.

كان فادينيو يعدّ نفسه للمقامرات الكبيرة، فيذهب معها إلى السينما، ويردّ معها الزيارة المتوجبة منذ وقت بعيد للدونا ماغا، أو لعرّاب إيتور، الدكتور لويس إينريكي، أو حسناً، كان ينظم سيريناتا، مبهراً الشارع، لكنه لم يكن يُحْضِرُ دوريغال كاييمي، بغموض صوته، ولا الدكتور فالتر دا سيلفيرا. فكاييمي قد هاجر إلى الريو، حيث يقدّم في الإذاعة الكاريوكية [1] ويسجل اسطوانات، يغنّي أغانيه مغنون مشهورون يطلقون أغاني السامبا التي يلحنها، أغنياته المستقاة من طابع ولاية بيرنامبوكو. أما عن الدكتور فالتر فلا تسَلْ: منذ صار قاضياً في المناطق الداخلية وهو لا يستعمل سحر مزماره إلا لهدهدة نعاس أبنائه

---

(١) CARIOCA: صفة تطلق على من يولد في مدينة ريو ده جانيرو، أو أي شيء ينسب إليها.



تجاهد يومياً ، تحاول التغلّب على الفراغ داخلها ، تحبس دموعها لتمضي قُدُماً . فبعد قداس
اليوم السابع ، أعادت فتح مدرسة الطهي ، والتلميذات عدن ، وفي البدء رحْنَ يتجنبن
'لسّخريات المألوفة والنوادر الخبيثة والنكات والقهقهات بين الوصْفَة والأخرى . وخلقن جواً
داً متعاطفاً مع حزنها حول طبّاخ الحطب وطبّاخ الفحم . لكنّ سيناريو الحداد هذا لم
الا يومين أو ثلاثة أيام . إذ سرعان ما فرض مرح الإلفة نفسه وهو ما أرادته الدونا
ا كي تتسلّى ، وتكسر طوق الحداد .

تيعاً باستثناء الصغيرة ليدا بوجهها الشبيه بوجه القطة الشرسة وسرها الذي لم
الخوف من مواجهة الدونا فلور ، أم خوفها من مواجهة البيت الذي أمسى
نبو ، من ضحكته ، من دهائه ، من نذالته ؟

نا فلور لما منعتها من الحضور ، فما عاد يهمها أن تعرف ولا أن
'اٍ ما كانت تريد التحقق منه هو هل تلك الهاربة منتفخة البطن

نب ذنبها هي ، لا زوجها ، هذا ما أوضحته لها
أكده الدكتور جايير مقترحاً إجراء عملية جراحية
ت من الجراحة لشدة خوفها ، ثمّ إن الدكتور
أصبح خوفها الأول أن يصبح لزوجها ابن

ب أم لا في أن يكون له ابن . هل
جعلها تمسك عن طرح الأسئلة
مؤكد :

بما لهذا أخفى رغبته
صبيّ شعره أسود
جل ، جائزة

الصلابة الطفولية معروض بالكروم في تقويم السنة، فتشجعت وطرّقت الموضوع المزعج:

ـ لو أنك ترغب فعلاً في الولد، فسأجازف بالعملية. يقول الدكتور جايير إنها قد تنجح، لكنه لا يضمن ذلك.

كان يصغي من بعيد، كأنه ضائع في أضغاث حلم، ولم يجب حالاً، مما دفعها إلى رفع صوتها بحنق تقريباً، لتنتزعه من ذلك السّرَحان:

ـ حتى لو لم تنجح العملية على الأقل لن يستطيع أحد أن يقول بعدها إنك أردت ولداً ولم أفعل ما بوسعي لأنجبه لك.. سأضع خوفي جانباً، يكفي أن تقول كلمةً واحدة.

خرجت الكلمات الأخيرة مبللةً بالدموع مخنوقة بالشهقات.

ربما لهذا السبب، لأنه لم يتحمل أبداً رؤيتها تبكي؛ أخذ يلاطف وجهها الحزين، ويبتسم ليفرحها:

ـ بلهاء، خرقاء... ما هذا الهوس عن خوض حماقة العملية؟ دعي حماقتك جانباً، يا حبي، فلن أسمح لك بالعبث بهذه البشرة الجرداء لتغدو فجأة رخوة أو مشوَّهة من الداخل... اطرحي عنك فكرة الولد هذه...

وأقفل الموضوع بأن أحتضنها، وجرَّها إلى حجرة النوم لتحسِمَ المتعة أنه مشتاقٌ إليها، وليس للولد الذي تعجز عن إنجابه له، هذا الولد الذي يسهل عليه إنجابه من أية امرأة أخرى. وبتمكّنه من جسدها في تلك اللحظات غير المناسبة ألغى وقت الأسئلة والأجوبة وألقى الظلال على حضور الطفل غير الموجود المنتصب بينهما، حتى غيَّبه تغييباً تاماً.

هل كان يحب الأولاد، آه! كم كان يحبهم...! والأولاد كانوا يفضّلونه على أي لعبة كانت، ينادونه بالاسم، راكضين إليه. مع الأطفال يصبح فادينيو طفلاً كما لو كان تِرْبَهم، ولا حدود لصبره. وقدّم لها ميراندون أصغر أبنائه الأربعة ليكون ابنها الروحي [1]، فنشأ

(١) المقصود: الإبن الذي يتباه العرّاب عند العمادة.

مجنوناً منذ صغره بعرابه؛ حالما يراه يفتح فمه الكبير كفم الضفدع، ويشير إليه بيديه، ويهجر ذراعيْ أمه ليَقْبع بين ذراعيْ فادينيو. ثم يلعبان معاً ساعات، يقلد فيها فادينيو زئير الحيوانات الضارية، واثباً كالكانغارو، ويضحك سعيداً. فكيف لا يرغب إبناً من كان كذلك، مجنوناً بالأطفال؟ لكنه لم يعترف بذلك أبداً، ربما لكي لا يجبرها على المخاطرة بنفسها في عملية جراحية مشكوك في نجاحها.

شعرت الدونا فلور الرّاقدة في سرير الأرملة بوجع النّدم؛ كان عليها أن تحاول وتجري العملية رغم ما أظهره الطبيبان من تشاؤم بنتيجتها. لكنّها تركت خوفها يتحكّم بها. من يدري؟ ربما كان ذلك أفضل حسب رأي الدونا جيزا، وجيران آخرون. حتى الخالة والعم، والدونا جيزا المثقفة راحت تتحِفُها بنظريات في الوراثة لتؤاسيها حين كانت تتهم نفسها بالعقم وبأنها لا تنفع لشيء. والخالة ليتا بالذات، القويّة الطيبة، والتي تجد دائماً الأعذار لسلوك فادينيو، قالت لها مراراً:

ـ عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، يا ابنتي. ماذا لو وضعت في الدنيا ولداً كفادينيو، لا فائدة منه؟ هل فكرت بذلك؟ إن الله بصيرٌ عليم...

وأقرّ تاليس بورتو ذلك مؤيداً زوجته:

ـ تماماً تماماً، ليتا على حقّ. ليس من الضروري أن يكون للمرء ولد كي يعيش سعيداً. أنظري إلينا... ليس لدينا أولاد...

في الواقع كانا سعيدين، كل منهما يكرّس نفسه للآخر: بورتو بلوحاته التي يرسمها أيام الآحاد، والدونا ليتا بزهور حديقتها وقطها العجوز السمين يترك برازه في كل مكان، يزمجر في موائه ويتدلل وكأنه الإبن الوحيد.

أناس كثيرون أحاطوها بنفس الغرض المعزي، في هذه الآراء كانت الدونا فلور تزرع خوفها، خوفها و ـ لماذا يقال ـ أنانيتها؟

راقدةً على السرير الحديدي، بين امتعاض صوت الدونا روزيلدا وعذوبة وموسيقى السيريناتا العذبة، تلحظ الأرملة أنّ المسألة في الحقيقة لم تكن مجرد خوفٍ من العملية. فلو

كانت رغبتها في إنجاب الولد قوية كما لدى فادينيو لكانت وجدت الشجاعة لمواجهة مبضع الجرّاح والمستشفى. المسألة أنها، هي الدونا فلور، لم تكن تحِنّ إلى الولد، إلى طفل يملأ البيت ضجيجاً وضحكاً. كانت تعيش وتفكّر من أجل فادينيو، نعم، كان هو طفلها، هو من تريده في البيت، زوجها وابنها، « ولدها الكبير ».

وعند الباب المطلّ على الشارع، تؤكد الدونا نورما كقاضٍ يصدر حكماً وكصديقة:

ـ إنها بحاجة إلى النّسيان، وهو كل ما تحتاجه. فما زالت شابة، تستطيع أن تبدأ حياتها من جديد...

ـ « هي التي أرادت أن تتزوج »، من هذا الشقي، يعلو صوت الدونا روزيلدا.

إذا كان فادينيو لا يساوي شيئاً، فهذا سبب آخر كي لا تتكلمي عنه، لماذا العيش متشبّثين بتابوت المتوفي؟ علينا أن نجعل المسكينة تفرّج عن كربها، وألا نترك لها وقتاً للتذكر، عندها المدرسة لكنها لا تكفي، يجب أن تخرج، أن تسلّي نفسها، إنها بحاجة لأن تنسى...

وتعلو طيبة الدونا نورما على زمجرة الدونا روزيلدا:

ـ حبذا لو كان لديها ابن، على الأقل...

وتصل الجملة إلى سمع الدونا فلور، « لو كان لديها ابن، على الأقل... » أجل، لكان الأمر أسهل بكثير... ما كانت ستظلّ وحيدة هكذا فارغة إلى هذا الحدّ، بلا سبب تعيش من أجله. في الشارع، في الجوار، في القداس وفي التبريك، في السوق وفي الفيرا [1]، كانت عصا الدونا روزيلدا ترتفع كعصا قائد الفرقة الموسيقية، مديرة جوقة اللعنات على فادينيو وذكراه، ذلك الشخص الذي لا يُسمّى بسبب دناءته. وتغلق الدونا فلور سمعها فلا تسمع إلا أنغام السيريناتا القديمة. وحيدةً في السرير الحديدي، وحيدة مع غياب زوجها الذي لا رجعة له، وحيدة ولا ابن يواسيها.

---

(١) FEIRA: سوق نقّال من حيّ إلى حيّ، كل يوم في مكان، ينصب الباعة خيماً لعرض بضائعهم من كل الأصناف، كالسلع الغذائية والأقمشة وغيرها.



تقول: « الضائعات » كي لا تستخدم نعتاً أقوى. فالدونا دينورا كانت الدماثة بشحمها ولحمها، ولديها رعب في تسبب أي ألم أو جرح مشاعر أي كان، حتى لو كانت امرأة ضائعة قليلة الحياء، تحبل من رجل متزوج، تملأ بطنها من زوج امرأة اخرى. « ليست من أولئك النمّامات، فأنا لا أسيء إلى أحد ». هذا ما كانت الدونا دينورا تؤكده وهناك أحياناً من يصدقه.

راقدةً في سريرها أرملةً، تخرس آخر أنغام السيريناتا وتتلاشى أصوات المغنين والوردة السوداء تضيع، ترتعد الدونا فلور إذ تتذكر تلك الأيام وما خالطها من ذعر شديد والقرار الصعب. لماذا عجزت عن أن تسمح لنفسها بفقدان فادينيو وأرادت الاحتفاظ به إلى جانبها، أن تحصل عليه، حتى ولو كان مثل ما كان: مقامراً وزير نساء، وله عشيقة في بيت معيّن، وله ابن في الشوارع؟ كيفما كان الأمر؟. إن ما كانت قادرة عليه، أبدته آنئذٍ.

١٦

. خرجت المرأتان في الحادية عشرة من القداس الأنيق في كنيسة القديس فرانسيسكو، في صباح يوم أحد مشرق من شهر حزيران غسله المطر، واجتازتا بخطى ثابتة تيريّرو ده جيسوس في اتجاه لابيرينتو ذي الشوارع الضيقة في بيلورينيو. كان هناك أولاد يغنون أغنية سامبا وقد اصطفوا في حلقة يقرعون اللّحن على صفائح حلوى غوايا فارغة مردّدين:

« امرأة البالايو [١] !
امرأة البالايو !
ـ البالايو الطيّب ! »

التفتت الدونا نورما إلى رفيقتها وزمجرت:

ـ آه من هؤلاء الغلمان! لم لا يذهبون ويعبثون بمؤخرات أمهاتهم؟...

ربما كان الأمر مجرد مصادفة، لو لم يكن الأولاد متحمسين جداً، وهنا رمت الدونا نورما نظرة مرعبة على الوقحين، نظرةً سرعان ما رقّتْ عندما اكتشفت وجود ولد صغير في الثالثة من عمره في أسمال بالية وجهه متسخ، وفي حدقتيْ عينيه قذى والمخاط يسيل من أنفه وهو يرقص السامبا في وسط الحلقة:

ـ تأمّلي كم هو لطيف، يا فلور، يا له من شيطان صغير جميل جداً، إنه يرقص...!

---

(١) BALAIO: من مناصري « بالايو » وهو لقب مانويل دوس آنجوس فيريرا أحد زعماء ثورة البالايادا التي نشبت من عام ١٨٣٨ إلى ١٨٤٠ في ولاية مارانيون في الشمال الشرقي من البرازيل.

تأملت الدونا فلور زمرة الأطفال بأسمائهم. وكان هناك كثيرون غيرهم ينتشرون في الساحة الزاخرة بالحياة وبالنّاس يختلطون بالمصوّرين، محاولين سرقة فاكهة من سلال البرتقال والليمون الأفندي، والليمون الحلو والأونبو[1] والساپوتي[2] وكانوا يستحسنون الغش في بيع وشراء مستحضرات صيدلانية ذات أعاجيب، أفعى متكوّرة على عنقها، وشاح باعث على النفور. وكانوا يتسوَّلون عند أبواب كنائس الساحة الخمس، يكادون يسحبون النقود سحباً من المؤمنين الأثرياء. ويتبادلون كلمات ساخرة مع المومسات النَّعِسات ومعظمهن من الشابات، اللواتي يشكّلن حلقات في الحديقة بانتظار زبون صباحيّ على عجلة من أمره. جمهرة صغار منحرفين وقحين، أبناء نسوة المحلّة، لا آباء ولا بيوت لهم[3]؛ يعيشون مهمَلين يجوبون الأزقة، وسرعان ما يغدون قباطنة رمال[4]، ويتعرفون على مراكز الشرطة.

ارتعدت الدونا فلور: إذ تذكَّرت أنها كادت تأخذ أحد هؤلاء الأطفال ـ كان طفلاً حديث الولادة ـ لتؤكد هكذا ما هو مضاد لها ولأمها. لكن قلبها امتلأ شفقة، إحساس نبيل ونقي إذ رأت الأولاد طليقين في ساحة تيريّرو. ولو تسنّى لها لتبنّتْهم جميعاً في تلك الساعة وليس ابن فادينيو وحده. لو كان ابن فادينيو لما لجأ إليها. ففادينيو ما كان ليتركه أبداً، ما كان من طبيعته أن يُهْمل طفلاً، فكيف بالحري إذا كان جزءاً منه، من لحمه ودمه؟ بدلاً من إنكار أبوّته كان سيعلنها، يتباهى بها، مسروراً فخوراً.

هذا ما كانت الدونا فلور تعرفه دائماً تمام المعرفة، معرفة من دون شكوك. فرغم سكوت زوجها وكتمه أسراره عنها، فإن وجود ابن له كان سيغدو أكبر الأحداث، ضربة «حظ سعيد حقيقية» العرض الذي لا يضاهى، إنفجار حصيلة المراهنة. لهذا اضطربت أشد الاضطراب للنبأ الذي جاءت به الدونا دينورا. كان ذلك أكبر خطر عليها، التهديد الذي طالما أخافها. ففي النّهاية، فإن لم يكن لها في فادينيو ما يخصّها إلا القليل القليل فهو تحت

---

(١) UMBU نوع من الفاكهة الاستوائية.
(٢) SAPOTI نوع آخر من الفاكهة الاستوائية.
(٣) LAR: البيت بمعنى الأسرة.
(٤) المقصود: الأولاد المشردون الذين يمتهنون الشر.

سيطرة القمار والبوهيمية، فماذا يتبقى لها إذْ انتصب ابن بينها، يناديه من زقاق ملتو، من ركن الشارع، من سرير امرأة متشرّدة؟ هذا الإبن الذي لم تستطعَ هي أن تعطيه إياه!

عند بلوغها الخبر، باتت يائسة، في ألم هائل حتى الدونا نورما ذاتها فقدت عقلها، وهي عادة متّزنة للغاية طالما وجدت حلاً للمشكلات التي لا تحصى، التي كانت تنشأ في كل لحظة، فها هي لا تنجح في إيجاد مخرج، مضطربة ومرتبكة.

ـ ماذا لو قلتِ له إنّكِ حامل؟ كأن هذه الأكذوبة البائسة هي أفضل ما خرجَتْ به.

ـ وما الفائدة؟ سيكشفها في النهاية، وهذا أسوأ...

الدونا جيزا هي التي حلّت المُعضلة، بطريقة شريفة، بل حلٍّ قادر على حل كل شيء وربما أكثر. من يدري؟ الغرينغا كانت خبيرة في مواضيع من السيكولوجيا والماورائيات[1] حتى أن الأستاذ إيليا مينونداس سوزا بينتو كان يرفع لها قبعته معترفاً: «امرأة ضليعة للغاية»، ـ وهذا الأخير لم يكن شخصاً عادياً، ولا يخطىء أبداً في وضع اللقب وذكر القواعد النحوية في الصحيفة الأسبوعية التي يصدرها باولو ناصيف، وهي صحيفة قليلة الانتشار، إنما ناجحة في استقطاب الإعلانات.

حين عرفت الدونا جيزا بمجرى الأحداث ـ الدونا فلور مكتئبة، الدونا نورما ضائعة ـ اتخذت حالاً القرار وطرحته على صديقتيها في برتغاليتها المرتبكة: إذا كان فادينيو يرغب في ابن إلى حدّ صنعه في الشارع مع بغيّ، وحيث أن الدونا فلور عاقر، وإذا كان هذا الإبن المولود من أخرى قادر أن يدفع فادينيو إلى هجرها إلى الأبد، فلا يبقى آنئذٍ أمام الدونا فلور من وسيلة لتحتفظ بزوجها وبيتها، إلا أن تُحضر إلى المنزل ابن السفاح هذا وتكون له أمّاً، فتربيه كما لو كان من لحمها ودمها.

لمَ لا؟ لماذا تصرخ الدونا فلور، وتشتم وتلعن كامرأة أميركية شماليّة مليونيرة (التشبيه للدونا جيزا، المندهشة إزاء ردة فعل جارتها على اقتراحها) مقسمة على أن هذا ليس أبداً، أبداً هو ابن امرأة أخرى، ابن الكلبة، القحبة عديمة الحياء؟ لماذا تحدث فضيحة، فالمدهش

---

(١) METAFISICA: علم ماوراء الطبيعة.

في البرازيل هو ، حسب قول الغرينغا ، القدرة على التفاهم والتعايش ؟ إنه لأمر عادي جداً أن تربي نساء متزوجات أبناء سفاح لأزواجهن ، وهي تعلم بعض الحالات حدثت بين الفقراء كما بين الأثرياء : هنـاك جوار شارعنا ألا تربي الدونا أبيغايل ابنة زوجها من إحدى النّساء ، وألا تقوم بذلك بنفس حبّها وحنانها المكرّس على أبنائها الأربعة الذين من لحمها ودمها ؟ كم ذلك جميل ! لهذا تحبّ الدونا جيزا البرازيل ولهذا تجنّست برازيليةً .

أيّ ذنب اقترفه الولد ؟ أي إثم ارتكبـه ؟ لماذا يُترك طفـل مسكين ، مـن دم فـادينيـو ، زوجها ، ولحمه عرضة لحياة الفاقة ، لسوء التغذية ، فينمو في الجوع والشر فأراً في مجارير بيلورينيو ، من دون أن يكون له الحق في تربية صحيحة وفي تذوق مسرات الحياة ؟ إضافة إلى ذلك ، ألا تخشى الدونا فلور ـ وهي على حقّ ـ من أن يبقى فادينيو أسير أم الطفل ، فيلزم جانب ابنه ؟ وأي برهان أكبر على حبّها له من أن تمضي الدونا فلور وتحضر الطفل لكي تربيه كابن لها ؟ سيكون هذا الطفل المولود من أخرى سيكون توثيقاً لعرى الرابط الأبدي بين فادينيو وفلور ، بلا خوف وبلا تهديد .

ومن يدري ، من يدري يا عزيزتي المحترمة : ربما وجود هذا الإبن في البيت حيث يكبر صحيح التربية مهذباً وجميلاً في حنان الدونا فلور سيشكل فرحاً دائماً لفادينيو ، لكنه يعني أيضاً مسؤولية دائمة . ومن يدري فقد يحمل المحتال على تغيير نمط حياته ، فيترك نهائياً القمار والعربدة ، لتأخذ حياته مساراً جديداً شريفاً ؟ هذا ممكنٌ جداً ، وكم من حالات مماثلة لا تعدّ ولا تحصى .

« لا تعد ولا تُحصى » ، نعم أيدتها الدونا نورما ، بحماس وهي تقول « هذه الغرينغا اللعينة فهيمة ! » وعلى الفور تذكر الدونا نورما أسماء وعناوين . من كان أكثر إدماناً على القمار والكاشاسا من الدكتور سيسيرو آراووجو ، من سانتو آمارو دا بوريفيكاسيون ؟ كم عانت زوجته المسكينة الدونا بيكينا من جحيم العذاب . ثم حمَلت ذات يوم ، وقبل أن يولد الولد كان الدكتور سيسيرو قد تحوّل نموذجاً للمواطـن الشريـف . والسيـد مـانـويـل ليما ، الذي كان مجنون حبّ إحدى الجانحات . . . حسناً ، الحقيقة أن هذا لم يكـن يحتـاج إلى ابـن بمجرد أن تزوّج استقام ، ولا من زوج أصلح منه .

أعطت الدونا جيزا بعداً جديداً للمشكلة: فذلك الإبن الذي ترى فيه الدونا فلور خطراً حقيقياً على استقرار بيتها، قد يصبح بخطوة سحرية، عامل استقرار وأمان، ضماناً لحبها من التحطّم بل وقد يصلح أمر فادينيو. هنا تحسّرت الدونا جيزا في سرّها. فإصلاح فادينيو سيفقده تلك الإثارة، ذلك الغموض المحيّر، ذلك اللطف الفاجر:

وانفتحت عينا الدونا فلور على الحقيقة، فهمت، فومضت عيناها فرحاً وألقت بنفسها في أحضان صديقتها تشكرها. ثم قاما برسم الخطة خطوةً خطوة، بكلّ تفاصيلها. وما كان ذلك سهلاً على الدونا فلور، بل كان صعباً. ولولا دعم الدونا نورما لما استطاعت الدونا فلور أن تستجمع شجاعةً كافيةً لتتوجه إلى محلّة النساء الضائعات، إلى سوق « البغاء السفلي » التي غالباً ما يُحاط ذكرها بالرعب في صفحة الجرائم في الجرائد، تبحث في جنون عن ديونيزيا المذكورة لتلح عليها بإعطائها ابنها الحديث الولادة، لتأخذه منها نهائياً، تأخذه إلى الأبد بوثيقة رسمية من الكاتب العدل، بتواقيع شرعية وشهود عدل. الدونا نورما، المتضامنة معها كأنها شقيقتها عرضت مرافقتها تشجيعاً لها ولإرضاء فضولها، والحقّ يقال، فطالما ترغب في أن تتاح لها الفرصة لتتلصص على سوق البغاء، على مساكن المومسات وحياتهن القذرة. ولم تعثر قبلاً على ذريعة قيّمة كهذه للقيام بالجولة المذكورة. فبينما كان زيه سامبايو زوجها، لا يزال تحت تأثير الخبر سألته: أيعقل أن تترك فلور المسكينة تغامر بمفردها في تلك المتاهات الخطِرة؟ وراح الزوج يحاول إقناعها بالعدول عن ذلك فردت: « لست فتاة صغيرة بلهاء، إني سيدة ناضجة، محترمة، لن يجرؤ أحدٌ على التعرّض لي. » ثم كشفت لزيه سامبايو المغلوب على أمره، المستسلم أمام حيوية اندفاعها: « سنذهب الأحد صباحاً. سأذهب لأزور ابني [1] في العمادة، حفيد جوان آلفيس. ثم أطلب من جوان مرافقتنا إلى بيت المذكورة. وجوان، أنت تعرف جوان: إنه معلم الأولاد المنحرفين...

وهذا ما حصل فعلاً: يوم الأحد حضرتا القداس في كنيسة القديس فرانسيسكو (الدونا فلور حملت شمعة مزيّنة بزهور، نذر لتسير الأمور على ما يرام)، ثم اجتازتا التيريّرو والتقتا

(١) AFILHADO : الطفل بالنسبة إلى عرابه عند العمادة.

الزنجي جوان آلفيس عند بسطته[1] لمسح الأحذية، في الممشى المؤدي إلى كلية الطب. كان محاطاً بالأطفال، بينهم الزنجي الصغير الجعد الشعر، والخلاسيون المتدرجون لوناً بين الأبيض والأسود إضافة إلى الأشقر وشعره بلون القمح، الجميع ينادونه بالجدّ. فقد كانوا أحفاده، كل أولئك الأولاد وكلّ الآخرين الطلقاء في متاهات الأزقة بين التيريّرو وباشادوس ساباتيروس. الواقع أنه لم يكن للزنجي جوان آلفيس أولاد: لا من امرأته، ولا من غيرها، لكنه تدبّر عرّابات لأحفاده، وطعاماً وثياباً عتيقة وحتى بطاقات الـ «أ ب ث». كان يعيش هناك في فناء قريب مسقوف، مع المشعوذين الماندينغا[2]، ورجال العنف السيئي السمعة إضافة إلى بعض أحفاده، والفناء المسقوف ينفتح على واد مزروع أخضر، ومن جحره هذا كان الزنجي جوان آلفيس يقود ألوان وأضواء[3] كرنفال باهيّا.

ـ أوشنتي[4]! إلى هنا! طابت عينا من يراك يا إشبينتي الدونا نورما... وكيف حال السيد زيه سامبايو؟ قولي له إني سآتي إلى محلّه قريباً لأجلب أحذية للأولاد...

تحلّق الأولاد حول الصديقتين. كانت الدونا نورما قد احتاطت للأمر: ففي يدها كيس قطع كراملّة. أرسل جوان آلفيس أحد الصغار في مهمة وما لبث أن حضر عددٌ من الأولاد يركضون وبينهم خلاسي كافوزو[5] في الرابعة أو الخامسة من عمره، فداعب الزنجي رأسه قائلا:

ـ أطلب البركة من عرّابتك يا رديء..

منحته الدونا نورما بركتها ونيكلاً بعشرة توستون، بينما راح الزنجي يستفسر عن الرياح الطيّبة التي حملت عرّابته إليه.

---

(١) BANCA: منصة أو بسطة مرتفعة عن الأرض يضع ماسح الأحذية فوقها صندوقه وكرسيه ويمارس عمله.

(٢) MANDINGA: زنوج برازيليون من أصل حبشي ـ بربري حاربهم المسلمون في أفريقيا لاعتقادهم بالسحر والقوى الشيطانية.

(٣) المقصود بالألوان والأضواء مباهج الكرنفال.

(٤) من آلهة الزنوج الوثنيين القدامى في البرازيل.

(٥) CAFUSO: المولود من أب زنجي وأم هندية، أسود البشرة أملس الشعر.

ـ حسناً، يا إشبيني أريد منك معروفاً، مسألة دقيقة جداً.

ـ مسألة دقيقة؟ لا أستطيع فأنا لا أمسك إلا ما هو جلف كما تعرفين، حضرتك، جيداً...

ـ أريد القول: أمراً ينبغي التحفّظ عليه، ولْيبق سرّاً.

ـ هه! وصلْت! فلست طويل اللسان ولست واشياً تستطيعين أن تفكي عقال لسانكِ وتبوحي بالسرّ يا عرّابتي...

ـ أتعرف أيها الإشبين امرأة هنا تدعى ديونيزيا؟ لست متأكدة، لكنّني سمعت من يذكر أنها تقطن في الجوار.

ـ وحضرتكِ، هل لديكِ عمل معها؟

ـ أنا شخصياً؟ لا يا إشبيني. وصديقتي هنا تريد أن تتداول معها في مسألة...

قاس جوان آلفيس الدونا فلور بنظره من أعلى إلى أسفل.

ـ لديها مسألة تتداول بشأنها مع ديونيزيا أوشوصي؟

ـ ربما هذه هي... سمعتهم يقولون إنها جميلة جداً.

حكّ جوان آلفيس شعره الجعد:

ـ جميلة جداً!! عذراً يا إشبينتي لكن انتبهي لكلامك: أية امرأة بيضاء ربما كانت جميلة أمّا الخلاسيّات بجمال ديونيزيا فقلّة قليلة، لو جُبْت الدنيا لما وجدت مثلها نصف دزينة.

ـ امرأة أنجبت حديثاً طفلاً..

ـ إذن، هذه هي نفسها، لها مولود حديث ولم تعد بعد إلى العمل...

ولأول مرّة فتحت الدونا فلور فمها، تريد أن تعرف:

ـ ماذا تعمل؟

ومجدداً قاسها جوان آلفيس بعينيه مع قلة اهتمام بشدة جهلها :

ـ ما تعمله المرأة البغيّ، فهذه مهنتها ، أيتها الدونا الشابة .

أمسكت الدونا نورما بدقّة الحديث :

ـ وإشبيني يعرفها، أتعرف أين تقطن ؟

ـ حسناً ، ألا ينبغي لي أن أعرف ، يا إشبينتي ؟ تقطن قريباً من هنا ، في ماسييل .

ـ إشبيني سيأخذنا إلى هناك ، فصديقتي تريد محادثتها ، أن تعالج معها مسألة . . .

ومرة أخرى تأمل جوان آلفيس الدونا فلور طويلاً وراح يحكّ رأسه كأنه يجد الأمر مشبوهاً مريباً :

ـ لماذا لا تذهب هي بمفردها يا إشبينتي ؟ أنا سأريها البيت . . .

ـ يا إشبيني ، كن فارساً [1] . تترك سيدتين في هذه الشوارع لا يرافقهما أحد ؟ قد يحدث غير المعقول ويتحرّش بنا أحدهم . . .

لا يلجأ أحد إلى شهامة جوان آلفيس ويخيب أمله :

ـ إذن سأذهب مع حضرتيكما ، لكنني أضمن لكما أن أحداً لن يتحرش بكما ، فالجميع هنا محترمون . . .

نهض ، وسلّم كرسي [2] مسح الأحذية لعهدة أحفاده ، كان الزنجيّ ممشوق القامة ممتلئاً وصلب البنية ، تجاوز الخمسين وبدأ شعره الجعد يبيّض ، وكان يضع حول عنقه عقداً للإلهة أوريشا [3] مع فصوص حمراء لشينغو ، وعيناه الضيّقتان الصغيرتان ينم احمرارهما عن إدمانه

---

(١) المقصود بالفارس هنا : الشهم .

(٢) كرسي مسح الأحذية في البرازيل مسمّر فوق منصة تحته الصندوق الذي توضع فوقه الدّواسة .

(٣) ORIXA : من آلهة الوثنيين من الزنوج الأفارقة مثل شانغو (XANGU) .

على الكاشاسا وحالما وقف أراد أن يعرف:

- عرّابتي الدونا نورما، وما الموضوع الذي تريد الشابة معالجته مع ديو؟ - قال «شابّة» بصوت ساخر.

- ليس فيه ما يسوءها يا إشبيني...

لو كان في الأمر سوء لما صحبتكما إليها، رغم احترامي لكِ... كما لن تنفع الإساءة لأن قديسها قوي.

كان يدق الأرض بأطراف أصابع قدمه، محيّياً أوريشا - أوكيه آرو أو شوهي! لا سحر أو تعويذة قادرة على أذيّتها، فالسحر ينقلب على السّاحر.

- متى ستصحبني يا إشبيني إلى أحد طقوس الماكومبا [1]؟ لدي رغبة ملعونة في حضور طقس الكاندومبليه، كان هذا فضول قديم آخر للدونا نورما.

وهكذا تحدثوا حول الأمور المبهجة وطقوس التريّرو ده سانتو، ودخلوا سوق البغاء وتوغّلوا فيه. وبما أن الصباح كان صباح الأحـد - وصخب السبت يمتدّ إلى الفجر - كانت الحركة معدومة في الشوارع، مجرد امرأة هنا وامرأة هناك، واحدة تجلس عند الباب وأخـرى شبكت ذراعيها في النافذة، تنظر إلى الصباح، لا تتطلّع إلى رجل يضاجعها. بوسعك القول إن الجوّ كان جوّ سكينة وطمأنينة، سلام يوم الأحد. شعرت الدونا نورما أنها مخدوعة. كان يجب أن تأتي ساعة الازدحام. ففي هذا الصباح المثير للنعاس لم يكن الحيّ يختلف في شيء عن أي حيّ مألوف، أضف إلى ذلك أن بيت ديونيزيا كان في أول ماسيبل، وصلوه بمجرد أن دخلوا حدود المنطقة.

ارتقوا السلالم متخلخلة الدرجات، فعبر أمامهم في الظلام جرذ كبير الحجم راكضاً. كلمات وجمل تضطرب في الطوابق، وهناك من يغني أغنية حزن بصوت خافت. حينما بلغوا فسحة مدخل الطابق الثالث؛ شمّوا رائحة غصن لاوند محروق في مبخرة طينية، مما يشير

---

(١) MACUMBA: طقس من طقوس السحر أفريقي المنشأ مع تـأثير مسيحـي، يـرافقـه رقـص وغنـاء وحركات داعرة.

إلى وجود طفل حديث الولادة. دلفوا في ممر وجدوا في آخره باب حجرة الجانحة.

طرق جوان آلفيس الباب، فسأل صوت دافىء ومرتاح:

ـ من؟

ـ إني رسول سلام، يا ديو... أنا جوان آلفيس، معي صاحبتا سعادة[1] تريدان التكلم معكِ. واحدة أعرفها، فهي عرّابتي نورما، من الناس الطيبين، تستحق كل خير..

ـ إذن ادخلوا واعذروني على قلة الترتيب، فلم يتسن لي بعد الوقت لكي أرتب الحجرة...

دخلتا وراء الزنجي. توزعت المساحة الضّيقة سريرٌ مزدوجٌ وخزانة مخلّعة، ومغسلة من حديد مع طشت ودلو مطلي بالميناء، ومبولة عند ركيزة السرير، وكلها نظيفة. وفي الحائط مرآة مشقوقة وصورة للسنيور دو بونفين[2] عُلّقت عليها شرائط مباركة. ومن النافذة المطلة على منزل بطابقين كان يتسلّل الضياء والأغنية الحزينة.

متكئةً على الوسادات، شبه مغطاة بالملاءة، مرتدية عباءة مطرّزة تسمح فتحة صدرها برؤية نهديها الممتلئين، ابتسمت الخلاسية ديونيزيا ده أوشوصي بتودّد للزائرتين المندهشتين. وفي تقوّس ذراعها، في حَرارة صدرها كان الولد نائماً. كان طفلاً ضخماً، أسمر ممتلئاً. وتحت الكرسي يحترق اللاوند في مبخرة، معطّراً قطع ملابس الطفل الحديث الولادة الموضوعة فوق حشوة المقعد المصنوعة من القش. علاوة على الكرسي يوجد صندوقان كبيران من صناديق الكيروسين مغطّيان بأوراق الخرير يستعملان أحياناً ككرسيين من الخشب. وفي زاوية الغرفة، مكان لعبادة الكاندومبليه مع أسلحة أوشوصي، القوس والسهم، ايروكيريه، صورة للقديس جرجس يصرع التنين، حجر أخضر، ربما تعويذة سحر من يمانجا[3]، وعقد ذو فصوص زرقاء فيروزية.

---

(١) EXCELENCIA: السعادة وهي شائعة بتعبير: صاحب السعادة.

(٢) SENHOR DO BONFIM: رب النهاية الطيبة.

(٣) YEMANJA: آلهة البحر والمياه في الميثولوجيا الزنجية ـ الأفريقية ـ البرازيلية.

أمرت الخلاسية بصوتها المرتاح:

« يا سيد جوان، إعمل معروفاً وتناول هذه الملابس الصغيرة عن الكرسي ثم ضعها في الخزانة، إنها غِيار الطفل بعد الحمام. أعط الشابة هذه الكرسي... » كانت تشير إلى الدونا نورما ثم التفتت بعد ذلك إلى الدونا فلور موضحة لها بابتسامة: « أما أنتِ أيتها السيدة الأصغر سناً فاعذريني. إذ ليس أمامك إلا أن تجلسي على الصندوق ».

راحت من على السرير حيث كانت متكئة تدير عملية الترتيب في الحجرة، وتحرّك ماسح الأحذية جاراً الكرسي والصندوقين فيما بدَتْ هادئة مبتسمة، كأنها ليست فضولية لمعرفة سبب هذه الزيارة غير المتوقّعة. من يراها هكذا، هادئة على هذا النحو وهي تأمر، يدرك لماذا رسمها الرسام كاريبيه مرتدية ملابس ملكة على عرشها.

سبقَتْ الدونا نورما الزنجي وتناولت قميصاً صغيراً وقماطاً ووضعتهما في الخزانة. وخلال ذلك ألقت نظرة فاحصة سريعة على الفساتين وحقائب اليد، والأحذية والأخفاف.

ـ جرّ صندوقاً حضرتك أيضاً، يا سيد جوان، واجلس.

ـ سأظلّ واقفاً، يا ديو، أنا مستريح هكذا.

ـ الأفضل للمحادثة أن تكون متمهلة، فيجب أن تجلس. إن وقوف السيد جوان مستعجلاً لا يساعد على التفاهم.

لكن الزنجي فضّل أن يتكيء إلى النافذة ونور الصباح يشتد ضياءً وأشلاء أغنية تتسلل إلى الحجرة، وتموت منتحبة على سرير ديونيزيا:

« في سجون حبك
رقيقةٌ مستعبدةٌ
يا سيدي! »

جلست الدونا نورما والدونا فلور، ساد صمت قصير، سرعان ما بدّدته ديونيزيا بصوتها الناعم، بملاحظة عن جمال ذلك النهار، مشتكيةً من كونها لا تستطيع بعد الخروج إلى الشارع

لأنها ما زالت نفساء:

ـ لا أتحمّل البقاء في البيت بينما يغسل المطر وجه النهار فيشعّ ضياءً جديداً قشيباً، شيء جميل...

كانت الدونا نورما هي الأخرى لا تتحمّل البقاء في البيت في هذه الحالة. مضت الاثنتان تتحدثان عن الشمس والمطر والليالي المقمرة في إيتابووا، أو في كابولا، ولم تدريا كيف حطّتا رحالها في رسيفي[1] حيث تقطن أخت الدونا نورما، المتزوجة من مهندس من ولاية بيرنا مبوكو، وحيث أقامت ديو بضعة أشهر:

ـ قبل سبعة شهور وأكثر ذهبت من أجل شخص خارج عن القانون، إنسان فتح عينيّ على العالم، إنسان مجنون. تركني هناك...

لم تتركا مكاناً إلا وتكلّمتا عليه أي مرافىء بعيدة لم تصلا إليها، في هذا الحوار العقيم على غير هدى: حديث لمجرد الحديث. سمعت الدونا فلور مجموعة أجراس إحدى الكنائس في تيرّيرو تعلن منتصف النهار، فقطعت دون سابق إنذار، الحديث السار:

ـ يا نورما الصغيرة، سوف نتأخر كثيراً على هذا المنوال...

فقالت ديونيزيا:

ـ لا مشكلة في ذلك عندي، فإنها لمتعة...

فوعدتها نورما:

ـ نأتي في مناسبة أخرى، حين يكون أمامنا مُتّسعٌ من الوقت. أما اليوم فقد أتينا لغرض...

ـ كلي آذانٌ صاغية..

---

(١) مدينة ساحلية في الشمال الشرقي من البرازيل.

ـ صديقتي هذه الدونا فلور ليس لديها أطفال، وهي عاقر مسألة تتعلق بتركيبة جسدها، ما علينا...

ـ أعلم أعلم: الرّحم لديها مقلوب، أليس كذلك؟

ـ تقريباً...

ـ لكن باستطاعتها إعادته إلى وضعه فماريلديس، إحدى معارفي صحّحت وضعه...

ـ لا فائدة في وضع فلور، هذا ما قاله الطبيب.

«طبيب؟»، ضحكت ضحكة مبهمة، في استهتار. «الطبيب ألفاظه جميلة وخطه رديء. هلاّ سعت الدونا الشابة إلى بايزينيو، فيفيدها سريعاً ما الذي تراه يا سيد جوان؟».

أيّد جوان آلفيس قائلاً:

ـ بايزينيو؟ إنه سيعمل الأعمال في بطنها: طفل كل سنة!

صممت الدونا نورما على تجاهل الموضوع المستجدّ، متجنبة السحر رغم شهرته، وصيته في الرجم بالغيب. ألقت نظرة على الطفل النائم. أليس من الأفضل أولاً إبعاد كل شكّ ومعرفة ما إذا كان هو ابن فادينيو فعلاً؟ فهو أسود، لا يشبهه! لكن الدونا فلور، تبيّنت مآل الحديث، فرفعت صوتها، في تصميم عنيد لامرأة خائفة:

ـ جئناك لنتكلّم في موضوع جدي، لكي نقترح اقتراحاً عسى أن نتفق عليه.

ـ تكلمي أيتها الدونا الشابة، فأنا، من جهتي، مستعدة تماماً للتجاوب معك.

«الولد...» قالت الدونا فلور، وضاع منها الكلام.

أخذت الدونا نورما دفة الكلام مجدداً:

ـ أنت أنجبت الولد منذ أيام، أليس كذلك؟

تطلّعت ديونيزيا إلى ابنها وابتسمت في تأكيد مرح:

- « إن صديقتي جاءت إلى هنا لتتحدث معكِ... لقد نذرت نذراً حينما كانت على شفير الموت أن تجعل أول ابن لها قساً، بمشيئة السنيور دو بونفين ومعافاتها». ترددت الدونا نورما لأنها لم تُعْجَب تماماً بالقصة المؤلفة في العشية «والله استجاب لها فشفيت، كانت معجزة!».

أصغت الخلاسية بفضول لاكتشاف العلاقة بين مرض الشابة ومعجزة السنيور دو بونفين وبين ولدها. وأسرعت الدونا نورما في مهمتها، المهمة غير المريحة:

لكن إذا لم يكن لها ولد فماذا تفعل بنذرها؟ كي تفي به؟ ليس أمامها إلا أن تتبنى طفلاً تربيه كأنه من لحمها ودمها ثم تضعه في مدرسة إكليركية ليدرس... وقد علمت بابنكِ، اختارته...

ابتسمت ديونيزيا بدعة، أليس في ذلك إطراء لابنها؟ اعتبرت الدونا نورما ابتسامتها دليلاً على الموافقة، فأوضحت:

- إنها تريد أن تتبنى الولد فعلاً، بورقة كاتب عدل، كل شيء شرعي قانونيّ نهائي. ستأخذه وتربيه وكأنه ولدها.

ظلّت ديونيزيا صامتة بلا حراك، وعيناها شبه مطبقتين. ترى، هل وَعَتْ كلمات الدونا نورما أم كانت تصغي إلى الأغنية البعيدة؟

« كنت أرغب
لو بين ذراعيكِ أموت
مفضلاً الموت
على أن أحيا هكذا... »

« مفضلاً الموت »، همست لنفسها، وحين فتحت عينيها كان الوُدّ السابق قد اختفى منها، وتولّد جو جديد من نظرتها الزجاجية، من الخط المحفور تحت فمها.

سألت من دون أن ترفع صوتها: « لماذا، لماذا اختارت ولدي؟ لماذا ولدي أنا بالذات؟ ».

لا شيء يغفر ما يحصل، يبرّر هذا العذاب اللاإنساني، فكرت الدونا نورما. أي أم ترغب في الافتراق عن ابنها؟ حتى لو كانت فقيرة، بلا موارد، تتمرّغ في الشقاء، فإنّ ذلك ليمزّق القلب تمزيقاً.

ـ هناك من ذكر لنا ابنكِ: كم هو قويٌّ وجميلٌ... وأن لا وسائل لديك لتعليمه...

لو لم يكن الأمر لما فيه خير الطفل، لو أنه لا يتعلق بابن فادينيو، لما وجدت الدونا نورما نفسها متورّطة هناك تتوسط مروِّجة لاقتراح من هذا النوع، منتزعةً الكلمات من حنجرتها انتزاعاً. لكن أيكون فعلاً ابن فادينيو؟ كم بطن ديونيزيا هذه قذر! لقد جاء الولد أشدّ سواداً منها، أين شعر فادينيو الأشقر؟ لكنّها كانت تبذل بجهدها الجهيد من أجل الولد، سيكون ذلك أفضل، سيكون مستقبله مضموناً.

ـ التيرّيرو مليء بالأولاد، في الشوارع، وإشبيني جوان آلفيس عنده حفنة أحفاد، وأنا نفسي عرّابة أحدهم. جميعهم يتضوّرون جوعاً، يتمرَّغون في القذارة، يتسوّلون، بل يسرقون... إن صديقتي ليست مليونيرة لكن لديها ما تعتاش منه وبوسعها منح المسكين الصغير الاطمئنان وحياة مُغايرة، لن يتضوّر جوعاً ولن ينتهي إلى السجن، سوف يدرس ليصير قساً ويقيم قدّاساً...

وكأن الطفل سمع موعظة الدونا نورما وفهمها فاستيقظ يبكي. ففتحت ديونيزيا عباءتها وأجلست الطفل، وأخرجت ثديها، ثم أَلْقَمَتْهُ إيّاه استمعت صامتةً وكأنها تزن كلامها فيما راحت الدونا نورما تزيّن لها مستقبل ابنها، محاطاً بالرّفاهية والحنان، لا يحتاج شيئاً. أكيد في ذلك تضحية من الأمّ ما بعدها تضحية، لكن الأم الأنانية وحدها التي تحكم على ابنها بالجوع، بالحياة البائسة، بينما هناك إنسانٌ طيب يريده... إن الدونا فلور طيبة القلب للغاية، ومن المستحيل العثور على إنسانة أفضل منها...

ضبطت ديونيزيا وضع حلمتها في فم الولد الشّره. وأجابت متوجهةً إلى الزنجي جوان قرب النافذة كما لو أن أيّاً من المرأتيْن لا تستحق أن تتوجه إليها بالحديث:

ـ أترى يا سيد جوان، كيف تعاملان الفقراء؟ فهذه (الدونا فلور) لأنها عاقر، وقد

نذرت نذراً تريد أن تفي به، سعت أن تعرف أن طفلاً ولد مؤخراً حتى علمت أن ديونيزيا ده أوشوصي، البغيّ صحيحة البدن شديدة الفقر قد أنجبت طفلاً. هنا، قالت لصديقتها: هيّا نذهب، ونأتي به... يجب أن تشكرنا، تلك المرأة الموبوءة السيئة.

حاولت الدونا نورما مقاطعتها:

ـ لا تكوني ظالمة... لا...

لكن صوت الخلاسية المرتاح ارتفع بلا تسامح، بمرارة وبرودة:

ـ لكن لم تجد الشجاعة لتتكلم بنفسها، فطلبت من الدونا إشبينتها أن توصِلَ رسالتها، فجاءت محامية تدافع عنها.

« هيا نأتي بولد ديو، إنه عجلٌ ضخم جميل، ستجعله قساً صاحب مكانة عالية. أما أمه فلْتمُتْ، لا يهمّ، لكن لتهبه لنا مدى الحياة، بوثيقة رسمية وهي في النهاية سترضى إذ تجد نفسها متحررة من مسؤوليته. أما إذا رفضَتْ فستكون عاطلة، تافهة لا نفع منها، ليست أهلاً إلا لتكون عاهرة». هكذا تكلمت، يا سيد جوان، وحضرتك سمعت. لأنها تظنّ أن الإنسان الفقير ليس لديه إحساس ولا مشاعر، تظن أنه لمجرد كون المرأة جانحة تحيا هذه الحياة القاسية، تفقد حتى الحق في تربية أولادها..

وحاولت الدونا نورما أيضاً أن توضح:

ـ لا تقولي هذا...

أنهى الولد رضعته، تجشّأ متخماً، فوقفت ديونيزيا وابنها بين ذراعيها. منتصبة بكل جمالها، ملكةً في جلال غضبها وأمومتها. كانت تتكلم وتتحرّك معتنية بالطفل، تنظفه في الطَّسْت المطلي بالميناء، أبدلت قماطه، ونثرت عليه البودرة وألبسته القميص الصغير المعطر باللاوند.

ـ لكنهما أخطأتا العنوان، فأنا امرأة أستطيع تربية ابني جيداً، أجعله رجلاً محترماً، لست بحاجة إلى صدقة من أحد. قد لا يصير قساً ذا لحية، بل ربما أصبح لصاً، كل شيء

يمكن أن يحدث. لكن أنا التي سأربيه، على طريقتي. سيغدو قبضاي المحلّة، لن يتطاول عليه أحد، ولن أعطيه لثريّة لا تريد أن تتألم ألم الولادة.

ضحكت للطفل وكلمته بعذوبة.

ـ ولا تنسَ أن لك أباً يعتني بك...

هنا انفجرت الدونا فلور بغتةً صارخة دون انذار مشحونة بقوة اليأس:

ـ إنما أبوه هو زوجي... لا أريد ابنكِ، أريد ابن زوجي... ما كان لديكِ الحق بأن تنجبي ابناً منه، وإذا عاشرته، فذاك شأنكِ، لكن لا حقّ لك في ابن منه، أنا صاحبة هذا الحق...

ترنّحت ديونيزيا كأنها تلقّت صفعة على وجهها:

ـ أتقولين إنكِ متزوجة منه؟... هل أنتِ متزوجة منه حقاً؟

بعدما انفجرت وخفّفت عن قلبها المثخن بالآلام، عادت الدونا فلور إلى حيائها، موضحة بصوت خفيض يائس:

ـ متزوجة منه منذ ثلاث سنوات... اعذريني، لهذا السبب فكرت بتربية الولد كما لو كان ابني، مادمت لا أستطيع أن أعطيه الولد. لكنني الآن رأيت أنكِ على حقّ يا سيدتي، أنتِ التي يجب أن تربيه فأنت أمه... ثم، ما الفائدة؟ جئت لأنني أحب زوجي كثيراً، أخاف أن يهجرني بسبب الولد. لهذا جئت. وما تبقى فكله كذب. لكن بعد أن رأيتك، أدركت أنه لن يتركك أبداً: سواء بوجود ابن أم لا... يا سيدة..

ـ لست سيدة، إني بغيّ لا أكثر ولا أقلّ. لكنني أقسم بصحة ابني، أني ما كنت أعلم أنه متزوج. لو كنت أعلم لما أنجبت منه ابناً، ولما فكرت بأن اتخذه عشيقاً، بأن اتخلّى عن هذه الحياة لأقيم في بيت وأقطن معه كزوج وزوجته..

أنهَتْ إلباس الولد ثيابه. وتناولت الدونا نورما المنشفة، وخفّت حِدّة الجو. وهمست الدونا فلور:

ـ أقسم أن فادينيو هو زوجي، وكل الناس تعلم ذلك...

ـ « فادينيو لم يقل لي أبداً شيئاً... تسلّمت ديو القميص الصغير من يديْ الدونا نورما، وأضجعت الطفل على السرير لإلباسه « لماذا لم يقل لي؟ لماذا خدعني هكذا؟ » ـ باتت تتأمّل وقد اختفى حنقها وباتت تُجامل الدونا فلور باحترام تقريباً ـ « كل الناس علمت بالزواج، أنتِ أيتها السيدة قلتِ لي... هذا يحدث... لكن لماذا لم يقل لي أحد شيئاً؟ وأنا التي تعرف كل أهله، كلهم، حتى أمه...

ـ أمّ فادينيو؟ إن أمه ميتة...

ـ أعرف أمه، نعم، وجدته... أعرف أخاه، روكي، النجار..

ـ « إذن ليس هو فادينيو زوجي »، ـ ضحكت الدونا فلور، وضحكت ثم ضحكت ببلاهة الرّضا ـ « أواه! ما هذا الجنون، ما هذا الأمر الأحمق الجميل... نورمينيا [1] إنه فادينيو آخر! أودّ لو أبكي..! ».

من جهتها تركت ديونيزيا ده أوشوصي، الولد على السرير، وانطلقت في الحجرة ترقص رقصة « إياوو » حول أوريشا، جارّة الزنجي جوان آلفيس معها، أمام البيجي، محيية وشاكرة أوشوصي ـ أوليه، يا أبتاه، آرو أدكيه!

ـ إنّه ليس فادينيو رجلي، فرجلي فادينيو ليس متزوجاً، امرأته هي ديونيزيا وحدها، خلاسيته ديو...

على حين بغتة توقفت، ونظرت إلى الدونا فلور (كانت الدونا نورما قد أخذت تداعب الولد وهو بين ذراعيها):

ـ لا تقولي لي إنكِ يا سيدتي زوجة سميّه...

ـ أي سميّ؟

---

(١) تصغير لنورما.

ـ رجلي فادينيو وهم ينادونه فقط هكذا ، السميّ ، إذ هنـاك إثنان باسم فادينيو . إنما رجلي فادينيو من فالديمار وسميّه لا أعلم من أين أصله . . . شخص ضائع في . . . ـ لم تكمل الجملة .

بل أكملتها الدونا فلور :

ـ . . . في القمار . . . هذا هو بالضبط ، فادينيو من فالدوميرو ، زوجي فادينيو . . .

ـ وقالوا لكِ إني أنجبت ابناً منه . . . ما أردأ هؤلاء البشر . .

فُتح الباب وظهر فيه زنجي قوي البنية فتيّ ، تبسم شفتاه عن أسنان بيضاء ، عيناه تلمعان بفرح يوم الأحد :

ـ صباح الخير للجميع . . .

توجهت نحوه الخلاسية وهي ما تزال ترقص ، مودعةً كـل ذعـرهـا وغضبهـا . مـدت ذراعيها ، فأعطتها الدونا نورما الطفل ووضعته هي بين يديْ رجلها ، يديْ أبيه .

« هذا هو رجلي فادينيو ، سائق الشاحنة ، والد ابني » . ـ ثم قدَّمته للدونا نورما والدونا فلور ـ « تلك التي هناك هي عرّابة السيد جوان آلفيس ، والأخرى هل تعلم من هي ؟ »

ـ وكيف لي أن أعلم ؟

ـ حسنا ، هي امرأة فادينيو الآخر ، ذاك . . .

ـ زوجة سميّي ؟

ـ تماماً . . جاءت إليّ ظانةً أن الولد هو ابنه ، ابن زوجها ، وقدمت لتأخذه ، كانت تريد أن تربي حيواننا الصغير ، وكانت ستجعل منه قساً ذا جبة . . . ـ ضحكت ضحكتها الطليقة ، بصوت مرتاح : ـ « ما هو اسمكِ بالضبط ؟ فلـور ؟ إذن ستكـونين عـرابتي ، ستعمـدّيـن ولدي . . . جئت لتأخذي ولداً ، ابناً لا أستطيع إعطاءه لكِ حيث ليس لديّ سوى ولد واحد فقط ، لكن بوسعي أن أعطيكِ ابناً روحياً . . .

وقال سائق الشاحنة:

ـ عرابتي الدونا فلور...

أخذت ديونيزيا الولد وسلّمته للدونا فلور. وكانت العصافير تقطع صفحة السماء، تطير، ثم تحط على نتوءات سقف المطرانيّة.

١٧

في مستهل فترة ترملها، في فترة الحداد المطلق، ارتدت الدونا فلور السواد بصمت، في نوع من الهذيان، لا حلم ولا كابوس، محاطة بهمسات الإشبينات المتزايد عددهن من جهة وذكريات سبع سنوات من الزواج. كانت الإشبينات العشرة، ربما المائة، بل الألف يصخبْن في تضامن متواصل؛ يسعيْن وراء الدونا روزيلدا ليحطنها بجوقة شائعات، وترتفع الأصوات في جوقة اتهامات لفادينيو، والدونا روزيلدا تغنّي موّالها، وتنوب عنها أحياناً الدونا دينورا، نظيرتها في اللسان الأثيم.

وكانت الدونا فلور، المنغلقة على نفسها في انفعالها وقلقها، تطفو على سطح بحر الذكريات، متذكرةً لحظات الضحك وساعات المرارة، تتشبّث بما يجعل صورة فادينيو حيّة بشبحه الذي ما زال يحوم في أرجاء البيت، خاصةً في حجرة النوم حجرة اللذة.

ثمّ، ما كانت غاية كل أولئك الإشبينات اللواتي لا حصر لهنّ ولا عدد؟ الجارات والمعارف والتلميذات والصديقات، وأمها التي تحملت ضنك السفر من نازاريت لكي تكون إلى جانبها، وحتى الغريبات المتحفّظات مثل الدونا إينايدي التي تربطها صلة ما بالدونا نورما؟ فهذه الفاضلة تجهد نفسها في القدوم من شامي حيث تقطن ـ بلا زوج ولا أبناء أو التزامات بيتية ـ لتعرض لها مساوىء فادينيو، تحت ستار تعزيتها. ماذا يردْن؟ ماذا يقصدن، بنكء الجروح المندملة، وإعادة إضرام النار في جمرات العذاب الميتة؟ لماذا تسرٌّ لها الدونا إينايدي وكأنّها متضامنة معها، بأنها تعرف عن كثب تلك المشؤومة نويميا التي

أصبحت سيدة بدينة متزوجة (زوجها يكتب في الصحف) لكنها ما تزال تحتفظ بين أوراقها الخاصة بصورة فادينيو؟

كانت الدونا فلور تعيش مع الذّكريات الطيبة والسيئة، لكنّهن كنّ يدفعنها نحو الغثيان، نحو تحويل ذلك الوقت الرمادي من اليأس والغياب، إلى صحراء من الرّماد. حتى عند استعادة الذكريات والصورة المقيتة جداً، مثل صورة التلميذة السابقة بضحكتها الساخرة ووقاحتها السافلة، حتى عند جرحها مجدداً بهذه الأشواك، عند تذكر ذلك الإذلال كانت تشعر بنوع من العزاء المتعض، كما لو أن الذكريات والصور والإذلال، كل ما عاشته يخفف عذابها الرّاهن. وفي النهاية، من سيخرج منتصراً، من سيفوز في الرهان، من سيبقى معه؟ ولو كان صبر الدونا فلور، قد نفذ ذات يوم، وقدّمت لفادينيو إنذاراً إما هي وإما الأخرى، ليرحل مع المرأة المبتذلة إذا شاء لكن ليقرر ذلك، في أقرب وقت، حالاً... فأي قرار كان سيتخذه؟

جاءت نويميا لتتعلم فن الطهي، كانت عشية زواجها، فقد أصرّ العريس على أن تلمّ نظرياً وعملياً بالتوابل. كان يحبّ مماشاة المجتمع الراقي، متأنقاً يدسّ أنفه في شؤون السينما والأدب، مغروراً مدّعي معرفة وثقافة، يستشهد بمؤلفين ويتجشأ نقداً، عبقري شاب يلمع في ضوء شمس المجد على باب المكتبة.

واستحسن أن تتعلم نويميا فن الفاتابا والكارورو، «أريد أن أراها بروليتارية تعمل، هذه البرجوازية...» وافتُتِنَت هي بالفكرة فانتسبت إلى «مدرسة التذوّق والفن».

كانت ابنة أسرة غراسا التقليدية المعروفة ثريّة وأنيقة، واعتبرت نفسها مهمّة لأنها أصبحت خطيبة مثقف ضليع، لكن في نفس الوقت بدا لها فادينيو أهمّ بجوّه السافل وعينيه الناعستيْن. وحين تنبهت عائلتها اللامعة وخطيبها الموهوب المدّعي، كانت نويميا قد تعلمت قلة الحياء، وعلى أعلى المستويات مع فادينيو، في شقة أماريلديس. وثارت ضجّة صاخبة، كادت أن تتحول إلى فضيحة رائعة. ولحسن الحظ تغلّبت مدنيّة الخطيب الرفيعة على الظرف الآنّي، فعالج الوضع بمرونة ودبلوماسية، فلن يخسر لمجرد الظن صندوق الذهب ذاك. لكن رغبته الطيبة، تعاونه المتفهم لم يكونا كافييْن، فالمعنيّة بالأمر لم تُرِد إنها المغامرة غير المعقولة، التي جعلتها خبيرة «بمادة» السرير. أرادت إلحاق العار بخطيبها وعائلتها، أرادت الفرار مع

فادينيو إلى جهة مجهولة. لكن فادينيو هو الذي رفض. فحينها سقطت الأقنعة وباتت مغامرته موضوعاً للأقاويل والشائعات أصرّت الدونا فلور، باندفاع نادر عنيف على أن يختار فوراً بينها وبين الأخرى. فردّ الفتاة إلى خطيبها، الذي أصبح أجدر بمجاراة المجتمع الراقي إذ جمع، إلى موهبته وضلوعه في علم الجمال، القرنين[1]، فأصبح مثال الخطيب الذي يصعب الحصول عليه.

«كلهنّ بقشيش لتمضية الوقت»، قال لها فادينيو حين واجهته منفعلةً أشدّ انفعال ملحةً عليه بأن يحدد نهائياً موقفه من كل شيء فلم يفكر لحظة في أن يرحل مع نويميا تلك، بل مجرّد إشباع غرور زائف؛ فهي لم تكن عاهرة فقط، بل كانت كذابة معروفة بكذبها.

ماذا تريد الإشبينات؟ الدونا روزيلدا والدونا دينورا، والدونا إينايدي التي تخلّت عن راحتها في شامي ـ شامي، والباقيات عشرات، بل مئات بل ألوف الإشبينات اللواتي ألّفن جوقة مرذولة من الحسرات وكتب الهجاء، ماذا يردن؟ لماذا يذكّرنها بذلك الحادث كبرهان على شقائها في زواجها، كبرهان على أن فادينيو كان أسوأ الأزواج؟ العكس هو الصحيح: فالحادثة هي أفضل برهان على حبه لها، كيف أنه فضّلها على كل النساء. أما كان لنويميا تلك ثراء وأناقة ودارة في غراسا ودفتر شيكات وحساب مفتوح في المصرف ـ كان فادينيو يقامر بمبالغ مرتفعة في تلك الفترة الانتقالية ـ سيّارة مع سائق، قطعت المرحلة الثانوية وتعرف المبادىء الأساسية للفرنسية، كانت في منتهى الأناقة تغرق في العطور، والفساتين والأحذية التي تبتاعها من الريو؟ مع من بقي هو، من فضّل حين أجبر على الاختيار؟ لم يفدها في شيء دفتر الشيكات ولا ترف السيارة التي كانت تأخذها وتأتي بها، ولا فساتين الريو أو عطور باريس، أو الرطانة، في التعابير: Mon cheri, mon petit cocô, merde, quelle merde; à locé de parler... كما يقال في فرنسية باهيّا.

لم يعرها فادينيو أي اهتمام، ولا اهتم للثمرة التي قطفها، ولا لتوسلاتها: «إنك قد سلبتني شرفي»، ولا للتهديدات: «سترى، سيطاردك أبي، ويضعك في السجن». لم يفعل سوى هزّ رأسه في لحظة الاختيار: «كيف تستطيعين أن تفكري بما هو مستحيل؟ وتظني أني أتركك

---

(١) القرن أو المقرن صفة تطلق على الديوث.

لأعيش مع تلك القذارة؟..».

علّق المتبجّحة بقرنيْ خطيبها، ومضى إلى السرير مع الدونا فلور، آه! يا لها من ليلة من ليالي اللذّة والغفران! «كل ذلك بقشيش لتمضية الوقت، أنت وحدك الدّائمة يا فلور، زهرتي البرّية..».

بالنسبة إلى الإشبينات كان فادينيو أسوأ زوج يمكن أن يوجد في الدنيا، والدونا فلور أتعس النساء. لا يحق لها البكاء والتحسّر، بل يجب أن تحمد الله على أنه حررها في الوقت الملائم إن الدونا فلور هي الطيبة ذاتها، بل إن الدونا روزيلدا أرادت منها أن تفرح، وأن تحتفل بموت فادينيو المفاجىء. فزوجها كان الرّداءة نفسها. أما هذه المشاعر الفيّاضة، هذا الحداد المغلق، هذا الغيثان المبالغ فيه، الذي يزيد عمّا هو مفروض في طقوس الترمل، هذا الوجه الجامد الضائع، هاتان العينان تنظران في داخل نفسها أو تحدّقان في الأفق، تحدقان في اللامحدود، في اللاشيء، كل هذا كان غير مقبول بالنسبة إلى الإشبينات.

واتّفقن جميعاً على أمر وحيد، الدونا روزيلدا والدونا نورما والدونا دينورا والدونا جيزا، الصديقات الحقيقيات والواشيات؛ هو أن الدونا فلور بحاجة إلى أن تنسى ـ وكلما كان ذلك أسرع كلما كان أفضل ـ تلك السنوات اللعينة، بحاجة إلى أن تمحو صورة فادينيو من حياتها، وكأنه لم يوجد قط، وبالنسبة إليهن طال وقت الحداد أكثر مّما يجب، لذا كن يتحلقن حولها ليؤكدن لها ـ بالوقائع ـ أن الله قد رحمها بموته.

حتى الخالة ليتا بالذات، التي كانت تجد دائماً الأعذار لفادينيو، لم تستطع أن تخفي دهشتها.

ـ ما فكرت قط أنها حساسة هكذا..

الدونا نورما أبدت عجبها هي الأخرى:

ـ بهذه الطريقة لن تنسى أبداً... وكلما مرّ الوقت كلما ازدادت معاناةً..

والدونا جيزا العليمة بالسيكولوجيا، لم تتفق مع المتشائمتين:

ـ هذا طبيعي... بل سيستمر بضعة أيام أخرى، لكنّها في النهاية ستنسى، وتعود إلى العيش...

أقرّتها الدونا دينـورا على رأيها: «أجل، مع مضيّ الوقت ستدرك أن الله نظر إليها بعين رحمته..».

لكنهن اختلفن على أفضل طريقة لمساعدتها. اقترحت الدونا نورما، مدعومة من الدونا جيزا، تجاهل كلّ ما له علاقة بفادينيو؛ أما الباقيات بقيادة صارمة من الدونا روزيلدا ـ الدونا دينـورا كانت رقيباً في هذه الفرقة المحاربة ـ فنفخْن في أبواق الكيْد والشتائم والتحسّر، لإقناعها بأنها أصبحت تحيا حياة هادئة سعيدة، بسلام، راحة وضمان. كان عليها أن تنسى بأي وسيلة كانت: سواء بالصمت الـمُشفق أم بالهجاء الصاخب، عليها أن تجد درب النسيان. فما زالت فتية، أمامها الوجود بأكمله..

«لو أرادت ذلك، فلن تبقى أرملة وقتاً طويلاً..» ـ تنبأت الدونا دينورا، التي كانت حين تتناول حياة الآخرين، تمتلك حاسة سادسة، هي الحدْس بالغيب، خاصة عندما تكون في بيتها (إرث من كوميندادور [1] اسباني) وترتدي رداءها، وفي لحظة ذعر، تضع أوراق اللعب أمامها فتستشرف أحداث المستقبل، مستشيرة كرة من البلور.

وتساءلت الدونا فلور لم تستطع إحداهنّ أن تذكر صنيعاً طيباً لفادينيو؟ فرغم كل مثالبه التي لا حصر لها كان يغلُبُ عليه في تصرفاته اللطف والسخاء والعدل والحب. لماذا لا يريْن فيه إلا السوء، يزنّه فقط بميزان اللعنات؟ دائماً كان يحدث ذلك حين كان على قيد الحياة، تنقل المزعجات، الجشعات أخباره غير السارة، وتتحسّرن على الدونا فلور، مسكينة! تستحق زوجاً مستقيماً وطيباً، يُحسِن معاملتها ويحترمها.

فلم يحدث أبداً أن هرعت إشبينة من مجلس راحتها تاركةً مشاغلها وتسلياتها، لتعلن لها عملاً جيداً قام به فادينيو:

ـ فلور سأقول لك شرط ألا تقولي إني أخبرتكِ... كسب فادينيو في البيشو وأعطى

(١) في الأصل صاحب وسام رفيع من الرهبانيّات العسكرية.

المال كله لنورما لتشتري هدية لكِ لمناسبة عيد ميلادكِ.. صحيح أنه لا يزال بعيداً لكنه خشي أن ينفق النقود، فأراد أن يضمن الهدية في الحال..

هذا ما حدث مرة. جميع الإشبينات كن يعلمن، الدونا نورما وحدها كانت ملتزمة بكتم السرّ. ولو لم تنتهك هي قسمها، حين لم تعد تطيق الصمت بعد عشرين يوماً لما عرفت الدونا فلور بالأمر. فالباقيات أغلقن أفواههن، من منهن كانت ستزعج نفسها في نقل البشائر المستجدة، فحين يتعلق الأمر ببشارة لا ضرورة للاستعجال ولنفاذ الصبر، ولا واحدة منهن ركضت في الشارع نحوها. أما حين يتعلق الأمر بأخبار سيئة كنّ يحججْن إليها لامباليات بأعمالهنّ أو راحتهن، يضحين بأنفسهن في سبيل إعلامها بالخبر السيء، في حماس قلّ نظيره.

الصّدفة وحدها هي التي حالت دون رحيل الدونا فلور عصر يوم سقوط فادينيو في عاره العميق في سفالته! بل لقد هيّأت الحقائب. وهناك دائماً حجرة في تصرّفها في بيت الخالة والعم في ريو فيرميليو. كادت أن تقطع علاقتها به نهائياً. من أجل أمور تافهة، وفي الوقت نفسه كان الشارع يغصّ بالإشبينات، اللواتي جذبهن الصراخ، وكلهن رأين الغجري حين وصل وكلهن سمعنه يتكلم بصوت مرتعد، كن شاهدات على ردة فعل فادينيو.

هل روت بعضهنّ ما حدث للدونا فلور ورددت على مسامعها كلمات الغجري؟ حسناً، نعم. أي أمل! ولا واحدة منهن قدمت علاجاً، كأنهن لم يشاهدن ولم يسمعن شيئاً. خلاف ذلك أيدن تصميمها على الرحيل مؤكّدات بأن لها من الدوافع ما يكفي ويزيد لتقطع علاقتها بالسافل مرة واحدة وإلى الأبد، بل إن بعضهن ساعدنها في حزم حقائبها..

١٨

حينما أتى فادينيو ذلك المساء، عرفَتْ الدونا فلور الدافع وراء حضوره غير المنتظر. وكلما أطالت إليه النظر، كلما زاد تيقّنها من سبب حضوره، فلم يتصرف بقلة حياء مع التلميذات، بل اختفى في ركن من أركان القاعة، وتركهنّ ينهين في المطبخ بهدوء، الدرس العملي، كعكة حلوى عيد الميلاد. كانت الفتيات جديدات، فوج جديد. رحْنَ يضحكن بفضول واضح، برغبة للتعرّف على زوج المدرّسة الذي كثر الكلام عنه، عن شهرته الفريدة وسلوكه. فقد كان فادينيو مشهوراً. انتهى الدرس، ودَعَتْهُنّ لتناول قطع كعكة الحلوى وكؤوس من شراب الكاكاو الكحوليّ ـ من مستحضرات البيت الخاصة، مصدر اعتزاز الدونا فلور المعروفة بكفاءتها في صنع المشروبات الروحية المعدة من البيض والفواكه مهارتها في استعمال توابلها ـ وبشيء من الخيلاء يقترب من الكبرياء، قدّمتْهُ لهنّ:

ـ فادينيو، زوجي...

لم تصدر عنه نكتة واحدة، بل ولا عبارة ذات معنى مبطّن ولا رقّة عين. ظل جاداً حزيناً تقريباً، كانت تعرف معنى ذلك التعبير وتخشاه. آه! لو تستطيع استبقاء التلميذات مساءً وليلاً، مطيلة الحديث، حتى مع خطر المتسكعين المشمرين عن سواعدهم، يخرجون بجسارتهم. آه! لو تستطيع تجنب مواجهة فادينيو عندما يكون عاجزاً عن أن يحدّق في عينيها، مضاعفاً إلى ثقل مقاصده الأشد سوءاً... لكن التلميذات كنّ فتيات وسيدات من المجتمع الرّاقي لذا احتسيْن المشروب بسرعة ثم انصرفن.

في العشية، بعثت إليها الدونا ليجيا أوليفا من يدفع لها ـ كالعادة ـ ثمن الحلوى والأطعمة المالحة، توصية ضخمة لوليمة على شرف بعض الأثرياء المهمّين من سان باولو. كانت الدونا فلور قد قصّرت عملها منذ زواجها على المدرسة، رافضة الطلبات الموصى عليها. لكنها في الوقت نفسه، وضعت بعض الاستثناءات لأشخاص تقدّرهم؛ «للدونا ليجيا أنا دائماً مستعدّة» قالت عندما جاءها الطلب.

ودأبت الدونا فلور على وضع هذه النقود الاستثنائية، التي تتسلّمها عادةً في غياب فادينيو، جانباً تستبقيها للنفقات غير المتوقعة، لمشتريات هامة، لمرض، للضرورة الملحة، وأحياناً تجمع بعض الكونتوات من الريالات، كمية من أوراق النقد تخفيها في مخابىء في البيت، توفرها لشراء أدوات منزلية أو لهدايا عيد الميلاد أو للأقساط الشهرية من ثمن آلة الخياطة، لكنّها تستهلك معظمها لإقراض فادينيو، مئة أو مائتي ألف ريس...

ومن سوء الحظّ أنّ فادينيو كان في القاعة، متبرماً، حين تذمَّر الدكتور زيتلمان أوليفا من المجيء شخصياً إلى منزلها ليدفع: فهو منهمك جداً بوظائفه الثمانية، المهمة العظيمة.

ـ هذه النقود في جيبي منذ ثلاثة أيام... كادت ليجيا أن تضربني اليوم حينما اكتشفت أني لم أدفعها لك..

ـ لا بأس، يا دكتور، لا يشغلنك هذا:.. غير مهمّ...

ـ قل لي، يا سيد فادينيو ـ قال الشخص المهم متفكهاً ـ ماذا تفعله لتزداد امرأتك جمالاً وشباباً؟ ـ كان يعرف الدونا فلور منذ نعومة أظفارها ويعرف منذ وقت بعيد فادينيو الذي كان يحاول بين الفينة والأخرى، أن يستقرض منه (بلا نجاح، فالدكتور زيتلمان استعصى عليه).

ـ الحياة السعيدة، يا دكتور، الحياة السعيدة التي تعيشها هي السبب. إنها متزوجة من زوج مثلي، لا يسبب لها وجع رأس، لا يقلقها... تعيش مرتاحة، سعيدة في الحياة... وضحك ضحكته اللامبالية، الراضية جداً! وراحت الدونا فلور هي الأخرى تضحك من شدة وقاحة زوجها.

لم يطلب فادينيو منها نقوداً ذلك اليوم. لا بدّ أنّه كسب في العشية، فلديه احتياطيّ ما. لكن حينما ظهر في المساء التالي بغتة، وقد خفض عينيه بوجهه الرصين الحزين تقريباً، تنبأت حالاً بالسبب الذي جاء من أجله؛ لقد جاء من أجل المال. وفيما راحت تلميذاتها يحتسين المشروب الروحي ويتذوقن الحلوى بمرح وحبور، يسترقْنَ النظرات إلى الشاب الهادىء، أقسمت الدونا فلور لنفسها، سراً، وقلبها مخنوق بأنها لن تعطيه تلك النقود، لا كلها ولا جزءاً صغيراً منها، حتى ولا ريالاً. لقد خصصتها لشراء جهاز راديو جديد. كان الاستماع إلى الراديو، هو أفضل طريقة عندها لتمضية الوقت، تسليتها الكبرى. كانت مجنونة بالسامبا والأغاني، التانغو والبوليرو، بالبرامج المضحكة، وقبل كل شيء، بالتمثيليّات المذاعة. كانت تستمع إليها مع الدونا نورما والدونا دينورا وجارات أخريات، يرتعدن ويترنّحْن مع مصير الكونتيسة المتيمة بالمهندس الفقير، باستثناء الدونا جيزا المثقفة التي ترفض الهبوط إلى مثل هذا الدّرك المنحطّ.

كان الراديو خاصتها جهازاً قديماً ومستهلكاً، يستوجب إصلاحه دائماً وذلك يتطلب مالاً، وتزداد حاله سوءاً ـ يوماً بعد يوم ـ فيسكت في أحرج اللحظات، يخرس في أدق المشاهد. وأصلحته مرة بعد مرة، تدفع المال دون جدوى. هذه المرة لا رجوع عمّا صمّمت عليه؛ لن تتنازل له عن توفيراتها وليحدث ما يحدث. آن أوان وضع حدّ لذلك التعسف.

كانت التلميذات يشعرن وهن يضحكن بخيبة أمل شديدة: هل ذلك الشخص الكئيب القلق في أحد الأركان هو زوج المدرّسة الذي طالما سمعوا عنه، المشهور بخطره الذي لا يقاوم، صاحب قصة مسألة نويميا فاغونديس دا سيلفا؟ بصراحة، لا يبدو أهلاً لأن يكون مطمعاً يُرجى، ناهيك عن أن يكون تلك الأسطورة الوقحة.

وجدت الدونا فلور نفسها وحيدةً معه، وجهاً لوجه مع خوفه، وقلبه المسحوق. انتصب في عناء، واتجه إلى المائدة وملأ كأساً بالمشروب الروحي:

ـ هذا لذيذ لكنّه يُسكر، يؤدي إلى سكر مريع، وإرهاق مرعب... وجع رأس أشد من أي مشروب من الجينيبابو[1]...

---

(١) شراب مسكر يعد من تقطير فاكهة الجينيبابين JENIPAPIN وهو ثمر استوائي.

أراد أن يظهر بمظهر غير قلق، فاقترب منها وعرض عليها قطرة من كأسه، متودداً رقيقاً:

ـ ذوقيه، يا حبيبتي...

لكن الدونا فلور رفضت، كما رفضت مداعبة يده المنحدرة على عرفها في الطريق إلى ثدييها من فتحة البلوزة. «نفاق، لا أكثر ولا أقلّ، مداعبات يخدِّر بها مقاومتي، ليجعل مقاومتي له مستحيلة، مداعبات تستهدف ضعفي كامرأة». فاستجمعت قواها مستمدة إياها من كل إهاناته القديمة، وحاجتها إلى راديو جديد، فوقفت مشمئزة:

ـ لماذا لا تقول حالاً ما جئت من أجله؟ او تظن أني لا أدري؟

حزيناً وجاداً كان وجه فادينيو، فقد جاء لأنه كان مضطراً، لأنه عجز عن توفير المال من أي مكان، لكنه لم يأت بملء رضاه، ترنّ ضحكته حراً. آه! لو استطاع لما جاء!

وكان يعلم نيّة الدونا فلور بالنسبة للمال والسيد إدغار فيترولا لم يأتِ بعد، فالراديو القديم ما يزال في القاعة كما تحقق فادينيو حالما فتح الباب. لكنه قد يظهر في أية لحظة مع العجيبة الثامنة في الدنيا [1]. قطعة موبيليا جميلة من خشب العاج والمعدن المطلي بالكروم، آخر إنجاز في ميدان الآلات، في الموجات، الخطوط، الكيلواط، والفولتات، قادر على التقاط أبعد الإذاعات، إذاعات اليابان وأوستراليا وأديس أبابا وهونغ كونغ، ناهيك عن البرامج المعادية لنظام موسكو، وكل ممنوع مرغوب. فالدونا فلور أرسلت إشارة عاجلة إلى السيد إدغار، بواسطة كامافيو، عازف البيريمباو [2] ورفيقه الملازم له.

عندما استقلّ الترام إلى منزله كان أولاً مضطرباً خجلاً ثم مشى في الشارع، تتنازعه رغبتان حتى كأنه مشطور إلى شخصيتيْن: شخصية تستعجل الوصول قبل بائع الراديوات، ويخفق قلبها كما لم يخفق من قبل. وأخرى ترغب بالوصول متأخرة، بعد السيد إدغار، فلا

---

(١) العجائب في الدنيا هي سبع كما يقال عادة، والعجيبة الثامنة هنا هو الراديو.

(٢) BERIMBAU: آلة موسيقية صغيرة يعزف عليها العازف وهو يمسك بها بأسنانه.

تجد الراديو القديم ولا نقود الدونا ليجيا التي كسبتها زوجته بجهدها وعرق جبينها، وقضت الليل ملازمة الفرن، بعد نهار لم تعرف فيه طعم الرّاحة. كان مشطوراً إلى شخصيتين: في الترام، في الشارع، وعندما دخل البيت وفتح الباب. مشطور إلى شخصيتين: فلو لم يكن السيد إدغار قد مرّ، أي علامة مؤكدة لعصمة الخفقان؟ لكن إذا وجد الجهاز الجديد، سيبقى في البيت تلك الليلة ممدّداً قرب الدونا فلور يصغي إلى الموسيقى، يضحك للنكات. كان مشطوراً إلى شخصيتين، مشطور في الوسط، هكذا دخل فادينيو البيت.

لماذا لم يمرّ السيد إدغار؟ الآن قُضي الأمر، لا مفرّ.

ـ أتظنّين أني لا ألاطفك إلا لمصلحة معينة؟

ـ للمصلحة فقط، لا غير... لمجرد المصلحة، مصلحة خسيسة.

باتت الدونا فلور متوترة:

ـ لماذا لا تتكلم حالاً؟

ارتفع سور بينهما في ساعة الغسق تلك، حين يقتحم الحزن الأفق الرمادي والأحمر، حين كل شيء وكل حي يموت قليلاً مع موت النهار.

ـ إذا كان هذا ما تريدين فلْيكن! لن أضيع المزيد من الوقت. ستقرضينني حتى لو مائتي ألف ريس.

ـ ولا توستوناً واحداً... لن ترى مني ولا توستوناً... كيف تجرؤ على أن تتكلّم عن ديْن؟ فمتى دفعت أنت ولو كان فينتيناً [1] واحداً. هذه النقود لن تخرج من يديّ إلا إلى إدغار وحده.

ـ أقسم أني سأدفع لكِ غداً، أنا اليوم محتاج فعلاً، إنها مسألة حياة أو موت. أقسم أني سأشتري لك غداً راديواً وكل ما ترغبينه... على الأقل مائة ألف ريس...

---

(١) VINTEM : عملة تساوي عشرين ريالاً (ريس).

ـ ولا توستوناً واحداً...

ـ تجمّلي بالصبر يا حبيبتي، هذه المرة فقط...

ـ « ولا توستوناً واحداً » ظلت تردد العبارة كأنها لا تعرف غيرها.

ـ اسمعي...

ـ ولا توستوناً واحداً...

ـ حذارِ، لا تمزحي معي، سآخذها بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ.

قال ذلك وتطلّع حوله كمن يحدد مكان المخبأ. عندها فقدت الدونا فلور عقلها، واندفعت يائسةً إلى جهاز الراديو القديم حيث خبّأت النقود قرب الصمامات المستهلكة. أمسك فادينيو بها، وهي متشبثةً بأوراق النقد، تتحدّاه صارخةً:

ـ لن تنفقها في القمار إلا على جثتي...

قطعت الصرخات المساء، فخرجت الإشبينات إلى الشارع بحذر:

ـ إنه فادينيو يأخذ نقود فلور، يا لها من مسكينة...

ـ كلب مجرم! كلب الليل!

هجم فادينيو على الدونا فلور وقد أعماه الحقد وأطار عقله، الحقد على ما يفعله. فأمسكها من رسغيها صارخا بها:

ـ أتركي هذا الغائط!

هي التي ضربته أولاً: إذ أفلتت منه وكي لا يمسك بها مجدداً، لكمته على صدره بجمع قبضتيها، ففتح يده وصفعها على وجهها. « أيتها العاهرة، ستدفعين ثمن ذلك ». في حين راحت تصرخ: « أتركني أيها الشقي، لا تضربني، أقتلني حالاً، فهذا افضل ». عندها دفعها فسقطت على أحد المقاعد، تصرخ: « قاتل، شقيّ ». وصفعها: مرة، مرتين، أربع مرات.

ورنّت قرقعة الصفعات في الشارع، مثيرة حسرات واستهجانات جوقة الإشبينات. فتحت الدونا نورما الباب، ودخلت دون إذن:

ـ إما أن تتوقف يا فادينيو، أو أستدعي الشرطة.

بدا وكأن فادينيو لا يراها. كان يقف والنقود بيده في حالة يُرثى لها «الشعر منفوش» ينظر من خلال المرآة إلى الدونا فلور ممددة أرضاً، تئن أنيناً خافتاً، وفي نحيب وديع. فركضت الدونا نورما لإسعافها، وخرج فادينيو من البيت، يشدّ على النقود بأصابعه. وابتعدت الجارات عن رصيف الطريق، وكأنهنّ يشاهدن إبليس نفسه.

في تلك البرهة بالذات توقّفت سيارة الغجري قرب الباب. وعندما رآه فادينيو ابتسم، معتبراً تلك المصادفة برهاناً آخر على صحة ما يتوقّعه ويحدس به، كان يسير في الشارع واثقاً من نفسه حين يحسّ بذلك الحَدْس: حدس شامل ومطلق، لا يتهدّده الغش ولا النحس، يؤكد له بأنه سيفجّر هذا المساء وهذه الليلة جميع صناديق القمار في المدينة، الواحد تلو الآخر بادئاً بآلات الروليت في التاباريس، منتهياً بالوكر الخفي الذي يملكه باراناغوا فينتورا. ونما ذلك اليقين في داخله وسيطر عليه، ملحاً على التحرّك، مجبراً إياه على الدوران في حجج لم يجده نفعاً محاولاً استدانة النقود، من هنا ومن هناك، وأخيراً أوصله إلى ما هو ضدّ إرادته إلى انتزاع المال من الدونا فلور.

لكن عندما صفعها خلا فؤاده من ذلك اليقين، ولم يبق سوى الخفقان، ومن الداخل الخَواء، لا يعرف مصير نقود الدونا فلور تلك، كما لو أن لا شيء ينفع. أما في الشارع، وبعد آية ظهور سيارة الغجري ـ إذ كان فادينيو مسرعاً ليبدأ الدورة المسائية، ماراتون القرن العشرين ـ هدأ مجدداً. فتلك آية أخرى، لا جدال، لمغزى الخفقان. أحسّ فادينيو بحرارة تتآكل يديه، مستعجلاً الانطلاق. وحدها موائد الروليت الآن، والكرة الصغيرة تدور، الكروبييه[1]، الرقم ١٧، المحطات، النظرة المتوترة لميراندون إلى يساره كالعادة، الفيشات، لم يُخلق اللعب إلا له وحده. استعد للدخول إلى سيارة الأجرة لكن الغجري وثب بين الجارات وهو في هياج شديد: في عينيه آثار الدمع وصوته متهدّج يقول:

---

(١) CRUPIE: الموظفون الموجون بمساعدة المشرف على مائدة القمار.

« فادينيو ، يا أخي الصغير ، لقد ماتت عجوزتي ، أمي الصغيرة... علمت وأنا في الشارع ، قادم الآن من البيت. لم أرها تموت ، قيل إنها استدعتني حينما انتابها الألم.. ».

في البدء لم يعر فادينيو انتباهاً لكلمات صديقه ، لكنه سرعان ما أدرك ذلك فشدّ على ذراعه : ماذا يقول هذا ؟ ، أي قصة مجنونة هذه ؟

ـ من الذي مات ؟ الدونا آنجيلا ؟ هل أنت مجنون ؟

ـ لم يمض عليها ثلاث ساعات. عجوزتي ، يا فادينيو...

مرات كثيرة، عندما كان عازباً ، وحتى بعد أن تزوج وبصحبة الدونا فلور ، أكل الفيجوادا التي تعدها الدونا آنجيلا يوم الأحد من كل أسبوع ، في نهاية خطّ شارع بروتاس. كانت مفرطة في البدانة وطيبة القلب ، تعامله كابنها ضعيفة أمام الشاب المقامر ، تغفر له حياة التهتك. ألم يكن هو نسخة طبق الأصل ، حتى شعره الأشقر ، عن المرحوم آنيبال كارديال ، المقامر المشهور ، عشيقها ووالد الغجري ؟

ـ نسخة طبق الأصل.. كلاهما ضائع... ومن جديد أحس فادينيو أنه يختنق غصباً عنه ، ها هو يوم آخر مقرف ، متعثر ؛ أولاً فلور بعنادها الذي يورث المصائب ، ثم الغجري الذي يجرّه في انعطافات الغسق ويقذف على الرصيف جثمان الدونا آنجيلا...

ـ كيف حصل ذلك ؟ أكانت مريضة ؟

ـ لم أرها يوماً مريضة ، على ما أذكر. اليوم ، حين خرجت بعد الغداء ، تركتها عند الحوض [1] تغسل الثياب ، وتغني ، راضية على أحسن حال... ألا تعلم أن اليوم كان يوم تسديد آخر سندات السيارة ؟ وكانت لديّ النقود كلّها. منذ الصباح كنّا مسرورين ، نحن الاثنان ، وعددنا النقود هي وأنا.. وقد سلمتني ما جمعته شهراً بشهر من قطع نقد ذات العشرة توستونات ، والمجموع : ألفا ريس. كانت فرحة لأن السيارة ستصبح الآن لي حقيقة ـ

(١) IANQUE : حوض يوضع عادة خارج البيت ، في الحديقة أو الفناء ، لغسل الثياب.

وبذل جهداً ملحوظاً كي لا يبكي - قالـوا لي إن ألماً انتـابها في الصـدر بغتـة. ولم يتسـن لها الوقت إلا لذكر اسمي ثم سقطت ميتة... ما يؤلمني هو أنني لم أكن هناك، كنت أسدد سند السيارة. ايزيدرو، صاحب الحانة، هو الذي قدم لإبلاغي النبأ في الساحة... فذهبت راكضاً... آه! يا أخي الصغير كانت باردة كلّها: وعيناها جاحظتان... لقد جئت إليك الآن لأني لا أملك شيئاً: لقد دفعت كل النقود لسداد قسط السيارة... سيارتي وسيارتها، سيارة عجوزتي...

كان يتكلّم همساً تقريباً، فهل سمعتْ الإشبينات؟ لقد سمعْن، بل قُتلْن نوعاً قليلاً تحت الشمس الكئيبة وهنّ منشورات في الظل عندما سلم فادينيو الغجري النقود القذرة المنتزَعة بالعنف ويخفقان نصره الواضح.

- إنها كل ما لديّ...

- ألن تأتي معي؟ هناك الكثير لنفعله...

- طبعاً يجب أن أذهب معك؟

وإذ تحرّرت الإشبينات من حضور فادينيو دخلْن بيتـه. فـوجـدْن الدونـا فلـور مـع حقائبها، والدونا نورما تحاول ثنيها عمّا عزمَت عليه. المتملّقات لم يتفهمّن أسباب الدونا نورما. فالدونا فلور وحدها محقّة كل الحقّ؛ بذلك تعالت الوشوشات:

- أواه! حياة شديدة الظلم، كيف تستطيع أن تضحي بنفسها هكذا...

- كان عليها أن تتركه نهائياً...

- يتواقح فيضربها... يا للعار!

وما عرفت الدونا فلور أنهن سَمعْـن حديث الغجري، وإعلانه موت أمّه. لولا السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى، ما عرفت بوفاة الدونا آنجيلا، ولا كيف وظّف فادينيو المال. فقد مرّ السيد فيفالدو عرَضاً، اغتنم كونه في الجوار، فأتى يطلب وصفة لطبق معيّن

من الباكالباو [1] ، ذي أصل كاتالوني [2] ، لذة تذوقها في غداء بانتاغرويلي [3] في بيت آل تابواداس، حيث لا يقدمون على مائدتهم أقل من ثمانية أو عشرة أطباق، يا للتبذير! وعندما لمح عينيْ الدونا فلور النديَّتيْن بالدَّمع ، علّق على النبأ المحزن ، مسكينة الدونا آنجيلا ، لقد علمت حين التقيت فادينيو والغجري، وجهزت التابوت دون ربح عملياً فهي تستحق ذلك، كانت تكِدّ كالعبْدة، دائماً مرحة، كانت إنسانة رائعة... والسيد فيفالدو ذهب مع فادينيو يشرفان لها الفيجوادا...

عندئذ، وعندئذٍ فقط انفكّت عقدة لسان الدونا دينورا وألسنة الإشبينات: لقد انتقل المال من يده في ظلال الغسق، وليصدق من يريد.

انصرف فيفالدو واعداً بأن يأتي ليتذوق الطبق الإسباني، وقد كلفتها الوصفة جهداً وحلواناً؛ كان عليها أن ترشو قهرمانة بيت آل تابواداس، الدونا أنطونييتا، إذ كان هذا الأمر من أسرارها في الطهي.

لقد عرفت الدونا فلور الدونا آنجيلا في تلك الأيام التي لا تنسى من أيام الحب المطلق، عشية الزواج، حينما راحت تقضي فترات ما بعد الظهر مع فادينيو في الكوخ السري في إيتابووا. فالبوهيمي صاحب البيت كان مشغولاً نهاراً بتجارة التبغ، وكان يستبقي للنساء الليالي، ساعات الفجر الميتة. لكن حدث أن مرت في باهيّا امرأة من الريو فاتنة جداً، لم تكن حرّة سوى فترة ما بعد الظهر. وتسلّم فادينيو رسالة بألا يستعمل في ذلك النهار المكان المذكور.

في سيارة الأجرة تناقشا، إلى أين يذهبان. رفضَتْ السينما، الحفلة الصباحية على أنها فكرة حمقاء، ولم يكن بمقدوره هو أن يأخذ زوجة المستقبل إلى شقّة عازبين. أيزورون الخالة ليتا في ريو فيرميليو؟ ماذا لو قدمت الدونا روزيلدا إلى هناك؟ واقترح الغجري أن يذهبا لرؤية الدونا آنجيلا التي أبدت رغبتها برؤية خطيبة فادينيو. فقضيا فترة ما بعد الظهر مع

---

(١) BACALHAU : نوع من السمك الكبير يعيش في المحيطات وهنا المقصود الطبق المعدّ من هذا السمك.

(٢) نـ به إلى منطقة كاتالونيا في جنوبي إسبانيا، من مدنها المهمة: برشلونة.

(٣) نسبة إلى PANTAGRUEL : بطل كوميلون لراباليه وهو مؤلف فرنسي في القرن السادس عشر.

الغسّالة البدينة، يتحادثون ويتناولون القهوة، وفادينيو يغمرها بالقبلات، وهي في قمة خجلها. وسرّت الدونا آنجيلا بالفتاة، فأوصتها محذرةً متعاطفة:

ـ ستتزوجين من هذا المجنون... ليحمكِ الله وليمنحكِ الصبر، فستحتاجين إليه كثيراً. المقامر هو أسوأ إنسان في الدنيا، يا ابنتي. لقد عشت أكثر من عشر سنوات مع شخص مثله له شعر أشقر مثله، أبيض أزرق العينين... ضائع في القمار، ينفق كل شيء عليه. حتى الميدالية التي ورثتها عن أمي، باعها المجنون ليدفن النقود في القمار. خسر كل شيء وزاد في الطين بلة أن جاءني ثائراً، يصرخ في وجهي، يلطمني...

ـ «وجه إليكِ لطمة؟» ـ ردّد صوت الدونا فلور المتجهّم.

ـ حينما يكثر من شرب الخمرة كان لا يتورّع عن ضربي... لكن ذلك لا يحدث إلا حينما يشرب أكثر مما يجب...

ـ وأنتِ تحملت أيتها السيدة؟ هذا لا أقبله... من أي رجل... ـ كانت الدونا فلور ترتعد من الغيظ لمجرد التفكير في الأمر: ـ لن أقبل به أبداً.

ابتسمت الدونا آنجيلا متفهمة ومجرّبة: لا تزال الدونا فلور صغيرة، لم تعركها الحياة بعد:

ـ ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنت أحبه، كان قدري! أكان يجب أن أتركه وحيداً في هذه الحياة الكئيبة، دون أن يكون هناك من يعتني به؟ كان سائقاً كالغجري، لكنّه كان لا يعمل لحسابه، بل لحساب الآخرين مقابل عمولة. لم يستطع أن يجمّع نقوداً ليدفع دفعة أولى من ثمن سيارته الخاصة، كان متلافاً. ما كنت أجمعه كان هو يخسره، كان يأخذ منّي كلّ شيء. قتل بحادثة سير، ولم يترك لي سوى ابناً صغيراً أربيه...

نظرت إلى الدونا فلور بتأثر وحسرة:

ـ لكن سأقول لكِ شيئاً واحداً يا ابنتي... لو عاد إليّ من جديد، لاخترته هو مرة أخرى. لقد مات، ولم أنظر إلى رجل آخر، انتبهي هذا لا يعني أن أحداً لم يعرض عليّ الزواج بل العكس كنت أحبه، فماذا كان عليّ أن أعمل: قولي لي، يا ابنتي، إذا

كان هو قدري ؟

« كان قدري ، وأنا أحبه . . . » ماذا بوسع الدونا فلور أن تعمل ؟ « قولي لي يا نورمينيا ، ماذا بوسعي أن أعمل ؟ » . أفرغت الحقائب ، وارتدت ملابس سوداء لتذهب إلى السهر على جثمان الدونا آنجيلا . « ماذا بوسعي أن أعمل إذا كان هو قدري ، إذا كنت أحبه ؟ » .

صحبتها الدونا نورما ، أجل . كانت الدونا نورما تحبّ السهر على جثمان ميت إذا كان إنساناً يستحقّ ذلك : بدموع ، نشيج ، زهور باهتة ، شموع مشتعلة ، عناق تعزية طقوسي ، عظات ، قصص وذكريات ، نكات وضحك ، قهوة شديدة السخونة ، بعض البسكويت ، جرعة مشروب روحي عند الفجر ؛ لا شيء يضاهي حراسة المتوفى .

ـ سأبدل ثوبي في دقيقة . . .

« ماذا بوسعي أن أفعل ، قولي لي يا نورمينيا ، إذا كان هو قدري ؟ هل أتركه هنا ، وحيداً ، من دون أن يكون ثمة من يرعاه ؟ ماذا بوسعي أن أفعل ، قولي لي ، إذا كنت مجنونة به ومن دونه لا أعرف كيف أعيش ؟ » .

١٩

من دونه لا تُحسن العيش، لا تستطيع الحياة. كيف تعوّد نفسها على ذلك طالما ضوء النهار مغلفاً بالرماد، والغسق معدنيّ اللون، ويختلط الأحياء والموتى في نفس الذكريات؟. كم تخيّلت فادينيو وتصوّرته، كم ضحكَتْ وكم بكتْ، ضجيج، حرارة، رنين الفيشات وصوت مساعد مدير اللعبة[1]. لم تكن تجد توكيداً لحياتها إلا في أعماق الذكريات، كاملة مع نور الصباح والنجوم، حيث تتوكّد منتصرةً على هذا الغسق الذي يهجع، في حشرجة الموت.

على السرير الحديدي، تعاني الأرق، في الهجران والغياب. وترحل الدونا فلور في اتجاه ما حدث، تبحث عن مرافىء آمنة في بحر العواصف. وتروح تجمع لحظات متناثرة وأسماء، وكلمات، وأنغام... محاولةً تجاوز ذلك الحزام الفولاذي لهذا الغسق. ومع ذلك كانت تعيش، تعمل نهاراً، ترتاح ليلاً... أليس هذا هو العيش في زمن الحداد الرمادي، أليس هذا نموّ في مستنقع وحل خانق؟ هذه هي حياتها دون فادينيو. كيف لها الخروج من مبيض الموت هذا، كيف تجتاز تعبر الباب الضيق لهذا الزمن العاري؟ دونه كانت لا تُحسن العيش.

أحياناً كان فادينيو رديئاً فعلاً كما تصفه الإشبينات، كالدونا روزيلدا والدونا دينورا والأخريات محترفات النّدب في الجنائز. لكنّهن كنّ أحياناً أخرى، يُلصِقْن به تهماً لا يد له فيها. ومراراً فعلَتْ ذلك، هي نفسها، الدونا فلور.

---

(١) CRUPIE

مثلاً سافر يوماً فجأة وعلى عجل؛ ولم تعلم إلا في آخر لحظة فتخيّلتْ الأسوأ، واعتبرت أنّها فقدته إلى الأبد. أيقنت أنه لن يعود من ريو ده جانيرو، سحر من أضوائها، وجاداتها التي تعجّ بالناس، الكازينوهات، مئات النساء رهن تصرفه. فقد سمعته مراراً يعلن: « ذات يوم سأمضي إلى الريو، فهناك الحياة! ولن أعود أبداً ... ».

كانت تلك السفرة جنوناً محضاً. وعندما احتاج ميراندون للمال اختلق رحلة لطلاب الهندسة الزراعية بهدف « زيارة مراكز الدرس في ريو ده جانيرو » أثناء العطلة. فجاب السوق التجاري بصحبة خمسة زملاء، وحصلوا على النقود من أبعد الأمكنة. اقترضوا المال من مصرفيين وصناعيين ومتمولين وأصحاب متاجر، وتجار آخرين وسياسيين مؤيدين للحكومة ومعارضين لها. حتى جمعوا في بضعة أيام مبلغاً معتبراً مع مشكلة واحدة: في المجاملات للسياسيين، فقد عقدوا ثلاثة اتفاقات مجاملة للسياسيين وغيّروا ثلاث مرات إكراماً لهم اسم لجنتهم. فعلى أي اسم سيرسو اختيارهم؟ من سيُنتقى الآن؟ وعلى الفور اقترح ميراندون حلاً بسيطاً للغاية،اقتسام المال الذي جمعوه في ما بينهم. وحلّ البعثة فوراً على أن يتصرفوا وكأنهم زاروا مراكز الدرس فعلاً. لكن الزملاء الخمسة رفضُوا جميعاً: كانوا يريدون القيام بالرحلة، والتعرف على الريو (فقد وطّدوا أنفسهم خاصة على زيارة مدرسة الهندسة الزراعية والتجوال في فروعها إذا وآتتْهم فرصة مناسبة).

حصلوا على بطاقات السفر مجاناً، من دائرة الزراعة في الولاية، وللمرة الرابعة غيرت البعثة اسمها، تكريماً للمدير الإيالي الكريم. لكنّ يوم ركوب الباخرة حين كانت الباخرة على وشك مغادرة الميناء، حدث ارتداد. فقد راح أحد الستّة يرتعد بحمّى المستنقعات، ومنعه الطبيب من السفر وليس لديهم الوقت لدعوة طالب آخر يسدّ مكانه، ولا لبيع البطاقة بسعر مُتدنٍ.

كان فادينيو قد رافق ميراندون إلى رصيف المرفأ، وحضر النقاش. وفجأة سأله صديقه:

ـ لم لا تأتِ أنت مكانه، وتستغلّ البطاقة؟

ـ لست طالباً...

ـ ولو... لا بأس، ليكن... إنما أسرع، فالباخرة تبحر بعد ساعتين...

وبالكاد استطاع أن يهرع إلى البيت ليجمع بعض ثيابه الدّاخلية وقمصانه وبذلة الجوخ الزرقاء تاركاً ميراندون، الصديق الصَّدوق يواجه دموع الدونا فلور.

كانت مقتنعة بأنه لن يعود أبداً. ليست حمقاء حتى تصدق قصة البعثة الطلابية غير المعقولة، رحلة للدرس! . ففادينيو ليس طالباً، فكيف يشارك في بعثة جامعية؟ الكتاب الوحيد الذي يقرأه هو كتاب التوقعات في القمار مع تفسير تام للأحلام والكوابيس، الكتاب الضروري لمن شاء الكسب في القمار على البيشو. لا تشكّ أنه يرحل وراء امرأة متشردة معينة، امرأة تهوى الاستسلام لغرائزها في ريو ده جانيرو. وكلما ألح ميراندون في القسم بذكرى أمه المقدسة، بصحة أبنائه كلما ازدادت شكاً وريبةً، فالرواية التي اخترعوها لا تساوي قشرة بصلة. كيف يجرؤ ميراندون على الاستهزاء بمشاعرها، بأكذوبة رخيصة كهذه؟ وإذا لم يكنّ لها التقدير والاحترام فكيف يطلب منها أن تكون عرّابة لابنه؟ وإذا كان فادينيو يريد أن يهجرها، ويرحل مع إحدى الغواني منتقلاً إلى الريو، فليتصرف على الأقل كرجل، ليأتِ شخصياً، ويقول لها الحقيقة، لا أن يبعث عرابه بتلك الرواية البلهاء مستغلاً ودّها له ويمنحها شهادة في الحمَاقة. «لكن أيتها الإشبينة، إنها الحقيقة، الحقيقة الخالصة؟. أقسم أننا سنعود خلال شهر». لِمَ يُجهد نفسَه بهذه المهزلة؟ ففادينيو لن يعود أبداً، هذا ما كانت متأكدة منه.

ومع ذلك، عاد. عاد في الوقت المحدد، مع البعثة التي اقتنعت الدونا فلور بوجودها حين أرسل أكبر أبناء الدونا سينيا تيرّا، تلميذتها، المشترك في الجولة، إشارة في إحدى رسائله إلى فادينيو، «الرفيق المِقدام». لم يعد فحسب، بل جلب لها معه قطعة فاخرة من الحرير، نسيج أجنبي، جميل باهظ الثمن، دلالةً على أنه كان محظوظاً في الروليت. أدركت الدونا فلور أن فادينيو لم ينسها رغم النزهات والحفلات ومستجدات الريو وليالي القمار والقصف. «كيف أنساكِ يا حبيبتي؟ وأنا لم أذهب إلا خدمة للفتيان فما كانوا سيسمحون للبعثة بالرحيل إلا مكتملة العدد». جاء يرتدي صداراً وكأنّه من أبناء الريو، كثير الكلام عن علاقاته التي أقامها ذاكراً أسماء كالمغني سيلفيو كالداس وبياتريز كوستا، نجمة المسرح.

وقدّمه إلى سيلفيو ، كاييمي بيشوتو ، في كازينو أوركا الذي تعاقد معه مغني السيريناتا . وأخذ فادينيو يطريه لبساطته وتواضعه . « قد تظنون أنه ليس سيلفيو المشهور لفرط تواضعه ، سترين حين يأتي إلى هنا . قال لي إنه قادم في شهر آذار ، وعدته بأنك ستعدين له غداء ، من الأطباق الباهيّانية . فهو يهتم بالمطبخ » . بأي سرور ستطهو الدونا فلور ذلك الغداء ، إذا تحقق ذلك الاحتمال البعيد ؛ كانت معجبة به متحمسة له ، مدمنة على الإصغاء إلى غنائه ، كم كان صوته برازيلياً قحاً !

متدثّرة بقطعة الحرير المتدلّية على كتفيها ، تغطي جسدها بها ثم تنزعها عنه ، فرحة بعودة فادينيو ، حتى توزّعها الضحك والتنهّدات في السرير مع الزوج في بحر اللذة . كانت نقطة من تأنيب الضمير تزيد ذلك الحب لذة . لقد أساءت الحكم عليه ، ظلمته وأساءت إليه حين شكّت به ، « بطالبها الجميل جداً . . » .

أما ما لم تعرفه الدونا فلور فهو ما بذله ميراندون من جهدٍ كبير لينتزع فادينيو من بين ذراعيْ جوزي ، وليضعه على الباخرة عند العودة . جوزي كان الاسم الفنّي للوزا جوزيفينا ، المغنية في جوقة الفرقة البرتغالية لاستعراضات بياتريز كوستا ، والتي هامت بغرام الشاب الباهيّاني ، (والعكس صحيح) . حصل التعارف بينهما حين حصلت البعثة الأكاديمية على بطاقات مجانية لحضور عرض مسرح الجمهورية ، وتوجهت إلى الأروقة بعد العرض ، لتحيّة بياتريز وأعضاء فرقتها . وما أن ألقى فادينيو نظرةً على جوزي وهي في ملابس بائعة السمك في شمالي البرتغال ، وقاست جوزي الطالب المزيّف بنظرها من أعلى إلى أسفل حتى ضحك كلٌّ منهما للآخر . وبعد نصف ساعة كانا يتناولان العشاء معاً ، شرائح من السمك المقدد في حانةٍ قريبة . ودفعت جوزي ثمن العشاء ، وظلّت تدفع إلى أن سافر . ووزع فادينيو وقته بين الفرقة البرتغالية والكازينوهات ، فنسي كليّاً موعد ركوب الباخرة ساعة الرحيل والرجوع إلى باهيّا . واضطرّ ميراندون أن يستخدم كل طاقته ويوظّف كلّ عواطفه :

ـ كفاني رؤية عرابتي باكية مرةً واحدة ، ولا أريد أن أرى بكاءها مرةً أخرى . . . وإذا وصلت هناك من دونك ، ماذا ستقول ؟

لم تعلم الدونا فلور بما حدث أبداً، ولن تعرف قط القصة الحقيقية لقطعة الحرير الفرنسي: لم يشترها من الريو، بل كسبها على متن الباخرة في البوكر عشية الوصول إلى سالفادور [١]، حين راهن أعضاء البعثة في لعب الورق على الهدايا والتذكارات التي حملوها من الريو بعد أن نفذت نقودهم. كسب فادينيو قطعة الحرير من طالب، ومن آخر كسب حذاء لامعاً وربطة عنق، فراشة[٢] عليها كرات صغيرة زرقاء، رائجة في موضة تلك الأيام. لقد راهن عليها بصورة جوزي، الزجاجية ذات الإطار الذهبي، الكبيرة الملونة الرائعة، التي تظهر فيها القروية البرتغالية ترفع ساقها في مشهد مسرحي، بثيابها الداخلية التحتيّة. يا لها من غانية! وعليها بخط متأنٍ كتبت: «إلى معبودي الباهيّاني، حبيبتك المشتاقة جوزي». وبعد لأي حصل على الصورة محام شاب يرغب في إذكاء الغيرة بصدور أصدقائه بالقصص والبراهين على غزواته المؤثرة في العاصمة [٣]. وهكذا صار، فجوزي هي التي موّلت مغادرة فادينيو الباخرة وساهمت في إفراح الدونا فلور.. الدونا فلور التي تتمتّع في أحضان زوجها، وقطعة الحرير تخفي جسدها وتكشفه، لتستقر في النهاية عند قائمة السرير.

كيف تحيا من دونه؟ مختنقة بغيابه، مضطربة في الضباب، حبيسة سجن الذكريات، كيف تتجاوز حدود الرغبة المستحيلة؟ كيف تجد مرة أخرى ضوء الشمس، حرارة النهار، نسيم الصباح، ضباب المساء ونجوم الليل، ووجوه النّاس؟ كلا، من دونه لا تحسن العيش، وهو يتوارى عنها وراء ضباب الأحزان ذاك، الضحكات والانفعالات، في عالمه المليء دوماً بالمفاجآت.

لتتذكر الإشبينات اللحظات السيئة والمخاصمات المتعضة، الإزعاجات في مسألة النقود، الليالي التي لم يأت فيها إلى البيت وقضاها معاقراً الخمرة، ومن يدري؟ ربما مع النساء، في جنون القمار. لكن لم لا ينبَسْنَ ببنت شفة - يلعنهنّ الله! - عن فترة إقامة سيلفيو كالداس في باهيّا المؤثّرة، حينما لم تجد الدونا فلور دقيقة واحدة للراحة، ولا للحزن؟ أسبوع كامل تتذكر الدونا فلور كل دقيقة منه: ثروة من الفرح والاحتفال. ويجوز القول إنها أصبحت

---

(١) عاصمة ولاية باهيا وهي ثغرها الرئيسي.

(٢) BORBOLEJA: ربطة العنق التي تستعمل في الحفلات والمناسبات الرسميّة.

(٣) METROPOLE: عاصمة البلاد الاتحادية وليس عاصمة الولاية.

ذلك الأسبوع الملكة في الحي القائم على قدم وساق من كابيسا إلى ساحة « الثاني من تموز »، من آريال ده سيا إلى آريال ده باشو، من سودريه إلى سانتا تيريزا، من بريغيسا إلى ميرانتي دوس أفليتوس. وغصّ بيتها بأشخاص مهمين، مهمين فعلاً، طرقوا بابها، مستأذنينها بالدخول، فعلى الرغم من نزول سيلفيو في فندق بالاس لكن الشّهرة كانت لبيت فادينيو حيث كان يستقبل ويتحادث كأنه في منزله، وكأنّ الدونا فلور أخته الصغرى. ناهيك عن المعارف، مثل المصرفي سيليستينو، الدكتور لويس إينريكي والدون كليمينتي نيغرا نفسه. جاء إلى بيتها كبار أصحاب النفوذ في باهيّا، سواء إلى الغداء المشهور، أم لمجرد إلقاء التحية على مغني السيريناتا ومصافحته. زيارات خليقة بجعل الدونا روزيلدا في حالة هيجان، في ذروة الانفعال، لو لم تكن لحسن الحظ، في نازاريت داس فارينياس منهمكة في إحالة حياة كنتها إلى جحيم؛ مع أن هذه الأخيرة كانت حسب رسالة إيتور تنتظر ولادة ابنها الأول.

لم تحتفظ الدونا فلور، بالذكرى الطيبة عن هذا الغداء وحسب، وإنما احتفظت كذلك بقصاصات الأخبار عنه في الصحف. صحافيان من معارف فادينيو هما جيوفاني غيمارايس ذاك، صديق الضحك ورواية الأحاديث الملفقة، والمدعوّ باتيستا وهو زنجي مشغوف بالنساء له صيت محترم في شقق العازبين، وكلاهما أكولان نهمان على مستوى عال؛ وقد تناولا الحدث في جريدتيهما. فأشار جيوفاني إلى « الوليمة التي لا تضاهى التي أقامها على شرف المغني المشهور السيد فالدوميرو غيمارايس الموظف البلدي الحصيف، وزوجته الموقرة، الدونا فلوريبيديس بايفا غيمارايس والتي جمعت إلى فضائلها في الطهي أقصى الطيبة وكامل التهذيب». في حين أبدى الزنجي جوان باتيستا تأثّره لكمية الأطباق: « ... مأدبة رفيعة المستوى وسخية جداً نكهةٌ لا يشبع منها، قُدّمت فيها كلّ الأطعمة الرئيسية المقلّية في المطبخ الباهيّاني، إضافة إلى اثنيْ عشر صنفاً من الحلوى ممّا يُبرهن على روعة فن الطهي عندنا ممّا تميّز به المرأة الرائعة السيدة فلور غيمارايس، زوجة مسؤولنا فالدوميرو غيمارايس، موظف البلدية وهو من أكفأ الموظفين المخلصين». وكما يبدو لقد شبع الأكولان النهمان تمام الشبع ورضيا تمام الرضا لدرجة أنهما لم يطريا الطعام، ونكهة الدونا فلور فحسب، وإنما رقّيا فادينيو إلى درجة الموظف الـمُخلص الفعّال اليقظ، وفي ذلك مغالاة في المبالغة كما لا يخفى.

لماذا لا تذكر الإشبينات غداء ذلك الأحد؟ كان المنزل حاشداً حتى يكاد المرء يعجز عن

التحرّك فيه والموائد ممتلئة بالأطعمة. الدكتور كوكيجو، من المحكمة الموسيقي في ساعات الفراغ، ألقى خطاباً، امتدح فيه فنّ الدونا فلور وذوقها؛ والشاعر إيليو سيمونز وعد بصونيتو[1] في تمجيد توابل «سيدة البيت الرائعة، راعية أعظم تقاليدنا المتفنّنة بالديندية[2] والبهارات». كل الإشبينات كنّ حاضرات، جميعهن، يتوشوشن، وكلهن رأين سيلفيو يتناول القيثارة ويفتح صدره البرازيلي المتيّم. وقد تجمع أناس عند الباب المطل على الشارع يصغون إليه؛ وعند الساعة الخامسة مساء، كان الكثير من المدعوين والمتطفلين الآخرين ما يزالون يحتسون الجعة والكاشاسا، ويطلبون أغاني جديدة من المغنّي الذي كان يلبي طلبات الجميع.

تصرّف فادينيو كان أفضل من كل شيء، حتى من ثناء الحضور وما كتب عنها في الصحيفتين، من الخطب والقصائد، أفضل من غناء سيلفيو كالداس، والذي ملأ بالسلام والانسجام السماء والبحر في نظر الدونا فلور، ما ناء بكل نفقات الغداء (من أين تدبّر كل تلك النقود دفعةً واحدةً؟ لا شك أن طلاقة لسان فادينيو وحدها القادرة على اجتراح هذه المعجزة...) كيف لم يشمل ذلك النهار، احتسى الخمرة بمقدار معتدل، وأشرف على راحة المدعوين كربّ بيت ممتاز، وحين أمسك المغني بالقيثارة من تلقاء نفسه، يريد أن يعزف ويغني لأنّه في بيت صديقيه، حينما شكرهما على الغداء داعياً الدونا فلور «فلورزينيا[3]، أختي...» قدم فادينيو وجلس قرب زوجته وتناول يدها. فارتفعت الدموع إلى عينيْها، كان ذلك أكثر من أن تتحمّله.

كيف تعيش من دونه؟ من دونه، أين تجد ثانية ذلك اللطف والمفاجأة، كيف تعتاد على فقده؟ قرأت في العشية خبر وصول المغني المذكور لإحياء موسم قصير في بالاس والتاباريز؛ وسيلبي دعوة البلدية ويقيم سيريناتا في كامبو غراندي، متيحاً للجمهور فرصة رؤيته وسماعه والغناء معه. ألا يذهب فادينيو لانتظاره أم أنه لم يعلم بالخبر؟

عندما عاد من الريو قبل بضعة أشهر لم يسكت لسانه عن ترداد اسم سيلفيو كالداس. لم

---

(١) SONETO : نوع من القصائد، ورد ذكرها سابقاً.

(٢) DENDE : نوع من الزيت، ورد ذكرها سابقاً.

(٣) تصغير لفلور. وتعني الزهرة الصغيرة.

يكن لديه موضوع آخر يتكلّم فيه. لقد وعده بغداء تطهوه الدونا فلور. مستحيل.. شخص مشهور كهذا، يظهر في عناوين الجرائد وعلى غلاف المجلات يأتي إلى باهيّا لمدة أسبوع، لن يكون لديه الوقت الكافي لتلبية الطّلب عليه ودعوات الأثرياء؛ حتى لو أراد، أين سيجد الوقت الكافي لتناول الطّعام في بيت فقير؟ فالصحيفة تقول: «نظّمت شخصيات المجتمع الراقي احتفاءً بحضور الفنان بيننا». كانت مستعدة وسعيدة لبذل كل جهدٍ ممكن لتحضير حفل الغداء، مستعدة حتى لإنفاق توفيراتها الزهيدة، المخبأة في أحد أعمدة السرير الحديدي، لتنفق نقود ميزانية الشهر، وتستدين إذا لزم الأمر، كي تستقبل في بيتها سيلفيو وتتيح له أكل الطعام الباهيّاني الحقيقي. ما كانت تشكّ في وديّة العلاقات التي نشأت في الريو. ألم يكن هو المغني الدائم الحضور على موائد القمار؟ لكن أن يأتي ذلك المشهور إلى بيتها، فذلك أمرٌ بعيد الاحتمال. بالنسبة إلى فادينيو لا توجد مسافات، ولا عقبات مهما كان نوعها، بالنسبة إليه كل شيء يسير قُدُماً، فلا مستحيل مع الحياة. وباكتئاب علّقت الدونا فلور على الموضوع أمام الدونا نورما:

ـ كم هو مجنون فادينيو!... يبتكر ابتكارات، غداء لسيلفيو كالداس، هل فكرتِ بهذا؟

بدورها الدونا نورما تحمست للموضوع:

ـ وما أدراك أنّه لن يأتي؟ أيتها البنت، ستكتسحين السوق...

لكنها وطّدَتْ نفسها على أن تقنع بأقل من ذلك:

ـ لا أطمع بأكثر بالذهاب إلى سيريناتا له... طبعاً، إذا تسنى لي من يصحبني... وإلا، لن أذهب...

ـ بالنسبة إلى من يصحبك فلا تقلقي، لأني سأذهب في مطلق الأحوال. إذا لم يرد زيه سامبايو الذهاب معي، فعليه أن يصبر لأنه سيبقى وحيداً في البيت. سأذهب مع أرتور...

ضمن برنامج التسع عشرة ساعة، أعلنت أخبار الإذاعة عن حفلة المغني الافتتاحية تلك الليلة بالذّات، مغنياً عند منتصف الليل للعائلات في قاعة فندق بالاس الأنيقة المجاورة

لقاعات القمار، مغنياً عند الساعة الثانية صباحاً في التاباريز للبوهيميين ولنساء الحياة[1] أخلدت الدونا فلور للنوم وهي تدرك أن هناك شيئاً واحداً أكيداً بالنسبة لما يدور حول المغني؛ لن يجديها نفعاً انتظار زوجها تلك الليلة. فبوجود سيلفيو كالداس في البلاد، غدت وكأن لا زوج لها. وحينما يخرجون من الكاباريه عند الفجر، ستلفهم دورة الليل الأخيرة في باهيّا في غموض بيلورينيو، في دروب سيتي بورتاس، في البحر وفي المراكب المعدّيات[2] في رامبا دو ميركادو.

نامت وحلمت حلماً متشابكاً اختلط فيه ميراندون وسيلفيو كالداس وفادينيو مع شقيقها إيتور وزوجة أخيها والدونا روزيلدا. الجميع في نازاريت داس فارينياس، حيث الدونا فلور تساعد زوجة أخيها الحامل، المقيّدة بسلسلة إلى خزانة ثياب حماتها. وضجّت أخبار الجرائد والإذاعة ورسالة الشقيق في ضوضاء حلمٍ شاذٍ. وتثور الدونا روزيلدا، تريد معرفة سبب حضور سيلفيو كالداس إلى نازاريت، فيجيب أنه جاء ليصحب فادينيو في سيريناتا للدونا فلور، تهمهم أمّها: « كم أشمئزّ من السيريناتا ». لكنه يمسك بالقيثارة، وتتفتّح براعم صوتها المخمليّ. النّاس في ريكونكافو في ليل باراغاسو. وابتسمت الدونا فلور في حلمها الدّافىء.

يتعالى الصوت في الشارع، فتستيقظ الدونا فلور، لكن الحلم يتواصل يا للمعجزة! والأغنية تقترب، أحلم أم واقع؟ لقد نهض الناس وهرعوا إلى الشّرفات لفّت الدونا فلور نفسها في ردائها على عجل، وطلبَتْ النافذة.

كانوا هناك: فادينيو وميراندون وإدغار كوكو والسامي كارلينيوس ماسكارينياس، والشاحب جينّير آوغوستو من كاباريهات آراكاجو. وبينهم وقف ضامّاً القيثارة إلى صدره، وقد أطلق عنان صوته، سيلفيو يغني للدونا فلور:

« ... مع نغمة اللحن العاشق في أوتار القيثارة الشّجية.. »

---

(١) MULHERES DAVIDA : البغايا.

(٢) SAVEIRO : المركب الذي يعبر على متنه من ضفة نهر إلى أخرى.

لقد حدثت السيريناتا، والحيّ اهتاج وماج. وحصل غداء يوم الأحد الذي تكلموا عنه حتى في الصحف. ويوم الاثنين حضر سيلفيو ليعدّ العشاء، جلب معه كل شيء، وارتدى مئزراً، ودخل المطبخ، كان فعلاً يحسن الطهي. أيام أخرى لم يكن لديه وقت كـاف فراح يدخل ويخرج، ومعاً مضوا لمشاهدة عرض الكابويرا [1]. لكن، من كل ما حدث في ذلك الأسبوع، لا شيء يضـاهـي الاحتفـال الشعبي يـوم الثلاثـاء، عشيـة رحيـل سيلفيـو إلى رسبفي [2]. ففي ليلة مكتملة البدر وقف على المنصة في كامبو غراندي، يغنّي للجمهور، للشعب المحتشد في الساحة.

لم تسأل الدونا فلور فادينيو عمّا إذا كان سيذهب؛ فهو ما كان ليترك صديقه. أبلغته أنها ستحضر بصحبة الدونا نورما والسيد سامبايو، فحتى تاجر الأحذية نفض عنه تعبه الأزلي ليشاهد مغني السيريناتا.

وكم كانت دهشة الدونا فلور بُعيد العشاء حين نزل من سيارة الغجري، فادينيو وسيلفيو وميراندون، عند باب البيت، جاؤوا يصطحبونها. «والإشبينة؟» سألت ميراندون فردّ بأنّها ذهبت مع الأولاد قبلهم. فيجب أن تكون الآن في الساحة. وفيما كانت تتزيّن، أعدوا لأنفسهم شراب الليمون.

جلست هي وفادينيو في منصّة الشرف حيث جلس أصحاب النفوذ. لم يأتِ الحاكم لأن الرشح قد ألزمه السرير لكنهم وضعوا مكبراً للصوت على مقربة من القصر بحيث يستمع صاحب السعادة وزوجته للغناء. وارتاح على المقاعد معهم محافظ المدينة وزوجته ورئيس الشرطة مع أمه وشقيقاته ومدير دائرة التعليم والثقافة، وآمرو الشرطة العسكرية وفرقة المطافىء، مع أفراد عائلاتهم والدكتور جورجي كالمون وغيرهم من النبلاء. وسط كلّ تلك الأبهة ابتسمت الدونا فلور لفادينيو:

ـ كم أتحسّر لأنّ أمي لا ترانا الآن... ما كانت ستصدّق!! نحن الاثنان جالسان مع الرسميّين...

---

(١) مبارزة بين أشخاص مسلّحين بمدى يمثلون أدواراً خطرة كأنهم مجرمون.

(٢) RECIFE: مدينة في شمال شرقي البرازيل وهي ثغر على شاطىء الأطلسي.

ابتسم فادينيو ابتسامته الساخرة، وقال:

ـ أملكِ عجوز خرقاء، لا تعلم أن لا شيء في الحياة يجدي سوى الحب والصداقة. والباقي كله تفاهات، سخافات، لا تستأهل التحسّر عليها..

فجأة تصاعد نغم القيثارة وأخمد الضجيج المرح في الساحة. آه! صوت سيلفيو كالداس، والبدر والنجوم والنّسيم وأشجار المنتزه وصمت الناس.. أغمضت الدونا فلور عينيها، وأسندت رأسها إلى كتف زوجها.

كيف تعيش من دونه؟ كيف تجتاز هذه الصحراء، تعبر هذا الغسق، تقف في هذا المستنقع؟ من دونه كل شيء تافه سخيف لا يستحق أن يُعاش.

٣٠

الدونا فلور في السرير الحديدي تسحقها فكرة وحيدة تخترق أحشاءها تمزّقها من الداخل. لن تراه أبداً هنا، في هياج الرجل، فادينيو الذي يخصّها، أبداً أبداً. كان يقينها يخترقها ويمزقها، شفرة سامة، تفتح صدرها وتتلف قلبها، تطفىء رغبتها في العيش، شبابها النهم للبقاء. في السرير الحديدي الدونا فلور منحورة. وحدها الرغبة تبقيها حية وتلح عليها الذكرى. لماذا تتوقعه بلا طائل؟ لماذا تنتصب الرغبة في لهب، نار تحرق رحمها، تبقيها حية؟ إذا كان لا جدوى من الأمر، ولن يعود عشيقاً خالع العذار، ينتزع قميصها الداخلي أو قميص نومها وسروالها المطرّز بالمخرمات، فيكشف عُرْيها المتقع، مرددا على مسامعها عبارات مجنونة حتى لا تجرؤ على استعادتها في ذكرياتها، مجنونة وغير محتشمة لكن جميلة.. لن يأتيها يلمس حضنها، وردفيها وأسفل بطنها؛ يوقظها وينيمها، يعصف بها إعصار الشوق، يجرفها طوفانه الأعمى ثم يداعبها نسيم رقّته، ريح غريبة لطيفة من التنهدات والغيبوبة إلى أن تستيقظ مجدداً. أواه، لن يكون ذلك بعد اليوم! وحدها الرغبة تبقيها حيّة والذكرى تلح عليها.

« مثل روح سجينة بيت رطب كئيب، سجينة ضريح ». رائحة العفونة في الجدران، في السقف وفي الأرض، هجر بارد ينتظر العناكب وشباكها. « قبر دُفنت فيه مع ذكرى فادينيو » كانت الدونا فلور غارقةً في السواد، في الحداد من الداخل ومن الخارج، متعفنة. قالت لها الدونا نورما صديقتها:

ـ هذا غير معقول، يا فلور. غير معقول! ستكملين شهراً وأنت تعيشين كروح حبيسة،

متكوّمة داخل بيتك. وبيتك الذي كان رائعاً أضحى الآن يفوح بالعفونة، ويبدو ـ ليغفر لي الله ـ قبراً لا بيتاً، تقوقعت فيه. تَحرّكي ثانية، ضعي لذلك حداً، خفّفي من هذا الحداد...

التلميذات كن محتارات في ذلك الجوّ، وكانت الضحكات والنكات تجلجل فارغة زائفة. كيف تستطيع التودد يوماً للتلميذات، فلا يشعرن بانصرام الوقت بين السرور والفرح وذلك السبب الأساسي لنجاح «مدرسة الطهي تذوّق وفن»، إذ كانت المدرّسة تضحك غصباً عنها؟ فمرةً، أنشدت الدونا ماغا باترنوسترو المليونيرة حين كانت تلميذتها، خطاباً مدرسياً هزلياً، عند عتبة باب الطابق الأول في آلفو، أنشودة:

«حيّوا المدرسة الضاحكة الصريحة ومدرّستها الفتيّة المهزارة...»

منذ ذلك الوقت ازداد الطّلب على الانتساب إلى المدرسة، لأن كل سيدة كانت تروّج لها تلقائياً، موصية صديقاتها: «إنّها رائعة، لا يضاهيها أحدٌ في الطّهي، وتحسن التعليم إنها فاتنة. كم تتسلى التلميذات تمر الساعتان في الضحك، والنكات، النّوادر. لا شيء أفضل من مدرستها لتمضية الوقت» وقد اضطرّت مراراً لردّ طلب البعض لكثافة الإقبال على المرحلتَيْن. ومع ذلك، فقد انسحبت الآن ثلاث فتيات من المجموعة، بل هناك إشاعة عن إقفال المدرسة قريباً. أين تلك «المدرّسة الشابة المهزارة؟» أين «ساعتا النكات والنّوادر»؟ فخلال الدرس عندما تضحك الفتيات فجأة كانت الدونا فلور تبدو وكأنها غير موجودة، تائهة العينين قلقة الوجه. من ذا الذي يجب أن يحمل الحزن على الميت مع أهله، أياماً وأياماً يدور مع الميت في فلك واحد، وكأن لا مكان يقبر فيه!

قدمت إشبينتها ديونيزيا ده أوشوصي لزيارتها ومعها طفلها بالعمادة. كانت ترتدي ملابس داكنة كما تقتضي أصول اللياقة، لكنها كانت تبتسم، فقد انصرم شهر تقريباً، وتلك هي زيارتها الثالثة لها. عبّرت عن قلقها لمسحة الحزن على وجه الدونا فلور، فمثل هذا الاكتئاب أمرٌ سيء.

ـ ادفني ميّتك نهائياً أيتها الإشبينة... وإلا فستفوح رائحته ويستهلك كل شيء هنا حتى حضرتكِ...

ـ لا أعلم ما أفعل. لا أرتاح إلا عندما أتذكره...

ـ إذن، اجمعي كل ما يذكّرك به، اجمعي أشياءه وادفنيها في قرارة قلبكِ. اجمعي كل شيء، الحسن والسيء، وادفني متاعه وبعدها ارقدي ونامي مطمئنة...

أما مستشارتها الدونا جيزا، المتأبطة كتباً، فبدَتْ منتعشة في فستان صيفي رقيق يكشف نمشها وعافيَتها فوبّختْها:

ـ ما هذا؟ إلامَ سيستمر هذا العرض؟

ـ ماذا أفعل؟ لا أفعل ذلك بملء إرادتي...

ـ أين قوة إرادتكِ؟ قولي لنفسكِ: غداً أبدأ حياة جديدة. أغلقي الباب على الماضي، وعودي للحياة...

ورددت جوقة الإشبينات فيما يشبه النشيد الكنائسي[1].

ـ الآن، من دون الطاعون، الذي كانه زوجها... تستطيع هي أن تعيش سعيدة... ينبغي لها أن تحمد الله.

الدون كليمينتي نيغرا في فناء الدير فوق البحر الشاسع بلون الزيت الأخضر المُزْرق ينعكس على وجهه الحزين، يحدّق في حدادها المغلق الذي يفاجىء المرء. كانت الدونا فلور هزيلة مستسلمة، وقد قدمت لتوصي على قداس الشهر.

وهمس الراهب:

ـ يا ابنتي، ما هذا اليأس؟ فادينيو كان مرحاً جداً، يحب الضحك كثيراً... كان دائماً يجعلني أفكر أن أعظم إثم مميت نرتكبه هو الحزن، لأنه وحده الذي يهين الحياة. ماذا كان سيقول لو رآك هكذا؟ ما كان ليحبّ ذلك، ما كان ليحب أبداً أن تكوني كئيبة. إذا

---

(١) CANTOCHAO: نشيد ينشده المصلون في الكنسة، يدعى أيضاً نشيد غريغوري نسبة للقديس عريغوريو الدي وضعه.

أردتِ أن تكوني وفيّة لذكرى فادينيو، واجهي الحياة بالفرح...

وعلا صوت النادبات المأجورات في الحي:

ـ صحّ، الآن بوسعها أن تفرح لأن الكلب قد ذهب إلى الجحيم.

راح الأشخاص يتحركون أمامها في الحجرة كمن يؤدون رقصة مشتركة: الدونا روزيلدا والدونا دينورا والطوباويات مع أشياء الكنيسة المقدسة والدونا نورما والدونا جيزا والدون كليمينتي فيما تقول ديونيزيا ده أوشوصي المبتسمة مع ابنها:

ـ ادفني متاع المذكور في قلبكِ، يا إشبينتي، ثم ارقدي ونامي مطمئنة.

لكن جسدها لا يطاوعها، بل يتطلّب. كانت تفكر بعقلها، تصغي إلى صديقاتها فتجد الحقّ معهنّ: يجب أن تضع حداً لهذا الموت المتكرر يومياً مراراً. ومع ذلك لا يطاوعها جسدها، بل يلحّ عليها بمتطلّباته الميؤوس منها. وحدها الذكرى تعيده إليها وتحضره أمامها. فادينيو بشاربه الوقح، ابتسامته المستهزئة، بسلاطة لسانه، بكلماته البشعة والجميلة معاً، بغابة الشعر على صدره وندب السكين في كتفه. كم تودّ لو ترحل معه آخذةً بذراعه، مثارة بمساوئه، وكم كانت كثيرة! تئن بقلة حياء، وتغيب وهي على جسده. لكن، آه! عليها أن تتحرّك أن تعيش، أن تفتح بيتها وشفتيها، فتُدخل الهواء إلى الغرف وإلى قلبها، تأخذ متاع فادينيو، وتدفنه كله عميقاً. من يدري؟ ربما تشفي بذلك غليل رغبتها. كانت تسمع دائماً أن الأرملة يجب أن تكون بلا شهوة لا تفكر هذا التفكير الآثِم، يجب أن تكون بليدة الأحاسيس زهرة يابسة بلا عطر. فشهوة المرأة الأرملة تذهب إلى القبر مع تابوت المتوفى، وتدفن معه. وحدها المرأة البذيئة جداً، التي لا تحب زوجها، قد تفكر في هذه الأمور القليلة الحياء، يا لبشاعة ذلك!. لماذا لم يأخذ فادينيو معه الحمى التي تحرقها، اليأس الذي يخدّر ثدييها ويوجع رحمها الجائعة؟ آن أوان دفن الميت من جديد، ميتها ومع متاعه بأكمله؛ بتصرفاته السيئة، وشروره وسفالاته ومرحه ولطفه، واندفاعه السخيّ، وكل ما زرعه في وداعة الدونا فلور، من شعلات تضطرم بألم الشوق بجنون حبها، بذكاء شهوتها. أواه! شهوة دنسة، شهوة أرملة قليلة الحياء!

لكن قبل ذلك، ستستحضره لمرّة واحدة، مرّة أخيرة. تواجهه وترحل معه، حبيسة

ذراعيْه . سترحل بأناقة امرأة ثرية ، كما عندما كانت عازبة ، حينما كانت تظهر مع روزاليا ، في حفلات البرجوازيين الأثرياء ، وكانتا الأكثر أناقة بين الحاضرات متفوّقتين على الأخريات رغم فقرهما .

آه! ليلة تجمع كل ما هو جميل ومريع ومفاجىء ، تجمع بين الخوف والهياج ، بين الانكسار والانتصار! الانفعال في قاعة الرقص وقاعة القمار ، والأعصاب مشدودة ، والقلب في احتفال ، يا لها من ليلة هائلة!

لتكن المرّة الأخيرة معه على مهل ، خطوة خطوة ، تمهّد الطريق المستحيل لتلك الليلة الليلاء ، كيف خرجوا من البيت ، هما والدونا جيزا ثم العشاء فالتانغو ، والاستعراض والخلاسيات يدرن حول أنفسهن والزنجيات يغنين . . ، الروليت ، والباكارا ، المواجهة والرقّة ثم العودة في سيارة الأجرة التي يملكها الغجري كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي ، ولا يصبر فادينيو بل يأخذ شفتيها بين شفتيه هناك ، على مرأى من الدونا جيزا المبتسمة . وحالما دخلا غرفة نومهما نزع عنها فستانها بإلحاح ممزقاً له :

ـ لا أدري ما بكِ اليوم ، يا حبيبتي ، أنتِ امرأة ولا كلّ النساء! ، وأنا مجنونُكِ . هيّا ، بسرعة . . . سأريك كيف تكون اللذة ، سأمتعك كما لم تتمتعي من قبل . واليوم يومنا ، فاستعدي . لقد أعطيتكِ ما طلبتِه ، والآن ستسددين لي . .

ساقطة على السرير الحديدي ترتعد . هذه الليلة تحول المزاج السيء إلى عسل ، ومجدداً انفُتح الألم عن أسمى مسرّة . لم تكن يوماً بغلة هائجة يمتطيها الحصان الفحل الناري كما كانت يومها ، كلبة شهوانية في طور الغلمة ممتلّكة ، عبدة خاضعة لتدميره ، أنثى تجوب جميع دروب الرغبة ، خمائل الزهور والملذات ، غابات ظليلة ورطبة ومسالك محرّمة ، حتى المساحات المغلقة النهائية . ليلة التسلل عبر الأبواب الموصدة الضيقة جداً ، ليلة استسلمت فيها آخر قلاع عفتها ، أواه! « ديو غراتياس آليلويا! »[1] . حين يتحول المزاج السيء إلى عسل والألم كان هو النادر ، الغسق ، المتعة الإلهية ، ليلة فيها تعطي وتستقبل .

---

(١) DEO GRATIAS ALELUIA في اللاتينية: « ليمجد الله هللويا » .

حدث ذلك يوم عيد ميلاد الدونا فلور ولما يمرّ عليه وقت طويل، فقد حدث في كانون الأول على مقربة من ناتال.

٢١

بين قوسين مع الزنجي آريغوف والجميل زيكيتو ميرابو

استيقظ فادينيو متأخراً بعد الحادية عشرة. كان قد وصل إلى البيت عند ساعات الصباح الأولى، وقد أكثر من شرب الكاشاسا. وعندما كان يحلق ذقنه، انتبه إلى الصمت غير المألوف، إلى غياب تلميذات المجموعة الصباحية. لماذا لا تعليم ذلك النهار؟ إحدى التلميذات، خلاسية صغيرة ذهبية الشعر، هيفاء وهشة، قد ألقت عليه نظرة من عينيها الآسرتين، وكلّمته بدلع. وقد صمم فادينيو على أن يأخذها في نزهة حالما يتسنى له وقت يكون فيه حراً مستعداً؛ ليعلّمها الوحشية الجميلة في الشواطىء المقفرة مع مذاق رائحة البحر. إن الأسل[1] الأهيف الرقيق، تلك المحتالة ليدا، كانت في الصف تنتظر دورها بلطفها وريبتها. في ذلك الوقت كان فادينيو يلبي إلحاحات أحاسيس زيلدا كاتوندا الجنسية، وهي إحدى ثلاث شقيقات من آل كاتوندا وأشدّهن تِلعاباً، شاعراً أيضاً بضرورة وضع حد لقصة الغرام هذا؛ فقد استرسلت الفاتنة في التطلّب، تريد أن تتحكّم فيه، تراقب خطواته بهوس الغيرة حتى من الدونا فلور؛ يا لها من وقحة!

إذا لم يكن يوماً مقدساً حتى ولا يوم عطلة، فلماذا ليس هناك تعليم؟ وعند خروجه من الحمام، جابهه جو احتفاليّ: الدونا نورما تساعد في المطبخ والخالة ليتا تنظف الأثاث وتاليس بورتو مسترخٍ على الأريكة مع جرائد وكأس من الشراب الروحي. سرت في الجوّ رائحة غداء احتفالي، لكنه احتفال بأي شيء؟

---

(١) JUNCO: نبات باسق ليّن.

غداء مترف، والبيت سيمتلىء بالأصدقاء، حفلة يوم أحد، إنها من مسرّات فادينيو. لو لم تكن نقوده زهيدة في معظم الأحيان لكرر التهام ذيل الخنزير أو العجل والساراباتيل، أوراق المنديوكا والفاتابان. وحالما تهبّ عليه ريح الحظ يضع في برنامجه طبق فيجوادا، لحماً مقدداً مع ثريد الدقيق والمانديوكا بالحليب، مرق الكونكين[1] الداكن، ناهيك عن الكارورو الكلاسيكي لكوزمي ودامیان، في أيلول، والكانجيكا[2] والجينيبابو[3] من سان جوان. لكن ها هي الأطعمة هذه تظهر دون سابق إنذار أو طلب فأي حفلة شيطانية هي؟ أجابته الدونا نورما مُوَبّخة:

- «ألديك الشجاعة لتسأل يا فادينيو؟ ألا تذكر أن اليوم هو عيد ميلاد زوجتك؟»

- عيد ميلاد فلور؟ في أيّ يوم نحن؟ التاسع عشر من كانون الأول؟

واصلت الجارة توبيخها:

- ألا تخجل حقاً من نفسك؟... قل! ماذا اشتريت لها، أي هدية ستعطيها لهذه القديسة؟..

لا شيء، يا دونا نورما، لم يشتر لها شيئاً. وهو يستحق تعنيفك، وتقريعه على إهماله، لكن هل كان رجلاً يتذكر أعياد الميلاد، ويختار الهدايا من المتاجر؟ يا حسرة! أضاع فرصة ذهبية ليفعل شيئاً جميلاً بإحضاره هدية جميلة. كانت الدونا فلور ستُجَنّ من رضاها كما حدث في عيد ميلاد سابق حين استبقه هو وسلّم نقوداً وفيرة للدونا نورما، وكلّفها ابتياع «تذكار رائع، ولا تنسي قارورة عطر نفاذ الأريج من رويال بريار، الذي تحبّه كثيراً».

يا حسرة على إهماله الآن وهو يدخل فترة حظ غير عاديّ، كاسباً بوفرة منذ أربعة أو خمسة أيام. لا في الروليت فقط، وإنما في الباكارا، في الزهر، وأيضاً في قمار البيشو؟ بادئاً

---

(١) صنف من الطعام.

(٢) CANJICA: تثريد الذرة مع السكر وعصارة جوز الهند والقرفة.

(٣) JENIPAPO: نوع من الثمر الاستوائي.

أسبوعه بالحصول على الألوف على مدى يومين متتاليين.

كان مكتنزاً بالمال لدرجة تسديد سند كان يهدد بإفلاس شخص توسل هو إلبه، منقذاً رصيده واسمه. وما كان هذا الشخص إلا صديقه، المغترّ بنفسه الذرب اللسان، علاقة بسيطة من الحانة أو الكاباريه. والحقيقة أن ابن ولاية بارا [1] قبل في التاباريس في إحدى جرعات الكاشاسا تلك، قبل بحيوية سخيّة، وحماس نادر فكرة ضمانة سند وقّعه فادينيو ومهلته ثلاثين يوماً.

بعد شهر ونيّف، استُدعي فادينيو إلى مكتب مدير المصرف الذي زوّده بحسم السند؛ فسارع إلى الدعوة فقد كان يلتزم سياسة مرنة وعلاقات طيبة مع مدراء المؤسسات المصرفية التي كان يعتمد عليها ونوّابهم.

قال الجلاّد، بل كان رفيقاً طيباً، السيد جورجي تاركينيو ـ «يا سيد فادينيو: لديّ هنا سند مستحَقٌّ عليك».

ـ عليّ أنا؟ لست مديناً لأحد. دعني أراه...

ـ أنظر وادفع... ـ وعرض عليه السند.

عرف فادينيو توقيعه وتوقيع الضّامن:

ـ لكن يا سيد تاركينيو، إذا كان للسند ضامن، فلم تأتي وتدسّ الذعر في نفسي لتقول لي إني مَدين... لا يتطلب الأمر سوى الذهاب إلى رايموندو ريس وقبضه، فالرجل فاحش الثراء، لديه مزرعة مواش، مصنع للسكر، منصة مرافقة كأي محام له حقّ مكتسب دون أن يكون حائزاً على شهادة محاماة، ويذهب إلى أوروبا كل سنة... وهو الذي ينبغي لك استدعاؤه...

ـ من الطبيعي أننا ذهبنا إليه أولاً، فهو الضّامن... لكنه قال إنه لن يدفع أبداً. رفض ذلك...

---

(١) PARA: ولاية في الشمال الشرقي من البرازيل.

استبدت الدهشة بفادينيو للفضيحة، لهذه الوقاحة.

ـ قال إنه لن يدفع؟ رفض؟ أنظر يا سيد تاركينيو كل شيء متوفّر له.. كم هو دنيء قليل الحياء!... يبقى في الكاباريه، وهو يتجشأ ثراءً، إذ لديه فراسخ من الأرض، وأكثر منها قطعان من الماشية والسكر، وما يريده يصير، حتى أنه التهم[1] ثلاث نساء دفعة واحدة في باريس، مليونير! إنه مليونير! من هنا نشق به فنقع في قصة محتال، فيقبل الضمانة كأيّ شخص مستقيم. والنتيجة: يستحقّ السند ولا يسدّده، فيهتز رصيدي من الثقة! وأنت، أيها السيد، تستدعيني.

ـ لكنّ يا فادينيو، أنت في النهاية من استدان النقود...

ـ من فضلك يا سيد تاركينيو، حباً بالله!... إذا كان هذا المُختلِس لا يقدر على ضمان أحد، فلمَ تطوّع وعرض نفسه؟ في النهاية ألم يتحمّل المسؤولية، ألم يلتزم بدفع الدين إذا لم أدفعه؟ لقد فعل، وكنت مطمئناً مرتاحاً... والآن يحدث هذا... ليس هذا عدْلاً... إن مثل هؤلاء النّاس هم الذين يسيئون إلى وضع البعض مع المصارف.. فحين يضمن شخص معيّن سنداً، فذلك يعني أنه مستعدّ للدفع، يا سيد تاركينيو. رايموندو ريس هذا يجب أن يكون في السجن؛ المخادع! العاطل!!

اعتقد السيد تاركينينو أنّ كل ذلك السخط الذي لا طائل منه يهدف إلى تطويقه، لتجديد السند. الذي استحق. وكم كانت دهشته حين دسّ فادينيو يده في جيبه وسحب منها النقود. شيء لا يُصدّق.

ـ ها أنت ترى، يا سيد تاركينيو، الخسارة التي يسببها لي هذا النوع من الناس؟ هذه هي نتيجة التّعامل مع هؤلاء التجار... وأنا الذي كنت دائماً أختار ضامني أدقّ اختيار... رايموندو ريس؟ من كان يقول!... لنرّ ونتعلم...

لم يحسّ بالاختلاس، فمدّ الحظ مستمرٌ دون انقطاع، والمال يدخل في الدائرة فيشات ملوّنة، ويخرج قطع نقد ورقية ومعدنية، أسبوع مآدب كثر فيها الشراب، لها صخب الاحتفال.

(١) يعني المؤلف إنه ضاجع.

وبلغ الحظ أقصى مداه، ذروة سعده، عشية اليوم السابق. فقد حلم فادينيو بالسيد زيه سامبايو، لم يحتج للنظر فيما يشير إليه كتاب التنبؤ في اللعب، لماذا؟ لا شك في أنه الدّب! وهكذا كان؛ اندفع الدّب بعنف في خانة المئات، في خانة الدزينات وفي المجموعة، وتضاعفت أرباحه بعد ذلك في التاباريس، في لعبة الكلب السلوقي الفرنسي[1]، وفي الباكارا. كانت ليلة سوداء بالنسبة لمسؤولي طاولات القمار فقد اجتاز فادينيو المرحلة رابحاً مرة بعد مرة، وإن لم يكن ربحه فاحشاً؛ في حين استطاع الزنجي آريغوف، المسكون بالشيطان ذلك الفجر، أن يحصلْ على ستة وتسعين كونتو[2] في أقل من عشر دقائق، في الروليت.

لكن نهاية الليل شهدَتْ الزنجيّ يقف، قرب مساعد مدير اللعبة وهو يعلن انطلاق الكرة الأخيرة. لقد قدم من وكر «الدوقات الثلاثة»، وذيله بين ساقيه مخذولاً، والتهمت الدورة آخر قطعة نقود في جيبه. لقد مرّ في أباشادينيو وفي مصيدة كاردوزو بيريبا، حتى ألقى مرساته هناك، في التاباريس، آخر مرفأ في إبحاره الكئيب.

كان التباريس نوعاً من زاوية العالم، نصف كازينو، نصف كباريه، يستغلّه نفس ملتزمي فندق بالاس. وفيه يقدّم العروض الفنانون الجيدون المتعاقدون للعمل في بالاس، وهو من الدرجة الثانية حيث يقدم كل شيء من الطاعنات في السن المتحطمات في نهاية مهنتهنّ، إلى الفتيات الصغيرات البالغات لتوّهن، واللواتي يحيمهن، الواحدة والأخرى، السيد تيتو المدير المطلق الصلاحية. كان يشفق على النساءالعجائز، فلا مأساة تضاهي مأساة ممثلة طاعنة في السن بلا عقد. أما الفتيات فقد كان يجرّبهن ويعلّمهن في مكتبه القذر؛ فإذا وجدهنّ لا يصلحن للعمل، جعلهنّ يعملن كبغايا فقط. ومع انصرام الليل يبدأ التاباريس باستقبال مرتادي بالاس وهم عموماً أصحاب مال ومراكز، والأطعمة الشعبية الزهيدة في آباشادينيو، وهي مجرد حانة تصرّ على أنها كازينو، إلى وكر باراناغوا فينتورا الخفيّ. إلى هناك كانوا يأتون جميعاً لإنهاء ليلتهم وخوض آخر تجربة متشبثين بالأمل الأخير.

---

(١) ضرب من العاب القمار.
(٢) CONTO: ألف كروزيرو في العملة البرازيلية قبل تغيير النقد إلى الكروزادو.

دخل آريغوف ولاحظ أن فادينيو في مجد حظّه، محاطاً بحلقة من الفضوليين يستحسنون أسلوبه الراقي في لعب الباكارا، وميراندون إلى يساره، يجلب له بين الحين والآخر فيشاً، وعدد من السيدات إلى يمينه، وبينهن الشقيقات كاتوندا. «بسرعة، مرِّر لي فيشاً، يا أخي الصغير، أسرع فيسقفل المراهنة»، طلب آريغوف في همس مؤثر. فادينيو المأخوذ بورق اللعب، دس يده في جيبه وسحب فيشاً، دون أن يتأكّد من قيمته. كان من فئة صغيرة، خمسة آلاف ريس، ولم يكن الزنجي يطلب أكثر من ذلك. ركض إلى الروليت، وأودع العطية الرقم ٢٦ وعليه وقفت الكرة الصغيرة كالميتة؛ وكرر الرقم مرتين. وبعد عشر دقائق انتهى اللعب، وحصل آريغوف على ستة وتسعين كونتو، وفادينيو على اثنيْ عشر، ناهيك عن الكونتو والثلاثمائة في جيب ميراندون.

وحدث في تلك الليلة الرائعة أن الزنجي آريغوف، المعروف بأناقته البريطانية وتصرفاته كغراندوق[1]، أوصى ودفع مقدماً ثمن قماش وتفصيل لست بذلات من الكتان الإنكليزي الأبيض. كان مديناً منذ زمن بعيد بستين ألف ريس لآريستيديس وهو خياط مجنون بموائد الروليت وحذر جداً في اللعب. ولم تتح له المسكنة أكثر من مرحلة أو مرحلتين من اللعب في الليلة، وهي مراحل متواضعة، وكان يدور على الموائد مترنحاً مع رهانات الآخرين، مقترحاً تخمينات، متضرعاً في تعليقات حيال الحظ والنحس.

كان الخياط يصلّي منذ وقت طويل من أعماق روحه للحصول على البقية الباقية من حسابه. وأمام المنظر الاستعراضي للزبون المتطلّب النصّاب، فقد هدوءه وأخلاقيته، ونبش الدين القديم وقام بالتحصيل هناك بالذات، على مرأى من رفاقه في اللعب والبغايا. إهانة! ولم ينفعل الزنجي.

ـ ستون ألف ريس؟ عن تلك الملابس... قل لي، أيها الولد، كم تتقاضى اليوم لبذلة من الكتان الأبيض؟

ـ كتان عادي؟

ـ إنكليزي، س ١٢٠، قشرة البيضة. من أفضل ما هو موجود في السوق.

---

(١) الدوق الكبير.

ـ حوالى الثلاثمائة ألف ريس...

دس آريغوف يده في جيبه، مخرجاً مبالغ من فئة الخمسمائة:

ـ حسناً إليك كونتوان... أعدّ لي ست بذلات جديدة. أحسم ستين ألف ريس خاصتك وابق البقية لك إكرامية لتكبّدك مشقة المجيء لتحصيل حساب من زبون على طاولة القمار...

قذف المال في وجه الخياط، ثم أدار له ظهره، فيما راح هذا الأخير يجمع، مخبولاً، أوراق النقد من على الأرض، بين نظرات استهزاء النسوة به.

كان نبيلاً آريغوف هذا، في ملابسه وفي سلوكه، وكنبيل طيّب ما كان يفعل شيئاً آخر في الحياة غير القمار؛ فقير مثل جو، الملوّن المعلّم في المبارزة بالسكاكين، منع من دخول فندق بالاس بعد حادثة معينة وارتكاب ذنب لا يغتفَر، حين ضحك أحد المدللين اللطفاء وهو صاحب نزعة عنصرية، عند رؤيته الزنجي آريغوف وقد لبس ملابسه البيضاء، فقال لحلقته: «انظروا إلى هذا القرد الهارب من السيرك». تحوّلت القاعة إلى أشلاء وما زال المختال الوقح إلى اليوم يحمل زهرة متفتحة على وجهه من أثر السكين.

كان نجاح الصديقين في القمار الدافع إلى الاحتفال بمأدبة عشاء ترأسها شيمبو المعروف. وتألفت المائدة من ميراندون وروباتو وآناكريون وبيه ده جيغي، والمهندس المعماريّ لينغو ده براتا والصحافيين كورفيلو وجوان باتيستا إضافة إلى خريج كلية الحقوق تيبورسيو باريروس، وطبعاً المضيفين وباقة محترمة من الجانحات، أو لنقل من الفنانات إرضاءً للشقيقات كاتوندا، أمور من فن وانتقاء المجتمع اللامع المجتمع في شقة البدينة كارلا. هؤلاء الشقيقات كاتوندا، «فنانات متعددات المواهب». وحسب ما كتب في الـ «امبارسيال» الصحافي الرديء باتيستا، كن ثلاث مفجرات للقذائف، من أمّ واحدة. جاسنتا أبانيا ـ باغو وآباء مختلفين. كبراهن تكاد تكون زنجية وصغراهن بيضاء تقريباً، والوسطى خلاسية صغيرة بارعة الجمال والأمر المشترك بينهن هو الجدّة الواحدة وانعدام التوافق. ضعيفات أمام الإكراميّة، لكن رائعات في الفراش، حيث تبرز بالذات مواهبهن

المتعدّدة الخصائص، حسب تعبير جران باتيستا ذاته، فقد راح ينفق بعض نُحاسات راتبه في الجريدة على الشقيقات الجسورات، متعرفاً على الثلاثيّ: واحدةً فواحدةً. وما زال محتاراً أيهن صاحبة أكبر خبرة وأكثر موهبة من اختيْها. أما الوسطى زيلدا، فقد كانت ضعيفة أمام فادينيو.

أراد ليف لينغوا ده براتا والمحامي أن يُحضرا «THE HONOLULU'S SISTERS» [1] لتضيفا المزيد من التألق على المأدبة، لكن بلا نتيجة. فهاتان الشقيقتان ما كانتا أختين فعلاً، لا من جهة الأم ولا من جهة الأب، بل ليستا كذلك من هونولولو: كانتـا، زنجيتين أميركيتين شماليتين، سوداوتين لكنهما تتمتّعان بجسميْن لدنيْن جميليْن. وهما الغزال المش جو الرقيق، والنمر الأرقط مو ذات العضلات. المشترك بينهما علاوةً على رفضهما الذهاب إلى السرير مع أيّ كان هو جمال الصوت وغرابة التصرف فلا تقبلان دعوات للنزهات أو للعشاء أو السيريناتا، أو الاستحمام في البحر في إيتابووا ولا في ضوء القمر في لاغووا دو آبايتيه، حتى لم تقبلا مجالسة الزبائن ولو كان المصرفي فيرناندو غوز وهو عازب طويل وجميل أنيق، وافر المال، والنساء يرتمين تحت قدميه. حتى هو عجز عن الحصول عليهما، ومع ذلك ما فتىء يأتي إلى بالاس ليراهما ويفتح لهما الشامبانيا الفرنسية. وكانت جو ومو تغنيان أغاني روحية مع موسيقى الجاز، ترقصان، بأثداء وأرداف عارية. لكنهما ظلّتا معاً منعزلتيْن، تدخلان شبه متسلّلتيْن إلى المكان وتجلسان إلى مائدة رصينة في أحد الأركان، وهما تشربان من نفس الكأس. وبعد أن تقدما عرضهما تصعدان إلى حجرتهما، دون أن تتكلّما مع أحد.

كانت مأدبة العشاء عظيمة مع النبيذ والشامبانيا والشقيقات كاتوندا في أقصى عطائهن الفني. عمّ الانبساط والانشراح باستثناء الخريج الشاب باريروس الذي ظلّ منزعجاً من رفض الأميركيتين، «المسترجلتيْن بل المنحطتيْـن»، يحتسي الخمـرة بغضـب، غير مبـال بالبدينة كارلا التي راحت تقدم له العزاء والشعر. وعندما حان دفع الحساب كاد آريغوف أن يتشاجر مع فادينيو وأبى أن يعطيه الحق بالإسهام، ولو بقسط رمزي في دفع قيمة الفاتورة. وأعلن الزنجي يركبه الشيطان أن أيّ اقتراح بمساهمة مالية هو إهانة خطيرة لشرفه.

---

(١) في الإنكليزية: «الشقيقتان من هونولولو».

جاء عيد ميلاد الدونا فلور في أسبوع الفخفخة والثروة، ففادينيو محشوّ جيداً بالمال. حتى أنه عرض عليها دفع مبالغ معينة مساهمة في نفقات البيت، ووفى بوعده، وهو حدث سعيد نادر. وألحّت الدونا نورما بوقاحة في أن تعرف:

ـ ماذا ستقدم لامرأتك؟

ابتسم فادينيو للجارة، مبادلاً وقاحتها بمثلها:

ـ ما الذي سأعطيه لفلور؟ حسناً سأعطيها ما تطلبه مني، مهما يكن... كل ما تريده...

مضت الدونا نورما لتأتي بالمحتفلة بعيد ميلادها: «يا ابنتي[1]، انتقي ما تشائين». فجاءت الدونا فلور من المطبخ ماسحة يديها بالمئزر:

ـ حقيقةً يا فادينيو أنك ستعطيني ما أريده؟ تسخر مني؟

ـ بوسعكِ أن تقولي...

ـ ألن تخلف بوعدك؟ هل أستطيع أن أطلب؟

ـ تعرفين أني أفي بوعدي يا حبيبتي...

ـ حسناً، الهدية التي أريدها هي الذهاب إلى بالاس لتناول العشاء معك فيه.

قالت ذلك وهي ترتعد، فلم يقبل يوماً أن تختلط بعالمه ذاك، ومن بين كل رفاقه في القمار كانت لها علاقة صداقة بميراندون وحده، إشبينها، الوحيد الذي كان يتردد على بيتها مراراً. والبعض كانت تعرفهم بالرواية من بعيد مرةً بعد مرة، أما من تبقى فكانت تسمع بأسمائهم وبأخبارهم غير السارة. حتى آناكريون، الذي يقدّره فادينيو جداً، لم يأتِ إلا خمس أو ست مرات في تلك السنوات السبع؛ أمّا آريغوف فلم يأتِ إلا ليغنم غداء يوم الأحد. كان عالم الدونا فلور هو الحي وتلميذاتها الحاليّات والسابقات امتداداً إلى ريو فيرميليو، إلى لاديرا دو آلفو، إلى بروتاس؛ كانت علاقاتها مع الناس الطيبين ولا يفترض

---

(١) تقال للتدليل وقد يكون القائل أصغر من المخاطب سناً.

أن ترى حياة زوجها الشاذة. فلا يقبل هذا بوجود الدونا فلور في مناطق القمار المريبة تلك، في الأمكنة الخاصة بالروليت والزهر، فالزوجة هي للبيت، فأي شيطان يحملها إلى أوساط من هذا النّوع؟

ولم يُفدها الاحتجاج بأنّ فندق بالاس هو مركز أنيق، ملتقى للمجتمع الراقي حيث يتناولون العشاء في قاعته الفخمة، ويرقصون على إيقاع أفضل أوركسترا في الولاية، ويشاهدون عرض نجوم الإذاعة والمسرح المستوردين من الريو وسان باولو، كان برنامجه برنامجاً حافلاً. وترى فيه سيدات أحياء غراسا وبارّا يعرضن آخر صيحات الموضة بل يتطوّر بعضهن في وقاحة التصرف إلى المخاطرة بالفيشات في الروليت. كانت قاعة القمار تكملةً لقاعة الرقص ممراً فسيحاً ذا سقف مقنطر ينشيء لا وجوداً للحدود المدمرة.

لماذا الرفض العنيد؟ لماذا يا فادينيو؟ تمضي الدونا فلور في توسلها ملحّة، متطورة من التّضرع إلى الاتهام:

ـ إنك لا تأخذني لكي لا أكتشف عشيقاتك...

ـ لا أريد أن أراكِ في هذه الأمكنة...

ألم تذهب الدونا نورما إلى بالاس مراراً، مع السيد سامبايو، طلباً للهو والتسلية؟ والعائلة الأرجنتينية صاحبة معمل السيراميك، هذه لا تتخلّف سبتاً واحداً عن الذهاب، بالرغم من عداء بيرنابو لأيّ نوع من أنواع القمار. كانوا يذهبون فيأكلون ويرقصون ويصفقون للفنانين. لكن فادينيو لم يقتنع، بل تهرّب بوعدٍ مبهم واضعاً حداً للنّقاش:

ـ لن نعدم مناسبة للذهاب...

والآن، ها هي أخيراً المناسبة المرفوضة. لم تصدّق الدونا فلور أذنيْها عندما وافق وقد فوجيء حتى لا يجد مهرباً، رغم معارضته الضمنية:

ـ إذا كان هذا ما ترغبينه فليكن... إن لم يحدث اليوم، يحدث غداً...

وبعد أن اتخذ القرار بدأ يوسع دائرة مشروعه داعياً الخالة والعم والدونا نورما ـ وعبرها

زيه سامبايو ـ والدونا جيزا . شكرته الدونا ليتا رافضة ، ليس لأنها لا تريد ، لكن من أين الثياب المناسبة للسهرة، وأدوات الزينة ، على مستوى بالاس ؟ كما رفضت الدونا نورما ، رغم أن الرغبة في الذهاب كان تقتلها ، فليلة في بالاس كانت غاياتها لكن... موقف السيد سامبايو كان صلباً : نِعْمَ الجارة هي الدونا فلور التي يقدّرها ويحسّ بالتعاطف مع فادينيو نفسه . شكراً للدعوة ، لكنّه لا يستطيع القبول . فهو يخلد إلى النّوم خلال الأسبوع ، عند التاسعة ليلاً لينهض الساعة السادسة صباحاً للعمل في محله المخصص لبيع الأحذية . لو كانت الحفلة المسائية يوم السبت أو عشية الأحد ، لكان قد وافق بكل سرور . أما ذهاب الدونا نورما إلى بالاس من دون أن يرافقها كما اقترحت الدونا فلور ، فاسمحوا لي أن أقول إنه مستحيل ، لا مجال للتفكير فيه . فالتَردد إلى مثل تلك الأوساط حيث القمار والمشروبات ، حيث يختلط الحابل بالنّابل والفاضل بالسيء والمجنون بالفاسق الذين ليس لديهم معتوهون ومتحللون من دون نواة من أدنى ذرة احترام للعائلات .

ففي إحدى المرّات القليلة التي وجد نفسه فيها هناك بعد أن جرّته الدونا نورما ، رغبةً منها في سماع مغن فرنسي (لم يشاهد السيد سامبايو هجيناً مخنثاً مثله ، والغريب أنّ النساء كنّ يعشقنه) ، وحصل حادث مزعج . فمجرّد أن ترك السيد سامبايو المائدة هنيهةً مضطراً للذهاب إلى المبولة ، ظهر على التوّ من تجرّأ وحاول مغازلة الدونا نورما بدعوتها إلى حلبة الرقص ، وهو يطري زينتها والهالتين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد حول عينيها ، كما لو كانت أي امرأة تافهة . كاد السيد سامبايو أن يضرب السّافل لولا أنّه كان يعرف عائلته ، فامه الدونا بيلينيا ، وشقيقتاه لهما مكانة رفيعة ، وجميعهنّ زبونات ممتازات لمحله ، كما أن الشرير نفسه معتاد على القمار والبوهيمية وهو زيكيتو ميرابو ، المعروف بين البغايا « الجميل ميرابو » .

هكذا اقتصرت الرّفقة على البروفسورة جيزا ، التي أسعدتها الدعوة لأنها تتيح لها فرصة الاستماع إلى «THE HONOLULU'S SISTERS» كما تمنحها فرصة الاستكشاف بعينها السوسيولوجية [1] والتحليل النفسي [2] للعالم الغامض : عالم الإدمان على القمار ، فتنشىء له علم

(١) SOCIOLOGIA : علم الاجتماع .

(٢) PSICANALISE : نهج خاص في العلاج ابتكره سيغموند فرويد لشفاء الاضطرابات العصبية ، استغلال ما تحت الوعي (اللاشعور) وعن طريق التحليل النفسي لسلوك الشخص .

ماوراء الطبيعة القطعي.

أمضت الدونا فلور ما تبقّى من نهارها منهمكة بتقرير أي فستان ستلبس، واختيار القفازين والقبعة والحذاء والحقيبة في تلك الليلة، في قاعات بالاس بمساعدة الدونا نورما والدونا جيزا. يجب أن تكون أجمل النساء طرّاً وأكثرهنّ أناقة، فلا تضاهيها أي امرأة أخرى ولو كانت نبيلة من أشراف غراسا ترفل بثياب من الريو، حتى ولا عشيقة مصرفي أو صاحب مزرعة من مزارع الكاكاو تستورد زينتها من باريس. تلك الليلة ستجتاز، أخيراً، الباب المحرَّم.

٣٢

حينما اجتازت الدونا فلور، وهي مرتعدة ومتأبطة ذراع فادينيو، باب قاعة فندق بالاس شاءت الصدف أن تعزف الأوركسترا التانغو القديم الذي لا يشيخ أبداً، والذي رقصا على أنغامه في لقائهما الأول في بيت المقدم تيريريكا، وجوانزينيو نافارو يعزف على البيان، أثناء الحفلات في ريو فيرميليو خلال أسبوع موكب يامانجا[1] الديني. أحسّت أن قلبها يشتدّ نبضه، فابتسمت لزوجها:

ـ هل تذكر؟

أمامهم كانت القاعة في عتمة تكاد تكون تامة لولا بعض الأضواء المموّهة بغطاء من الورق الملوّن حول كلّ مصباح، منتهى الذوق السيء؛ لكن الدونا فلور وجدت كل شيء جميلاً، شبه عتمة، الموائد مزدانة بزهور من ورق الكريب المقوىّ وأغطية على المصابيح، يا للجمال! يا الهي! تطلّع فادينيو حوله فلم يجد أي ذكرى، كان كل شيء بالنسبة إليه مألوفاً حمياً، وليس هناك ما يمكن أن تشير إليه الدونا فلور.

ـ عمّ تتحدّثين يا حبيبتي؟

ـ عن اللحن الذي يعزفونه. إنه نفس اللحن الذي رقصنا على أنغامه يوم تعارفنا..

ابتسم فادينيو: «هو بالضبط...» وشغلوا المائدة المحجوزة لهم، مائدة قرب حلبة

---

(١) YAMANJA: إلهة المياه في الميثولوجيا الأفريقية الهندية البرازيلية.

الرقص أمام الممر المشترك بين القاعتين، قاعة الرقص وقاعة القمار. كان بوسع الدونا فلور والدونا جيزا، وهما تجلسان هنالك، استحسان الحركة كلها، كيف يتحرّك الراقصون، اهتياجات المقامرين. وتفحص فادينيو، وهو لا يزال واقفاً، الحلبة التي لم يحتلّها إلا زوجان من الراقصين كفوءان في رقص التانغو لدرجة أن أحداً لم يتجرأ على منافستهم. كانت المرأتان هما اثنتين من الأخوات كاتوندا.

الكبرى الزنجية كانت ترقص مع شخص فارع الطول ورمانطيقيّ، ملابسه حسب آخر صيحات الموضة وكأنه نجم سينما من أميركا الجنوبية، منظره منظر قوّاد [1]. وعلم فادينيو في ما بعد، حين قُدّم إليه، أنه أتى من سان باولو في نزهة إلى باهيّا، ويدعى باروس مارتينس، وهو ناشر كتب محترم، وكما هو واضح فنحن نتعامل مع ناشر ثري جداً. إنه متحدٍ في التانغو بأساليب وكفاءة مهنية، وكما قال، يتعاطى مع الآداب في تنفيذ متقن لخطواته المجتهدة.

الصغرى البيضاء كانت بين ذراعيْ زيكيتو ميرابو، «ميرابو الجميل» نفسه، صاحب البغايا والإشكال مع السيد زيه سامبايو. عيناه تنظران إلى أعلى، يعضّ على شفته، وبين الفينة والأخرى يرفع يداً متوترة إلى شعره المتطاير. ولم يكن هذا الباهيّاني الذي راح يثني رقصة التانغو في تمهّل شديد، يلقي بالاً إلى السانباولي الذي يتحرك بمهارة وحذاقة، كان تانغو غريباً.

لاحظ فادينيو المشهد وهو يبتسم، فمدّ يده إلى الدونا فلور مقترحاً وهو يساعدها على النهوض:

- تعالي يا حبيبتي لنفضح أخطاء هؤلاء التافهين، هيّا نعلمهم كيف يرْقصون التانغو؟

- ترى! أما زلت أحسن رقصه؟ مضى وقت طويل لم أرقص فيه، لقد تصلّبت مفاصلي..

كانت قد رقصت آخر مرة قبل ما يزيد عن الستة شهور حينما حصلت المعجزة ورافقها

---

(١) GIGOLO: الفتى الذي يعتاش على حساب النساء.

فادينيو إلى بيت الدونا ايمينا، عيد ميلاد على سبيل المزاح. كان ممتازاً في رقصة الفالس كما رقصت هي بشكل حسن؛ كانت تحبُّ الرقص. ومّما كان يزعجها هو أنهما لم يعودا يرقصان معاً أبداً تقريباً، فنادراً ما يصحبها إلى حفلات صغيرة في بيوت الأصدقاء. وعندما تذهب من غير صحبة زوجها تمضي وقتها في تبادل القال والقيل بين الأحاديث وموائد الحلوى، وما كانت تخطر في رأسها حتى فكرة الرقص مع فارس آخر، فهذا ما لا تستطيع فعله المرأة المتزوجة إلا بموافقة صريحة من زوجها وفي حضوره. أما فادينيو، فقد كان يعيش حياته بالطول والعرض، ولا من يراقبه، في هذا العالم خارجاً، في الكاباريهات والمراقص، في بالاس والتاباريس، في فلوزو، مع العاهرات والساقطات...

وقدّما عرضاً حقيقياً في بيت جيرانهم في السامبا والفوكس، في الرانشيرا والمارشا. حاول الدكتور ليف والدونا إيمينا أن يصاحباهما في الرقص ـ كل الناس لديهم ادّعاء ومياه مباركة ـ وسرعان ما صرفا النظر عن ذلك. صحيح أنهما كانا ينقلان أقدامهما بشكل صحيح، لكن لا مجال أبداً لمنافستهما، الدونا فلور وفادينيو.

بيد أنّ الرقص في حفلة عيد ميلاد صغيرة شيء، والخروج إلى قاعة بالاس في شدائد تانغو غير مهذب شيء آخر. وذلك الآن! بدأ كل شيء منذ سبع سنوات، حينما انتزعها ليرقصا نفس هذا التانغو في بيت المقدم بيرجينتينو. كانت آنذاك تحسن رقصه طويلاً ثم ها هي الآن، في هذه الليلة شبه السحرية حين أتت إلى بالاس للمرة الأولى! لـم يخطر في بالها أنها المرة الأولى والأخيرة، وأولى لا ثانية بعدها، ليلة لن تعود.

الآن فقط، في وحشة الذكرى والرغبة تنتبه إلى أهمية كل تفصيل، من أجل حميمية أكثر من هذه الليلة الخارقة؛ منذ دِخولها قاعة الرقص حتى اللحظة الأخيرة من المتعة، من التحلل الوقح في السرير الحديدي، معه تدفع له من جذر جسدها، ثمن هدية عيد الميلاد، الذهاب إلى بالاس.

حركتان قام بهما فادينيو كلاهما بالتساوي رقيقتان لكن متسلطتان، حددا للدونا فلور بداية تلك الليلة المباركة ونهايتها. الأولى عندما دعاها للتانغو، فمدّ لها يده مبتسماً وهكذا قادها إلى حلبة الرقص. والأخرى في السرير في فقدان الذات والعاصفة؛ لقد قلبها من

كتفيها... لم تتذكره. هذا التصرف المرعب، حينما بلغ هو إلى لحظته الحقة، في هذه المسير مع فادينيو في أثناء عيد ميلادها. تمضي المسيرة في الذاكرة بتمهل، خطوة خطوة، تفصيلاً إثر تفصيل، تتوقف عند المحطات، ترسو عند كل مرفأ من مرافىء الفرح والخوف أو التهتك.

في حلبة الرقص كانت ذراع فادينيو تطوقها فتحسّ بجسده خفيفاً في إيقاع الموسيقى. فتستحضر عندها تلك الفتاة الصغيرة تمضي عطلاتها في ريو فيرميليو، تركن إلى الصمت بلا حبيب، وجلةً في لوحات رسام من ولاية سيرجيبي وتقطف الزهور من حديقة الخالة ليتا. ثم إذا بها تتفتح على حين غرة في ليالي الكرمس حينما أضرمت يد فادينيو النار في نهديها وأعلى فخذيها وحرقها فمه إلى الأبد.

مضيا يرقصان في قاعة بالاس هما الإثنان في تانغو زاخر بالعذوبة والشهوانية، فتىً وفتاة بريئين غارقين في الحبّ وعاشقين شبقيْن للغاية. كأنها عادت إلى سحر منزل المقدم، إلى تأثير اللقاء الأول، النظرة الأولى، ضحكة البداية، الارتياب؛ وها هما عاشقان ناضجان بعد سبع سنوات، وقت طويل من الحبّ والمعاناة. كانت فتاة عذراء من سلالة طيبة هي الدونا فلور، فتاة ودودة، أما بين يدي فادينيو زوجها فأضحت امرأة متفتحة وأنثى ملتهبة، كانت رقصة تانغو لم يسبق لها مثيل، بعذوبتها الشفافة وأحاسيسها الغامضة. وتجمهر الناس ليستمتعوا بمشاهدتها، حتى من قاعة اللّعب.

السانباولي صاحب الكتب، مع كامل خبراته في كاباريهات سان باولو والريو، وبوينوس آيرس، وزيكيتو ميرابو مع كل ثقته بنفسه انهزما وتخليا عن الحلبة كلها لتخلو للدونا فلور وفادينيو في ليلة غرامها.

وتساءل الحاضرون: «من هذه السيدة التي مع فادينيو؟». البعض كان يعلم هويتها. وسرعان ما انتشرت المعلومة بسرعة: «إنها زوجته، تأتي إلى هنا لأول مرة...» وأظهرت ألطف الشقيقات كاتوندا قلة اهتمام، لكن الغيرة كانت تعضّ غوارِبها.

بعد التانغو عادا إلى طاولتها. وكان فادينيو قد طلب عشاء ومشروبات وراح يجيب عن أسئلة الدونا جيزا، ويزوّدها بمعلومات حول الأشياء والأشخاص. لكن، الفضول ظلّ

محيطاً بالدونا فلور. كانت تطير في الهواء كما لو أن هناك هالةً من النظرات الخفية والهمسات تحيط بها، كما لو كانت أسمى من جوّ القاعة، مخلوقة على نمط سيدات النخبة الاجتماعية، بارونات حيّ غراسا، متعجرفات حيّ دا بارّا، أغلى أنواع البغايا الباهظات الثمن والوظيفة الأقل وضوحاً.

أحسّت الدونا فلور بشيء من الدّوار البعيد وهي تجلس هناك في القاعة. دائخة قليلاً لكونها تشعر بالرضا رغم خوفها غير متأكدة من مغزى هذه النظرات الخاطفة وتلك الحركات الفظة: أمتعاطفة هذه الابتسامات معها أم ساخرة؟ وبالكاد كانت تسمع معلومات فادينيو:

ـ لقد تجاوز السبعين سنة... لا يلْعَب إلا الباكارا ولا يُرَاهَن إلا بفيشات بخمسة كونتوات. وفي ليلة خسر أكثر من مائتين... ومرة أتى أولاده ليأخذوه بالقوّة: سافلان وبغيّ يصحبها زوجها، كم أساؤا إلى البائس! وأسوأ الجميع كانت الإبنة، كوبرا سامّة راحت تحضّ شقيقيها وزوجها صاحب القرنين... وقد أقاموا دعوى حجر على العجوز مدعين أنه مجنون لا يعقل، غير جدير بأن يدير أمواله...

مدّت الدونا جيزا عنقها لتتلصص بشكل أفضل على العجوز صاحب الشعر الأبيض الناعم، كان بالكاد جلداً على عظم، لكنه يثبّت ساقيه بعصا يستند إليها، ووجهه مشدود وفي العينين ما زال يلمع بريق أخير نَهِم وكأنّ الإلهام في القمار وحده الذي يُبقيه حياً.

«وفي النهاية من ذا الذي عمل وكدّ وكسب المال الوفير، أليس هو؟» يسأل فادينيو، في ثورةٍ على أسرة الهرِم ـ «ماذا يفعل أبناؤه غير إنفاق المال؟ إنّهم حفنة من المستمتعين برغد العيش، لم ينفعوا في أي مجال. والآن يريدون أن يمنحوا أباهم بالذات شهادة جنون، ويحبسوه مغلقين عليه باب البيت أو باب مصح الأمراض العقلية... لو كان الأمر لي لوضعتهم جميعاً في السجن هؤلاء الأوغاد، وأوّلهم ابنته البقرة، ولأمرت بطعنهم بالسكاكين...

عارضته الدونا جيزا، فهناك إشكالات جدّيّة في مسألة المال هذه. وفي رأيها أن العجوز ليس حراً في تبديد ثروته في القمار، فلأسرته حقوق شرعية...

وانقطع درس الاقتصاد السياسي الذي تقدّمه الدونا جيزا، لأن السانباولي أصرّ على القدوم إلى طاولتهم لتحية فادينيو والدونا فلور.

راح زيكيتو ميرابو يقدّمه: «فادينيو، صديقي هنا يريد التعرف عليك، فقد سمع عنك الكثير، وشاهدك ترقص... إنه شخص نافذ من سان باولو...» والتفت إلى الغريب: «هذا فادينيو، أعرّفك عليه، إنّه» كان حضور الدونا فلور يعقد لسانه «... حسناً، إنه صديق عزيز...»

وقدّم فادينيو بصوته المهيب تقريباً، السيدتين:

ـ صديقة زوجتي وصديقتي الدونا جيزا، أميركية، بئر معرفة...

مدّت الدونا فلور أطراف أصابعها، فجأة كأنها مجرد فلاّحة. فانحنى السانباولي وقبّل يدها:

ـ جوزيه ده باروس مارتينس، خادمكِ، تهانيّ، يا سيدتي، نادرا ما رأيت رقصة تانغو تتم بهذه الجُودة... تقبّلي إعجابي!

ثم قبّل يد الدونا جيزا، وحدث أن بدأت الأوركسترا تعزف سامبا مشهورة، فسألها:

ـ أترقصين السامبا؟ أم أنك كأميركية تفضلين انتظار الـBLUE...؟

أفقد فادينيو السانباولي كل الرقة التي يتمتع بها:

ـ أي هذا... إن هذه الغرينغا تتلوى بشكل رائع...

«فادينيو، ما هذا؟ انتبه!». وبختّه الدونا فلور وهي تبتسم.

لم تكترث الدونا جيزا، وبدلاً من أن تغضب تأبّطت ذراع الصناعي، وأجابت على كلمات فادينيو المزعجة بهزة لامبالاة من ردفيها الهزيلين. في هذا الوقت علت سحابةٌ وجه فادينيو، وسرعان ما اكتشفت الدونا فلور السبب، فإحدى الخلاسيات الثلاث الجالسات إلى مائدة زيكيتو ميرابو وكانت جميلة جديرة بأن تشتهى، اقتربت وراحت تدور وتحور على

مقربة منهم. كانت تقيس الدونا فلور من رأسها إلى قدميها كما لو كانت تتحدّاها بينما تسأل ميرابو بصوت عذب اللسان وكأنها تطرح نفسها بتصرف الآخرين:

ـ كم هي جميلة هذه السامبا التي يعزفونها من أجلنا؟ إني منتظرة، تعال حالاً...

ألقت نظرة لامبالية على الدونا فلور، ونظرة غضب على فادينيو ثم ابتسمت لزيكيتو ابتسامة ملائكية مليئة بالإغواء:

ـ هيّا، يا زنجيّ[1] الصغير...

تجنبت الدونا فلور أن يلتقي نظرها بنظر فادينيو. وران صمتٌ مزعجٌ يفصلهما عن بعضهما البعض. التفتت نحو حلبة الرقص، وعيناها ضيّقتان فيما راح هو يحدّق في قاعة القمار. ويسائل نفسه: «لم أرادت المجيء؟ لقد عارض ذلك دائماً بسبب أمثال هؤلاء. والآن، ها هي حفلة عيد الميلاد التي بدلاً من أن تفرحها تجعل المسكينة تعض على شفتيها كيلا تبكي. ستدفع زيلدا الحمارة، تدفع له غالياً! قرّب فادينيو مقعده وتناول يد الدونا فلور ووشوشها برقة أحسّت بمدى صدقها:

ـ يا حبيبتي، لا تبقي هكذا. أنتِ التي طلبت المجيء، فليس هذا مكانكِ، يا حيواني الأحق. هل تراك تهتمين الآن لهؤلاء الساقطات هنا، وتلقين إليهنّ بالاً؟ لقد جئت لتمرحي معي، فلتحسبي أنه ليس هنا سوانا نحن الاثنان، لا أحد غيرنا. دعكِ من هذه التفاهات، فليس لديّ علاقة بها...

تركت الدونا فلور نفسها تُخْدَع بسهولة، فقد أرادت أن تقتنع، تدحرجت دموعها وسألت بصوت مُنتحب:

ـ أحقاً ليس هناك علاقة بينكما؟

ـ هي التي تركض ورائي، ألا ترين؟ دعكِ من ذلك يا حبيبتي، فهذه الليلة هي لنا نحن

---

(١) كلمة تقال للتدليل فقط.

الاثنان، ولسوف ترين حين نصل إلى البيت... لن أقامر اليوم، بل سأبقى قربكِ وحدك.

كانت الخلاسيّة الصغيرة تتمايل مع اللحن ملتصقة بميرابو الجميل، الذي راح في لحظة انفعاله يعض على شفته، وعيناه تنظران إلى السقف. فطلبت الدونا فلور:

- «هيا لنرقص مرة أخرى».

رقصا السامبا، وبعدها الباسو دوبلي. ثم طلبت التعرّف على قاعة القمار فقادها فادينيو، وهو على أتمّ استعداد لإرضاء كل نزواتها. وهرعت الدونا جيزا وراءها تريد أن تعرف كل شيء، فهي، وحق الجحيم، لم تشاهد زهراً في حياتها ولا تعرف حتى أهمية كل ورقة من أوراق اللعب!

طالما عاشت الدونا فلور بعيدة عن هذا الجو لا تسمع عنه شيئاً وكأنها منعزلة عنه قسراً في معبد سرّي، كأنّها تعيش في «حرَملك» مفروض عليها لأنها غير مهيئة لذلك الجوّ. وها هي استطاعت أخيراً الوصول متسللة إلى الأرض الغامضة حيث كان فادينيو مليونيراً ومتسولاً، ملكاً وعبداً في آنٍ معاً. لكنها تعلم حقّ العلم أنها لم تصل الليلة إلا إلى قسم من هذه الأرض، إلى حافة هذا البحر الرصّاصي. فهناك يبدأ زمن الحلم والانفعال؛ فقاعات بالاس كانت ثرية وهي المركز المضيء لهذا العالم، هذه الطائفة الدينية، هذه السلالة. ويمتد هذا العالم إلى أبعد من بالاس، إلى دروب ليل المدينة، إلى تلك المنطقة المليئة بالصَّخب والأحزان بالفيشات والنساء، بالكحول والمخدرات (الكوكايين، المورفين، الهيرويين، الديامبا [1] كانت الدونا فلور تقشعرّ من مجرد ذكر الأسماء) ليتّصل بالكاباريهات، ببيوت القمار، بشقق العازبين، ببيوت الدعارة، بالأوكار غير الشرعية، بأقذر الأمكنة، بالحانات، بأوكار مدمني الماكونيا المظلمة. من أجل هذه الأزقة كان فادينيو يتحرك غير مقموع، وها هي الدونا فلور أمام مائدة الروليت لا تلمس إلا هامش هذا العالم المحرَّم.

وإضافة إلى بالاس، بمرتبته «العائلية بصرامة» كما تقول الإعلانات، بأضوائه وعتمته

---

(١) DIAMBA: مادة مخدرة، في الأصل نبته وريقاتها التي تشبه الأفيون يستخرج منها المخدر.

ـ حيث غطاء ورق مقوى حَوْل كل المصابيح على الموائد ـ بريق البلوّر ، الأوركسترا من الدرجة الأولى ، سيدات المجتمع الراقي ، الجانحات المترفات ، السراري والمحظيات المتشرّدات وعقداء الكاكاو وعقداء قطعان الماشية وعقداء السكر ، أثرياء المدينة ، البوهيميون الشبان والمحتالون ، إضافة إلى بالاس ، في تقاطعات الليل البائس ووداع المظهر الخادع ، ينبسط غموض فادينيو ، حقيقته النّهائيّة .

في تبدّل سريع تحقّقت الدونا فلور من مساحة هذه الأرض المجنونة ، محيط دموعها ، وديان انتظارها القاسي وجباله ، المعاناة في حبها . في حين كانت الدونا جيزا بخلافها مفتونة بوجوه المقامرين ، بحركاتهم . فأحدهم يتكلم مع نفسه ، ثائراً عليها بالذات . ولو تركوا لها الاختيار لما قفلت عائدة . لكن النّادل ، في تقدير منه لفادينيو ، لسعده في اللعب ، قدم ليعلن له أن العشاء سيُقدم وحانت ساعة بدء العروض المثيرة .

عادوا إلى قاعة الرقص حيث التقوا بميراندون الذي وصل لتوّه . ما هذه المعجزة! عرّابته في بالاس؟ هل جاءت لتفجير منصّة القمار؟ آه! عيد ميلادها! أيا ربي ، رب السموات ، كيف نَسِي ذلك؟ سيرسل لها في اليوم التالي مع زوجته وابنه ، ابنها بالعمادة ، الهدية . قالت الدونا فلور : « يكفي قدوم إشبينتي والولد » كيلا تلزمه بالتعهد ولأنها قد تلقّت هديتها في ذلك العيد ، ولا تريد أكثر منها . ها هي ذا مع فادينيو ، ولا تريد شيئاً آخر .

الطعام لم يكن طعاماً : ما هذه الأشياء فالأرز بلا ملح ، واللحم بلا نكهة ، لكن كم كان فادينيو مهذباً وهو يقدّمه إليها ، يضع في فمها أفضل قطع فرّوجه ولم تعد الدونا فلور تحسّ بالخوف ولا الخجل .

أُطفئت الأضواء كلّها لتضاء من جديد . عندما أعلن مدير الكاباريه في الفندق جوليو مورينو بدء العروض وهي : أولاً الشقيقات كاتوندا ، أصواتهنّ تثير الحسرة ، لكنّهن أجَدْن عرض الأثداء وهزّ الأرداف :

« سأرقص الليلة بطولها

رانشيرا . . .

رانشيرا . . . »

المتعجرفة المذكورة آنفاً كانت أشدّهنّ دلالاً لم يكن بوسع الدونا فلور إلا أن تعترف بذلك. لكن فادينيو لم يلتفت للخلاسيات، بل انهمك بتذوّق الحلوى بعد الطعام. والآن كانت الدونا فلور هي التي نظرت إلى المتعجرفة بازدراء؛ ثم أمسكت بيد زوجها، وباتا يتحدثان ويبتسمان، فيما الشقيقات اللطيفات يتلوّين في لعبة الأضواء، تتلوّن أثداؤهن باللون الأزرق وأردافهنّ بالأحمر.

ثم جاءت «الأختان من هونولولو» تغنيان أغنية قوية وحزينة فيها أنين الزنوج المقيّدين، فيها صلاة العبيد وألم بشر أذلاء وتمرّدهم. كان الجنس حزيناً، والجسدان جميلين جداً هذا ما فكرت به الدونا فلور. الخلاسيات كاتوندا الصغيرات، ناشزات ووضيعات، يبدين شواطاً لطعام يطهى، زقزقة عصفور، شعاع من شمس، أجساد من النضارة والعافية بالمقارنة مع جو ومو بتحسّرهما بلا أمل. الشقيقات كاتوندا كن يرقصن في طقوس لعبدة آلهة الأوريشا[1]، ولآلهة الزنوج المرحة والحميمة، القادمة من أفريقيا وفي باهيّا كل مرة تغدو أكثر حيوية. الزنجيتان الأميركيتان كانتا تتوجهان بتضرعهما إلى آلهة الأسياد البيض القساة البعيدين المتسلطين على العبيد وصفعات سياطهم تحزّ جلودهم. البعض منهن كن ضحكاً طليقاً، والأخريات دمعاً حزيناً.

وأخبر فادينيو الدونا فلور والدونا جيزا:

ـ انتبها... إنهما عاشقتان[2] لقد سمعت الدونا فلور بوجود مثل هذه النّساء لكنها لم تصدّق؛ حتى تلك اللحظة، اعتبرت ذلك مجرد لغو من فادينيو، اختراعات عابثة، تصرفات صبيانية.

ـ ألا يوجد رجل شاذ يا حبيبي؟ إذن فهناك امرأة لا تحب إلا امرأة مثلها..

قال ميراندون: «يا حسرتي! سمكتان مثلهما ولا تريدان محادثة أي رجل...»

أكدت الدونا جيزا: «مثل هذه الحالات شائعة كثيراً في البلدان المتحضرة». فردّت

---

(١) ORIXA من آلهة الأساطير الأفريقية ـ البرازيلية.

(٢) المقصود أنهما سحاقيتان.

الدونا فلور، «سترى أنهما مجرد فتاتين رصينتين».. كانت تريد أن تتذوّق غناءهما النقيّ الموجع، دون أن يشوب ذلك النقيصة المذكورة، ظرفهما المرضي، قدرهما. آه! موسيقى الدم المراق، السّوط الناري.

ـ حبيبتي، سأدخل وأعود حالاً، دقيقة واحدة...

عبر فادينيو مسرعاً إلى قاعة القمار، تاركاً الدونا فلور وحيدة مع غناء العبيد الذي يمزق القلب.

أضيئت الأنوار، وتعالى التصفيق، وشاهدتهما حين مدت مو يدها إلى جو وانسحبتا معاً إلى حبهما الملعون. وعاد السانباولي إلى الرقص، في حين انضمّ زيكيتو ميرابو إلى زمرة المقامرين.

كان ميراندون يودّ من أعماق قلبه مرافقة فادينيو وميرابو، لكن إشبينه تركه ليجالس السيدتين، فلا يستطيع أن يتركهما. وهذه البروفسورة بأسئلتها الغبية، من أين له بحقّ الشيطان أن يعلم ما إذا كان لعب القمار عاملاً من عوامل العنّة الجنسية أم لا؟ اسمعي، يا سيدتي العزيزة: لقد وُلد ميراندون عملياً على طاولات القمار، ويؤكد لكِ أنه رجلٌ، ورجلٌ فحل، ولم يسمع أبداً بأن القمار يصيب رجلاً بالارتخاء.

راحت الدونا فلور تتابع فادينيو في القاعة الأخرى وهو يتحرّك أمام طاولة الروليت، مراهناً مخاطاً بالرجال والنساء. وقدمت الخلاسية الصغيرة لتتمركز إلى جانبه، وفي لحظة معيّنة أراحَت يدها على كتفه حيث استقرّت فيما هو يتابع دوران الكرة في اللحظات الحاسمة المهيبة. كادت الدونا فلور أن تنهض عن مقعدها، في سخطٍ، وهي تشعر أنها قادرة على ارتكاب أي حماقة في تلك الليلة قادرة على الفضيحة والعنف، على أن تتصرف، إذا لزم الأمر، كبغيّ من نساء الليل الرخيصات الضائعات. لا، لكن سرعان ما ابتسمت لأنه بعد أن أعلن مساعد مدير اللعبة الرقم الخياليّ، انتبه فادينيو إلى الحركة الوقحة، فأبعد كتفه ويظهر أنه خاطبها بفظاظة لأن الوقحة سارعت إلى الاختفاء وانزعاجها واضح.

نظر فادينيو إلى الدونا فلور، اقترب منها، ويداه ممتلئتان بالفيشات. وكان ميراندون

يجلس إلى المائدة متورّطاً في أسئلة الدونا جيزا السوسيولوجية ـ الاقتصادية ـ الجنسية، ويؤاسي جهله ببقايا الفيرموت[1] الحلو، يا للاشمئزاز!

انحنى فادينيو وهمس في أذن الدونا فلور:

ـ اسمعي يا حبيبتي، مرحلتان بعد أو ثلاث فقط ثم ننصرف. لن نتأخر أبداً، لقد أرسلت إلى الغجري لينتظرنا بسيارته. استعدّي، لأنني اليوم سأوسعكِ ضرباً في السرير... ـ وقرّب فمه أكثر، ثم عضّ أذنها لحسها، نسيم ولهب!

الدونا فلور، وجسدها في قشعريرة رطبة، انفتحت بتنهدة. آه! ما أحمقك يا فادينيو! ما أشد حمقك ماذا لو شاهدك الناس، ما سيقولونه عنّا؟ فادينيو أشد طغياناً، فادينيو أكثر اضطراباً.

ـ لا تتأخر...

عاد، ويداه تمسكان بالفيشات، إلى احتلال مكانه في مواجهة مساعد مدير اللعبة على طاولة الروليت، منحنياً قليلاً، والشعر أشقر، والشارب وقح، والعجرفة في ابتسامته. يا له من ماهر!

حدّقت فيه الدونا فلور طويلاً، في فادينيو حبيبها. ثم راحت تجمع كل تفاصيل تلك الليلة وكل لحظات حياتها معه، من البداية إلى النهاية، من دون أن تنقص منها شيئاً، لا الألم ولا الفرح.

من على طاولة الروليت أشار لها فادينيو أن هذه هي المرحلة الأخيرة، فسيارة الغجري بالانتظار، بضع دقائق أخرى. «كلا يا عزيزي لن أذهب معك بعد اليوم إلى حفلة الليل حين تذوب قطرة الانزعاج في بحر العسل، بحر شاسع من الأخذ والعطاء» رمقت الدونا فلور فادينيو مسمّراً إلى الأبد أمام طاولة القمار، والفيش ملقى على الرقم ١٧. حينئذٍ جمعت متاعه كله ودفنته في قلبها. انقلبت على بطنها في السّرير الحديدي، وأغلقت عينيها، ثم نامت نوماً مطمئناً.

---

(١) VERMUTE : نوع من النبيذ.

٢٣

اكتمل الشهر على موت فادينيو، وبعد القدّاس، قصدت الدونا فلور السوق الصغير الـمُخصص لبيع الزهور في كابيسا. كانت المرّة الثانية التي تخرج فيها من البيت منـذ ذلـك الأحد الفريد، حينما طعن الموت في الكرنفال. المرّة الأولى كانت عندما خرجت إلى قدّاس اليوم السابع.

مشت من الكنيسة تحت أنظار الفضوليين من الناس؛ حيّاها مينديس، من على منصة البيع في البار[1]، ونادى السيد موريرا البرتغالي صاحب المطعم امرأته المنهمكة في المطبخ: «اسرعي يا ماريا، تعالي وانظري الأرملة». وفي الشارع ثلاثة أو أربعة رجال، بينهم الأرجنتيني الأنيق السيد بيرنابو، رفعوا قبعاتهم احتراماً لها.

عند ناصية الملحمة، وقفت الزنجية فيتورينا، خلف بسطتها من الآبارا والأكاراجيه: «لتتمجّدي يا إيايا، آتوتو، آتوتو[2]!» وعند بـاب مخزن الأدويـة سيـانتيفيكـا، انحنـى الدكتور تيودورو مادوريرا الصيدلي باحترام رصين مع معيار دقيق من الأسى والغم. أمّا المدرّس إيبامينونداس سوزا بينتو، المرتبك والسائح في الخيال كدأبه، ويحمل تحت إبطه المتفصّد عرقاً كتباً ودفاتر، فقد مدّ لها يده:

---

(١) BAR: في البرازيل ليس البار خمارة، بل دكاناً لبيع كافة أنواع البقالة إضافة إلى الخمور.
(٢) تعبير محبب للفتيات في عهد الرق.

ـ يا سيدتي العزيزة، إنّها الحياة... أمرٌ لا مناص منه...

السكارى في الحانة، يشربون كؤوس الصّباح وزبائن المخزن[١]، وصاحب المزرعة مويزيس آلفيس الذي كان يختار أصنافاً معيّنة لأطعمة غدائه المشهورة، خرجوا جميعاً لرؤيتها، وانحنوا بصمت. في حين أنّ صانع الأيقونات ألفريد صديق العم تاليس، الذي أنشأ محلاً له قريباً من هناك وملأ بابه بالتماثيل، ترك كتلة الخشب التي كان ينحتها، وانتصب واضعاً نفسه بتصرّفها:

ـ صباح الخير يا فلور، هل أستطيع أن أقدّم لك شيئاً؟

هرع الباعة إليها ببضائعهم، فابتاعت ورداً وقرنفلاً وسعف نخيل وبنفسجاً وزهور الداليا وأشواقاً[٢].

تقدّم زنجي طويل نحيف، توحي صفحة وجهه بالفطنة ويحيط به الغموض. كان شاباً ومع ذلك يلقى آذاناً صاغية واحتراماً من قبل الميكانيكيين والسوّاقين في موقف سيارات الأجرة. لقد عرف هوية الدونا فلور وسبب شراء هذه الزهور، فاقترب يلتمس منها أن تعطيه بعض الزهور هنيهة. فوجئت قليلاً، لكنّها فعلتْ ما طلبه، وبسطت أمامه الباقة الملوّنة فانتقى منها بنفسه، في حيطة طقوسيّة، ثلاث قرنفلات صفراء وأربع زهور من الأشواق بلون أبيض ضارب إلى الحمرة، ترى، من يكون هذا الرجل الذي أخذ هذه الأزهار القليلة؟

أخرج من جيب سترته خيطاً مجدولاً من القش، وحزم به القرنفلات وزهور الأشواق باقة صغيرة ثم عقد الخيط.

« فكّيه عندما تنثريها على قبر فادينيو. إنها ستسكّن شيطانه »، قال لها برقة عذبة مخفضاً من نبرات صوته: ـ« آلو آبو! »[٣].

---

(١) ARMAZEM: المخزن المختص ببيع سلع السمانة والبقول على أنواعها.

(٢) نوع من الزهور.

(٣) كلمات يتلفظ بها ممتهنو السحر من الزنوج.

الزنجي كان كاهن ديانة ايوروبو[1]، القيم على بيت أوسايين وكان الإلهة إيفا؛ ولم تعرف الدونا فلور اسمه وقدراته وشهرته في التنبؤ ومركزه ككوريكويه أولوكوتوم[2] في أماكن ممارسة عبادة الآلهة الإفريقية حيث تمارس أعمال السحر في أموريرا إلا بعد فترة طويلة من الزمن.

كانت الدونا فلور غارقة في السّواد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، في حداد مطلق ولمّا يمرّ شهر على موت زوجها. لكن الخمار الصغير فوق شعرها المصبوغ للمرة الثانية الكحليّ السّواد لم يستطع إخفاء وجهها ومسحة الغمّ لم تترك بصماتها عليه. صحيح أنها ما زالت حزينة، لكنها لم تعد قانطة ولا فارغة.

محاطة بالنسيم العليل في هذا الصباح الشفاف الخلاّب بالضوء وهو على مقاس الرجل الذي كانت الحياة معه امتيازاً، رفعت الدونا فلور نظرها عن الأرض، عادت مرة أخرى ترى وتتطلّع إلى مشهد الشارع تتعرّف على لون النهار.

واكتشفت أو خُيِّل إليها أنها تستشفّ حركات وكلمات الارتياح والتعاطف وسط ضوضاء المدينة حيث يمر النّاس ويتحادثون، ويضحكون. واصلت الدونا فلور طريقها مع باقة الورود المخصصة لحقل فادينيو، سارت هناك باتجاه المقبرة لكنّ الحياة كانت قد تسلّلت إليها من جديد؛ ها هي تعود، نقِهةً ما زالت نقهةً.

الأكيد أنها ليست الدونا فلور ذاتها التي كانتها قبلاً. فقد دفنت عواطف ومشاعر معينة، كالرغبة والحب والجنس والقلب فهي أرملة محترمة. قد تحيا وتتحسسّ من جديد ضوء الشمس والنسيم العليل، قادرة على الابتسام والفرح متآلفة.

---

(١) نسبة إلى أيوروبو في أفريقيا.

(٢) رتبة من رتب السحرة الزنوج البرازيلية.

القسم الثالث

عن زمن التخفيف من الحداد، عن حميمية الأرملة في خجلها وفي سهرها كامرأة فتية خاوية؛ وكيف بلغت شريفةً هادئةً إلى زواجها الثاني حين كانت تركة متاع المتوفى تثقل على كاهلها.

(مع الدونا دينورا وكرة البلور)



مدرسة الطهي تذوّق وفن

سلحفاة مقليّة وأطباق أخرى نادرة

سألتني إحداهنّ منذ أيام أظنّها الدونا نايير كارفاليو لأنها تحب أن تقدّم الأجود والأفضل دائماً عما يمكن تقديمه لضيف فنّان ذواقة للنكهة الراقية، ملحاح كلياً، قد يطلب بابافينا (١) كيتوتي (٢) نادراً، متجاهلاً كلية الأطباق النافهة.

لمثل هذا الضيف أوصي بتقديم طبق لذيذ، سلحفاة مقلية ـ وأزوّدكم بوصفة علّمتْنيها معلمتي المتمرّسة بالمرق والتوابل الدونا كارمن دياس، وصفة ظلّت سراً حتى الآن بوسعكم نسخها من الدفتر. وحسبما أتذكر فإن السلحفاة هي طعام الأوريشا (٣) في طقوس الكاندومبليه(٤)، هذا ما قالته لي عرابتي ديونيزيا، ابنة أوشوصي (٥). والسلحفاة هي الطبق المفضل لشانغو (٦).

---

(١) و(٢) نوعان من الأطعمة في باهيا، ورد ذكرها سابقاً.

(٣) ORIXA: إلهة أفريقية سبق ذكرها.

(٤) CANDOMBLE: طقوس دينية يخالطها السحر مثل الماكومبا يمارسها الزنوج البرازيليون.

(٥) OXOSSI إلهة تتمثل في طقوس الماكومبا يرمز إليها بقوس مع سهم لأنها ربة الصيادين في الميثولوجيا الزنجية البرازيلية ـ الأفريقية.

(٦) XANGO: أكثر إلهة الأساطير الزنجية قدرةً ونفوذاً.

علاوةً على طبق السلحفاة، أوصي إجمالاً بأطباق الطّرائد، خاصة حساء الـ «تيو»[١] بعد أن ينضج لحمه مع شذا الكزبرة وزهرة تاج الجبل[٢]. وإذا استطعتم فلْتقدموا كايتيتو[٣] مشوياً، ملفوفاً بأوراق العطرة، آه! ملك الأطباق العظيمة هو الخنزير الشّرس، فللحمه نكهة الغابة والحرية.

لكن إذا أراد ضيفكم طريدة أروع وأرقّ لم لا تجلبوا عندئذٍ ما يجلّ عن الوصف، ما لا يضاهيه شيء آخر، متعة الآلهة، لأنه آنئذٍ لن تقدمه لكم أرملة جميلة فتيّة مطبوخة بدموع حدادها ووحدتها، بمرق حيائها وحزنها، في أنين حاجتها على نار الرغبة المحرقة التي لها مذاق الذنب والخطيئة؟

سلحفاة مقليّة

(وصفة الدونا كارمن دياس، كما قدمتها الدونا فلور، التي سمحت لتلميذاتها بنسخها)

خذي سلحفاة بعد أن تنفق بواسطة النشر من الجانبين (يا لها من وحشية!). مع الانتباه كي لا يتفتّت درعها ثم تعلق من قائمتيها الخلفيتين، ويقطع رأسها. اتركيها هكذا ساعةً، لكي يسيل كلّ دمها، ثم ضعي السحلفاة على ظهرها، وابتري قوائمها بحذر كيلا تبقى القوائم داخل الجلد السميك الذي يغطيها. وبعد ذلك انتزعي اللحم والأحشاء (القلب والكبد) والبيض (إذا وُجد) وتخلّصي من الأمعاء، وهذه العملية تتطلب حرصاً خاصاً، إذ يجب أن تتم كلّ خطوة على حدة. اغسلي كل شيء: اللحم والأحشاء جيداً، ثم انقعيها في التوابل، ثم ضعيها على نار خفيفة حتى يصبح لونها ذهبياً داكناً وأعطيها نكهة معينة بإضافة الملح والحامض والثوم والبصل والبندورة والفلفل والزيت أو الزيت الحلو كما تحبين. يجب تقديم هذا الطبق مع البطاطا المهروسة المسلوقة بالماء من دون ملح، أو مع دقيق الماندیوكا الأبيض المحمص بالزبدة والمغطّى بالكزبرة.

---

(١) TEU: نوع من الطيور تكثر في البرازيل.

(٢) ALECRIM: عشب ذو رائحة ذكية.

(٣) CAITETU: نوع من الخنازير البرية.

١

اتـمّت الدونا فلور ستة أشهر من الترمّل، فبدأت تخفّف من حدادها الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت حداداً مطلقاً بحيث تجد نفسها مجبرة على ارتداء الملابس السوداء الرصينة سواء في الشارع أم داخل البيت. الشيء الوحيد الذي لم يكن أسود فاحماً ضمن ملابسها كان الجوربان اللذان بلون الدخان.

من هنا، حالما شاهدتها في ذلك الصباح تلميذاتها (وهنّ مجموعة جديدة لطيفة كثيرة العدد) مرتدية بلوزةً فاتحة اللون مزدانة بأكاليل من الورد الداكن وحول عنقها عقد من اللؤلؤ الزائف مع مسحة من الأحمر على شفتيها اندفعن يصفّقن بحماس للمدرّسة المرحة. لكن كان عليها أن تنتظر ستة شهور أخرى حتى ترتدي الملوّن كالأخضر والوردي والأصفر والأزرق والأحمر والهاڤانا. ناهيك عن ألوان الموضة الجديدة المؤثّرة: الأزرق ـ الملكي والأزرق ـ البيرفانش والأورتنسيا والأخضر الذي بلون البحر.

«المدرّسة المرحة»؟، أجل، كما وصفتها الدونا ماغا باترنوسترو الثرية. لأنّ الدونا فلور في الحقيقة قد خففت من حدادها الدّاخلي، وتجردت من خمار الموت، حينما دفنت عشية قداس الشهر في داخلها متاع المتوفي لكنها حافظت باحترام على العادات والجيران على صرامة السواد، وإن كانت قد استعادت ابتسامتها الهادئة وتوددها الحذر واهتمامها بالأمور اليومية، ونزوتها كربة بيت، ومن آن لآخر ترمي الكآبة عليها بظلّها فتبدو متأملة وتضفي على جمالها البيتيّ ميزة جديدة، سحراً معيناً مليئاً بالأشواق؛ كما عاد إليها فضولها إزاء الحياة حولها، ممّا أعاد الانطباع بنشاطها السابق كمدرسة الطهي التي تراجعت شهرتها خلال

ذلك الشهر الأول من الحداد.

لم تعد تلفظ اسم المتوفى بشفتيها، وبدا كأنّها نسيته تماماً، كما لو أنها، بعد الأزمة والفكرة المتسلطة على العقل، أصبحت متّفقة مع الدونا دينورا وزمرتها على أن موت الإنسان العادي هو وثيقة حرية، فـوجـدت نفسهـا أخيراً منسجمـة هـي الأرملـة، مـع الطوباويّات؛ ظاهرياً على الأقل.

في مناسبة قداس الشهر تلك، وعند عودتها من زيارة القبر الذي تركت عليه الزهور ونفّذت وصيّة الكاهن موكان أوسايين، فتحت نوافذ بهو الزوار وسمحت أخيراً لضوء الشمس أن ينير البيت، ويكنس الظلال والأشباح. تنـاولـت المكنسـة والممسحـة، الخرق والفراشي، واندفعت تعمل.

عرضت عليها الدونا روزيلدا أن تساعدها، لكنها كانت امرأة متقنة في التنظيف، وهـي الأخرى كرّت عائدة إلى نازاريت داس فارينياس، في الوقت الذي كان فيه ابنها وكنّتها بدآ يتأمّلان بحياة أفضل من دونها. فمن هو الأحوج إلى المصاحبة الدائمة وإلى التعاطف معه من يحتاج الأم أكثر من الدونا فلور المترمّلة حديثاً ولا من يؤاسيها؟ فالدونا فلور وحيدة، وبغير دفاع، عرضة لمخاطر مضاعفة في حالتها غير السارة. كان من العدل أن تقيم الدونا روزيلدا الأمّ المجرّبة الشجاعة مع ابنتها غير المحميّة لتساعدها في معالجة شؤون البيت وفي حلّ المشكلات العديدة. ومن يدري، فقد تحدث المعجزة الرائعة، ويتحرر أخيراً الزوجان، ومدينة نازاريت، من الأم الحماة، وهي حماةٌ أكثر منها أماً. حتى أن كنّتها، الملاك والعبدة نذرت نذراً قيّماً لسيدتنا ذات المحنة[1].

لم تُستَجَبْ صلواتها. واتّضح أن قديس الدونا فلور أقوى، فهي تحظى بالحماية من دون أن تعلم، في محاور الكاندومومبليه ومعابده، بقوة ملك الكيتو، أوشوصي، أوريشا عرابتها ديونيزيا (أوكيه!). وهكذا كانت الأرملة هي التي تحرّرت من الدونا روزيلدا التي ـ على كل حال ـ لم تذهب قبل إظهار حقيقة فظاظتها، قبل مناكدة الجيران الذين شوقتهم على استبدادها، وحملتهم على تقبل ظروف التعايش.

---

(١) من ألقاب السيدة العذراء.

لقد كانت هناك في العاصمة تعيش غير مرتاحة، فالبيت صغير ليس فيه حجرة خاصة بها. وتنام على سرير نقال من القماش في البهو حيث تعلّم الدونا فلور تلميذاتها النظريات، وليس هناك خزانة مخصصة لأمتعتها، بينما بيت ابنها واسع للغاية تتوفّر لها فيه كلّ وسائل الراحة، في نازاريت، وفوق كل شيء، كانت الدونا روزيلدا لها شخصية معينة هناك. فلم تكن تتصرف فقط كأم للسيد إيتور الموظف الذي له مرتبته في السكة الحديدية، والسكرتير الثاني في نادي فارينياس الاجتماعي، وهو من أفضل النّوادي المختصّة بطاولات الغامون[1] والداما في المدينة (حيث كان يمارس السيد جيل هوايته المغتصبة) والرسّام البارع: كان ينقل ملامح أي كان ويخلقها من جديد على الورق بقلمه الكروم، بل كانت هي نفسها زينة المجتمع الراقي في نازاريت، حيث تستعرض علاقاتها مع أهل العاصمة، كعائلة مارينيو فالكون والدكتور زيتلمان أوليفا والدونا ليجيا والصحافي ناصيف والدونا ماغا والصناعي نيلسون وكوستا ومزرعته الصغيرة في ماتاتو، وعلى رأسهم عرابها الدكتور لويس إينزيكي، «الشعر الذهبي» فخر البلاد.

أما في العاصمة فلم يكن هناك من يولونها انتباهاً أو أهمية، حتى ولا البرجوازية الصغيرة وهي بالكاد ميسورة الحال، والمحصورة بالشوارع القليلة الواقعة ما بين ساحة «الثاني من تموز» وسانتا تيريزا. بل على العكس، كانوا يحنقون عليها. فصديقات ابنتها المقرّبات كالدونا نورما والدونا جيزا والدونا إيمينا والدونا آميليا رواس والدونا جاسي، ما كنّ يخجلْنَ من تحميلها المسؤولية عن حالة الأرملة غير المشجّعة فينحين باللائمة على لسعات لسانها وعلى تجريحها وإهاناتها لسيرة الميت، على نفورها غير المعقول منه. فإما أن تبدّل تصرفاتها، متخلية عن اغتياب المتوفى وإمطار ذكراه باللعنات، أو ترحل. هذا إنذار لها.

لهذا بالضبّط كانت ردة فعل الدونا روزيلدا الشريرة الخبيثة هي إطالة زيارتها رغم عدم ارتياحها في البيت وتقييد الجيرة لها. (حتى أن الدونا جاسي تدبرت مدبرة لشؤون منزل الدونا فلور، وهي امرأة بشعة تدعى صوفيا، التي كانت قد تبنتها). لكنها أسرعت تسافر بعد قداس السّهر حالما وقفت على أنباء عبر عرابها الدكتور بأنّ المحترم فالفريدو موريس قد عينها في منصب رفيع كخازنة الحملة الخيرية للأشغال الجديدة في كاتدرائية نازاريت،

---

(١) GAMAO: لعبة النرد.

والذي تتألّق في مجلسها الإداري كل من زوجة قاضي الحقوق (الرئيسة) وزوجة المحافظ (النائبة الأولى للرئيسة) وزوجة المفوض (النائبة الثانية للرئيسة) وغيرهن من المحترمات في مجتمع البلدة. كانت الدونا روزيلدا تتحرق شوقاً منذ وقت طويل ليكون لها مكان ضمن مجلس الإدارة ولو في أسفل اللائحة؛ وفجأة تغدو خازنة، لا أقل. هذا وحيّ من الروح القدس الذي أنار أمام الأب فالفريدو، تعييناته السرّية جداً.

أما الكاهن المذكور فقد استبدّت به الحيرة والشكوك إزاء هذا التعيين، لكنّ صاحب النفوذ الذي قصده ليسدّد ثمن الكميات الغذائية الإيالية، اشترط لمساعدته تعيين الدونا روزيلدا في مركز تحسد عليه في حوض جمعية الطوباويات. فكّر القِسّ أن هذا ابتزاز حقير وهو يخضع له، لكنه كان مستعجلاً الحصول على المبلغ الطائل وكيف له أن يدير العجلة البيروقراطية من دون تدخل الدكتور لويس إينزيكي؟

وكانت الدونا جيزيلا ـ التي يناقش معها الدكتور أحياناً مصير العالم وتشوّهات البشر ـ هي التي أبلغته عشية اليوم السابق:

ـ إذا لم ترحل الدونا روزيلدا، فلن تذوق فلور المسكينة طعم الرّاحة حتى يتسنّى لها أن تنسى... وكم هي بحاجة للنسيان؛ إن هذه الحالة المعقدة هي حالة مرَضيّة غريبة. فيا عزيزي الدكتور، المحلل النفساني وحده يستطيع توضيحها. وبالأحرى، ذكر فرويد نموذجاً...

قاطعتها الدونا نورما التي جاءت معها، في الوقت المناسب:

ـ سيكون ذلك أيها السيد عمل خير وإحسان.. أبْعد هذا الوباء عن هنا، أرسلها إلى نازاريت، فلم يعد هناك من هو قادر على تحمّل المزيد منها...

كان الدكتور عرّاب إيتور، ففكّر متحسراً «مسكين إيتور، مسكينة سيليستي، مساكين أطفالها...» لكنه في الاختيار ما بين الدونا الأرملة الفرويدوية، والزوجين الذين ظلاّ حبيسَيْ قفص الدونا روزيلدا سنوات عديدة لم يتردّد؛ ضحّى بابنه في العمادة وزوجته اللطيفة، اللذين طالما تناول الغداء في بيتهما، حيث يجد دائماً العناية والاهتمام كلّما ذهب إلى ريكونكافو.

صمّم أنّ على كلّ إنسان أن يحمل صليبه. الدونا فلور حملت عبء سبع سنوات بالجهد مع زوجها ذاك، وهذا، صليب ثقيل. وليس من العدل في شيء أن يكون عليها ـ وهي أرملة ـ أن تتحمّل الدونا روزيلدا. فهي جلجلة في حد ذاتها؛ بالصليب وتاج الشوك والخلّ والعلقم.

نادراً ما يذكر الجيران عمداً اسم الملعون من دون تحريض الدونا روزيلدا، وذلك احتراماً لإلحاح الدونا نورما والدونا جيزا، وأيضاً لأن الدونا فلور قد استعادت مجرى حياتها العادي، بعدما اجتازت خسائر الغياب اللانهائية. لم تستعد حياتها السابقة، بل، عيشاً هادئاً، بغياب الزوج وتورطاته والمخاوف والمنغّصات، والإرهاق والقنوط. كل هذا قد انتهى، واعتادت الدونا فلور أن تنام الليلة بأكملها، من أوّلها إلى آخرها. صارت ترقد أبكر نسبياً بعد محادثة معتادة مع الدونا نورما في حلقة الصديقات، على مقاعد على رصيف الطريق حيث يعلّقن على الأحداث وعلى برامج الإذاعة والأفلام. وكانت تذهب إلى السينما مع الدونا نورما والسيد سامبايو أو مع الدونا آميليا والسيد رواس، أو مع الدونا إيمينا والدكتور إيفيس، الذواقة المتحمس لأفلام الغرب الأقصى الأميركي[1]. وأيام الآحاد تتناول الغداء في ريو فيرميليو في بيت الخالة والعم؛ العم بورتو مع هوسه الخالد بلوحات المناظر الطبيعية، والخالة ليتا التي وإن بدأت تشيخ لكن حديقتها وقططها مازالت في منتهى الروعة.

لم تقبل الدونا فلور الانضمام إلى حلقة لعب البيسكا والسبعات الثلاث في بيت الدونا آميليا وهي حلقة شيّقة لدرجة أن الدونا إينايدي كانت تأتي من شامي ـ شامي خصيصاً لتحضر أمسية لعب الورق. وفعلت المتعصبات للبيسكا والمتعبدات للسبعات الثلاث المستحيل ليفزن بها، من دون نتيجة، كما لو كان المتوفى قد استنفذ كل حصة العائلة من القمار، ولم يترك لها شيئاً. عدو اللعب الأسوأ كان ابن بوينوس آيريس صاحب مصنع السيراميك السيد بيرنابو؛ والدونا نانسي مجنونة لمن يساعدها في البيسكا، وهو مستبد لا يمكن نقض قرارته؛ وفي حد أقصى وعلى سبيل المعروف، الألعاب المتفرّدة التي تحتاج إلى بال طويل ولا شيء أكثر من ذلك.

(١) FARWEST: الغرب الأقصى، وتطلق على مجتمع رعاة البقر.

هكذا مضت مطمئنةً حياة الدونا فلور ما بين تلميذات مدرسة الطهي ، في مجموعتين يزداد عدد المشتركات فيهما كلّ مرة وبين النشاطات الاجتماعية التي يسمح بها وضعها الحرج. ولم تكن الالتزامات بالقليلة كما قد تبدو للوهلة الأولى. فقد مُلىء وقتها كلّه، فلم يعد لديها وقت تقضيه في الأفكار المحزنة. ولا تسَلْ عن الطلبات التي يستحيل رفضها من أجل تحضير الغداء لحفلة ، أو عشاء راق أو وليمة أو حفل استقبال. كانت تستسلم للعمل في المطبخ منذ الفجر. وبما أنها متطلّبة جداً في ما يخصّ نوعية أطباقها ، فقد قضى التعب على قلقها.

قدمت لمساعدتها صبية في السادسة عشرة من عمرها ، ابنة أرملة أخرى هي الدونا ماريا دو كارمو ، وريثة حقول مزروعة بالكاكاو تقطن في أريال ده سيما منذ وقت وجيز ، انخرطت مباشرة بعد الكرنفال في حلقة الدونا نورما. كانت الفتاة الصغيرة ماريلدا سمراء لها مستقبل مع المرق والتوابل. أنشأت صداقة مع الدونا فلور ولم تتركها ، فتعلمت إعداد الأطعمة والحلوى في عطلاتها المدرسية. كانت الدونا فلور تبتسم عندما تراها تتنقّل في البيت مدندنة مضطربة الشعر ، وجهها وجه مراهقة استوائية ، شاحب من الخور والدلع ، كلوحة جميلة ملوّنة. لو كان السافل حياً ، لما نفعها حرصٌ ولا حذر فقد كان لا يقيم وزناً للسنّ.

ثبت لديها ورأت بعينها أن هناك الكثير مما تفعله بحياتها كأرملة ، فالوقت قصير ، أحياناً لا تستطيع أن تفي بكل التزاماتها. كانت لديها مشاغل كثيرة جداً وعالم من الأشياء ، النهار المتعب يمتدّ أحياناً إلى الليل ، وحالما تتجرّد من ثيابها وتتمدد على السرير لتنام ، تحسّ كم هي متعبة كم هي بحاجة إلى النوم المريح. فتنام على الفور ، حالما تضع رأسها على الوسادة.

إذا كانت حياتها ممتلئة على هذا النّحو فكيف تفسّر إحساسها الدائم بالخواء ، كما لو كان كلّ ذلك النشاط الذي تقوم به ، تسيطر وتتحرك ، غير مجدٍ وفارغاً ؟ فإذا كان لديها مبلغ موفّر متواضع ما يكفي لعيشة شريفة وما زالت تخبىء ، حسب عادتها القديمة ، بعض المدّخرات ، ممّا يُضفي الاطمئنان على حياتها ، وإذا كانت فعلاً مرحة فلم ، إذاً ، تحسّ ان حياتها فارغة بلا جدوى ؟

٢

الأحياء المحيطة ببيتها كانت تغصّ بالواشيات، المُسِنّات والشابات، فممارسة هذه المهنة لا تتطلّب سناً معينة. الأولى بين هؤلاء الثرثارات كانت الدونا دينورا والتي نجحت في نشاطها الثرثار نجاحاً جعل شهرتها تطبّق الآفاق.

سبق للدونا دينورا في هذا المجال أن شوهدت وهي تنشط في لاموريياس في وشايات ومكائد، من دون أن يعني ذلك، أنها بالذات كانت الأطيب قلباً بينهنّ، فتظل حتى الآن شبه مجهولة، وكأنها مجرّد واشية عادية في حلقة الطوباويات. ربما لأن حضور روزيلدا غير المألوف، أخيراً ولحسن الحظ، هو في المنفى في ريكونكافو، لم يعط دوراً للمتباريات لكن ثمة دائماً متسع من الوقت لإصلاح خطأ، لرفع ظلم ما.

بالنسبة إلى كثيرين، الدونا دينورا هي أرملة الكوميندادور بيدرو أورتيغا، وهو تاجر إسباني ثري انتقل إلى عالم الأرواح منذ عشر سنوات. والحقيقة أنّها ما كانت يوماً متزوجة، لكنها لم تظلّ عذراء إلا فترة وجيزة؛ فحالما بلغَتْ غادرت البيت لتبدأ نشاطاً كان لها فيه نوعاً ما وجود لامع مثير للشهوات بشكل مزمن. مع هذا - ليمجد الله! - لم يعد هناك من هو أغير منها على الأخلاق وعلى التقاليد الطيبة، منذ لقائها السعيد بابن غاليسيا [1] الذي كان قد تجاوز الخامسة والأربعين. فقد نظرت الدونا دينورا إلى المستقبل بوعي يحدوها خوف مريع من الافتقار بعد أن اعتادت على الرفاهية؛ الواقع أنها لم تكن جميلة يوماً لكن

---

(١) GALEGO : نسبة إلى مقاطعة غاليسيا في إسبانيا.

المسؤول عن نجاحها مع الرجال هو ظرف فاحش معيّن، فكان يذيب لهم السنين والتجاعيد. وابتسم لها الحظ آنئذٍ مع الكوميندادور « ورقة يانصيب ربحت الجائزة الكبرى » كما أسرّت لصديقاتها في تلك الفترة. لقد أضفى عليها الاسباني الاحترام وقدم لها ضمانات، ناهيك عن البيت الصغير في الجوار، في ساحة « الثاني من تموز » حيث أقامت.

من يدري؟ ربما خوفها من أن ترى نفسها عجوزاً فقيرة، إزاء ما يتهدد البغاء المشرّع الأبواب هو الذي حوّلها في كنف التّاجر بسرعة إلى نقيض ما كانت عليه. إلى سيدة محترمة تسهر على الأخلاق. وانهمكت تمارس نزعتها هذه، بعد موت بيدزو أورتيغا، بشدة تتزايد باضطراد. فحينما رحل بين الخطب والأكاليل الجنائزية، كانت المحظية القديمة قد تجاوزت الخمسين سنة ـ خمساً وثلاثين سنة ليكون الأمر مضبوطاً ـ وفي السنة الثامنة من حياتها كعشيقة نشأ لديها التشبث بفضيلة الحياة العائلية.

إن المعقل المستقيم للطبقات المحافظة، مدين للعشيقة لوفائها، ولكشفها عالماً من المسرّات المجهولة (يا للوحشة! لقد أضاعت أفضل سني عمرها على منصّات مطاعم الفطائر وفي جسد ناشف وجاهل لقديسة وزوجة صارمة). وعلاوة على البيت ذاته، عش غرامياتها الأثيمة، ترك لها في وصيته أسهماً والتزامات مع الدولة، عائداً زهيداً، لكنه يكفي لضمان شيخوختها من دون مخاوف، والتي وظفتها كلية في خدمة المكائد والطّعن بالأعراض.

وهكذا أمست الدونا دينورا فوق الستين، ذات صوت حادّ وقهقهة موتّرة للأعصاب، دائمة الاضطراب. فالتي تبدو عجوزاً وحيدة مجرّبة، هي في الحقيقة « قارورة سم، أفعى كاسكافيل مموَّهة بريش العصافير »، كما وصفها ميراندون بعبارة شعرية لميراندون، الضحية الأزلية لهذا النوع من العرّابات. وقد قالها للصحافي جيوفاني غيمارايس عندما رأى السّتينيّة تمرّ به وقد مضى عليها وقت طويل أرملة حارسة للأخلاق، وذلك بمناسبة الغداء في منزل الدونا فلور، حين زيارة سيلفيو كالداس واكمل، بنفحة الفيلسوف الأخلاقي:

ـ إنها رصينة في شيخوختها بقدر ما كانت عاهرة في صباها. فهي عاهرة وشريفة.

ـ تلك المرأة الهزيلة البشعة؟ من هي؟

ـ لم تكن في أيامنا ، لكنها كان لها اسمها ولقبها . اسأل عنها من يعرفها تماماً أناكريون ، فلقد شرب من إبريقها . هل سمعت بعضهم يتحدث يوماً عنها بالذات ، إنها المعروفة بدينورا : العجيزة الرفيعة .

عقد الذهول والغمّ لسان جيوفاني ، ثم قال :

ـ أهذه هي ؟ أهذه العجيزة الرفيعة التي يذكرها الجميع ؟ رباه !

إنها برهان على الأمور الأرضية ، اعتبرها الإثنان بتواضع ، أمام ذلك الاستعراض للفضيلة والمؤخرة الحزينة ؛ كانت قصيرة مدوّرة قوية البنية قصيرة الساقين والحوض الواطىء ، كبيرة الرأس ترتدي ملابس الحداد وكأنها فعلاً أرملة حقيقية ، تتدلى من عنقها ميدالية فيها صورة للكوميندادور ، وتتحدث عنه وكأنها كانت زوجته ، كأنه كان الرجل الوحيد في حياتها . كانت من النوع الذي يشكل عاراً على الجنس البشري كما قال أناكريون تتصرّف وكأنه بالنسبة إليها غير موجود ، كأنّها لم تعرفه قطّ ، بكل بساطة .

كانت داهية من الدّواهي ، فما كانت تسلك طريقاً مباشرة في المواضيع ، أو تواجه بالاتهامات ؛ أبداً بل كانت تسيء إلى الآخرين بنعومة بحيث تبدو الإساءة مسوّغة . مبرّرة ، تطري ثم تتأسّف . من هنا اكتسبت شهرتها كامرأة طيبة القلب لطيفة ، تمجيد مبذور في طريقها المحفوف بالوشايات : « مخلوقة طيبة تذهب إلى هناك . . . » عندما تُضبط متلبّسة بالمكيدة ، لعامل نحس ما ، تتظاهر بأنها ضحية ، أرادت أن تقوم بعمل خير ، فتلقت الثمن عدم امتنان أسود .

ـ السيد زيه سامبايو رجل وديع يبكر إلى الفراش مع عاداته السيئة المعروفة . جرائد اليوم والمجلات القديمة (كان يعبد قراءة المجلات القديمة والتقاويم العتيقة) . حالما سمع لغط الدونا دينورا ، وضع يديه على أذنيه ، مرتعباً ، قائلاً للدونا نورما بصوت المغلوب على أمره إنما بإصرار على أنّه عاجز عن التآلف مع إزعاجها :

ـ هذه المرأة هي ابنة عاهرة ، أكبر ابنة عاهرة هنا . . .

ـ أهكذا تقول ؟ لا تبالغ في سوء نيّتك . . . بل إنها لطيّبة القلب . . .

هنا تبدّى مدى مهارة الدونا دينورا ؛ لقد استطاعت أن تتجاوز قصة ابن ديونيزيا ، حينما تراجع رصيدها إلى الصفر ، فعادت تلقى تقدير الدونا نورما . كلا ، بل من السيد سامبايو :

ـ ابنة عاهرة طيبة... من فضلك لو استطعتِ، اعملي معي معروفاً لا تسمحي لها بأن تدسّ أنفها هنا في حجرتي. قولي لها إني نائم، إني أرتاح... قولي لها إني متٌّ...

لكن من هي الدونا نورما لتمنع الدونا دينورا من أن تدس أنفها حيثما تشاء ؟ كانت تدخل دون استئذان ، على بيوت كل الناس المحترمين الأغنياء فما بالك بالفقراء ! طيبة ، لكن طيبة متشامخة نائية ، تبدو وكأنها تحامي عمّن يفتقرون إلى الحماية ، لكنّها ، في الوقت نفسه ، تبقيهم بعيداً عنها في الموقع الذي يستحقونه ، أدنى موقع من دون أن تمنحهم المساعدة . ها هي تدلف إلى الرواق ثم إلى الحجرة :

ـ أتأذن لي بالدّخول يا سيد سامبايو (كان زيه سامبايو يكره ذلك الرأس المصبوغ بالأوكسيجين ، « رأس الفيل ، أكبر رأس في باهيا » . أسنان الحصان والصوت والحرص) دائماً مريض يا سيد سامبايو ؟ طول عمري أقول : « السيد سامبايو رغم ذلك الجسد ، صحته هشّة . أي مرض بسيط ينتابه يجعله يرتعد في السرير ، غارقاً في الأدوية » . قلت وأقول : « إذا لم يحترس السيد سامبايو فسينهار يوماً من الأيام . . »

كظم السيد سامبايو غيظه ، كان يودّ لو طردها برفسة من قدمه :

ـ صحتي من حديد يا دونا دينورا . . .

ـ ولماذا تبقى هكذا ، في السرير ، يا سيد سامبايو ؟ لماذا لا تنهض فتلمّع الناس بحديثك ؟ فأنت مثقف جداً ، وكل الناس يقولون إنك أيّها السيد لم تتخرّج لأن . . . حسناً ، أنت أدرى ! فالناس تثرثر كثيراً . . ولو أصغينا لكل ما يقولونه . . . أنا لا أهتم ، ادعهم يتكلمون ، يدخل كلامهم من أذني ليخرج من أذني الأخرى . .

علم زيه سامبايو إلامَ ترمي : إلى جهل شبابه عندما كان الابن المدلل ، المتهتك الشقيّ . استاء الأب من تهتّكه فقطع عنه المخصصات الشهرية ، عندما اضطر لترك الدراسة ، وأصبح

في المتجر يعمل على صندوق المبيعات.

ـ دعي الناس يتكلمون يا دونا دينورا، فالأمر غير مهم...

ـ أترى معي أيّها السيد أن على الناس أن لا تهتم لما يقال عنّا؟ أليس هذا ما يجب أن يحصل؟. راحت تحدّق فيه بعينيها الكبيرتين كعيني الثور وكلّها انتباه، كما لو كان زيه سامبايو يردد كلام الآلهة في الزمن الحاضر.

ـ أنا، على الأقل... واستبدّ به الغيظ دفعة واحدة: «هل تريدين أن تعلمي مـا-أريـده يا دونا دينورا؟ أريد السلام، أن أرتاح... في سبيل شيء من السلام، قد أعطي الحق لمن ليس لديه الحقّ. وحتى عندما لا أستطيع أن أجد السلام..؟ يلحقني الإزعاج إلى هنا... عن إذنكِ...»

تناول الجريدة، وأدار ظهره للزائرة. «زيه سامبايو أشد وحشية من دابة» ـ شعرت الدونا نورما بالخجل ـ «ومع الدونا دينورا، الطيبة القلب جداً...»

كان خشناً فعلاً، لكن بلا جدوى، فلم تكن الدونا دينورا لتقبل بالهزيمة فأصرّت على خبثها:

ـ أعلمت أيها السيد بما جرى للسيد فيفالدو؟

آه! بئس الشيطانة هي! ألم تستطـع أن توقظ فيه الاهتمام؟ ترك زيه سامبايو الجريدة، مغلوباً على أمره:

ـ لفيفالدو؟ كلا، لم أعلم. ماذا حدث؟

ـ سأروي لك... السيد فيفالدو، رجل مستقيم؟ جميل، هيه! يبدو أنه غرينغو [1]، كله ورديّ...

هكذا كانت دائماً، بعد الإطراء يأتي الهجوم والقذف والوشاية عن إدمان المسكر عن

---

(١) GRINGO: تسمية يطلقها أهل البرازيل على كل شخص أوروبي أو أميركي شمالي غير لاتيني.

كتف زوج واسم امرأة، دائماً هناك اسم امرأة، غالباً ما تكون عاهرة.

وادّعت أنّ السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى لا يقيم احتراماً لشواهد القبور والتوابيت، فيجمع، في أماسي أيام السبت خلف الستائر الحمراء الفاتحة الموشاة باللون الفضيّ، مجموعة من المارقين في لعبة بوكر لعينة تدور عليها مراهنات باهظة وتبذّر فيها كميات كبيرة من الكونياك والجينيبرا:[1]

ـ « هذه قلة احترام، ألا ترى معي ذلك يا سيدي؟ كان بوسعه أن يتدبّر مكاناً آخر لشروره... » وسرعان ما انتقلت إلى مسألة أخرى: « ألا تعتقد أيها السيد، يا سيد سامبايو، أن القمار هو أسوأ الشرور؟ ».

ما كان زيه سامبايو يعتقد شيئاً، ولا يريد أن يعتقد شيئاً. جلّ ما كان يريده أن يُترك بسلام. لكن الدونا دينورا ظلّت تطلق عليه النّار وقد انفلت لسانها من عقاله « لا شك في أن السيد فيفالدو شريف مندفع وزوج ممتاز، ووالد رائع لأسرته، لكنه يخاطر بكل ذلك فالمقامر يفقد السيطرة على نفسه، إن عاجلاً أو آجلاً، ويقامر حتى بامرأته وأولاده. إذا لم يفعل، يتركهم تحت رحمة الله، للإهمال، في هوّة اليأس. أيّ مثال أفضل من الدونا فلور؟ حينما كان زوجها الشقي حياً كان عبداً للقمار، ينتف ريش الجحيم من أجله، يسيء معاملتها، يتركها وحيدة، تعاني الأسوأ... وانظروا اليوم إلى الفرق: ها هي أخيراً متحرّرة منه، تستطيع التمتع بالحياة من دون فواجع، من دون أحزان.

وبالمناسبة، ما دمنا نتكلّم عن الدونا فلور، فما رأيك يا سيد سامبايو، وأنت يا نورمينيا، يا حبيبتي، ما رأيك؟ أليس من الظلم ـ وهي العصرية الجميلة ـ أن تستمر في حزن الأرملة على ميت لم يكن يُرجى منه الصلاح؟ أليس هذا صحيح؟ ولماذا يا نورمينا، وأنت صديقتها الحميمة، لا تزودينها ببعض النصائح؟ ». وفي هذه الأثناء ستدرس هي، الدونا دينورا، المسألة على ضوء اقتران النجوم، في كرة البلّور وفي ورق اللعب فهي تهوى قراءة المستقبل.

---

(١) GENEBRA: نوع من المشروبات الكحولية.

وهي مجرّد هاوية لأنها لا تتقاضى نقوداً، تقرآ الطالع مجاناً وتلبي الطلبات بداعي الروح الرفاقيّة. لكنّ قلة من المحترفات يضاهينها في كفاءتها في التنبؤ. كانت على الأقلّ قادرة على كشف كل أنواع الحقارات بحاستها السادسة، بالحدْس الذي تنفرد به. كانت موهوبة في كشف المستقبل، وصلت فيه إلى أعلى المستويات.

ألم تكن هي التي تكهنت، بأسبقية سنة، بالفضيحة الموجعة في عائلة لايتي، وهم أصحاب مال وفير وعجرفة كبيرة، منعزلين عن الناس خلف أسوار دارتهم الراقية المطلة على البحر في لاديرا دا بريغيسا؟ ترى أقرأت ذلك في أوراق اللعب المتسخة، أم نظرت في كرة البلور الزائف، أو أن غريزتها السادية هي التي أنذرتها بما سيحدث؟

حالما وصلت أسترود، الملاك بهيئتها الطيبة، وهي طالبة داخلية في مدرسة القلب الأقدس، من الريو لتعيش مع أختها، أنذرت الدونا دينورا حالاً دون أي سبب واضح، بالمأساة:

ـ سينتهي الأمر بالسوء...

هذا ما تنبأت به لدى رؤيتها الفتاة في السيارة مع صهرها، الدكتور فرانكولينو لايتي ـ ولقبه «الماجن فرانكو» ضمن دائرة أصدقائه الحميمين المحدودة ـ وهو محامي شركات كبيرة، وطنية وأجنبية، يعاقر الويسكي، صاحب مزرعة في السرتون[1] وعضو مجالس إدارة شركات ناجحة، سيد عظيم النّبل شديد العجرفة. كان يجلس وراء مقود سيارة السباق الكبيرة الأميركية ملتفحاً بالشّال غير منتبهٍ للغط عامّة الناس في سودريه، في أريال وفي شارع دا فورسا وفي كابيسا، في ساحة «الثاني من تموز». لكنّ الدونا دينورا كانت تلاحقه ولا تتركه يغيب عن بصرها. كانت تعرف أدقّ التفاصيل عن حياة الدارة الكبيرة المحترمة؛ فهي صديقة حميمة للطاهيات والنادلات وللغلمان والبستاني وحتى للسائق. كانت ترمق المحامي وابنة حميه بعينين زاخرتين بالهواجس:

ـ سينتهي الأمر بسوء، سترون... وضعوا البارود قرب النار...

لم تتأثر بهيئة الطالبة البريئة:

---

(١) SERTAO: منطقة ريفية في شمالي شرق البرازيل تتعرض للجفاف أحياناً.

ـ فتاة دنيئة النظرة قليلة الحياء تتحيّن الفرصة المناسبة...

بدا اتهامها في منتهى الظلم بعيداً عن المعقول لدرجة أنها سمعت كلمات قاسية وأهينت بإشارات استهجان من فتى جار للعائلة المذكورة، هو كارلوس باستوس، معادٍ للقال والقيل وربما سحرته أسترود الحلوة:

ـ لا تلوثي طهارة الفتاة بلسانكِ المُفتري...

وحينما انفجرت الفضيحة، بعد سنتين تقريباً، حين طردت الأخت الغاضبة أسترود البريئة المظهر ـ ببطنها الحامل بخمسة أشهر من تحت سقف المنزل مع الماجن فرانكو ذي البطن المشبع ـ شكّل ذلك أدسم طعام للمدينة بأسرها، وردّت الدونا دينورا الصّاع صاعين للرومانطيقي كارلوس باستوس (ربما كان لا يزال يحبها):

ـ هل رأيت أيها الأبله؟ لا أحد يخدعني... اللسان المفتري لا يضع طفلاً في بطن فتاة، بل قلة الحياء هي التي تؤدي بها إلى الحبل.

كانت لها عينان ثاقبتان تريان الآتي وتتنبأان بالمستقبل، تماماً كحاسة الشم عند كلب صيد، ولم ينجُ أحد من يقظة حواسّها. والأحرى بالقول إنّ الجيران أنفسهم كانوا يأتونها ليرووا لها خصوصياتهم الحميمة جداً، ولكي يطلبوا منها استعارة ورق اللعب والنّظر في الكرة البلورية. بالنسبة إليها كان الماضي والحاضر والمستقبل هي أوراق لعب مكشوفة، سهلة قراءتُها.

سواء أكانت لها معرفة حقيقية عميقة بالسحر أم لا، أم كانت مجرد هاوية تنجيم دون أن تكون لها معرفة عميقة به أم كانت معلمة في علوم الشّرق السريّة فالحقيقة تُقال: إنها هي أوّل من أعلن عن زواج الدونا فلور الجديد، حالما خفّفت الأرملة من حدادها لتعود إلى حياتها العادية، دون منغصات أو مشكلات، بحضور خجول، لا يخطر على بالها مطلقاً أي تفكير متعلق بالزواج ثانيةً.

لقد أعلنت عن العرس وميّزت وجه العريس قبل زمن طويل من بدء الكلام في مسألة الخطوبة، وبالتأكيد قبل أن تُدْرَك المشاعر والاهتمامات. فإذا وُجد عند « فلان » ميل خفيّ إلى الدونا فلور، فإن أحداً لم يعرف بوجوده، والأرجح أنه بالذات لم يعترف بذلك

لنفسه. حسناً، صدّقوا أو لا تصدّقوا لقد وصفت الدونا دينورا العريس بالتفصيل: أسمر متوسّط العمر، طويل متين البنية، شريف أنيق في الأربعين، جدّي التصرّفات، بشوش، يحمل في يده اليمنى عصاً مستقيمة، وبرعماً من الورد بلون النبيذ. هكذا تبينته في كرة البلّور. الدّامات [1] والملوك [2] والشبان [3] وآسات السبّاتي [4]، والقضبان والكوبا [5]، كلّها تؤكد لها ملامحه العامّة ونيته الشريفة في الزواج، مضيفة الإشارة إلى ممتلكاته وأمواله وذهبه أنه يمتلك مؤسسة اقتصادية، ويحمل لقب الدّكتور.

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٥): VALETES, REIS, DAMAS, ASES DE ESPADA, PAUS E COPAS:
أسماء ورق اللعب.

٣

حسناً، صحيح أن الأمير أسمر، لكنّه لم يكن متوسّط العمر، بل دون ذلك بسنين ولم يكن سيداً متين البنية، طويلاً، أربعينياً متأنقاً. فباستثناء سلوكه المحتشم وجماله كان في مسلكه الكثير من الغرابة. وأخيراً، كان من الصعب عليه حشر نفسه في إطار صورة عريس المستقبل كما رأته الدونا دينورا في كرتها البلّورية ونقلت صورته إلى الجماهير الشعبية في ساحة «الثاني من تموز»، وجعلت بذلك نقابة العواذل الشرسة تهيج وتموج على قدم وساق في حالة غليان..

كان رقيقاً شاحباً شحوب الشاعر الرومانطيقيّ والجيغولو، أسود الشعر أملسه، يرش البريانتين والعطر بلا حساب، وابتسامته تتردّد ما بين الكآبة والإقناع، يوحي بعالم من الأحلام، أنيق الجسم والثياب، عيناه واسعتان ضارعتان، العبارات الطيبة في وصف الأمير ستغدو رفيعة الأسلوب: «شبيه المرمر»، «ممتقع»، «مكتئب»، «وسيم»، «جبين الرخام المعرق وعينا العقيق اليماني». أكبر من الثلاثين لكنه يبدو وكأنه بالكاد قد تجاوز العشرين. أما الحزن الذي يغلف وجهه فهو من أدوات عمله، تماماً كالكلمة السهلة والنظرة الخادعة، فهو محترف ماهر ناجح في تخصصه الغريب النادر. فلْتعلموا أنه متخصص بالأرامل، بعد دراسة طويلة وخبرة عميقة.

عموماً هو معروف بالأمير في أوساط اللصوص وفي أوساط الشرطة (وأين هي الحدود، إذا وُجدت، التي تفصل بين هذين العالمين المتضادّين في الظاهر، المتشابهيْن في الواقع؟) لقد استحقّ لقبه عن جدارة لطيبة سلوكه، وإخلاصه في التعامل، ولنسبه. في

الحميمية الودود في شقق العازبين، ضمن نطاق الجانحات الضيّق كانوا ينادونه أيضاً بالسنيور دوس باسوس[1]، لوجهه الذي يبدو ضامراً وكأنّها من تأثير الصيام، ولهزاله. الواقع أن اسمه كان ادواردو، وهو من أنشط المحتالين في المدينة وألطفهم، وأفضل من يختلق قصص الاحتيال[2]. أما اسم عائلته فلن نذكره هنا لأنه ليس بذي أهميه في مسيرة قصة الدونا فلور وزوجيها الاثنين، نحو الأزمة والحلّ.

طالما عتّم الأمير على اسم عائلته؛ ولم تنشره الشرطة ما دام الشّاب الشجاع مستقيماً في تعامله معهم، والجرائد دعَمتْه في أعمدة صفحاتها، عندما تلحظ مروره (السريع عموماً) في السّجن، وهي الأخرى لم تورد اسم عائلته مستعيضةً عنه بالتعبير المبهم «المدعو»:

«أُلقي القبض أمس في ساحة دا سيه، على المتسكّع إدواردو المدعوّ المعروف في عالم الجريمة السفليّ بـ «الأمير»، وذلك بتهمة استغلال ثقة الأرملة جوليتا فيلول، التي تقيم في بارباليو، وغرّرها بالخطوبة ووعدها بالزواج، لكي يتردد على بيتها إلى أن اختفى مع مجوهراتها وكونتوين من الريالات من نقودها».

وهكذا اتفق الجميع على صون اسم عائلة اللّص وهي أسرة عريقة محترمة في فيرا[3] سانتانا. فإذا كانت السلطات والصحافة والإذاعة قد سلكت هذا النهج بالنسبة لإسم عائلة الأمير فلماذا نكون نحن الاستثناء السيء ونقذف إلى كلاب الوشاية والفضيحة بشرف واسم عائلة جليلة طالما استحقت الاحترام من الآخرين لتنهش فيها وتوردها موارد اليأس والقنوط؟ لنتصور المأساة التي كانت ستحدث فيما لو وقفت الدونا دينورا وجيشها من الطوباويات على حقيقة أقرباء المحتال، حتى ولا أحفادهم، ولا أحفاد أحفادهم سيستطيعون تنظيف اسم الأجداد «الملطّخ إلى الأبد بالوحل، الغارق في مستنقع العار» (كما يؤكّد الأستاذ ايبامينونداس سوزا بينتو). وفي الوقت نفسه وقعت الطوباويات جميعهن أسيرات بسحر طرق الأمير وشحوبه الرومنطيقي. حتى الدونا دينورا نفسها ألم

(١) SENHOR DOS PASSOS: رب الخطوات، من صفات السيد المسيح.

(٢) CONTO DE VIGARIO: شخص يروي قصة كاذبة بقصد الاحتيال.

(٣) FEIRA: سوق متنقل بين القرى أو بين أحياء المدينة، كل يوم في مكان على مدار الاسبوع.

تحاول، في لحظة معينة، تعديل ملامح نُبُوءتها لتدنيها من ملامح المخادع؟ كلّهن استبدّ بهنّ الغمّ حينما ظهر ميراندون مع زوجته وأبنائه الثلاثة، ليزور عرابته الدونا فلور، أعطى نبذة كاملة عن هويته قائلاً: «هذا المرء لا يربطه بالإنسانية إلا الاسم».

منذ البداية اتّسمت هذه القصة عن الأمير، الذي راح يجوب تلك الأنحاء بأناقته الخدّاعة، بالارتباك والعرقلة. وهذا كان مناخه العاديّ، جوّه المفضل، حيث يتحرك ويتصرف بمنتهى السهولة.

كانت الصديقات والثرثارات يتندرن ضاحكات بالوصف الذي قدّمته الدونا دينورا لعريس المستقبل، وسرعان ما ذاع الخبر من فم إلى فم. بين الثرثارات المزعجات، حين ظهر الأمير يسير على الأرصفة متنهداً سير رجل واقع في الحب.

جميعهن ضحكن متندّرات: الدونا نورما والدونا جيزا وآميليا رواس والدونا إيمينا، والطوباويات العواذل يبحثن بلا كلل ولا ملل عن الفارس الموصوف. لكن، والحقيقة تقال، لم تكن الإشبينات وحدهن اللواتي تورطْن في البحث العقيم، فالدونا جيزا نفسها جابَتْ بنظرتها السيكولوجية في مجموعة الذّكور في الجوار، باحثةً عن «الأربعيني المتعجرف». بالنسبة إلى الدونا نورما، حدّث ولا حرج، فبعد السهر الطيب على المتوفى وما تبعه من دفن من الدرجة الأولى، لم يكن هناك من أمر يبهجها أكثر من حدوث الخطوبة والزواج. ولن تستطيع إحصاء عدد الفتيات والفتيان الذين ساهمت بزواجهم حتى وقفوا أمام القاضي أو الكاهن، متغلبين على المصاعب، منتصرين على العوائق وعلى سوء فهم المعارضات الشرسة من عائلاتهم. فشلت فقط مع فالدولوير ريغو، وهو متردد لا مثيل له، ومع جارة لطيفة هي ماريا، وحيويتها أقلّ ممّا يجب. لكن حتى هنا لم تفقد الأمل في استقرار ماريا، ومن يدري؟ ربما مع فالدولوير بالذّات.

راحت الطوباويات والصديقات على حدٍّ سواء يبحثن بكدٍّ وجهد عن الشخصية الغامضة التي تنطبق عليها المزايا البدنية والخلقية للنبوءة، ثـمّ ألم تكن الدونا دينورا بخيلة في تبصيرها، في تنبّؤاتها غير المكتملة؟ فإذا كان عليها أن تصف عريس المستقبل، فلا يجب أن تخفي أيّ تفصيل؛ كانت تصفه بمرح وتبذير بخصائص وملامح عامة واسعة الإطار. فمن الصّعب

بمكان أن نحدّد بواسطة الوصف صورة الفارس باكتمال دقيق. فلمن توفّر مجموعة التفاصيل المتعدّدة؟

راحت الطوباويات ينطلقن من مواطن إلى آخر في الجوار وأبعد، ولم يعثرن على من تنطبق عليه كلّ الأوصاف. البعض من خريجي الجامعات كان لديهم بعض المال، لكنهم ليسوا في السن المطلوبة اللازمة. وآخرون كانوا في السنّ المناسبة لكنّهم يفتقرون إلى السُّمرة وخاتم التخرّج ناهيك عن بعض التّفاصيل الثّانوية ومع كل ذلك ظهر مرشحون عديدون، وراحت كلّ تقدم مرشحها، هذا إذا لم تحضّر أكثر من واحد كاحتياط.

وكانت الدونا فلور تسخر من الملهاة الكبرى، مبتسمة بوداعة. لمَ تضيع وقتها؟ إن فكرة الخطوبة والزواج لا تخطر إلا في ذهن الدونا دينورا، لا في ذهنها هي ولـمّا ينصرم غير سنة على وفاة زوجها، وهي فترة أقصر من أن تستنفد بكاء الأرملة وتمجيد ذكراه وغيابه.
غيرها من الارامل يستطعن الزواج مجددا بعد ثمانية آشهر من الحداد، إذا أردن ذلك. أمّا هي، فلِمَ تتزوّج إذا كان لديها كلّ ما تحتاجه، إذا كانت تؤمّن مأكلها وملبسها من تلميذات مدرسة الطهي، وإذا كانت صديقاتها، وهنّ كثيرات وطيبات، يُحِطْنها بأسباب الرّاحة. فإذا لم تكن تفتقد دفء الرجل لتلك الأمور التي ماتت ودفنتها إلى الأبد، فلماذا تتزوّج؟

كانت تواجه التحريضات الودّيّة ومحاولات الدونا نورما والدونا جيزا اللتين كانتا، هما أيضاً، تقدّمان لها رؤوس المرشحين على أطباق الصداقة بابتسامة شبه حزينة وباطمئنان إلى نيّتها التي لم تتغيّر.

كان مرشح الدونا جيزا المدرس المثقف أيبامينونداس سوزا بينتو، العازب الناضج، أستاذ في المدارس الثانوية الخاصة والمؤرخ في أوقات فراغه. كان دائماً على عجلة من أمره ويتصبّب منه العرق، سيّء الهندام، يرتدي بذلة بيضاء بصدار ومنطقتين من الجلد فوق فردتَيْ حذائه وهو يحثّ الخطى نحو الستين عاماً، متقلّب نوعا، تافه. كانت الدونا فلور تعرفه وتقدّره، لكن إذا كان لابد لها من أن تقلع عن تصميمها الراسخ في أن تظلّ أرملة فلن يكون ذلك بالتأكيد كي تتحول إلى زوجة للمدرّس مهما بلغت فصاحته ونبرته الخطابية

وبساطة ذوقه (ناهيك أمانته وأناقته، وفذلكته اللغوية). كم ضحكت الدونا فلور، صحيح أنها أرملة فقيرة، لكن القطار لم يفتها بعد.

وضحكت معها صديقاتها. الدونا نورما ترددت بين عديدين، إذ كانت تعرف نصف الناس. الدونا آميليا، في جولاتها مع كثير من الآخرين. الدونا إيمينا [١]، التي تناطح لمرشّحها ماميدي [٢]، أحد مواطنيها السوريين [٣]، وزميلها في الترمل وجمع الأشياء القديمة، وهو جار غير مقيم على نحو متواصل؛ يلبث في الولاية لشراء أيقونات قديسين عتيقة ومقاعد مهشمة وبلّور مشطور وحتى أصص عتيقة. ماذا؟ ماميدي؟ إنه دميم مثل الحاجة، وأسوأ بكثير من المدرّس إيبامينونداس؛ كان هذا رأي الدونا فلور.

حتى الدونا إينايدي تكلّفت مشقّة الحضور من شامي - شامي، وفي قبضتها مرشح للزواج، شقيق زوجها المعروف في الأماكن النائية المنخفضة من نهر سان فرانسيسكو، أسمر في الخامسة والأربعين، أقرع هزيل جداً، لكنه مرح ومسلٍ جمع ثروة لا بأس بها رجلٌ موفّق واسمه آلويزيو. كان بين كل المرشحين الأشبه بوصف الدونا دينورا، هذا، إذا وثقنا بكلام الدونا إينايدي. فهو حائز خصوصاً على لقب الدكتور لأنه محامٍ بالممارسة لا بالشهادة، له عملاؤه، وذلك قبل أن يتورّط بالسياسة وبؤسها.

عيبه الوحيد أنه لم يكن عازباً إلا في العرف الديني، أما في العرف المدني فكان متزوجاً. ساءت الحال بينه وبين زوجته، فانفصل عنها منذ أكثر من عشر سنوات. حينما كان فتياً كان ماسونياً ومناهضاً للأكليروس، لذا، استخف بالزواج في الكنيسة، لكنّه الآن مستعد للقبول بزواج كنَسيّ إذا أصرت العروس عليه. لماذا لا ترضى الدونا فلور بزواج يعقده القسّ، وهو في نظر معظم الناس الزواج الوحيد الصالح، لأنه مبارك من الرّب، أما الزواج المدني فليس أكثر من مجرد عقد بسيط مثبت أمام القاضي، كأنه صفقة تجارية بحتة؟ لقد كتبت الدونا إينايدي رسالة إلى قريبها تمدح له فيها جمال الدونا فلور وطيبتها. «أكون مجنونة لو فكّرت بالزواج، ومجنونة أكثر لو اتخذْتُ عشيقاً سواء بمباركة الله أم من غير

---

(١) EMINA: في العربية «أمينة».

(٢) MAMEDE: تحريف لاسم «محمد».

(٣) تطلق تسمية السوريين على جميع العرب وخصوصاً اللبنانيين.

مباركته » ناهيك عن العيش في تخوم جوداس، عند ضفاف نهر سان فرانسيسكو حيث الملاريا. أوضحت الدونا فلور أنها غير مؤهلة لذلك، وها هي الدونا إينايدي، التي تدّعي أنّها صديقتها، تأتي من شامي - شامي لتعرض عليها العار والنفي. هذه مسخرة، للضحك لا أكثر ولا أقل.

كان لكل مرشح صفات تُميّزه تتوافق إلى حدّ معيّن مع نموذج الدونا دينورا. لكنّ الأمير كان الأقلّ شبهاً بين الجميع بالنموذج المذكور: فلا مال لديه ولا لقب الدكتور، وعمره غير مناسب وكذلك الطول الفارع. وعندما بدأ تمركزه في الشارع وراح يقيس بخطى مضطربة رصيف بيت الأرجنتيني المؤلف من طابقين المواجه لنوافذ « مدرّسة الطهي تذوّق وفن » عزت الدونا فلور ظهوره الشاعري إلى اهتمام عاطفيّ بتلميذة شابة أو تدبر لقاء امرأة متزوجة غير محتشمة.

كان من الشائع أن تأتي فتاة بمعيّة حبيبها الذي يعود متنهداً ثانية إلى ناصية الشارع قبيل نهاية الدروس ليرافقها في طريق العودة. وهناك متزوجات يستخدمن المدرسة ستاراً لأعمالهنّ المخجلة ليغرسن زوجاً من القرون في جبين كل زوج من أزواجهن، مستغلاّت التوقيت المرن للصف أفضل استغلال. يظهرن في درس واحد، ثم يتهرّبن من الدرس التالي أو، حسناً، يحضرن بداية الدرس حين تملي الدونا فلور عليهن وهن يكتبن في دفاتر عناصر الكيتوتي، وبهذا يصنعن في بيوتهن البرهان العمليّ على ارتيادهن للمدرسة. أما الحقيقة فهي: نصف ساعة في المدرسة، وساعة ونصف الساعة في شقق العازبين!

هكذا، حينما رأته الدونا فلور خامداً لصق العمود يدخن بلا توقف، منتظراً، تصوّرته حبيب فتاة معينة. على الأرجح حبيب أصغرهن فقد كان وجه ولد.

ومرّت الأيام، ولم يفاجئها بصحبة أية تلميذة، وما فتئت تراه دائماً هناك طوال ساعات حتى في الليل، يرمق نوافذها. حتى استنتجت، إزاء هذا التوقيت المستحيل، أن لا شيء مشتركاً بين إلحاح العاشق وتلميذات الفرن والطباخ. لكن إذا لم يكن يهتم لتلميذة من مدرستها، فما هو هدف نظراته وتنهداته؟

المؤكد أن ماريلدا، ليست أيضاً هدف حضوره الكئيب. ولو رأى إنسانٌ ما الفتاة

تقضي في بيت المدرّسة وقتاً أطول مما تقضيه في بيتها بالذات، لتصوّر أنها شقيقة الدونا فلور أو ابنة أخيها. وكلتاهما. كانتا تتمتّعان بنفس لون البشرة الحلو، السمراء التي لا تضاهى كزهرة الشاي، كزهرة المتّي[1] الرائعة فهي مزيج من الدم الهندي مع الزنجي ومع الأبيض ليخلق هذا الخليط المتقن.

ترى أهي ماريلدا التي أثارت المتنهد أو جعلته على مثل هذا الإحباط؟ لقد بلغت الفتاة السن التي تتيح لها أن تحب. بعد سنتين ستنهي دراستها التعليمية وتصبح خليقة بالخطوبة والزواج. لقد تنبهت للوضع، أي اهتمام المذكور، لكنها عزّته إلى اهتمام بغيرها. مثلاً بماريا المرتابة أو ابنتي الدكتور إيفيس الجميلتين وربما بالمدرّسة الصغيرة بالبينا، من يدري؟ لكن أيّاً من هؤلاء لم تكن تعيش في مواجهة العمود، ولن يتبيّن من هناك نوافذها، والحقيقة أنه ظلّ يحدّق في نوافذ قاعة الزوار في بيت الدونا فلور، حيث تلبث ماريلدا طويلاً مصغيةً إلى المذياع تقرأ الروايات من «مجموعة البنت والشابة»، وكان بمقدورها أن ترى من هناك المراقب العنيد والكئيب في وقفته.

نظرتا إليه من ثقب النافذة: «إنّه جميل». تنهدت ماريلدا ذات القلب المتقلّب وقد أضحى مستعداً للتضحية بعلاقتها الغرامية مع ميسيناس، زميلها في المدرسة، المراهق الذي في عمرها بالذات. ووافقتها الدونا فلور: «غرام مراهقة فهو ما يزال حدثاً، لم يبلغ أكثر من ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين سنة. وسعيتا للحصول على معلومات، لمعرفة ما إذا كان يمارس عملاً حراً مربحاً، أو إذا كان موظفاً وظيفة حسنة في مصرف. أو مكتب ما. قد يكون ثرياً، وهذا ما يبدو، وإلا لم يكن ليجد الوقت الكافي لاستعراض نفسه في الشارع، مستنداً إلى العمود أمام منزل الدونا فلور.

أنفقت ماريلدا ابتساماتها بلا طائل، إذ لم يتجاوب معها. راحت تخرج من المنزل في اتجاه الساحة أو حسناً، إلى حيث تجلس مرتابة عند حاجز فناء كنيسة سانتا تيريـزا، أمثل مكان لتصريحات الحبّ وحلف الأيمان ولم يوجد ولن يوجد قطّ مكانٌ أفضل منه للغرام بسمائه الزرقاء القريبة جداً، والبحر تحته أخضر داكن، وجدران المعبد الدهرية، وأيضاً،

---

(١) MATE: عشب يغلي مع الماء يصنع منه شاياً، أو يوضع مغلياً في قرعة جافة ويمتص بأنبوب معدني.

بالتأكيد، بركة الدون كليمينتي المتفهّمة لأيّ قبلة شاذة هرطوقية.

مع هذا، لم يلحقها الأمير، لا إلى ضجة الساحة، ولا إلى سلام المكان المرتفع فوق المياه وصمته. لم يهجر العمود كما لو كان مسمّراً إليه، وقد ثبّت عينيه على نوافذ المدرسة. حسناً، إذا لم تكن ماريلدا هدف تنهّداته فلمن تكون إلا للدونا فلور بالذات؟

هذا ما استخلصته الإشبينات والصّديقات وحتى ماريلدا بالرغم من صغر سنها وقلّة تجربتها:

ـ أراه يضع عينه عليكِ، يا فلور.

ـ عليّ؟ هل جننتِ؟..

بعد ذلك بأيام، عندما ذهبت لشراء الحاجيّات مع الدونا نورما من متاجر شارع التشيلي رافقهما مستقلاً معها الترام ذاته، وهو يدخن لفافة إثر لفافة ويبتسم بعذوبة ورقة متناهيتين. كادت الدونا نورما أن تغضب عندما تنبهت إليه، متخيلة الدونا فلور تخفي أسرارها عنها.

ـ حسناً جداً... ها أنتِ تطلبين الزواج ولا تقولين لي شيئا...

ـ لا أعلم من هو... يعيش مزروعاً منذ بضعة أيام في مواجهة بيتي، لم أره من قبل قطّ، اعتقدت أن للأمر علاقة بتلميذة معينة، لكنني تبيّنْتُ خلاف ذلك. وقلت ربما لماريلدا على ما يبدو، لكن الأمر لم يكن متعلقاً بها هي الأخرى. بل إن المسكينة الصغيرة أضحت حزينة. لا أعلم ماذا أقول...

تفحّصت الدونا نورما وهي مُثارة تماماً، الأنيق جداً بنظرات طويلة مباشرة حتى هي نفسها فكرت بأنها نظرات غير محتشمة وقالت:

ـ «جميل جداً... إنما يبدو عصرياً أكثر من اللازم...» وبعد نظرات جديدة، صححت قائلة: «ليس عصرياً جداً بل والحقيقة تقال هو أجمل ممّا يتلاءم مع ذوقي...».

ـ جميل أم دميم، لا يهمّني...

قفزتا من الترام، وهو وراءهما. في لحظة حاولت الدونا نورما تضليله ليفقد أثرهما.

وسرعان ما توضّح الأمر تماماً، لم يحاول الاقتراب أو أن يوجه إليهما أيّ كلمة، لكنّه احتفظ بمسافة حذرة منهما مع ابتسامته المغرية ونظرته الضّارعة، فلم تغيبا عن نظره لحظةً واحدةً. فإذا دخلتا متجراً، ينتظرهما على الباب، وإذا انعطفتا يتبعهما، وإذا وقفتا أمام واجهة يراقبهما من الواجهة الملاصقة. هل ما زال هناك أي شك في قصده؟

بدأت الإشبينات يأتين زرافات ووحدانا ليتلصّصن عليه وهو واقف عند العمود. وبما أنه كان جميلاً ويبدو بائساً، وبما أنّ نظرته وابتسامته تفيضان رقّةً وعذوبةً وأملاً فقد كان ذلك كله، لمصلحته، حتى حاولن جعله يتطابق مع ملامح العريس التي كشفتها كرة البلّور. أما كان أسمر محتشماً، ربما كان دكتوراً وذا مال؟ أما بالنسبة إلى العمر والخصائص البدنية الأخرى، فربما يعود عدم تطابقه معها إلى قصر نظر الدونا دينورا، التي رأت النضج حيث كان يجب أن ترى الشّباب والجذع القوي حيث كان يتواجد الصدر الضعيف والصحة الحديدية مكان الضعف الشاحب. وارتأت كلّ الإشبينات أن من الأفضل للمبصّرة أن تستشير من جديد كرة البلّور والورق لتصحّح تلك التناقضات المبهمة.

وهذا ما فعلته الدونا دينورا نزولاً عند إلحاح الحيّ المضطرب، وأحاطت إدواردو، أمير الأرامل، الذي أرسى مركبه عند عمود الكهرباء موجة متنامية حيث كان يرمق بيت الدونا فلور، محطته القادمة، الميناء الذي سيُزوّده بالماء والمؤن.

لكن الذي حدث أن تكرّر في كرة البلّور وفي قراءة الورق ظهور الصورة الجانبية الحيّة للأربعيني الأنيق بخاتم الدرجة العلمية ووردته التي بلون النبيذ. ولأن الرؤية مغشّاة بالدّخان، كما يحدث دائماً في غموض التطهير، لم تستطع الدونا دينورا التدقيق في خصائص الحجر الكريم في خاتم الدكتور، والذي يظهر مهنته، لكن بوسعها أن تؤكد تأكيداً مطلقاً مع شيء من الحسرة على الشاب الشاحب المتنهد في الزاوية، أن لا شيء مشتركاً بينه وبين طالب الزواج الحقيقيّ، فعريس المستقبل سيظهر لاحقاً.

وكَمْ كدّتْ وجهدَتْ، منحنية على البلوْرة الشفّافة، أو فوق ورق اللعب المكشوف مركزةً على الهنود الذين يطفون بشفافية في نهر الغانج، على أساطير معابد التيبت السرية، دون نتيجة. ظلت قوى السحر الشرقي الخفيّة مصرّة على قرارها الراسخ بنفي مرور الأمير

إدواردو (المذكور). أما في سحر الكاندومبليه، في الأضاحي المقدّسة من حمام وديوك، وثور أسود من قبل ديونيزيا ده أوشوصي لتصون عرّابتها الدونا فلور من الأعمال الشريرة للملاعين المحتالين، فقام إيشو[1] بإغلاق الدروب أمامهم موصداً الأبواب أمام الغاوي ملاطف النساء، الأخصائي بلا منافس، في مؤاساة الأرامل، سارقاً قلوبهن المستوحشة، وفي طريقه أيضاً يسرق ممتلكاتهنّ وتوفيراتهن. النحاسات والفضّة والخواتم والمجوهرات.

---

(١) EXU : من آلهة الزنوج البرازيليين ذات المنشأ الافريقي، وهو إله شرير في أساطير زنوج باهيا خصائصه شبيهة بخصائص الشيطان.

٤

اجتازت الدونا فلور باضطراب عاصف وباستنفاد بريء للوقت شهور ترمّلها الثمانية بعد حزنها الشديد الأول. فكانت تخرج قليلاً لتخفف من وطأة حدادها في زيارات إلى الخالة والعم في ريو فيرميليو، أو إلى أقرب صديقاتها الحميمات؛ وتملأ وقتها بأعمال البيت، بالتدريس، بالتوصيات على الأطعمة، بالجيران. في حزيران طهت أطباق[1] الكانجيكا[2] وأطباق البامونيا[3] والمانويه[4]، وقطّرت شرابها الروحي من الفاكهة، شرابها المشهور من الجيني بابو[5]. خلال فترة الثلاثة شهور الأولى من الحداد لم تفتح بابها لأحد في ليالي القديسين أنطونيوس، ويوحنا، ولا في عيد القديس بطرس، شفيع الأرامل. أوقد أولاد الحي شعلة على بابها وقدموا ليأكلوا الكانجيكا؛ كانت معهم الدونا نورما والدونا جيزا وثلاث أو أربع صديقات مقرّبات دون احتفال. كلّ أطباق الكانجيكا تلك وأطباق البامونيا وقناني الشّراب، قدّمت هدايا للخالة والعم وللأصدقاء ولتلميذاتها، في الطقوس الدينية في شهر حزيران، شهر الاحتفالات بالذرة.

أما بعد الشهر السادس وإلى حين ظهور الأمير، في كانون الثاني، فقد تنامت نشاطاتها الاجتماعية إلى حدٍّ بعيد. لقد تخفَّفت من حدادها في أيلول عشية الأحد الأول، وهو مناسبة

---

(١) في الأصل أوعية من الفخار عريضة قليلة العمق.

(٢) ثريد يتألف من الذرة الخضراء يضاف إليها السكر وحليب جوز الهند والقرفة.

(٣) نوع من أقراص الحلوى المصنوعة من الذرة الخضراء وحليب جوز الهند والزبدة والقرفة والسكر.

(٤) MANUE: أقراص حلوى مصنوعة من الذرة والعسل.

(٥) ورد ذكرها سابقاً.

مقدسة يُقدّم فيه الكارورو [١] السنوي بعيديْ القديسين كوزمي وداميان، وهو ما كان يعبده الرّاحل؛ فحين كان حياً كانت الاحتفالات تبدأ عند الصباح الباكر، مع الفجر حيث تُطلق المفرقعات، وتنتهي في وقت متأخر من الليل باحتفال صاخب رائع، والبيت مشرّع الأبواب للأصدقاء كما للغرباء. وسيراً على العادة المتّبعة، طهت الدونا فلور الكارورو وقدمته بشكل محدود إلى بعض الجيران والأصدقاء، وهكذا وفت بالتزامها إزاء الميت. وجاء ميراندون مع زوجته وأبنائه، أما ديونيزيا ده أوشوصي فلم يأتِ معها سوى طفلها إذ أن سميّ زوجها المتوفي كان يغلفه غبار الطرق وهو ينقل شحنة إلى أراكاجو [٢]، وببنيدو [٣] وماسيو [٤].

كانت الصديقات يجرجرن أقدامهن للقيام بالمشتروات والزيارات والنزهات إلى دور السينما فحضرت مرّتين عرضاً لبرولوبيو قدمها مع فرقته على مسرح غواراني. ذهبت أولاً مع الدونا نورما والسيد سامبايو، والمرّة الثانية ذهبت مع الدكتور إيفيس والدونا إيمينا، وفي كلتا المرّتين ضحكت ضحكاً متواصلاً.

أحياناً كانت تبقى في البيت، ترفض دعوة ملحاحة، فمثل هذه الطلبات الكثيرة كانت تتعبها. وهذا التعب هو المسؤول في رأيها عن أحاسيس معيّنة مزعجة من الصّعب تحديدها؛ كما لو أن الحركة والعمل والضحك لا تكفي لملء حياتها، فتغدو فجأة قانطة وكل ذلك يرهقها إرهاقاً مفرطاً. ليس ارهاقاً جسدياً فمثل هذا الإرهاق ينفع دائماً إذ يجعلها تنام الليل بأكمله نوماً ثقيلاً لا تنغّصه الأحلام. أمّا هذا الإرهاق فهو استهلاك داخلي، عدم رضى.

لكنها، مع ذلك، لم تحس بالمرارة، ولم يدم اكتئابها؛ فحياتها أضحت مرحة وسارّة كما لم تكن يوماً من قبل. صارت تخرج وتتنزّه، هناك ألف أمرٍ وأمرْ يُشغلها، ناهيك عن المدرسة وما تؤمّنه لها مسؤوليتها فيها من تسلية. كما كان القنوط ذاك الذي يسيطر عليها من حين لآخر مجرد غيمة تعبر أيامها الناصعة القلقة الفرحة. كان لديها صديقاتها والخالة والعم العزيزان وصحبة ماريلدا الدائمة، وهي في مقام أختها الصغرى، بل في مقام ابنتها

---

(١) CARURU: طعام معد من القريدس أو السمك مقليّ بزيت الديندية مع توابل وكثير من البهار.

(٢) و(٣) و(٤): ثلاث مدن في شمالي غرب البرازيل.

فتروي لها أحلامها، رغبتها في الغناء في الإذاعة. كان لديها النّزهات والمذياع، المقطوعات الموسيقية والقصص، البرامج الهزلية، روايات «سلسلة للآنسات» تواظب عليها وتثيرها. هناك، القال والقيل من الإشبينات والرجم بالغيب من الدونا دينورا وأكوام المرشحين لطلب يدها حسب رغبة الجيران. ماذا عسى طالبو الزواج يقولون لو علموا بسوق الرقيق الجديد هذا، هذه المهزلة المضحكة، حينما كانوا يقدّمون لها بعد وصف صاخب وتحليل مثابر لفضائلهم ولنقائصهم، بين التعليقات والنّكات والقهقهات المتواصلة؟ كانوا مرشحين دون علمهم وربّما دون رغبتهم، ورغم ذلك كانت ترفضهم واحداً إثر واحد:

ـ السيد رايموندو ده أوليفيرا، أين منهم؟ ذلك مساعد الناسك الذي يعمل مع السيد ألفريدو؟ تجمّلي بالصبر يا جاسي، صحيح أنه طيب، لكن ذلك الوجه الحزين، وذلك النمط من العيش في الكنيسة... تدبّري آخر، اعملي معروفاً...

الآخرون لم يكونوا صالحين على كل حال؛ حينما بخست أرصدتهم من الجمال الذكوري مع مزاياهم كمواطنين، آه! هؤلاء كانوا جميعاً متزوجين، ولا واحد منهم كان عازباً أو أرملاً؛ فالمدرس اينريكي أوزفالد، من مدرسة الفنون الجميلة، قريب أسرة آريال. المهندس شافيس، مع عمل[1] له سيصدر عمّا قريب، كان صارخ الأناقة. السيد كارليتوس مايا في وكالة السياحة المزعزعة. والإسباني ميندز. والسيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى. ثم ذلك الذي كانت الفتيات يتنهدن له خفيةً. إذ ما كانت الدونا نايير لتسكت عن إثارة زوجها حتى ولا ظنّاً، كان جيناريو ده كارفاليو أجمل من أي ممثّل سينمائيّ في رأي النسوة.

حملت الدونا فلور رواية الزواج الجديد تلك على محمل المزاح، لكن المزاح تحوّل عند الآخرين إلى وفرة من المشاريع والمرشحين.

هكذا ظلّت حياتها تجري هادئة وفي الوقت نفسه شيّقةً، إلى أن جاء الصيف[2] في

---

(١) أوبرا: عمل فنّي أو أدبيّ.

(٢) الصيف في أميركا الجنوبية هو الشتاء عندنا، وشهوره هي نفس شهور الشتاء: كانون الأول وكانون الثاني وشباط.

كانون ثان قائظٍ ومعه جاء الأمير ينـزرع عند قاعدة العمود الكهربائي كما لو أنه تجذّر هناك.

بدءاً من يوم المشتروات مع الدونا نورما في شارع التشيلي، لم يبق هناك شك في هوية ملهمة الشاب المتقع صاحب التنهدات العميقة والنظرات الفاترة. احترقت الدونا فلور خجلاً كأن ذلك الاهتمام يحمل في طيّاته إهانة خطيرة في وضعها أو يعني أنها لم تحسن استبقاء نفسها ضمن حدود التواضع والرّصانة المطلوبين أشد الطلب في أرملة ما. ترى أكانت أرملة تُكثر من الضحك أو من مغادرة منزلها إلى درجة سمحت لمتهوّر ما بأن يدّعي الحق بأن يطوف حول بيتها ويتلصّص من نوافذها؟ يا للإهانة! يا للعار! ترى ما هو غرضه؟

لا شك أن نيته سيئة. راحت الدونا فلور تغلق الأبواب والنوافذ فيما الدونا نورما تنصحها بألا تستعجل. صحيح أنها ـ أي الدونا نورما لم تتعاطف مع ذلك الإنسان ـ والواقع أنها تشتبه بمن يملك مثل ذلك الشعر الأزرق الكحليّ، الجميل «فوجهه وجه ولد وتصرفاتـه تصرفات محتال» لكن من يضمن أنهما ليستا مخطئتيْن وأن قصده ربما كان شريفاً ونيته حسنة، وأنّه بالذات طيب مستقيم جديرٌ بالاحترام، وربما، بنيل يد الدونا فلور وحنانها!

سواء أكان جديراً بذلك أم لا، فالمهمّ أن الأرملة ما كانت راضية عن حياتها. ونية الزواج مجدداً كانت أضعف من أن تجعلها رهن صغير غزل تحت نوافذها يراودها عن نفسها كما لو كانت من الطائشات اللواتي يتجرّدن من حدادهن في شقق العازبين ويغلّفن بالعار أضرحة أزواجهن. سعت الدونا نورما إلى تهدئتها. فلِمَ ردة الفعـل العنيفـة هـذه، لِـمَ كـل هذه الكراهية للشاب الذي لا يزال إلى الآن محترماً والذي لم يتعدّ بعد حدود النّظرات والمرافقة عن بعد؟ وما كانت الدونا فلور أخيراً من السذاجة بحيث تتصور أنّها على هامش مغازلات الرّجال وتأملاتهم وأغراضهم الشريفة أو الدنيئة. فهي شابة وجميلة ووحيدة، فلماذا لا يرغبونها ويحاولون الحصول على نعمها؟ من جهة في ذلك تكريم لحسنها الباهر وبرهان على بائناتها وسحرها. لكن الدونا فلور لا تتزحزح عن قرارها في البقاء أرملةً، حسناً جداً؛ الدونا نورما لا توافق على مثل هذه البلاهة لكنها لن تناقشها الآن. إنما لأي سبب تسيء معاملة من يقصدها بنية الزواج الشريفة؟ لماذا لا ترفضه بلطف: «هذا يزيدني شرفاً، لكني

بلهاء ، فرجي لم يعد له استعمال بعد اليوم ، إلا للتبوّل ، ولا أريد أن أسمع سيرة الزواج . . . » .

ضحكت الدونا فلور من سلاطة لسان صديقتها ، لكنّها ظلّت على فورة سخطها الأولى ، وعادت من جولتها الشرائية والمتوسّل في أثرها ثم طرقت النوافذ بوجهه . تردّد لحظات ، ونظر يمنةً ويسرةً ثم انسحب في خجل وغمّ .

من خلال شقوق نوافذهن ، كانت الإشبينات يشاهدن المشهد ، وجيمعهن غير موافقات على تصرّف الدونا فلور ، خصوصاً الدونا جيزا ، الشاهدة على الحادث ؛ الدونا جيزا المتمرّسة جداً بقراءة الكتب ، في دراسة النصوص ، لكنها في منتهى السذاجة ، بل البلاهة في مجال التعامل مع الناس . « أواه ! » تمتمت مؤنبة ، لدى رؤيتها ما جنته يدا الدونا فلور من تصرّف خشن ، وكان هتافها بلسماً للدون جوان المهان . « مسكين هذا الشاب ، ضحية العادات الرجعيّة ، الخرافة والتّخلف » .

كان هذا أقصى ما ينتظره الشاب المسكين ، وهكذا هناك وسط الشارع ، وفي مناجاة مندفعة تستدر الدّموع ، فتح قلبه وأودع بين يديْ الغرنغا مقاصده الشريفة ، حبه المُثار وحسرته المرعبة . وقدّم نفسه ؛ أوتونييل لوبيس ، خادمكِ وبتصرّفكِ ، تاجر من إيتابونا ، صاحب متجر للأقمشة واعتماد في المصارف ، مالك لحقلٍ صغيرٍ من الكاكاو ، هذا كلّ شيء . عازب ، لكنه يرغب في الزواج ، وقد أتمّ الثلاثين من عمره . قدم إلى العاصمة للنزهة مع الاهتمام ببعض الأعمال ، لمح الدونا فلور صدفة ، فأمسى مفتقداً الراحة وسلام النفس . مجنون ؟ هراء ! بل هو متيّم لدرجة أن الحياة تبدو بلا جدوى إذا لم تصغ إلى توسلاته . وكان يعرف أنها أرملة ورصينة ، وهذا يكفيه ؛ ولا أهمية لخلاف ذلك . بل يفضّلها فقيرة فأملاكه ، أوتونييل ، تعطي وتفيض بحيث يعيشان معاً عيشاً رغيداً .

سُرّت الدونا جيزا بقصة المحتال[1] . فالأمير حسن السلوك يفوح برائحة المكائد . وقد حرّض الدونا جيزا على ان تعرف كل المعلومات . كان فقيراً ضمن حدود معيّنة ، لكنّ

---

(١) CONTO-DE-VIGARISTA : احتيال بقصد الاستيلاء على المال ؛ والكلمة مأخوذة من القصة التي ابتدعها محتال معروف لشخص ساذج حيث أودعه صرة فيها أوراق لا قيمة لها على أساس أنها نقود ، ليَستلف من الصحية مبلغا من المال لقاء هذه « الضمانة » .

الدونا فلور ما كانت مليونيرة ولا بائسة متسولة. فمع المدرسة وفي غياب زوج سرق مكاسبها، كان لديها صندوق للتوفير [1]، وبعض النقود تحملها معها، فهي مثلها مثل معظم أبناء ولاية بارا - تفضل أن تضع مالها في البيت بدلاً من أن توظفه في المصرف بالفائدة. أناس متخلّفو الذّهنية. حدّدت جيزا وهي غير قادرة على إخفاء تفكيرها وضبط انتقادها للأخطاء والأمور غير المعقولة. « ذات يوم سيعلم أحد اللصوص بالنقود، ويأتي ليسرقها، هل سيكون ذلك جيداً ؟ » لكنّ سافلاً قذراً وحده الذي يفكر سرقة الدونا فلور، وردّت عن الأمير معتبرة طريقة تصرّفه نحو الأرملة برهاناً على طيبة شخصيّته، على عدم اهتمامه بالممتلكات المادية، على عدم وجود طمع لديه. كان يريد زوجة ورفيقة تكون بالضبط مثلها مستقيمة وبسيطة. وشيئاً فشيئاً، في تنميق نثري، زوّدت الدونا جيزا اللص بسجلّ كامل عن الدونا فلور، خصوصاً مجوهراتها القليلة؛ وعقدها الفيروزيّ الأوروبي، وأقراطها الذهبية المحلاّة بفصوص البرلنت الحقيقي وهي قطعة قديمة من مقتنيات الخالة ليتا، علاوة على القطط والحديقة، ولوحات الزوج المائية. وبما أنها لم تتزيّن بالأقراط قطّ، وهي إرث لابنة أختها فقد عهدت بها إليها أمانة بين يديها، لتحتفظ بها. وهكذا يكون بوسع الدونا فلور أن تستعملها متى تشوّقت إلى ذلك. وإن كانت تتردّد في دفعها إليها، لأنها الضمانة الوحيدة لعوز شيخوختها أو لمرض مزمن، أو لمستشفى مع جراحة أو حريق في البيت، لأيّ نكبة كانت، ومن منّا في منأى من أن يجد نفسه يوماً في حاجة غير متوقعة ؟

انتهى الأمر بالدونا جيزا بأن أصبحت مدّعية عامّة ومحامية عن المنافق. وألحّت على الدونا فلور أن تستقبل ابن إتابونا [2] هذا وتسمتع إليه، حتى ولو لترفضه رفضاً كاملاً. جلّ ما يريده الأمير هو أن تستقبله، فقد كانت ثقته كبيرة بخيلائه، مغتراً جداً بنفسه. لن يفشل أبداً. لو يتمكن من جعلها تصغي إليه، لأصبحت الخطبة أمراً مؤكداً، ولأصبح مال الأرملة ماله، فلا توجد امرأة تقدر على مقاومة فصاحته.

تلك العشية بعد الدروس، أضاءت ماريلدا النور في قاعة الاستقبال في بيت الدونا

---

(١) PE-DE-MEIA : صندوق صغير مغلق له فتحة في أعلاه توضع من خلالها النقود. « قجة » في العامية اللبنانية.

(٢) مدينة في ولاية باهيا.

فلور، وفتحت المذياع ثم فتحت النافذة. فلم تر قرب العمود الفارس[1] الدائم في مكانه. نادت صديقتها، وأرتها المكان الفارغ من طالب الزواج.

وصفت لها الدونا فلور آخر إنجازاتها لقد مضى الشخص مطروداً. ولم يغنم من النّافذة إلا رائحتها. كانت الدونا فلور تتكلم وتسترق النظر إلى الشارع. وفي أعماقها شعرت بشيء من الخيبة. كم كان اهتمامه هشاً تخلّى عنه أمام أول عقبة. لقد فعلت الدونا أفعالاً أسوأ بكثير مع بيدرو بورجيس في عزوبيتها. وكم تمرمر ابن ولاية بارا على يديها وتعذّب وكم أعادت له رسائل ورفضت هداياه وأهانته إهانات حقيقية، لكنّه ظلّ ثابتاً وكفّه تقبض على خاتم الخطوبة. فعلاً، ذلك، هو الغرام حقاً! أمّا هذا الفتى، فسوف يذهب ببساطة ليطرق نافذة امرأة أخرى..

ومع مرور الساعات اتجهت الدونا فلور ثلاث أو أربع مرات إلى النافذة، وكأنها تؤكّد لنفسها أن الشخص قد اختفى نهائياً.

عندما رقدت في سريرها رفعت كتفيها، في حركة لامبالاة، هذا أفضل. فإذا لم تكن ترغب حقاً بالزواج من جديد، فلِمَ هذا القلق النابع من هشاشة إصرار عاشق سخيف، ومن ضعف مشاعره؟ خيلاء مهينة لحالتها كأرملة.

لأول مرة خلال تلك الأشهر، لم تخلد إلى النوم فوراً مستسلمةً لنوم ينسيها وضعها. ظلّت عيناها مفتوحتان وهي، تفكر. أليس تصميمها على عدم الزواج صارماً أكثر ممّا يجب، أن تعيش حياتها بسلام، دون أن تغامر بزواج جديد؟ لكنّها قد قرّرت، وانتهى الأمر، انتهينا. لم ترد أن تطول المناقشة مع نفسها بالذات، مع أنّه لم يكن هناك شك أو خلاف على أنها مستعدة للوفاء بقرارها لدرجة الضحك بطلاقة مع الصديقات، والتندّر مع الإشبينات حين تأتيها إحداهن بمرشح ما. أو عندما تقتفي الدونا دينورا الصورة الجانبية للأربعيني المتكبّر. كيف إذاً، يطير من عينيها النعاس بسبب حضور سخيف لمعتوه الزاوية؟

في اليوم التالي، وفي وقت مبكّر دخلت الدونا جيزا عليها مزوّدة بأخبار جديدة، راوية

---

(١) GALA: الرجل الذي يكون نجم الحفلة أو الشخص الرئيسي في الأوبرا، والأنثى التي تشاطره هذا الموقع هي: VEDETA وهي مشتقة من الإيطالية.

بتفاصيل وحماس الحديث مع التاجر التافه الغرابيونا [١]. من المحال أن تأتي في العشية كما ترغب، حتى في الليل كان لديها تلاميذ اللغة الانكليزية، يأتون ثلاث مرات في الأسبوع، في دورة دراسية مكثّفة.

استمعت الدونا فلور إلى سردها، وهي تعاني من صُداع ناجم عن كونها لم تنم جيداً. « هل تستقبلينه، هل تصغين إلى مقترحاته؟ » لكنّها لم تكن تعي ما يُقال. « إذا كنت مصممة على عدم الزّواج فلِمَ، إذاً، تضيّعين وقت طالبي الزّواج؟ اشتطت الدونا جيزا تجادل وتستجدي دون أن تحصل في النهاية إلا على الرّفض المُسبق. وجاملت صديقتها، واعدة بأن تفكر في الجواب ولن تصرف فلاناً [٢] برسالة فظة. وقريب نهاية الحديث، ظهرت الدونا نورما تطلب أفاويه للحلوى وسرعان ما طرحت كل ثقلها في المؤامرة. تاجر ثري في ايتابونا؟ أنظرا كيف ينخدع الإنسان.. لم تعبأ به الدونا نورما وها هو يطرح نفسه جدياً، راسخاً، متموّناً [٣]، حزب من الدرجة الأولى، وأيضاً بذلك الوجه الشاحب لونه كلون الغائط...

ـ المعذرة يا فلور، لو كنتُ قد أهنتُكِ لكن ألا يبدو كذلك؟ كغائط الطفل الرضيع...

عند العصر استعاد الأمير بثبات موقعه كمراقب، مبتسماً، وعيناه على النوافذ. لمح الدونا فلور مرة أو مرتين، وهي تضع رباطاً للشعر في رأسها كالغواني، وهذا دليل حسن. في ذلك النهار استغربت التلميذات توتر مدرستهنّ الملحوظ وهي ذات الطبع الضاحك الهادىء. لقد تكبّدت ليلة سيئة، من الأرق، ووجع الرأس، والخفقان، والصداع الشديد من أسوأ الأنواع، وأثناء الاستراحة مع الدونا داغمار، وهي تلميذة جميلة مضطربة، لا تتورّع عن قول أي شيء متشدّقة:

ـ يا عزيزتي، الصداع الجانبي الشديد عند الأرملة هو بسبب افتقادها الرجل ساعة النوم. هناك دواء سهل، ثمنه الزواج...

---

(١) GRAPIUNA: التسمية التي يطلقها أهالي السرتون على أبناء عاصمة باهيا استخفافاً.
(٢) في الأصل: FULANO عربية الأصل.
(٣) ABASTADO: وتعني أيضاً ثرياً.

- زواج؟ لينجني الله ويحفظني...

- ليس هذا الثمن إلزامياً قطّ... بوسعك تناول الدواء من غير زواج، فالمهم هو وجود الرجل، يا عزيزتي.

وضحكت الثرثارة. وضحك الصف بأكمله، وأحسّت الدونا فلور بحرارة الخجل تلفح خدّيْها وكأنها لصّة قبض عليها بالجرم المشهود أو كذابة أُميط اللثام عن كذبها. أتُراها وهي ملتزمة بالعفّة المحتشمة للأرملة كانت تبدي اشتياقاً للرجل واستعجالاً للعريس، وكأنها متسكعة في الطرقات، مشتعلة بالرغبة تعرض نفسها على القاصي والدّاني؟ ألأنها كانت تمزح، تضحك مع الإشبينات وتنكّت على المرشحين والتنبؤات والهمسات، يتصورونها مجنونة لحدّ الاستلقاء على السرير مع زوج أو مع عشيق؟ هذا ظلم. فليس هناك وجود لأرملة شريفة متحررة كليةً من الإثم.

أمضت نهارها قلقة، تتجنّب الاقتراب من النوافذ ولم تعد تشبك ذراعيها ببعضهما كما تشتهي لتصرخ على الدونا نورما أو ماريلدا، لأنها تعرف الآن أنها هي سبب حضور الشّخص، ولأنها لم تشعر يوماً أنها مشدودة بهذا الشكل إلى النوافذ كما لو أن الشارع امتلأ على حين غرّة بالأحداث الجديدة المثيرة. يا له من اضطراب.

لهذا، عندما قدمت الدونا آميليا تدعوها إلى مرافقتها والسيد رواس لمشاهدة فيلم فرنسي واقعي جارح جداً، هو مثال الجدل وقد حظي بنجاح كبير، قبلت باضطراب، مرتعبة من مرور ليلة قلق أخرى طويلة. وكانت قد اعتادت أن تعود من السينما شبه مستسلمة للنّوم، تتثاءب في الترام. ما كان الجاران الطيّبان ليختارا لحظةً أفضل من هذه لدعوتها، ناهيك عن الفيلم ذاته مثار الجدل وتعليقات الصّحف والجيرة. الدونا إيمينا عبدته، والدكتور إيفيس كرهه - «عهارة خالصة!» أما الدونا نورما فسلطت لسانها على مقاطع معينة... فيه بعض المشاهد أيتها البنت، بمحاذاة البحيرة، حيث ينزع عنها فستانها ويخرج ثديي الحيوانة الصغيرة ويتمسك الاثنان ببعضهما البعض ويفعلان ذلك على مرأى من الناس: ملتصقان ببعضهما، وهي عارية، بثدييها الصغيرين الصلبين والصبية يصرخون لكل حركة... أما ماريلدا فقد مرضت لأن الرقابة لم تسمح لها (أو الدونا ماريا دو كارمو) برؤية الفيلم، لأنه ممنوع للقاصرين دون الثامنة عشرة يا للقهر الفاشيّ للمراهقين!

وكما يحدث دائماً حين يذهبان إلى أي حفل مع السيد رواس، وصلوا متأخرين جداً بعد أن بدأ عرض شريط الأخبار. كانت القاعة غارقة في العتمة والمقاعد كلها مشغولة. بعد جهدٍ جهيد تمكنوا من إيجاد أماكن، لكن جلس كلّ منهم في صف وحده بعيداً عن الآخرين: جلست الدونا فلور في أسفل السينما على مقعد إلى جانب زوجين لعلهما عروسان. إذ تشابكت يداهما وتلاصق رأسهما. وبدأ هرج الطلاب حالما بدأت المشاهد الأولى من الفيلم الفرنسي الذي تدور حوادثه في إحدى كباريهات البيغال المليئة بنساء شبه عاريات. حاولت الدونا فلور تجاهل القبلات بين الزوجين المجاورين لها وتنهّداتهما ولمساتهما، وأجهدت نفسها في مرافقة عقدة الفيلم المبلبلة.

وبغتة أحسّت بحرارة لهاث رجل على رقبتها وسمعت صوتاً مجبولاً بالرّقة، همساً عذباً يصب في سمعها جملاً كالشّعر، تصريحات غرام لم تسمعها مذ كانت عاشقة، إطراء لعينيها، لشعرها، لجمالها الأخاذ. لم تكن مضطرة للالتفات كي تعرف هوية صاحب الصوت اللطيف وكلمات الغزل الجميلة؛ كان تنهد الرّجل يدغدغ عنقها من خلف، وتتلاحق عليها أنفاسه السّاخنة. كان الصوت الذي يُطربها ويتضرّع لها في أذنها حاراً حنوناً.

تقدّمت الدونا فلور بجسدها في مقعدها إلى الأمام، محاولة الابتعاد مسافة صف المقاعد وراءها حيث الأمير. لكنها لم تنجح إلا في إزعاج العاشقيْن. لأن عاشقها تقدّم بجذعه إلى الأمام، مثابراً على بثّها تصريحاته الحارّة. لم ترد أن تصغي إليه ولا أن ترى مشهد الزوجين الشبق وهما غير مباليين بالجمهور حولهما. لا تريد سوى متابعة أحدث الفيلم، وفهم قصته، وحبكته الصعبة المجبولة بالجنس والعنف.

مع كل مشهد كان صراخ يشتد عمّا سبق خاصة عندما بدأ مشهد البحيرة المثير، وفيه النجمة الشهوانية شبه عارية تقريباً. وقد بدا ثدياها للعيان، والممثل، عملاق على هيئة رجل مشوّه، فوقها، في غضبة الذكر، في تهتك أفضح تقريباً من تهتّك الزوجين الجارين لها اللذين لم تر في حياتها من هو أقل حياءً وحشمة منهما.

وصوت ذلك الشخص يدغدغها من الخلف بكلمات الحب، مقترحاً عليها الخطوبة، ويتضرّع بأن تمنحه شرف زيارة واحدة ليعرض عليها ممتلكاته، وخصائصه ويوضح

مقاصده، ملقياً عند قدميها الصغيرتين المعبودتين متجره المتنوّع البضائع في إيتابونا وقلبه المخلص المتبول بنار الهيام.

آه! أنفاس الرجل الساخنة على رقبتها، وهمسات صوته وجمله الأقرب إلى أبيات الشعر، والكلمات تداعبها! فيلم غير معقول والجمهور في هيجان وصراخ، الممثلان في تهتكهما، والزوجان قربها يشد واحدهما الآخر إليه في تهتك وغلمة، أضف إلى ذلك الحضور المقلق للرجل غير المرئي وراء ظهرها؛ أحسّت الدونا فلور أنها محاصرة مخنوقة، ينتابها دوار، لا مخرج له. فقد كانت أرملة فاضلة خجولة.

بالكاد تبيّنته في الباب، يختلس النظر متضرعاً إليها. اجتازته مطأطئة رأسها برفقة آل رواس، الدونا آميليا ساخطة على الفيلم، وزوجها يدعم انتقاداتها في شبه عدم اقتناع. نعم كان غاضباً، حقاً، لكن على ولدنة هؤلاء الشّبان الطلاب، وبعضهم من الأشرار. ما هو رأي الدونا فلور؟ ودّت لو أنّها لم تأت، فالصراخ والقهقهات أصاباها بالدّوخة، حتى غدت شبه مريضة. لم تستطع أن ترى الفيلم جيداً، لأن قليليْ الحياء إلى جانبها ـ امرأة متوسطة العمر وغلام، رأتهما حينما أضئيت الأنوار ـ كانا يمارسان أرذل السفالات..

تعبة من السينما ومن ليلة الأمس المؤرقة الطويلة، تناولت الدونا فلور منوّماً لتنام. لكن حتى وهي نائمة لم تتحرر من ذلك الفارس ولا من أنفاسه، ولا من صوته ولا من دعواته، من مشكلات الرجل والزواج، حالمة طوال الليلة، حلماً غريباً، لا أوّل له ولا آخر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

شوهدت الدونا فلور وسط حلقة في الساحة العامة، تمرح كالأطفال في رقصة السيراندا ـ سيراندينيا [١]، لكن الحلقة مؤلفة من رجال خشنين، هم مرشحو صديقاتها والإشبينات يطلبون يدها كزوجة. كانوا هناك جميعاً، من المتفصد عرقاً المدرّس العفيف إيبامينونداس سوزا بينتو إلى العربي ماميدي تاجر الأشياء العتيقة. من بائع الأيقونات رايموندو أوليفيرا إلى المحامي بلا شهادة في الحقوق ألوزيو أخي زوج الدونا إينايدي، وهذا بين مزدوجين، أبله. وعلى رأس المشاريع تاجر إيتابونا المتموّل أوتونييل لوبيس ـ أو بالأحرى عزيزنا الأمير المدعو بادواردو صاحب الأرامل ـ الذي كما رأيناه لا يكلّ ولا يملّ من شقّ طريقه إلى قلب الدونا فلور المستوحد وإلى صرّة مالها (التي يتخيّلها ضخمة مليئة بالمجوهرات) مال فضّلت لحسن حظّه الاحتفاظ به في البيت، وهي مستوحية الفطنة الممجدة، وفي أمان، بدلاً من أن تخاطر بوضعه في شركة أو مصرف بالفائدة.

كل ذلك كان يجري داخل كرة عملاقة من البلّور. وقفت أمامها من الخارج الدونا دينورا المتباهية بوجبة أسنانها ونظارتيها، تلاحظ المشهد وتدير العرض. كانت تدير الكرة على مهل وتضبط الإيقاع، في حين يرقص المرشحون ويغنون حول الدونا فلور:

«أواه يا فلور الصغيرة، أواه يا فلور الصغيرة
ادخلي الحلقة
وظلّي وحيدة...»

---

(١) CIRANDA-CIRANDINHA: رقصة شعبية يخالطها غناء زجلي.

تنطلق الدونا فلور من وسط حلقة الرقص تتفحّص طالبيها للزواج واحداً فواحداً، وتجيب:

« وحيدةً أنا لن أبقى
ولا ينبغي أن أبقى
فلديّ المدرّس
ليكون شقاً [1] لي . . . »

سحبت المدرّس ايبامينونداس سوزا بينتو بضربة على سرّته ليرافقها وهو في قمة الارتباك والتردد فاندفع راقصاً أمامها وسط الحلقة، يغني من دون صوت:

« ذهبت إلى التورورو [2] لأشرب. فلم أجد الماء
وجدت سمراء جميلة
تركتها في التورورو »

كانت ممتلكاته التي قدّمها لها كبائنة؟ كتاب في القواعد الموضّحة ونسخة من كتاب « أوس لوزياداس » [3] عليها ملاحظاته بقلم الرصاص وكتاب « الثاني من تموز ومعركة ريا شويلو ». أما خلاف ذلك فلم يكن لديه احتياطاً إلا حفنة من الأعياد الوطنيّة وجنرالاً لا يسمن ولا يغني من جوع وسفينة داخل زجاجة (« هيّا نبحر فيها بعيداً أيتها السيدة الدونا فلور ») لقد تعثر بالذّات بطاقيه الناصعيْ البياض كالثلج. ذهب بأناقته إلى الجحيم، بكامل أناقة الراقص وعلى رأسه قبعة واقية من المطر. وبَالتْ الدونا فلور لشدّة ما ضحكت وهي تراه يترنح ويكاد يسقط أرضاً. والمضحك أكثر كان أن تطرحه الغرنغا [4] مرشحاً للزواج دون أن تراعي مشاعره وتحترمه كما يجب وهو المدرّس الرّصين المهيب.

أما الدونا فلور، فقد خرجت عن طورها وهي بلا ضابط ولا رباط لا ترحم العجوز

---

(١) PAR : الشق المكمل لأحد الثنائي أو الزوج من الناس: الذكر والأنثى.

(٢) TORORO : منتجع.

(٣) OS FUSIADAS : البرتغاليون القدامى، عنوان ملحمة شعرية نظمها الشاعر البرتغالي كامونز في القرن ١٦.

(٤) GRINGA : الأميركية الشمالية، وردت سابقاً.

المرح في تعثراته في حلقة رقصة السيراندا، وهو مصرٌّ على الاستمرار في رقصته محاولاً سلبها طرحة العروس، وانتزاع زهور العذرية عن شجرة البرتقال. وبضربة واحدة على سرته وضعت الدونا فلور السمراء الجميلة في تحللها، حداً نهائياً لادعاءات المدرّس المحتشمة.

لقد استعادت الدونا فلور عذريتها لكنّها فقدت حياءها وعفتها. كانت ترتدي ثوبا أبيض من الدانتيل، رقيق النسيج شفافاً مخرّماً، والطّرحة الناصعة وإكليل الزهور وتنورتها الطويلة تتطاير في الهواء تلفّها رقصة السيراندا، وتشد المرشحين إليها برائحة شبابها التي تنشرها حركاتها.

اقترحت الدونا فلور، باشتياق وعجلة، الزواج على كل واحدٍ منهم وعرضت عليه نفسها، كما لو كانت عانساً عذراء تعاني غثيان الاكتئاب ولا أمل لديها في الزواج. راحت تمضي من رجل ناضج إلى آخر، تدعوهم للرقص معها في حلقة السيراندا، من سيراندا صغيرة إلى سيراندا تحدٍ وتسابق؛ فهل سيستطيع أحدهم انتزاع زهور البرتقال والعذرية، ويبعثر أوراق الإكليل والدونا فلور؟ واضح أنه حتى في أوراق لن تُعطى شابة عذارء إلا ثلاثة قروش[1]، لا أكثر ولا أقل.

تحدتهم بغنائها الصادر كدعوة، تعرض عليهم مباراتها بالرقص وتحرّك كالبغايا ردفيها، وعجيزتها وصدرها، بحركات عاهرة شبقة وسحبتهم، الواحد تلو الآخر، إلى وسط الحلقة بضربات على السرّة، وكأنّها من النساء السّهلات. لقد خلعت عذار الحياء وتحلّلت من الأخلاق وراحت تعرض جسدها كمومس تستثير القرف والأسى.

راحت تحتكّ بكرش ماميدي وسرّته وبمؤخرته، وتقوده على أنه فارسها ونصفها. وهو كان يرقص بحيوية غير منتظرة ولا عادية عند إنسان رصين مثله. وحمل في يدٍ شمعداناً قديماً، وفي الأخرى آنية من البورسلان من ماكاو[2] عليها منظر أزرق للريف الإنكليزي وهي كتحفيّة قطعة كاملة الروعة كالشمعدان المصنوع من الفضة الخالصة. راح يقايض الاثنين بعذريتها التي برسم البيع، ملحاً على مجرد دورة رقص صغيرة بمفردها، بعض النقود

---

(١) في الأصل VINTEN: وحدة نقدية متدنية القيمة تساوي عشرين ريالاً أو ريس REIS.

(٢) مستعمرة برتغالية في الصين.

من فئة الألف ريس، وبعض النقود من فئة الأربعمائة وخمسين لكن كيف يبلغ الزهور، إذا كانت يداه مشغـولتين بمقتنياته العتيقة؟ كانت الدونا فلور ترقص حوله، ثم تدنو منه وتحتك ببطنه فتثير زوبعة من غبار الدهور عنه. وتحتار الدونا فلور هل تضحك عليه أم تسخر منه.

أمّا السيد رايموندودو أوليفيرا فكان له أسلوبه وطريقته الخاصة بالرقص. وبائنته؛ موكب الأنبيـاء والتـوراة والقـديسين القـدامـى والمحـدثين، علاوة على الحيـوانـات المقـدسـة؛ كالحمار والسَّمك، وعلى سبيل الحسومات، تصبح الأحد عشر ألف عذراء مع التخفيض ثلاثاً أو أربعاً مقدمة هدية للسيد ألفريدو، الناسك في بيسا، ورب عمله. وبقيتها جميعها لم تُمس وكاملة، رفض السيد رايموندو مقابلها تقديمات رفيعة من المعدن الرنان، من أعمال ماريو كرافو، المهندس المعماري ليف، من المهندس المدني آداوتو ليما، وجميعهم يسعون إلى سكرتيرات طيبات. فإذا كان السيد رايموندو يمتلك كثيراً من هؤلاء العذارى، فلم، بحقّ الجحيم، يبحث عن عذراء أخرى؟ ألإفراطٍ في شهيته أم لاهتمام خفي؟ هل شقته كبيرة بحيث تسع الزبائن الكثيري العدد؟ «إن شقتي هي السماء، أوه! يا دونا فلور، إنما أريـد أن أودع فمَك الشبيه بثمر البيناتغا قبلةً واحدةً، فأنا خاطىء قديم، خرجت من العهد القديم وأمضي رأساً إلى سفر الرؤيا». وهنا أجابته الدونا فلور: «إذن اركض إليه».

وتقدم السيد آلويـزيـو، فلاح متـواضـع مـن المنطقـة الداخليـة، رجـل شريـف مـن السرتون[1]، مستقيم جداً في رقصه وفي فصاحته، رجل ماهر طلب يدها على النحو اللائق، وكاد يمسك بالإكليل والزهور، كاد يقطف زهرة الدونا فلور البرية. لكن الدونا فلور ليست بلهاء، بل العكس تماماً، خبيرة وماكرة، فلم تنخدع وتؤخذ بحديث الكاتب العدل المحامي غير الحائز على شهادة في الحقوق، حديث المراوغة والرصانة.

ـ هيّا معي إلى الكنيسة، يا سيدتي، فلقد أعددت كل شيء، إعلان الزواج وبركة الأسقف، حتى خضعت للاعتراف، فسقطَتْ عني كل خطاياي.

ـ يا سيدي، لا تخدعني بالوعود الكاذبة، فإذا شئت أن تأكل ما تشتهيه من ثمرتي فلْتحضر قاضياً وقساً.

---

(١) SERTAO: منطقة في الشمال الشرقي من البرازيل حيث الجوع والظمأ عند الجفاف الموسمي.

ـ تُرى ألا تصل بركة الله والدين إلا مع القاضي؟ ما أهمية القانون الإنسانيّ إذا كانت الشريعة الإلهية في متناولنا؟

ـ احتفظ أيها الدكتور [1] ببركتك، بفسك واعترافك. فاعـذرني حضرتـك، مـن دون إذن القاضي لن تأكل ما تشتهيه مني، ولن تنتزع أوراق الأرملة الصغيرة.

«يا أرملتي الصغيرة، يا أرملتي الصغيرة»، هكذا همس بالغزل الفتى الجميل، الشاحب الأهيف، الضعيف المتضرّع، وهو يدخل الحلقة، ونفسه الدافىء يغلّفها وتدوّخها أغنيته الغرامية:

«انقُلي، انقلي قدميكِ الصغيرتين
وضعيها هنا قرب قدميّ
ولنسير معاً
ولن تندمي بعدها»

كان يرقص رقصاً لا يضاهيه فيه حتى محترف الرّقص، رقصة معروفة، ترى ما تكون؟ صوته يدور حول الدونا فلور، يغويها:

«اغتنمي الفرصة أيتها الأرملة الجميلة
إذ أن ليلة ليست شيئاً
إذا لم تنامي الآن
فستنامين عند الفجر».

عند الفجر لن تكون عذراء ولا أرملة. وبغتةً الدونا فلور من دون طرحة العروس، من دون فستان الزفاف الأبيض لعذراء على أهبة الزواج، من دون زهور العذرية من شجرة البرتقال. الآن ترتدي ملابس الأرملة، ملابس الحداد المطلق، وجاربيها بلون الدخان أما ما تبقى فبلون الحداد، وخمار يغطي وجهها، ووشاح على رأسها علامة الحزن والحداد. مجرد زهرة، وردة لشدة احمرارها تكاد تكون سوداء.

كم كانت تود لو ارتدت فستاناً أبيض للعرس، فلم تفعل ذلك حين كان الوقت ملائماً

(١) مجرد لقب للتفخيم.

وكانت في كامل قواها العقلية عندما وقّعت على أوراق الزواج وقد انتزعت أوراق زهرة عذريتها في ضباب المساء الصيفي في إيتابووا.

مع مرشحي الصديقات والإشبينات، مع رؤى الدونا دينورا، بوسعها أن تمزح وتتندّر فتدّعي أنها عذراء بلا عيب، بلا زنخ لم تمسّها لمسة من أيّ رجل، مزاج، لا أكثر ولا أقلّ.

لكنها لا تستطيع ذلك مع الفتى المقدام في الناصية، الأمير النبيل الذي يبدو يافعاً ثرياً جداً، كثيراتٌ هن الفتيات اللواتي يتأوّهن ويتنهدّن له، لكنّه يتأوّه ويتنهد للدونا فلور الأرملة الفقيرة. مع التاجر الناجح في إيتابونا، الخليق بأن يكون النصف الثاني لأيّ فتاة عذراء لا لمجرد أرملة، لم تستطع أن تتندّر به أو تسخر منه، تسلل تنهده حاراً إلى بدنها، مغطياً على لامبالاتها بحرارته، مذيباً ثلج برودتها، معيداً الحياة للأمور داخل نفسها التي اعتبرتها ماتت إلى الأبد، وأزهرت مثابرته رغبتها الذابلة الجافة، وأضاعت سلام الدونا فلور.

لم تستطع أن تضحك منه ولا أن تتجاهل حضوره؛ ما كان مرشحاً يُسخر منه كالآخرين ولا قصته خيالية ترويها لها الصديقات أو مكيدة من الإشبينات، بل نعم، كان واقعاً منغرساً عند أسفل العمود، يجتاح بعينيه قاعتها. خطوة إلى الأمام فإذا به يتمركز في بيت الأرملة بين ذراعيها. خلفها في الشارع في دار السينما يحرقها بنفسه وكلماته. بتصميمه الرّاسخ، موقداً جذوة الرغبة في داخلها.

علمتْ الدونا فلور الآن لماذا تشعر باللاجدوى والفراغ واليأس على الرغم من نشاطاتها الكثيرة وأعمالها وتمضية الوقت.. راح طالب الزواج يرقص حولها « ستنامي عند الفجر ». رقصة تعرفها جيداً رقصة حفل راقص في كاباريه لا رقصة حلقة ساذجة من السيراندا ـ سيراندينيا. لكن ما هذه الرقصة، رباه، من أين تعرفها الدونا فلور؟

لا أهمية لماهيّة الرقصة ولا للموسيقى، ولا للزمان ولا للمكان. ففي اندفاع انتزعت الدونا فلور الخمار عن وجهها، وبسطت يدها إلى العريس، مهشمة كرة البلّور: « السمراء الجميلة، لن تبقى وحيدة، تعال أيها الشاب الشاحب، فلنتزوج حالاً، حالاً يا نبيلي، يا أميري الفاتن ».

بغتةً تتذكر وتعلم أن تلك الموسيقى هي التانغو الصاخب الذي رقصته وهي صغيرة في بيت المقدم، وبعد سبع سنوات في فندق بالاس لكن الذي أمامها لم يعد الفتى الشاحب الضارع طالب زواج. فهذا تبخّر في الهواء، اختفى مع كرة البلّور ومع الدونا دينورا. وانبثق أمامها المتوفى الذي لم تستطع أن تشرّف ذكراه. أمامها وقف زوجها. يرفع يده، ساخطاً ويتبعها. فتقع الدونا فلور على السرير الحديدي ويروح يجرّدها من ملابس الأرملة منتزعاً أوراق الإكليل وخمار العروس، هو المتوفى زوجها. يريدها عارية تماماً إلا من جلدها ومن الشعر على بعض مناطق جسدها فمتى سمعتم بتمتع جسدي والمرأة فيه ترتدي ملابسها؟ آه! كم كان طاغيةً! يا له من طاغية، طاغية قليل الحياء...

أفاقت الدونا فلور في جهد يائس، الليل يلفها وهي في رعب. على السطوح وفي الفناءات راحت تموء في غلمتها. أواه! حلم لا أوّل له ولا آخر.

٦

قضت الليلة بطولها في تفكير، في هموم ثقيلة، ووحدة وضحكات، جمع الرغبة إلى الدموع عند بزوغ النهار. مازال الوقت مبكراً جداً، مع الصبح يزول الشكّ، جلست الدونا فلور أمام المرآة لترتدي ثيابها وتمشط شعرها. ثم تعطّرت وأتت بقرطيْ الخالة ليتا ووضعتهما في أذنيها، مجرّبة زينتها بالبلوزة والتنورة، عادت كما كانت ساحرة أيام لاديرا دو آلفو حينما كانت لا تخرج إلا في كامل أناقتها. ما زال الوقت مبكراً جداً وقد ارتدت ثيابها كلياً، المتصنّعة. فقد حدث مراراً أن ظهر الفتى الشاحب قبل الغداء. وكان ذلك للآخرين يوم عيد، كيوم الأحد بالقداس وبموعظة من الدون كليمينتي.

لكنّ الذي ظهر قبل الغداء وبقي ليتناوله كان ميراندون في إحدى زياراته النادرة. قدم مع زوجته وأبنائه الذين تبنت الدونا فلور أحدهم، فقدمت له ثمر السابوتي [1] والكاجا [2]، إضافة إلى مريلة للعنق مصنوعة من التّنتنا خاطتها له عرّابته خياطة رفيعة المستوى. لماذا كل هذه الهدايا؟ حسناً يا إشبينتي، استمعي، لا تقولي أنكِ لا تذكرين. ألسنا في التاسع عشر من كانون الأول، عيد ميلادها؟ حسناً، أيها الإشبينان، يا لطيبتكما ولطفكما، لقد نسيت التاريخ، فلم تعد تتذوق أعياد الميلاد. وزوجة ميراندون لم تصدقها:

ـ لا تذكرينه؟ إذن، لِمَ أنتِ أيتها العرّابة بهذه الأناقة ترتدين ملابس العيد منذ الصباح...

---

(١) SAPOTI: ثمر استوائي، زعرور أميركي.

(٢) CAJA: ثمر استوائي.

وتذكر ميراندون في لمسة حنان:

ـ ألا تذكرين، أيتها الإشبينة؟ مضى عام على تلك الليلة في بالاس، لم نكن أبداً لننسى عيد ميلادك...

انصرمت سنة، سنة كاملة. هناك جلست الدونا فلور في كامل أناقتها، وقد سرّحت شعرها، وفي شعرها ربطة من نسيج فاخر وقرطان من الماس في أذنيها وقد رشت عطراً نفاذ الأريج على ترائبها دون أن تستطيع تبرير ذلك بعيد ميلادها الذي نسيته تماماً. لكن العم والخالة لم ينسياه، ولا الدونا نورما والدونا جيزا والدونا آميليا، والدونا إيمينا والدونا جاسي والدونا ماريا دو كارمو. فقد وصلن محملين بالهدايا، صناديق صابون طيّب وزجاجات ماء الكولونيا، وصنادل[1] وقطعة قماش.

«كم أنتِ فاتنة يا فلور، يا للأناقة»، علّقت الدونا آميليا.

وتذكرت الدونا نورما هي الأخرى الذهاب إلى بالاس فقالت: «في السنة الماضية كانت هي الأجمل. ونالت هدية لها قيمتها.

«هذه السنة أيضاً ستكسب هدية حسنة...»، قالت الدونا ماريا بمكر.

«أي هدية؟»، تساءلت زوجة ميراندون.

وشوشت الدونا إيمينا والدونا آميليا لها بسر، بين ضحكات.

ـ لا تقولي...

ـ رجل مستقيم ـ أصدرت الدونا جيزا حكماً ـ رجل خير.

مضى ميراندون إلى حانة في كابيسا حيث تجتمع حلقة يوم الأحد من رجال إيليوس[2] الأثرياء، يشربون الويسكي، بقيادة صاحب المزارع مويزيس آلفيس. وفي القاعة راحت

(١) SANDALHA: خف للسيدات أو حذاء صيفي واطي الكعب.
(٢) مدينة في ولاية باهيا أراضيها مشهورة بزراعة الكاكاو.

الصديقات يضحكن وهن يعلّقن، فيما الدونا فلور في المطبخ تساعدها ماريلدا والمئزر فوق أناقتها تجهد نفسها لإعداد الغداء.

لم يأت الأمير إلا بعيد الظهر ليقطف ثمرة ما بُذر في العشية من تدخل من الدونا جيزا، وتصريحه في عتمة السينما. كان بهيّ الطلعة بملابسه وشحوبه، وبغرامه الذي لا يخفى والأمل النافد الصبر، ولم يكن هناك من هو أشبه منه بسيد الخطوات[1] في استشهاده. في تلك الليلة قال للو، حبيبته الحديثة التي أنفق على صحبتها السخيفة اللطيفة النيكلات الأخيرة التي استحصل عليها من الأرملة السابقة، الدونا أمبروزينا أرّودا، الحيوان الضخم الهستيري:

ميموزا، اليوم سأقتحم القلعة، فأدخل القاعة، ولا ألبث أن أصبح في السرير مع الأرملة.

ارتكزت لو على صدر سيد الخطوات المسلول:

ـ وهل هي بشعة كالأخرى؟.. أم هي جميلة؟

كانت غيورة، لا تتفهم قانون الأمير في الفلسفة الأخلاقية القاسية، ما كانت لتتعايش مع محترف خبير مثله، بصرامة مبادئه:

ـ قبيحة أم جميلة، لقد سبق وقلت لكِ، يا لك من بهيمة، إن لا فرق. ألا ترين أن هذا هو الشغل، عمليّة مالية، لا أكثر ولا أقلّ؟ لا يهمني هنا ذيل الأرملة، يا حمارتي، بل مالها ومجوهراتها.

كانت الدونا إيمينا أوّل من رأته عند العمود فأطلقت الإنذار ضاحكة:

ـ ها قد وصل...

اشتدت الجلبة، والهرج والمرج وركض النساء أيقظ ميراندون السعيد من نومه بعد الغداء المتخم، بأطعمة مقليّة ودجاجة محمّرة. واتجه هو الآخر إلى النافذة إلى حيث تركض

---

(١) من ألقاب السيد المسيح.

الجارات. فرأى في الجانب الآخر من الشارع، عند العمود، على رصيف منزل السيد بيرنابو المؤلف من طابقين، المحتال إدواردو ده تال، الأمير، يقف بفتور، وينظف أظافره بعود ثقاب ويبتسم مغازلاً.

ـ ماذا يفعل سيد الخطوات هنا؟

ـ «من هو سيد الخطوات؟» سألت الدونا نورما بفضول.

ـ أقصد الأمير، المحتال القديم، لصّ وأكثر...

وكان سيزيد: «ملك الأرامل» لكنّه بعد أن رمق الصديقات والإشبينات اللواتي رانَ عليهنّ صمتٌ ثقيل، أدرك كل شيء. لكنه تظاهر بأنه لم يعرف شيئاً وبالتهذيب المعروف في الباهيانيين تابع ضاحكاً:

ـ هذا الغشاش المحتال، يعيش من الاحتيال على البُلَهاء بقصص عن ورقة نصيب ربحت الجائزة الكبرى، عن النقود التي سيهبها للمستشفى، مثل هذه الرّوايات التي تُنشر في الصحف...

قالت الدونا نورما: «هذا الشخص لم يخدعني قطّ... كان كافياً أن أنظر إلى وجهه لأعرف...».

ـ لا بد أنه يريد سرقة أحدهم في هذه الناحية، ربما الأرجنتيني أو أي شخص آخر. لخّص ميراندون.

ـ الأرجنتيني، بالتأكيد، ولقد رأيتهما يتحدثان... راحت الدونا نورما تكذب بحرارة، فهي الأخرى باهيانية أيضاً تراعي تمام الإدراك مشاعر الناس.

لزمت الدونا فلور الصمت، وهنّ تتآكلهنّ الخيبة، لكن دمعة خفية، دمعة وحيدة، ترقرقت في عينيها، دمعة لا تساوي تلك الضعة والقذارة التي كادت تنحدر إليها. وميراندون اجتاز الشارع باتجاه المحتال. وكأن الأمر يحدث صدفة. ومن شقوق النوافذ المغلقة بعنف، تابعت الإشبينات حديثه مع الشرير. ظلّ الأمير محتفظاً بابتسامته، حتى عندما ارتبك

موضحاً الأمور. وصدرت عن ميراندون حركة حادة إذ أشار إليه نحو لاديرا ليهبط إلى المدينة السفلى. مشهد سريع كأنه من السينما الصامتة بالنسبة إلى الإشبينات في شقوق النوافذ. عرف الأمير كيف يتقبّل هزيمته، ولم يكن مستعداً لأن يركب رأسه ويخاطر بأن يُسجن أو يضرب. من نحسه الشيطانيّ أنه تورّط بسرعة مع إشبينة المعلم ميراندون، لكنّه سعيد بأن يفرّ سليماً بكامل جلده. كان مخلصاً في تأكيد جهله، فلو كان عالماً بهذه الصداقة لتجنّب الشارع نفسه، وأكثر...

لم يرفع عينيه إلى بيت الدونا فلور، بل استدار واتجه إلى الساحة البحرية، وهبط بسرعة نحو لاديرا بريغيسا. وما كاد يصل إلى المدينة السفلى حتى لمح من بعيد أرملة متوجهة لتتعبّد في كنيسة «عذراء الشاطئ»، غارقة في ملابس سوداء وعلى وجهها خمار فاستحثّ خطاه باتجاه المرفأ الجديد الذي تبدّى لنظره بابتسامته الفاترة ونظرته الضارعة؛ من جديد يمارس الأمير ده تال مهنته الشاقة.

٧

لم يعد يُرى الأمير إطلاقاً في تلك الأنحاء ، وسكتت التّعليقات والوشوشات والقهقهـات ، ومرشحو التبصير والوشاية والرقصة الصاخبة السريعة والسخرية بشأن زفاف الدونا فلور الجديد . فإذا كانت قبلاً تسخر من كل ذلك ، في استهزاء مرح ، فإنها ترفض الآن أي حديث حيال الموضوع ، غير مخفية اشمئزازها وانزعـاجهـا لسماع إشـارة ولـو سريعـة ، إلى حالة الترمل والزّواج ، آخذة إياها على محمل الإهانة والفظاظة .

وبما أن الصديقات والإشبينات قد احترمْنَ بروتوكولاً ضمنياً وخلال فترة معيّنة فلم يلمسن هذا الموضوع ، وبدوْن جميعهن متفقات مع الأرملة في حق النَّقض النهائي الذي اتخذته ضد العريس والزواج . حينما تحسّ عجوزٌ لجوجة منهنّ بدغدغة[1] في لسانها ورغبة بمداولة الموضوع الكبيـر ، ذكرى الأمير عند أسفل العمود ، فإنها لا تلبث أن تلجم فمها ؛ كما لو أن المحتال هناك يضحك من الشارع بأكمله . ناهيك عن صرامة الحظر الذي فرضته الدونا نورما ، رئيسة الحي الفعلية ، وحكمها على العموم ليبراليّ ديمقراطي ، لكنّه لا يلبث ـ عندما تقتضي الضرورة ـ أن يتحوّل ديكتاتورياً مطلقاً .

الأسابيع التي تلت عيد الميلاد المضطرب ذاك ربما كانت أنشط أسابيع حياتها . فلم تجد فيها ثانية من الراحة . انهمرت عليها الدعوات ؛ الجميع يريدون ملء وقتها وملاطفتها . وداست أروقة دور السينما الواحدة إثر الأخرى ، وزارت نصف العالم ، وجالت في السوق

---

(١) COCEGA : دغدغة على البدن لإثارة الضحك .

التجاري ، تشتري الحاجيّات مع صديقاتها . أنهت توقيت الدروس المسائية ، كانت هي نفسها تسعى إلى التزامات :

ـ يا نورمينيا[1] ، يا زنجيتي[2] إلى أين تمضين بهذه الأناقة ؟ لمَ تخرجين باكراً ، من دون أن تقولي شيئاً ؟

ـ هناك دفن صغير غير متوقع ، يا قديستي . وصلنا النعي اليوم بالذات ، مع تأخير مريع ؟ فالسيد لوكاس ده ألميدا من معارفنا ، وهو أيضاً قريب لسامبايو ، توفي ، مات بالقلب . وسامبايو لن يذهب كما تعلمين ، يا للعار ! لم أدعُك لأنّكِ لا تعرفين المتوفى . لكن إذا شئت ، الأمر جدير بالذهاب ... سيكون دفناً مهيباً ، من أفضل إجراءات الدفن .

راحت مع الدونا نورما إلى سهرات حراسة الميت وعمليات الدفن وإلى أعياد الميلاد والعمادة . ففي الحزن كما الفرح ، كانت صديقتها فعّالة حيوية ، وحيويتها تضمن نجاح أيّ حفلة أو جنازة تتطوّع فيها فتتسلّم الدفة ، تتنكب الطريق ، تدير الضحك والدموع . مؤاسية ، مساعدة ، محدِّثة ، آكلة بشهيّة ، شاربة بتلذّذ (وبمعيار) ضاحكة على الدوام تقريباً ، باكيةً إذا لزم الأمر . لا أحد يضاهي الدونا نورما في الاجتماعات من أي نوع كانت ، حتى في المؤتمرات المزعجة تجمع النقيضين ، ومستعدة . قالت عنها الدونا إينايدي : « إنسانة هائلة » ، « نصب تذكاري » حسب قول ميراندون ، المعجب بها . « قديسة » في نظر الدونا آميليا . « الصديقة الفضلى » بالنسبة إلى الدونا إيمينا وإلى كثيرات غيرها .

ـ عاصفة عاتية ... زمجر زيه سامبايو ، في ردة فعل معاكسة لذلك التحرك .

« أنت أيها السيد تزوجت من أفضل امرأة في العالم ، يا سيد سامبايو . فنورمينيا هي أم الشارع ... » ، أجابته الدونا فلور .

« لكنني لا أتحمل كثرة الأولاد ، يا دونا فلور ، ولا إزعاجات كثيرة كهذه ... » كان السيد سامبايو متشائماً .

---

(١) تصغير لنورما .
(٢) تعبير يقال للتحبب .

هذا، كما واكبت الدونا جيزا وترددت معها في كامبو غراندي على معبد تابع للكنيسة المشيخية[1] حيث راحت الغرنغا تنشد أناشيد وطنية بالإنكليزية، وباليقين التفخيمي الذي تقرأ به فرويد وأدلر كانت تناقش معضلات اجتماعية ـ اقتصادية وترقص السّامبا حتى وبخها الدون كليمينتي بتقريع حنون:

ـ قالوا لي إنكِ تحوّلتِ بروتستانتية، يا فلور، فهل هذا صحيح يا تُرى؟

بروتستانتية؟ مستحيل! لمجرد أنها صحبت صديقتها مرتين أو ثلاث مرّات بدافع الفضول البسيط ولقتل الوقت. إن وقت الأرامل طويل فارغ، أيها القس المعلم.

كما جالت برحلة مسلّية بالقطار مع آل روّاس، فقضت معها نهاية الأسبوع في آلاغوينياس. وحضرت مع الدونا داغمار درساً في اليوغا قدمته امرأة لطيفة صغيرة، شيء طريّ تلوي جسدها كما لو كانت المرأة الضفدع في السيرك. وبسبب تضارب التوقيت مع مدرسة الطهي، لم تستطع الدونا فلور مع شدة رغبتها الاشتراك في دورة لتعلّم التمارين الصعبة التي ـ حسب دعاية مطبوعة مغرية للغاية ـ تجعل «الجسد مرناً رشيقاً والذهن نقياً صحياً»، مزوّدة المرء بـ «توازن جسدي وذهني دقيق، وفاق كامل بين المادة والروح». توازن ووفاق من دونهما تصبح الحياة مجرد «بئر براز قذر» كما جاء في أسلوب كتابة الورقة المذكورة وكما تحقّقت الدونا فلور مؤخراً؛ فوجود صراع ما بين الروح والمادة، يحوّل الحياة إلى «جحيم مرعب».

أما الدونا ماريا دو كارمو فاصطحبت الدونا فلور وماريلدا، المرشحة المشتركة في السر في برنامج للطلاب الناشئين «ابحثوا عن مواهب جديدة»، حيث يتنافس فتيات وفتيان كل يوم أحد على فترة ثلاثة أشهر، للحصول على لقب «اكتشاف إذاعة سوسييدادي» وعقد معها. وغنّت التلميذة[2] الجميلة بإحساس مُرهف ولفظ سيء أغنية عن الغواراني[3] من الباراغواي، ورغم ذلك خرجت من المسابقة بمستوى جيّد، فاحتلت المركز الثاني، وهو

---

(١) PRESBITERIANO : تابع للكنيسة المشيخية التي لا تعترف بالأساقفة.
(٢) NORMALISTA : التلميذة التي أنهت دروة تعليمية.
(٣) GUARANI : هنود يقطنون أميركا الجنوبية من فينزويلا إلى الباراغواى.

مركز مشجّع وواعد. وطمحت التلميذة إلى وظيفة تتيح لها لعب دور مقدّمة موسيقى شعبية، حالمة ببرنامج لها وصورها في المجلات. وإزاء مشاريع الإذاعة كانت ماريا دو كارمو ذات الأنف المعوّج تصبح هي الشيطان بعينه. فتعمد إلى كثير من التوسّل والمعاناة في ذلك التقديم. أضف إلى ذلك أنها عرفت الدكتور كلاوديو تويوتي صاحب النفوذ في الإذاعة. ولم يكن من السهل إقناعها، والتغلّب على المفاهيم المسبقة المتأصلة عندها ضد نقاش الدونا جيزا المنطقيّ معها والذي لم يثمر شيئاً، حتى ولا الدوافع الحسية للدونا فلور فحالما رأت ابنتها أمام الميكروفون، جد مليحة للغاية وصوتها يتردّد عبر الأثير فوق المدينة، انحدرت دموعها من الاعتزاز والتأثر، وثارت على الحكم، وكادت تعتدي على المذيع مقدّم البرنامج الشعبي، المذيع سيلفيو لامينيا أو ببساطة سيلفيتيو، ففي رأيها تستحق ماريلدا المركز الأول، الذي أُعطي بتحيّز فاضح للمدعو جوان جيلبيرتو غير الجدير به.

أمّا مع إشبينتها ديونيزيا فاستطاعت الدونا فلور الظهور في حفلة أوشوصي في كاندومبليه أشيه أوبو آفونجا، آخذة معها الدونا نورما والغرنغا (الشديدة الاستغراب) وما كانت تفعل ذلك بمفردها بسبب زكام قوي وخوف (وجل حول الزكام إلى رشح خطير). من الأفضل عدم الخوض في هذه الأمور الغامضة للماكومبا والكاندومبليه، فالشوارع تغصّ بالسحر وأعماله بالشعوذة القوية التأثر، أناس من الماندينغا [1] خطرون تعاويذ، فمن يريد أن يصدق فليصدّق، من لا يريد التصديق لا يصدّق، والدونا فلور كانت تفضل الا تنزع عنها ملابس الحداد. وقد قالت لها ديونيزيا ذات يوم:

- يا إشبينتي، إن ملاككِ الحارس هو أوشوم، سآمر من يغوص على الأصداف ليلقي نظرة.

- وكيف هي أوشوم يا إشبينتي ديونيزيا؟

- سأقول لكِ: إنها إلهة الأنهار، هي سيدة ذات محيا هادىء جداً وتعيش في منزلها منعزلة، تبدو وكأنها الوداعة بنفسها. لكن انتبهي فهي ساحرة تزخر بالرّقة والخُيلاء. تبدو

---

(١) MANDINGA: جنس من الزنوج البرازيليين يتحدرون من أصول أفريقية ـ حبشية مازالت منتشرة في ما بينهم الديانة الإسلامية.

لناظرها مياه راكدة، ومن الداخل هي ريحٌ عاتية. يكفي أن أقول لكِ أيتها الإشبينة، إن هذه الغادرة كانت متزوجة من أوشوصي ومن شانغو، وبما أنها ربة المياه، فهي تستنفد بالنار.

كل ذلك الركض، كل تلك الحركة، لأنه مع رحيل الأمير هجرها سلامها واطمئنانها ووداعة تلك الحياة الوادعة، من دون مشكلات، ذلك النوم من دون أحلام كل ليلة، نوم عميق حتى الصّباح.

منذ حلمها العبثيّ عن حلقة رقصة السيراندا انتهى اطمئنانها. وشيئاً فشيئاً، يوماً فيوماً، تزايد قلق الدونا فلور إلى أن تحول غماً دائماً متزايداً مع مرور الوقت عليها وهي أرملة.

ولم تعد قط بعد تلك الليلة في السينما والحلم، عودة تامة إلى لامبالاتها الهادئة، إلى إحساسها المطلق بالحياة المطمئنة، التي ربما كانت خاوية لكنها هادئة. فالدونا فلور هادئة في ركنها وفي عملها. حتى وإن اتخذت مظهراً وديعاً ومسرّاً، فحياتها ـ مَيَاه رَاكدة ـ لن تحظى بعد بيوم كامل من الراحة. وصدرها مستنفد بالنار...

أرملة محتجبة تقسر نفسها للدفاع عن حيائها. ليس ضد وقاحة عرض شائن، فهل هناك من يعرفها ويجرؤ على مجرد التّغزل بها؟ أما الغرباء الوقحين الملحاحين، عشاق الناصية، فهؤلاء على وجه العموم ينتابهم الخرس حين يرونها جد محتشمة ورصينة. لكن مع هذا، يجازفون ببعض النّكات عند مرورها، مدح لمظهرها الجسماني («يا لها من مؤخرة مستديرة»!) ولتفاصيل جسدها («أواه، يـا للشـديين الصغيريـن الصلبين جـداً»!)، أو دعوات وقحة («هيّا ننجب طفلاً، يا حلوتي»!)، كانوا يفقدون الوحي، واللطافة أو قلة الاحتشام والوقت. وكانت الدونا فلور تمضي قدماً كما لو كانت عمياء خرساء صمّاء، في تواضعها وفي اعتزازها كأرملة، قاسرة نفسها على أن تدافع عن حيائها ضد نفسها بالذات. ضد أفكارها الشاردة، أحلامها الرديئة، ضد رغبتها المتيقّظة اللاهبة، الوخز في لحمها. لقد فقدت «التوازن الكامل بين الذهن والجسد»، الضروري لحياة صحية حسب القول المأثور في غلاف اليوغا «الوفاق الصحيح بين الروح والمادة». المادة والروح في حرب طاحنة[1] من

(١) الترجمة الحرفية هي: «حرب بلا ثكنة».

الخارج أرملة مثالية في تمسّكها بالشّرف والفضيلة وفي داخلها تشتعل النار وتستنفدها.

أول الأمر كانت تحلم ليلاً بين الفينة والفنية حلماً تأخذها صورة الشبقة إلى عالم محرّم على العذارى والأرامل، يهزّ أسس المرأة منها، ويوقظ غريزتها وشهوتها. فتستيقظ بجهد، وتضع يدها على صدرها، وفمها جاف. حتى أضحت تخشى النوم.

أما أثناء النهار فكانت تنهمك في مسؤوليات المدرسة، في قراءة الرّوايات، في الإصغاء إلى الإذاعة، تتلهى بمشاغل عـديدة بحيث كان سهلاً عليها أن تعزل نفسها عن الأفكار السيئة، وتخنق خفقان صدرها. لكن أنّى لها أن تضبط نفسها، وتعتدل في تصرفاتها في الليالي وهي بلا دفاع، عند مذاق أحلامها غير المنضبطة؟

مع مضيّ الوقت، بدأت حتى أثناء النهار تستسلم للمداعبات الغريبة، للانفصام الكئيب، في آهات ليس لها عزاء. وأصبح من الخطر أن تبقى بمفردها، فعلى التوّ تجتاحها فيالق من الذكريات، أكثرها غنائيّة وبراءةً تقودها إلى السرير الحديدي، في جماح الرغبة والعطاء. أين حياء الأرملة؟

في المدة الأخيرة، صارت تتخيّل مشاهد بكاملها، فتخلط نُتَفاً من الرّوايات وأحداث قرأتها في الصحف أو قصص الإشبينات، مع ذكريات حياتها كامرأة متزوجة. في نفس الأمير حارقاً رقبتها من الخلف في السينما، مدخلاً فيها جسده عبر زفرات الرغبة. لقد دخل دمها وعرّضها لمعاناة مستحيلة أسوأ من معاناة «الجحيم المرعب» الذي نصّتْ عليه دعاية اليوغا.

وفي لحظة معيّنة اضطرّت، بسببٍ من تهيّجها، للتخلّي، عن قراءة الروايات البلهاء للفتيات، وهي الغذاء الروحي للصبّيّة ماريلدا التي تتنهد مع الكونتيسات والدوقات[1]، في ضعف إستوائي على أريكة القيلولة. حسناً، اكتشفت الدونا فلور شراً كامناً بين الأسطر الساذجة، وقوة الجنس في تلك الكتب العاطفية الرخيصة الهابطة المستوى، تعطي بعداً جديداً للتفاهات المقرفة. فكانت تُنتهك بالمكيدة، تبدلها الدراما ذات القيمة المتدنية،

(١) جمع DUQUE

والشخصيات، إلى عذراء الأريـاف التي تختفي في أعماقها المومس. والغلمان المخنثون، أشباه الخصيان تقريبـاً، ويصبحـون فحـولاً وحشيين. وبـدلاً مـن « مجموعـة البنـت والفتـاة » للمراهقات، تصبح روايات مختصة بوصف العهر، قراءة للمخدع.

وحصل الأمر نفسه مع أحداث المدينة المثيرة، مع تعليقـات الإشبينـات، في صفحـات الجرائد. في المقاعد على الرصيف، حيث تتشكل حلقة الصّديقات الليلية لتداول قصص أحداث الجرائم الغرامية: قصة الخادم الزنجية الصبية التي اغتصبها سيّدها. كانت في الخامسة عشرة ولها أحد عشر شقيقاً، وهو في الثانية والخمسين وله خمسة أبناء، دكتوران وثلاث نساء متزوجات، ناهيك عن الزوجة وحفنة من الأحفاد. أتى والدها النجار، والسّلاح في قبضته ليثأر لشرفه.. ثلاث طلقات في قلب قلعة المجتمع، دعامة المدينة والأخلاق، زعيم المحافظين. كان الجرح مميتاً وسُجن المجرم وأودع زنزانة تحت الأرض رطبة معتمة بعد ضرب مبرح لتهدئة أعصابه. الشرف غُسِل بالدم، والشعب يلح على العدالة، الحرية للمنتقم لشرفه. كانت الصديقات والإشبينات يعطين الحق للوالد، الذي جُنّ وأعماه الغضب عندما وجد ابنته حاملاً، وشرفها مأكول مع شرب الشمبانيا. جميعهن ما عدا الدونا دينورا التي تقف دائماً مع الأغنياء. « هؤلاء الزنجيات الصغيرات يندسسْن في فراش ساداتهنّ ليبتـززْنهم بعد ذلك ». أما الدونا فلور فلم تحتفظ من كل تلك القصة إلا بعض التفاصيل الخشنة، ولم تحفظ في ذهنها وفي تفكيرها المذِل إلا صورة الفتاة بين ذراعي السافل تئن من اللذة راضية. أما ما تبقى من مناظر الرعب فلم تكن تبالي لها، بل أعلنت تضامنها مع غضبة الإشبينات.

وهكذا كان حياؤها الدّاخلي يُختزل شيئاً فشيئاً. ومع هذا مَن يراها تتحرك في ساعات التدريس، قرب الفرن، أو مع صديقاتها من مكان إلى آخر، في مشتريات وزيارات (لم تكن تذهب إلى الحفلات مراعاة لوضعها كأرملة) لا يتصور المعركة الناشبة في أعماقها، وسهرها في الليالي المجنونة التي تستنزفها. لأن أحداً لم يكن أشرف منها أو أرْصَن. ولم يسمعها أحد تتلفّظ باسم رجل باهتمام، خلا إشارة تأتي عرضـاً. كـانـت قبلاً تسخـر مـن المرشحين المُقترَحين، وتتندّر عليهم مع الإشبينات، أما الآن فلم تعد تطيق سماع أسمائهم، وهي في الحقيقة مستميتة في سبيل الزواج من جديد. لم يكن هناك ارملة مثلها في الاحتشام والخجل، لا في ذلك الحي ولا في المدينة بأسرها، وقد تجد مثلها في الدنيا لكن لن تجد

أرملة أرْصَن منها وأشرف. كانت الدونا فلور مثالاً للأرامل.

من الخارج تلتفح بالخفر، هادئة المحيا منعزلة، كأنها الوداعة ذاتها. وفي داخلها تلتهب رغبةً «بالنار مستنفدة» مثل أوشوم، إلهتها. آه! ديونيزيا، لو تعلمين كم تحرق نار أوشوم ليالي عرابتكِ وجسدها الأسمر، فرجها المنزوع الشعر، تطلب منكِ منحها حماماً من أوراق الشجر المعطرة أو زوجاً.

كانت الدونا فلور تزداد قلقاً، لا تمرّ ليلة دون أن تحلم فيها. وحيناً تتمكن من النوم باطمئنان ليلة بطوالها، آه! يكون ذلك نعمة من الله! ما كانت ترتاح إلا في بداية نومها المطمئن وسرعان ما تنتصب الأحلام وتحملها إلى منفى الفحش، فتتقلّب على فراشها، صدرها مقهور وفرجها مجنون. في كل مرة تقلّ فترة نومها وراحتها، في حين تطول كلّ ليلة فترة الأحلام والرغبة، فترة صرير الأسنان حيث «تسيطر على الروح»، كما علمتها دعاية اليوغا المثقفة.

كانت بلا حياء فاسقة، فأين حياء الأرملة في أحلامها؟ لم تكن يوماً هكذا. حتى عندما كانت متزوجة، وهي في السرير مع زوجها، لم تستسلم له بسهولة يوماً، وكان مضطراً كلّ مرة أن يتغلّب على حيائها، وينتهك وقار نوع طبيعتها. وها هي الآن تخرج في أحلامها لتعرض جسدها على قارعة الطّريق. وأحياناً، لا تعود أرملة، بل تتخيّل نفسها امرأة شارع[1] تبيع جسدها بالمال. يا للعار! أوّاه! وحدث أن استيقظت مرة في منتصف الليل وأخذت تسكب الدموع على أطلال ذاتها القديمة، على الدونا فلور ذات الخفر التي كانت تلتفّ بحيائها وتتشبّث بملاءتها، بينما هي اليوم لا تلتفّ إلا باستهتار الحلم، نهمة وسافلة بغياً، ذئبة تعوي، قطة في الغلمة، عاهرة.

أحياناً، تكون جدّ متعبة بعد نهار مرهق، فتغفو في السينما وتتثاءب خلال محادثتها مع صديقاتها، ميتة من النعاس. لكن يكفي أن ترتدي قميص نومها وتتمدّد على فراشها حتى تفقد كل رغبة في النوم. فيطير النّعاس، وتفلت افكارها السيئة من عقال الحشمة والتفاصيل اليومية عن حصص الدرس وشراء إحدى الحاجيات أو نزهة أو مرض جال لها أو أحد

---

(١) في الأصل MULHER-DA-VIDA: امرأة الحياة. أي بغي.

المعارف، الرّبو الذي تعانيه الخالة ليتا، على سبيل المثال والذي يُسبّب لها خفقاناً في القلب شديداً خاصّة وأن العجوز الطيبة تمضي الليالي لا يغمض لها جفن، مهددة بالموت اختناقاً بسبب من هذا المرض الذي لا يرحم.

الدونا فلور كانت مختنقة هي الأخرى، تتآكلها الرّغبة لم يعد تفكيرها يطاوعها. كانت تعود بالذاكرة إلى مشكلات ماريلدا، ودورها في الغناء في الإذاعة، والعقبات التي لا تذلل والتي تنتظرها، وعلى حين غرّة ترى أمامها الأمير الأزرق الضارب إلى السواد يكرر لها عباراته المستديرة كالقصائد، وكلمات الحب في عتمة السينما. أين ماريلدا ومشكلتها، وغناؤها الممنوع، وصوتها الشبيه بصوت العصفور.

عرفت الدونا فلور شهرة الفتى الأول[1] في دور البغاء. فديونيزيا، التي لم تعلم شيئاً عن مغامرتها المضحكة، والتي اعتقدت أن إشبينتها قد علمت عن المحتال من خلال أنباء الصّحف، رغبت في تسليتها بإخبارها قصصاً عن «سيّد الخطوات»[2] الضّعيف. فحين دخلت ديونيزيا معترك حياة البغاء كان ذلك السافل الغشّاش يتمتّع بتقدير عظيم بين الجانحات، وذلك بفضل جماله الشاحب، وصوته الرومانطيقي، بفضل عينيه الذابلتين ونشاطه الملحوظ في السرير، فالحقيقة أنه ماهر في إعطاء اللذّة، كما تقول اللواتي تذوقنه. كان قادراً على إثارة الهيام المأساوي به. ومن أجله، «فلانتان»[3] اشتبكتا بالأيدي والأسنان، فانتهت واحدة إلى المستشفى، وفيها جرح بالموسى، والثانية إلى السجن بتهمة التسبب بجروح خفيفة.

وفي الحلم جعلت الدونا فلور نفسها السكيرة الثانية المعتدية، تمتشق الموسى ضدّ ديونيزيا، في سخرية فظة: «تعاليْ إذا كنتِ امرأة، أيتها المحظية السوداء القذرة، لكي أمزّق وجهكِ». لكن ديونيزيا راحت تضحك منها بسخرية، وبقية المومسات جميعهن أيضاً ضحكن على الأرملة البلهاء. ألم يقلن لها إن الشاب الجميل، الأمير المختص بالأرامل، لا يأخذ منهنّ إلا النقود والمجوهرات؟ فلا زواج ولا قلة احتشام في السرير. وما دامت

---

(١) GALA الممثل الذي يقوم بدور العاشق، نجم المجتمع.
(٢) من القاب الله في أميركا اللاتينية، وهي هنا تعبير مجازي.
(٣) TULANAS: جمع «فلان» بصيغة التأنيث. كلمة عربية الأصل

الدونا فلور تعلم ذلك، فلماذا أتت ملتهبةً، غير متفهمة غير عفيفة، تقدم له عاريةً جسدها الأمرد؟ يا للعار! أين حياء الأرملة؟

هرعت إلى الحبوب المنوّمة، التي تضمن لها نوماً طيلة الليل. في «مخزن الأدوية العلمي»، في ناصية كابيسا، استشارت الصيدلي، الدكتور تيودورو مادوريرا. وحسب الدونا آميليا، مع تأييد من الجمع عموماً ليس الدكتور تيودورو مجرد صيدليّ، لكنه يستطيع تصحيح أخطاء أطبّاء كُثُر وهو ماهر في مهنته، ليس هناك من هو أفضل منه للمراجعة بشأن الأوجاع العادية فوصفته طلقةٌ لا تخيب تُسقط المرض وتضمن الشفاء.

أرق؟ توتر عصبي؟ رقاد سيء؟ تغالين بلا شك، لا شيء خطير، شخّص الصيدلي حالتها بودٍ ناصحاً باستعمال حبوب ملبّسة ممتازة لمقارعة آثار التعب. تريح الدّماغ، وتعيد التوازن لأعصابها، وتمنحها هدوء النّوم. بوسع الدونا فلور تناولها من دون خوف، فإذا لم تنفعها، لم تضرّها. فليس فيها مخدرات ولا مهيّجات كبعض العقاقير الحديثة الباهظة الثمن الرائجة حسب الموضة. «خطرة للغاية، يا سيدتي، كالمورفين والكوكايين، إذا لم يكن أخطر». موسوعة معارف[1] هذا الصيدليّ؛ لطيف ومتكلف في المجاملة نوعاً، يأتي بتحيّات[2] لطيفة عند الانصراف، وأخيراً لن تنسى الدونا فلور إعلامه بالنتيجة!

لا نتيجة، أيّها السّيد الدكتور تيودورو، الحقيقة الناصعة هي أنّها نامت فترة طويلة من الليل، ولم تستيقظ إلا حينما راحت الخادم المذعورة تطرق على بابها، وقد قاربت الساعة موعد بدء درس الفترة الصباحية. نوْم طويل، أجل، لكنه شبيه بالأوّل من حيث تسلّط الفكرة ذاتها على عقلها، ونفس الهذيان الشّهوانيّ والحميّ الليليّة والضياع المُفرط. بل أسوأ من الأوّل، إذ لم تتمكّن من قطعه والاستيقاظ، باتت مصلوبة طوال الليلة، في احتلام بلا نهاية، فرجها في جوع وظمأ، جرح مؤلم، جرح بالغ مرئي. مع الصباح تتقطع الدونا فلور إرباً من التعب. مع حبوب أو بلا حبوب دائماً النوم يوقد فيها حِمَم الرّغبة. مثابرة على الخطأ، وضيعة.

---

(١) ENCICLOPEDIA

(٢) SALMALEQUE: مشتقة من العربية بمعنى «السلام عليك».

وضيعة الدونا فلور إذ تتداول في اللعنة. أثناء النهار حين لا وقت فراغ مشغولة طوال الوقت كانت لا ترى ولا تسمع نداء الجنس الطليق في المدينة، ولا الأقاويل، ولا النظرات المثقلة بالدّعوة، لا تسمع عبارات الغزل أو القليلة الحياء، لا ترى شراهة في عيني الذكر الذي يُعريها بنظرة ويأكلها بتنهدة وهي تعبر الشارع.

كانت أرملة شريفة، مثال الأرامل في عملها، في تنزهاتها، في حيائها. أثناء الليل تسقط إلى مستوى الأرض والقمامة. أصوات الرجال، نظرة التملك، التنهد المستهتر، الهمس العديم الحياء صفير الاستهزاء، الكلمات البذيئة الخرقاء، الدعوة إلى السرير. منذ متى كانت هي الداعية، تقدّم نفسها بلا حياء إلى الذكور، متسكعة في منطقة الجانحات، وهي أكثرهن انحرافاً وعهراً، أرخصهنّ وأسهلهنّ. حفرة براز قذرة! ومع هذا لم يبلغها ذكر أو يحصل عليها، فعندما يكاد أن يفعل ويكون قد أصبح في ثنية فرجها المتقد الملتهب آنئذٍ تمنعه الدونا فلور، وفجأة تستيقظ في جزع وقنوط. كانت أرملة محتشمة خجولة في ليلة كربها ووحدتها.

لم يتنبه أحدٌ إلى استنفادها اللعين. الجميع اعتقدوا أن حياتها هادئة، بلا مشكلات، زاخرة بالاهتمام، مرحة حقاً، من قبل عانَتْ الأمَرَّيْن من زوجها السيء المقامر أما الآن فهي أرملة تكيَّفَتْ مع وضعها، قانعة بحياتها، لا تهتمّ كما يجب بالزواج مُجدّداً، يائسة أكثر مما يجب من الرجال. بدت في طُمأنينة لدرجة تثير الإعجاب والتعليق معاً، حالما تظهر في رأس الشارع، أنوفاً رصينة، وفي البار يتناقش الرجال حولها:

ـ ها هي أرملة مستقيمة تلك التي هناك. ومع أنها شابة جميلةلـم ترفع نظرها إلى رجل قطّ...

ـ أشرف مما يجب. ربما لا يعود ذلك للفضيلة...

ـ إلام يعود إذاً؟

ـ شريفة بطبيعتها لكون طبيعتها باردة. باردة كالثلج، طليقة من الرغبة. ثمة نساء مثلها جميلات، تماثيل جامدة، بالنسبة إليهن لا وجود للرغبة. كلا، لا فضيلة في عفتها، بل

نعم، برودة، إنهن جبال جليد. وهي منهن، بالتأكيد.

ـ قد تكون منهنّ أو لا تكون، من يعلم؟ على أي حال، سواء بسبب الفضيلة أم أي شيء آخر، تظل الأرملة الأكثر استقامة في المدينة...

وأصرّ الآخر بخطابيّة، وهو رديء الثقافة شنيع:

ـ ثِقْ أنّها باردة كجبل جليد. إنها من المرمر القارس، الجليدي!

ومشت الدونا فلور بخطىً حذرة، وملابسها تدلّ على الأناقة والاحتشام، بهاء بسيط متواضع، من دون أن تنظر يميناً أو شمالاً. لكنها تجاوبت مع إشارة مرحة من ألفريد صانع الأيقونات وبائعها ومع تحية مساء رنانة من ميئديس، الإسباني، ومع تحية محترمة من الصيدلي، ومع ضحكة حانية من الزنجية فيتورينا تبيع على لوحها الخشبي الآبارا والأكاراجيه. كم كانت تكلفها تلك الحشمة الهادئة وذلك الوجه الهادىء ـ من جهدٍ جهيد ـ فهي في الحقيقة متوترة بعد إرهاق الليل وهي فيه لا تنام جيداً بل تنهمك في صراع غير مجيد مع الرّغبة التي تشعل فرجها. من الخارج مياه راكدة، ومن الداخل شعلة متّقدة.

٨

قالت الدونا نورما بإخلاص: « كنتِ أقسى ممّا يجب، بل... فظّة... لإينايـدي الحقّ في أن تحنق.. »

صباح الأحد بشمسه التي تبعث الكسل، بعيد ليلة سبت جرى فيها احتفال صاخب بعيد ميلاد السيد سامبايو، كانت صديقات الدونا فلور يتحلّقن حولها، ما تزال تلخص بعض بقايا الإثارة.

ـ لا أتحمل التصرفات الوقحة... لم تجد الدونا آميليا شيئاً سيئاً في تصرف الدكتور ألويزيو: « كانت مجرد مزحة... أخذتِ الأمر بسوء نيّة ».

ـ مزاح سيء الذوق...

عبّرت الدونا نورما الحيوية عما تفكر به الصديقات: « فلور، اعذريني لو قلت لك أنك أصبحت حساسة أكثر من اللازم: تغضبين لأقلّ شيء، وتتألمين... ما كنت من قبل معتدّة هكذا بنفسكِ... صحيح أني لم أكن موجودة، وحتى ولو غالى بعض الشيء، فإن المسألة مجرد مزحة لا أكثر ولا أقل، لم يكن من الضروري أن تجعلي من الحبّة قبّة ».

أما الدونا جيزا فانصرفت إلى تطبيق النظريات العلمية في تحليل نفسية المرء وتصرفاته على مسجل العقود بيلان أركادو:

ـ السيد ألويزيو رجل تقليدي من السرتون، أبوي[1]، اعتاد أن يعامل المرأة على أنها مجرّد ممتلكات، كحيوان، كبقرة.. انتهزت الدونا فلور الفرصة: «بالضبط.. بقرة... بالنسبة إليه جميع النساء لسن أكثر من بقر... وهو نفسه حصان...».

ـ أنتِ لم تفهميني يا فلور ولا فهمت السيد ألويزيو أيضاً. يجب أن تلاحظي أين يعمل ويعيش وسط بيئة مختصّة بالزّراعة والرّعي... وبالنسبة إليه هو سيد إقطاعي...

ـ هو إنسان عديم الحياء.. سيء التصرف... يمسك يدي ويداعبها..

وأدلَتْ الدونا جاسي بدلوها: «نورما مصيبة يا فلور، أصبحت حساسة كل ما فعله الدكتور[2] ألويزيو هو إمساك يدك».

واستدركت الدونا ماريا دو كارمو:

ـ ليقرأ لكِ حظّك. لماذا يختلق كلّ المحتالين نفس الحجّة عن قراءة اليد؟

ـ أنتِ أيضاً ترينه عديم الحياء؟

ـ هذا المدعو السيد أو الدكتور ألويزيو؟ ترى، أهو دكتور أم لا؟

السيّد ألويزيو أم الدكتور ألويزيو؟ عن غير قصد طرَحت الدونا ماريا دو كارمو على بساط البحث مشكلة جدّيّة عن التصرف اللائق والبروتوكول. ففي قطاع سان فرانسيسكو ده جوازيرو إلى جانواريا، من لابا إلى ريمانزو وسينتوسيه المنطقة التي يمارس فيها المحاماة محام بلا دبلوم كيفما كان، وهو من أفصح الخطباء أمام القضاة، وكأنه دكتور عن حقّ. أما في العاصمة وبسبب قصوره عن الدراسة الجامعية أسقطوا عنه اللقب الذي لا يستحقه. كانت هناك رغبة عامة في إبعاد هذه القصة عن المدينة وعن السرتون، وهو ما تفاهم عليه أصحاب النظرة الشكلية المتصلّبين، مع المتحذلقين الليبراليين أمّا الصديقات المجتمعات في قاعة منزل الدونا فلور فقد ضربْن بذلك الاتّفاق عرض الحائط. وأوجزت الدونا إيمينا

---

(١) PATRIARCAL

(٢) لقب يطلق على أصحاب المزارع الكبيرة في البرازيل.

رأيها، بعد أن ظلت صامتة طويلاً: «دكتور أم لا، إنه ثرثار، يحسن الكلام، معسول اللسان.. شاطر».

عقّبن جميعهن على ما جرى، ما يقترب من الفضيحة وإن كانت صغيرة ليلة عيد ميلاد السيد سامبايو. كان تاجر الأحذية عدواً للحفلات والاحتفالات ممّا جعل الدونا نورما تقتصر الاحتفال رغم أنفها على عشاء مترف دعت إليه الأصدقاء والجيران. وحاول السيد سامبايو النّهم، لكن المقتصد إقناع زوجته كما يفعل كلّ سنة بألا تعد شيئاً في المنزل، بل تخرج لتناول الطعام معه ومع ابنهما في مطعم حيث يأكلون جيداً وكثيراً كما يليق، لا ضجة ولا إرباك، ولا نفقات باهظة. وكما كلّ سنة منذ زواجهما كانت ردة فعلها على اقتراحه الحذر الزهيد أن عشاء أميركياً هو أقل الإيمان بحيث لا تعيبه عليهم حلقة أصدقائهم الواسعة.

ومن السرير حيث يضع إصبعه الكبير في فمه بذل زيه سامبايو آخر محاولة لعرض وجهة نظره التي لا تلقى استجابة:

ـ أنا ضد ذلك الأمر لعدة أسباب كلها وجيهة.

ـ قل ما هي أسبابك، لكن لا تأتيني بالقصة القديمة عن تراجع بيع الأحذية، فقد رأيت حساباتك بأمّ عيني..

ـ ليس الأمر كذلك إطلاقاً.. اسمعي، ولا تقاطعيني: أولاً، أنا لا أحب ذلك، عشاء أميركي والكل واقفون. أحب أن آكل وأنا جالس إلى المائدة. ثانياً، في هذه البدعة التافهة الأميركية التي يتحلّق كلّ الناس حول المائدة فيما أنا العنيد التّيس أنتهي بأكل الفضلات. حين أهمّ بتناول الطعام يكونون قد أكلوا جميع الطعام المقلي؛ ولم يتركوا لي إلا جناحي الديك الرومي فالصدر قد اختفى. ثالثاً، وهو أسوأ ما في الأمر، أني باعتباري ربّ هذا البيت ينبغي أن أكون آخر شخص يتناول الطعام فلا أجد ما أتناوله. آكل القليل الرديء... رابعاً، هذا لا يحدث في المطعم. فهناك نجلس، ونختار الأطباق. ولمناسبة كونه عيد ميلاد، يستطيع كل واحد منّا أن يأكل طبقين...». وهذان الطبقان كانا إلزاماً مربكا له تجاه أسرته وشراهته.

وكانت الدونا نورما لا تستطيع تحمل الاستماع إليه حتى النهاية فتقاطعه: «زيه سامبايو،

إعمل معروفاً، ولا تكن سخيفاً. أولاً، نحن دائماً نُدعى إلى أعياد ميلاد الجميع...»

ـ لكنني لا أذهب أبداً...

ـ قلّما تذهب، لكنّك أحياناً تذهب... وحينما تذهب تأكل حصص خمسة أشخاص... ثانياً، لا تكلمّني عن أنك في العشاء الأميركي تتناول قليلاً من الطعام، وأنك عنيد كالتيس. ففي عيد ميلاد السيد بيرنابو، الذي ذهبت إليه لمجرد أنّ الرجل أجنبي، وضعت في طبقك نصف سوفليه القريديس تقريباً، ناهيك عن الفطائر الكبيرة... غصة تنتابك...

أنّ السيد سامبايو: «آه! طعام الدونا نانسي رائع»...

ـ وطعامي رائع أيضاً... ثالثاً، هنا في بيتك لم تكن يوماً آخر من يتناول الطعام بل الأول. يا لقلّة تهذيبك التي ما رأيت مثلها قط، قبّحك الله! أنت رب البيت. رابعاً، في عشائي الطعام يكفي الجميع ببركة الله! خامساً طعام العشاء...

«يكفي...»، تضرّع التاجر، مغطياً كل جسمه بالشرشف: «لا أستطيع النقاش، ضغطي يرتفع..»

كان عشاء الدونا نورما مأدبة دعت إليها عشرين شخصاً وأعدت طعاماً لخمسين، وهي محقّة، فجميع الفقراء في الجوار يأتون ليلحسوا قعر الطناجر، وليشربوا فضلات الزجاجات.

في تلك السنة. استقطب عيد ميلاد السيد سامبايو كل الجيران، خصوصاً آل بيرنابو. فقد أتت الدونا نانسي لتنخرط في دائرة الصديقات، فيما يتكلم السيد هيكتور في الأعمال ويتباهى بتقدم الأرجنتين.

كان فظيعاً في وطنيته السيد بيرنابو هذا: ينتسب إلى المدن ـ المرافىء[1]، ويُقارن دائماً بين الأرجنتين والبرازيل وطبعاً يُفضّل وطنه؛ ويبرز في أحاديثه ونقاشه التطور الأرجنتيني،

---

(١) المدن القائمة على الساحل وفيها مرافىء كبيرة مثل بوينوس أيرس في الأرجنتين وريو ده جانيرو في البرازيل.

الثروات، المناخ ـ مع الفصول الأربعة ذات الحدود الواضحة ـ هذا الحر الشديد هنا طوال السنة؛ ثم هناك أفضل سكك حديدية، لا مثل هذه التفاهة ههنا حيث لا مواعيد ثابتة للقطارات؛ هناك أطرف الفاكهة والنبيذ وخبز القمح النقي واللحم الطري الوفير، من القطعان المؤصلة. وترتعب الدونا نانسي حين يندفع في غيرته الوطنيّة، فتخرج عن صمتها لتضبطه: «لكن يا بوبو هنا أشياء جيدة أيضاً... مثلا، خذ الأناناس... إنه جيد جداً...» كانت مجنونة بالأناناس وخائفة من أن يتورّط زوجها في صدام أو يتبادل الصفعات مع وطني برازيلي أهاجته كلماته أو مناضل من أنصار الافتخار الوطني.

وفعلاً هذا ما حدث مراراً. فمرة أثناء إحدى مداولاته الجيو ـ اقتصادية، فقد السيد شلهوب ـ من السوق (ابن سوريين، برازيلي من الجيل الأول، ولهذا بالذات كان شوفينياً منفعلاً) ـ أعصابه وأخذ ينال من قيمة مصنع السيراميك فرن الآجر والبلاط، وأخيراً قذف في وجه بيرنابو الثائر السؤال غير المهذب التالي:

ـ إذا كانت الصناعة هناك أفضل بكثير من هنا، وإذا كانت الحياة هناك بهذه الروعة فلِمَ أتيت لتنشيء مصنعك عندنا؟

من جهته الرسام كاريبيه (الذي رسم صورة ديونيزيا ده أوشوصي مرتدية ثياب الملكة، ممسكة بالأوفان والإيروكيريه) كان يدرس مع الأرجنتيني إمكانية إحراق إحدى القطع الفنية الفولكلورية في فرنه، فوجد نفسه متورطاً في جدال حول التانغو والسامبا [1] وانتهى بالانفجار:

ـ «هذا مستحيل. هل هناك بلاد ليس فيها خلاسيات حيث كل النساء بيضاوات، هذا مكان لا يقطنه أحد... ترفّق بي!»

في عيد ميلاد السيد سامبايو، كان المدافع عن العظمة الأرجنتينية شديد التّودد. فإذا كان يمجّد بلده، فهو لا يفعل ذلك بنية إلحاق الضرر بالأشياء البرازيلية. بل على العكس وضع نشيداً حقيقياً لشعب باهيا، لأسلوبه الإنساني ولطافته وطيبته. وهكذا كان عيد

---

(١) التانغو رقصة الشعب الأرجنتيني الفولكلورية. والسامبا رقصة الشعب البرازيلي الفولكلوريه.

ميلاد صاحب المتجر ناجحاً اجتماعياً ، لم يعكّر صفوه سوى حادث واحد (على كل حال ، لم يتعدّ نطاق حلقة الصديقات والعرابات) بين الدونا فلور والسيد آلويزيو .

تردّدت الدونا فلور فيما إذا كان من المناسب لها الظهور في الاحتفالات أم لا . لكنه كان عشاءً لعدد كبير من المدعوين ، لذا لا يحمل طابع الاحتفال المتنافر مع حالة الحداد التي تعيشها . ولم تكتمل سنة على وفاة زوجها بعد . في الحقيقة بعد أيام قلائل تكتمل السّنة ، لكن على الأرملة أن تلتزم بمبادئها ، فإيديولوجية الترمل تستدعي التشدّد والصرامة . وأقل انحراف عن السلوك القويم يطلق قطيع[1] العرابات نحو الإدانة والتّنديد .

ضحكت الدونا نورما من تردّدها فمتى كان حضور عشاء ، عشاء عيد ميلاد بسيط ، محظوراً على الأرامل؟ ليس حفلة راقصة ، حتى ولا حفلة راقصة مرتجلة . وإذا وضع السيد أرتور وأصدقاؤه من الطلاب والطالبات أسطوانة في الفونوغراف ورقصوا السامبا فهذه تسلية بريئة للشباب لا تتعارض مع عُرف الحداد أو طقوس التّرمل ، ولن يسبب الفضيحة للمتوفى في قبره .

كما أمضت الدونا فلور النهار عملياً في مهمة تهيئة عيد ميلاد السيد سامبايو في مطبخها ، وبمساعدة ماريلدا حضّرت الفتابان ـ قدر ـ وموكيكا السمك ، متعة ! ، فيما انهمكت الدونا نورما بالكيتوتي[2] الأخرى . وهكذا حضرت الدونا فلور وهي مقتنعة .

وبعد أن غصّ المنزل بالنّاس وعمرت الموائد وصلت الدونا إينايدي من شامي ـ شامي ، ومعها طبقٌ من الكيندين[3] مع ربطة عنق للسيد سامبايو واعتذارات من زوجها ، الذي اعتاد ليالي السبت ألا يتخلّف عن المشاركة في حلقة البوكر ، كان يرفض أي التزام آخر . وكتعويض ، قدم بصحبتها السيد آلويزيو أو الدكتور ألويزو عند آخرين ، المحامي بلا دبلوم المثير للتعليقات والكاتب العدل على ضفاف نهر سان فرانسيسكو ، عازب في منتصف

---

(١) CATEIA : كلمة « القطيع » في العربية مع تحريف بسيط في أواخر الحروف الثلاثة . وهي تعني قطيع الذئاب أو الوحوش الضارية .

(٢) QUITUTE, MOQUECA, VATAPA : أطعمة مشهورة في ولاية باهيا ، ورد ذكرها سابقاً .

(٣) QUINDIM : حلوى مصنوعة من صفار البيض وجوز الهند والسكر .

العمر ، ومرشّح من قبل أقاربه لطلب يد الدونا فلور . حشر نفسه في ملابس جديدة بورقتها ، خليط من ألوان داكنة دافئة ، كل ما فيه يوحي بالادعاء ، أنفه معقوف قوي وصلعته برّاقة وعيناه حيويتان متفحصتان ، مضمّخ بماء الكولونيا والتلك كعارض أزياء . انساقت الدونا إينايدي مع نزواتها في التقديم ، فخورة بابن حيها النّافذ في السرتون:

ـ آلويزيو ، أقدم لك الدونا فلور غيمارايس ، أجمل أرملة في باهيا .

ـ إينايدي ، لا تمزحي . . .

انحنى الدكتور آلويزيو ليقبّل يدها ، وحامت موجة من العطر في الجو ، مغطية الدونا فلور :

ـ سيدتي ، إنها للحظة مؤثرة في حياتي . لقد كلمتني زوجة أخي في رسالة بشأنك ، قاصّة عليّ روائع . . . مع هذا ، أرى ، أنها قصّرت في وصفك والشاعر وحده يستطيع وصفكِ يا سيدتي . . .

في نفس الوقت كان يعرّي الدونا فلور بنظرة متباطئة وشرهة ، منتزعاً عنها فستانها وغلالتها ، ومنهدتها وسروالها . لم تشعر الدونا فلور يوماً أنها عارية كما شعرت عندها ، فنظرته تلك كانت تقيس فيها انحناء كفلها وصلابة ثدييها ، وردة الفرج . وتحولت النظرة من نظرة تقدير إلى ثناء ، وافترت ابتسامة المجاملة المتوددة عن ضحكة رضى .

كل هذا ولم يترك يدها ، حبسها في يده فيما راح يعريّها ويتخيّل .

أجل ، كان يقوّمها جسداً وروحاً في آن معاً ، مستنتجاً أنه أمام سجينة سهلة مضمونة . وعبر تجربته الطويلة كدون جوان ، صنّف الدونا فلور كامرأة متصنّعة بل شديدة التصنّع . كان يعرف جيداً هؤلاء النساء ذوات المظهر الوديع . جميعهن تقريباً زائفات ، مخادعات ، بينما في السرير تنطلق شياطينهن ويندفعن كالوحوش .

في مدن السرتون الصغيرة حيث لا حق للمرأة يُذكر بل هي عبدة رغبات زوجها ، سيدها ، ملتزمة منزلها ، فوجىء السيد آلويزيو مراراً عندما لقي في أعماق بعض العيون

الخفيضة وفي تصرف سري مكتوم، إجابة حارة على دعوته العديمة الحياء.

آه! هذه المياه الوديعة تخفي العواصف، وترى تحت هذه الحشمة الظاهرة وتحفظ الحداد، أي زوبعة داخلية تعصف بالدونا فلور، الشابة المعافاة؟ كم عرف الدكتور آلويزيو أخريات لهن نفس المظهر المتواضع، في خبايا البيوت، في عقد مجموعة قوانين الشرف. يعشن في القرون الوسطى. مع هذا، حالما تظهر فرصة مناسبة يتكشّفن عن موهبة لا تضاهى في ممارسة كل ما هو محظور ممنوع خبيرات بزرع القرون في رؤوس أزواجهنّ. وبين الفينة والأخرى يلجأ زوج مخدوع إلى تنفيذ القانون ببضع طلقات أو ببعض الطّعنات.

في ساعات غلمته ـ وهي معظم وقته، إذ لا تلحّ دائرة السجل العقاري عليه بالتواجد إلا قليلاً ـ يكرس الكاتب العدل نفسه للنساء، يدرسهنّ ويتعرّف عليهنّ (معرفة حميمية إذا أمكن) حاملاً قاضي بيلون أركادو، الدكتور ديفال بينتومبو على تصنيفه «كمرجع في علم النفس، عليم موثوق به في معارف النفس الأنثوية وقارىء علامة في الآداب الكلاسيكية». الآداب الأجنبية تتلخص بالترجمات الوطنية أو البرتغالية للميتولوجيا الإغريقية، وللمظاهر العامة للتحلل في حياة الامبراطورية الرومانية. بالنسبة إلى النساء، كان لديه العين السريرية، التي أثمرت بعض المغامرات وشهرة واسعة مرعبة للأزواج، كغاوٍ لا يقاوَم. وبالرغم من قرعته وأنفه الكبير، انحدرت بعض النّساء إلى الخطيئة بسببه وواجهن الشريعة الإقطاعية، وقوانين الانتقام.

حسناً، هذه النظرة من وشق[1]، نظرة كازانوفا نهر سان فرانسيسكو دخلت إلى صميم الدونا فلور، واخترقت أفكارها، وتمكنت من أسرارها، بعدما جرّدتها من ملابسها ومن زخارفها. نظرة وقحة ليس بها معنى آخر: السيد آلويزيو عرّاها داخلياً وخارجياً، وأخيراً وجدها طبق ما يشتهيه وجدها شهية وأيضاً سهلة. بالنسبة إليه لم تكن الدونا فلور أشرف أرملة في باهيا. كما انتخبها السكارى في بار كابيسا. وأسوأ العرابات مسعدة لأن تضع يدها على النار وهي متأكدة من سلامة موقفها.

---

(١) LINCE: حيوان من فصيلة الذئاب.

وما دمنا نتكلّم عن اليد ، فالمحامي بلا دبلوم احتفظ بها طالما هي تمدها له حبيسة يديه ، ضاغطاً عليها بشكل خفيف في ملامسة شبه بريئة . وأدركت الدونا فلور أنّه كان يجرّدها من ملابسها ، والمفهوم الذي صنّفها له من خلال يدها رهينة تملّك في يديه . كان ريفياً وقحاً أنفاً مغروراً . فإذا لم تتحرك سريعاً وتقصّ جناحيه حالاً ، فقد يجترىء على ارتكاب ما لا يُحتمل . سحبت يدها بفظاظة وعبست . لكنّ غاوي الكاتنغات[1] لم يُلق سلاحه :

ـ اسمحي لي باعتراف ، يا سيدتي المحترمة ... أن لديّ اهتمامات أناقشها في العاصمة[2] بشأن الدائرة التي أديرها ، وأقارب أزورهم ، لكن رغبتي في التّعرف إليك هي التي أحضرتني إلى سلفادور ... إينايدي ، في رسائلها ...

بيد أن الدونا فلور ، وقد رأت الدونا داغمار تلميذتها وصديقة آل سامبايو تظهر في القاعة ، تركته منصوباً هناك :

ـ بالإذن منك ... عليّ التكلم مع صديقتي تلك ..

فوراً سألتها الدونا داغمار ، وكانت في حالة نفسية مرحة :

ـ من هو ذلك الببغاء الأجرد ؟ طالب زواج ؟ ...

ـ دعيني في سلام ، يا امرأة ... إنه ابن حمي إينايدي ، المدعو الدكتور آلويزيو ، رئيس سياسي لا أدري أين ...

ـ آه ! هو هذا ... لقد سمعت عنه ... يقال إنه صاحب نفوذ في سان فرانسيسكو ... يا بنت ! أعطني أي شيء آكله ...

في قاعة الطعام ، اجتاح الموائد المقبلون على الطعام والشراب في صخب الأطباق والشوك والملاعق والسكاكين ، وصواني الطعام تصل ملأى من المطبخ لتعود فارغة إليه . إنجاز كان عشاء عيد ميلاد السيد سامبايو ! المنزل مزدحم ، تجار وزملاء نادي أصحاب

---

(١) جمع CAATINGA : منطقة شبه صحراوية في الشمال الشرقي من البرازيل .
(٢) المقصود عاصمة ولاية باهيا مدينة سلفادور .

المتاجر وأقارب، وجيران وصديقات الدونا نورما، يؤلفن تجمعات في القاعات وعلى الشرفة. والمطبخ ممتلىء بالـمُتَبنّين[1] من قبل الدونا وإشبيناتها، وبفقراء الجوار. في زاوية من زوايا قاعة الطعام، قرب المائدة الرئيسية، صاحب العيد السيد زيه سامبايو يأكل بشراهة عجلة، ملقياً نظرات مزوّرة على المائدة، مرعوباً من أن ينتهي الطعام قبل أن يجدّد طبقه.

كان شبه متوارٍ كيلا يأتيه من يحادثه، فيزعجه. لكنّ الأرجنتيني بيرنابو، بشفتيه الصفراوتين بزيت الديندية، كال التهاني لصاحب المنزل مع تجشآت التّخم:

ـ أيها الصديق القوي كم الطعام لذيذ...

ساعدت الدونا فلور قليلاً الدونا نورما والخادمات (جميع خادمات الجوار) ولكنها، عندما فترت الحركة، جلبت كرسياً من إحدى زوايا الشرفة، ومن هناك رافقت هياج العشاء؛ كان السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى، يهمّ بالطبق الرابع، والدكتور إيفيس يملأ بطنه بحلوى ما بعد الطعام.

اقترب منها السيد آلويزيو، وعود نكش الأسنان في فمه. كمن لا يريد شيئاً حتى استند إلى الحائط قربها:

ـ «حفل روماني...» أطلق حكمه

صمّمت الدونا فلور على ألا تجيبه لكنها في النهاية أجابت. فلم تكن لديها أسباب كافية لتجاهل هذا الرّيفي.

ـ حينما تقدم نورمينيا[2] العشاء، لا تعدّ الأطباق...

كان السيد آلويزيو يتطلع يمنةً ويسرة مميتاً المحادثة دون مواصلتها. وكادت الدونا فلور تعود إلى حركة القاعة. وعندها سمعت الشبق الصامت في صوت الكاتب العدل:

ـ أيتها الجميلة، قولي لي شيئاً واحداً...

---

(١) AFILHADO: الطفل الذي يتخذ له ذووه امرأة بصفة إشبينة عند العمادة.

(٢) تصغير لاسم نورما.

فزعت:
ـ ما هو؟
ـ ما رأيك لو خرجنا معاً لنشاهد ضوء القمر على بحيرة آبايتيه؟ ستخرجين وأنتظرك في الساحة...

تسمّرت الدونا فلور، وقالت بصوت مخنوق:
ـ من تظنّني؟
أطلق الدكتور آلويزيو ضحكة كما لو كان يعلم تمام العلم القيمة الضئيلة لذلك التكرم، وهو معتاد على مثل ردات الفعل الأولى الفظة هذه.

ـ نزهة، لا أكثر...
عجزت الدونا فلور عن الإجابة، والحزن يحرق خديها ويسحق صدرها. هل الاشتياق إلى الرجل والرغبة المنفلتة من عقالها يظهران بوضوح على وجهها؟ واتجهت إلى القاعة مهرولة.

سألتها ماريلدا عندما شاهدتها هكذا متوترة، مرتعدة اليدين:
ـ ماذا بكِ يا فلور؟
ـ لا أدري، اعتراني خفقان.. لا شيء...
ـ اجلسي هنا... سأجلب لكِ كاس ماء...
ـ لا لزوم... سوف أجلس هناك مع أملكِ...

وفي حلقة الصديقات أثناء التّندر والتعليقات على شره بعض المدعوين، زالت الصّدمة عن الدونا فلور وتأثير ابتسامة العذول، والكلمات الوقحة الساخرة. السافل، يدعوها لمشاهدة ضوء القمر في ليلة حالكة السواد، الغبي! وشيئاً فشيئاً انخرطت في المحادثة، مرفّهة عن نفسها بملاحظات الدونا آميليا والدونا إيمينا. أما ماريا دو كارمو التي لم تر السيد سامبايو يتصرّف في غداء أو في عشاء ما كانت مذهولة.

وفيما تعالى صخب الحديث ومرحه ظهر النجم السانفرانسيسكوي الملحاح مرة أخرى، يتأبط ذراع امرأة أخيه الدونا إينايدي، ليسأل:

ـ هل من مكان لاثنين؟ أم الحديث محرّم على الرجال؟
ـ هيّا اجلسا...

لم تبد الدونا فلور اهتماماً بحضور الكاتب العدل، الذي أخذ بعد قليل يقرأ يد الدونا آميليا، مضحكاً الجوقة بنوادره. كان طريفاً، حتى أن الدونا فلور نفسها ابتسمت مرة أو مرتين. تنبّأ للدونا آميليا بالرحلة والثراء. بعد ذلك أتى دور الدونا إيمينا. وعدها وهو يتصنع كثيراً من الجد، بولد آخر عما قريب.

ـ معاذ الله... ألم أكتف بأمينيا، وعلى غير انتظار؟ سأنتحس بأخرى...

ـ هذه المرة سيكون صبياً... لا أخطىء أبداً...

بعد قراءة يد الدونا إيمينا، ألقى نظرة على الدونا فلور، كأن شيئاً لم يحدث. وراحت عيناه تعرّيانها من جديد، ممراً في الوقت نفسه طرف لسانه على شفتيه، بحركة وقحة بحيث شعرت بقلبها يتوقف. إلى أين يظن هذا الشخص أنه سيصل؟ لحسن الحظ لم تنتبه الأخريات. مدّ يده ليمسك بيد الدونا فلور، قائلاً:

ـ الآن دورِكِ...
ـ لا أريد هذه سخافة...

لكنّ الأخريات ألححْن عليها مقهقهات. ماذا سيفكرن لو أصرت على رفضها؟ سيكون الأمر أسوأ. فوافقت ابتسم الدكتور آلويزيو منتصراً، وهو الاختصاصي في النفس الأنثوية. لم يُخدع أبداً.

ركز على يد الدونا فلور اليسرى، وراحتها منبسطة إلى أعلى. وبإصبع ذي ظفر معتنى به جيداً، أخذ يحدد الخطوط الكاشفة، في دغدغة خفية ورقيقة، والدونا فلور متصلّبة مشدودة الأعصاب.

« خط الحياة رائع لديك... سوف تعيشين أكثر من ثمانين عاماً... » ظل ثانية صامتاً، كأنه يتفحص، بانتباه يد الأرملة: « ارى أموراً مستجدة عظيمة... »

ـ أمور مستجدة؟ أية مستجدات؟ صاحت الصديقات متأثرات.

ـ خطّ الحب... أرى حباً جديداً... حالة، عشقاً...

قالت الدونا فلور، وهي تحاول تحرير يدها:
ـ عن إذنك...
لكن السيد آلويزيو استبقاها بين يديه:
ـ تريثي... لم أنته... اصغي إلى البقية... سيد من المنطقة الداخلية...
انتصبت الدونا فلور بخشونة، وانتزعت يدها من بين يدي المحامي بلا دبلوم بعنف.
ـ لِمَ أشجعك على كل ذلك...
خرجت من القاعة كالعاصفة، تاركة وراءها الصديقات ذاهلات، والدونا إينايدي مهانة إهانة بالغة:

ـ يا لها من زبدة ذائبة... قلن لي: هل فعل آلويزيو شيئاً ما خارج المألوف؟ هل كان فظاً؟ نكتة للضحك... إني لا أتحمل أناساً مثلها، يتصرفن كالوحوش... وفي النهاية من تظن نفسها؟ أميرة؟

وحده الكاتب العدل أصر على أن يبقى هادئاً، ومنح الدونا فلور عذراً:

ـ مسكينة... أعرف هذا التوتر... إنه مشكلة جميع الأرامل الشابات اللواتي لا يعثرن على زواج جديد. طريق الهيستيريا... المدن الصغيرة مليئة بحالات كهذه... عانسات وأرامل، أي شيء يسبب لهنّ الإهانة، ويبكيهنّ، حياتهن فقدان وعي ومزاج سيء، وفي شيخوختهنّ يتحولن إلى مجنونات وادعات.

قاطعته الدونا ماريا دو كارمو: «انتبه يا دكتور، فأنا أرملة أيضاً، وأنت تهينني». قيّمها المحامي بلا دبلوم بنظرة متفهمة: خلاسية ما زالت بعد ذات قشرة طيبة، ناضجة جداً، جسد صلب، يتحمل قفزات بعد. وما كان الدكتور آلويزيو الرجل الذي يضيع وقتاً، فترك الدونا فلور وراءه وقال:

ـ أريني يدك اليسرى، اعملي معروفاً. أريد أن أرى شيئاً بوضوح...

تناول يد الدونا ماريا دو كارمو بين يديه، وتطلع إليها بتلك النظرة ذات الرسالة الفظة:

ـ هل بوسعي قول الحقيقة أم أكذب؟

خرجت الدونا فلور من الباب الخارجي. وذهبت ماريلدا والدونا نورما لملاقاتها في المنزل حيث وجدتها مغسولة بالدموع، في مثل هذه الحالة من التوتر، بحيث رددت الدونا نورما ما قاله المعلم آلويزيو من بيلون آركادو:

ـ ما هذا يا فلور، لماذا أصبحت عصبية؟ بهذا الشكل؟

٩

نداء الدونا فلور في الصف وفي هذيان

دَعْنَي بسلام مع حِـدادي ووحـدتي. لا تكلّمْنني في هـذه الأمـور، احترمـن وضعـي كأرملة. وهيّا بنا إلى الطبّاخ. طبق النزوات والإتقان هو الفاتابان بالسمك (أو بالفراخ) أشهر طبق في مطبخ باهيا. لا تقلن لي إني فتية، إني أرملة. فأنا لا أهتم بهذه الأمور. وكمية ألفا تابان تكفي عشرة أشخاص (وتزيد كما هو واجب).

أحضِرْنَ رأسين من الغاروبا [١] الطازجة ـ استعمال أي سمك آخر ممكن لكن هذا النوع هو الأفضل ـ وحضّرن الملح والكوينترو [٢] والثوم والبصل وبعض رؤوس البندورة وعصير الليمون الحامض.

أربع ملاعق حساء، ملأى بأفضل أنواع زيـت الزيتـون، ينفـع الزيـت البرتغـالي كما الاسباني، سمعت أن اليوناني هو الأفضل. لا أدري؛ لم أستعمله قط لأني لم أعثر عليه كي أشتريه.

إذا عثرت على عريس، ماذا أفعل؟ هل يستعيـد لي انسـانٌ مـا رغبتي الميتـة المدفـونـة في شحنة المتوفي؟ ماذا تعلمن أنتنّ يا بنات، عن حميمية الأرامل؟ إن رغبة الأرملة هي رغبة الدلع والخطيئة، فالأرملة الرصينة لا تتكلم في هذه الأمور، لا تفكر في هذه الأمور، لا تتحدث عنهـا. دعنني بسلام في مطبخـي. اسلقْـنَ السمـك في هـذه التـوابـل جميعهـا،

(١) GARUPA: نوع من السمك.

(٢) COENTRO: نوع من النبات الطبي من فصيلة الجزر.

واطبخْنَه مع قليل من الماء، القليل القليل: بضع نقاط لا غير. ثم صفِّين المرق، وضعْنَه جانباً، ولْنكمل عملنا.

إذا كان سريري مجرد فراش كئيب للنَّوم لا ينفع لأي أمر آخر، فماذا يهمّ؟ أي شيء في هذه الدنيا له ما يعوّضه. فلا شيء أفضل من العيش باطمئنان، بلا أحلام، ولا رغبات، من دون أن أستهلك في لهب الرَّغبة في رحمي المُتّقد. فهذه أفضل حياة ممكنة بالنسبة لأرملة رصينة محتشمة؛ حياة مطمئنة، متحرّرة من الطموح والرغبة. لكن، ماذا لو لم يكن سريري مجرد فراش للنَّومِ، بل صحراء عليّ اجتيازها يومياً، أرض رغبة مُحرقة بلا مخرج؟

ماذا تعرفْنَ أنتن عن حميميَّة الأرملة، عن سريرها المتوحّد، عن تركة المتوفى؟ لقد قدمتُنَّ إلى هنا لتتعلّمن الطهي، لا لمعرفة ثمن الاعتزال، الثمن الذي يدفع بالشوق والوحدة حتى تظل الأرملة شريفة محتشمة. لنواصل الدرس.

تناولن مسحوق جوزتَيْ هند واسحقن. انسحقن بالرغبة، هيّا لم أسيء إلى أحد قطّ ـ قليلاً من الرّياضة (يقال إن الرياضة تجنّب الإنسان الأفكار الرديئة على ما أعتقد) ـ اجمعن عجين الجوز الأبيض المسحوق جيداً واجعلنه يسخن قبل أن تعصرنه من السائل. هكذا يسهل استخراج الحليب الكثيف، حليب جوز الهند النقي الصافي. ضعْنه جانباً.

بعد أن تستخرجن الحليب الأول الكثيف، لا ترمين العجين خارجاً، لا تكنَّ متلافات، فالزّمن ليس زمن تبذير. خذن هذا العجين واجعلنه يسخن بغليه في ليتر ماء؛ ثم اعصرن للحصول على حليب المسحوق. وعندها تخلصْن من العجين المتبقي، إذ أصبح عديم النفع.

الأرملة هي مجرد إنسانة لا نفع منها، تقييد ونفاق. ترى أيدفنون فيها الأرملة في قبر الزوج؟ في أي بلد يوقدون النيران في جسدها مع جسد المتوفى؟ أفضل أن تحرق وتغدو رماداً دفعةً واحدةً من أن تستهلك نفسها بنار بطيئة محرمة، أن تحترق من الداخل بالاشتياق والرغبة. من الخارج نفاق، ملابس سوداء، خمار يغطي جغرافية مضطربة من الخوف والخطيئة. الأرملة هي هم لا ينفع.

قشّرن الخبز وبعد أن تقشرنه ضعنه في هذا الحليب المسحوق ليغدو طرياً. افرمن اللحم

في مفرمة (مغسولة جيداً) وهو طري مع جوز الهند، وافرمن الفستق والقريدس الجاف والكاجو والزنجبيل، ولا تنسيْن بهار ملقة[1] حسب ذوق الزبون (البعض يحبّون الفاتابان حرِّيفاً ببهاره، وهناك من يحبه لاسعاً مع حدّة بسيطة).

بعد أن تفرمْن هذه التوابل وتمزجنها ضعنها على المرق المعدّ جيداً من الغاروبا، مضيفات التوابل إلى التوابل. الزنجبيل إلى جوز الهند، والملح إلى الفلفل والثوم إلى الكاجو. ثم ضعن الخليط فوق النار إلى أن يصبح المرق كثيفاً.

إذا كان الفاتابان القويّ بالزنجبيل والفلفل والفستق لا يؤثر في الناس ولا يبثّ الحرارة في أحلامهم ويجعلها فاسقةً بتوابله! وأنا ألا أعرف هذه الاحتياجات! ما احتجت يوماً للزنجبيل أو الفستق؛ كانت يده تكفيني، يكفيني لسانه، كلامه، شفتاه صفحة وجهه، لطفه! كان يُعرّيني من الملاءة ومن الحياء ليحملني إلى عالم فضاء قبلته، يشعلني كالنجوم في عسل ليلِه. فمن ذا الذي يجرّدني اليوم من خمار العفة في أحلامي كأرملة وحيدة في سريرها؟ من أين تأتيني هذه الرغبة التي تحرق صدري ورحمي ولم يعد هناك لا يده ولا شفتاه، لا صفحة وجهه الجميل كالقمر ولا ضحكته الفجّة؟ لم تعد هناك. لماذا مني بالذات تتولّد الرغبة؟ لِمَ كل ذلك التساؤل والاهتمام بمعرفة ما يدور في أعماق الأرملة؟ لِمَ لا يُرخون خمار الحداد الأسود، خمار التصوّر المُسبق، على وجهي ليغطي تردده ما بين الحياء والرغبة الجامحة؟ إني أرملة، وكلامي في مثل هذه الأمور لا يعود على وضعي بالخير؛ أنا أرملة أمام الطّبّاخ تطهو الفاتابان، تزن الزنجبيل والفستق وبهار ملقة وهي في منتهى الوحدة.

أضفن فوراً زيت جوز الهند الكثيف النقيّ، ثم أخيراً زيت الديندِيه فنجانين موزونين جيداً، زهرة الديندِيه، بلون الذهب العتيق، لون الفاتابان. ضعنه على نار خفيفة وقتاً طويلاً، مع تحريكه بملعقة خشب باستمرار وعلى نفس المنوال. لا تتوقفن عن التحريك وإلا سيغدو الفاتابان كالقرون. حرّكن وأعدن التحريك، هيّا، بلا توقف، حتى بلوغ الدرجة المطلوبة.

على نار خفيفة تتآكلني أحلامي. ولا ذنب لي فأنا مجرّد أرملة مشطورة نصفين، أرملة

(١) نسبة إلى ملقة في ماليزيا.

شريفة خجولة من جهة، ومن جهة أخرى أرملةٌ فاسقة، هستيرية تقريباً في ضياعها وسوء مزاجها. رداء الحرص هذا يخنقني، في الليل أركض في الشوارع بحثاً عن زوج، زوج أقدّم له الفاتابان بلونه الذهبي وجسدي البرونزي كالزّنجبيل والعسل.

بلغ الفاتابان درجة الكثافة المطلوبة. أنظرن كم هو جميل! قبل تقديمه، عليكنّ سكب قليل من زيت الديندية النيء فوقه. قدّمنه مصحوباً بالآكـاسـا[1]. الخاطبـون والأزواج سـوف يتلمّظون.

وما دمنا نتكلم على العريس، أنذرن الجميع بل ليعلم الكلّ أنه ها هنا أرملة شابة لطيفة وديعة فاتنة، بلون الماتي[2]، مخلوقة من الذهب والبرونز، طاهية متمكّنة مجدّة في عملها، شريفة طيبة السمعة لا مثيل لها في المدينة بأسرها في ريكونكافو، أرملة ممتازة من الدرجة الأولى في السرير الحديدي، بحياء العذراء رحم تحرّقه النّار.

لو كنتن تعرفن من يهمّه الأمر فأرسلنه راكضاً إليها في أي ساعة، في الصباح أو في المساء، في منتصف الليل أو في الفجر، مع الشمس أو مع المطر؛ لكن أرسلنه سريعاً، أرسلنه مع القاضي، مع أوراق عقد القران، أرسلنه على وجه السرعة، بأقصى سرعة.

أطـلق هذا النداء إلى الرياح الأربع، إلى طبيعة التيارات الجارية تحت البحر، لحالات القمر والمد، في إثر أي إبحار أو ملاحة السواحل، فأنا ميناء يصعب اكتشافها، خليج خفي، مرسى الغرقى. فمن يعرف عازباً يبحث عن أرملة للزواج، ليقل له إنه سيعثر ههنا على الدونا فلور عند حافة الطباخ قرب الفاتابان المعدّ بالسمك، مستنفدة بالنار والعار.

---

(١) ACAÇA: مزيج من مسحوق الارز والذرة يقلى ويتبل بالماء والسكر.

(٢) MATE: عشب مثل الشاي.

١٠

ذات يوم لم تعد تستطيع أن تتحمّل وانفتحت مع الدونا نورما: « من الخارج زهد عفيف، ومن الداخل بئر غائط ». فالرغبة تتولّد منها، من صدرها، من الصمت، من الهذيان، من الوحدة، من الحلم. من دون سبب، من دون نقطة انطلاق، من دون بذرة ولا جذر. يتولّد منها ــ « من دماري نفسه، يا نورمينيا » ـ من جسدها المحموم، نامياً في ذلك البدن القذر من الغياب، من الاحتياجات، من اللعنات؛ فالاشتياق مزروع في روث خراجها.

ـ إني متلَفَة يا نورمينيا، لا أريد التفكير وأفكر. لا أريد أن أرى وأرى. لا أريد أن أحلم وأحلم الليل بطوله. كل شيء ضد رغبتي، ضد إرادتي. جسدي المعاقب بالحرم لا يطيعني يا نورمينيا.

كرّاس اليوغا مقروء ومستعادة قراءته، قد أوضح لها التعامل مع « المعركة الصليبية بين قذارة المادة وصفاء الروح »، فتتشبث بصميميتها، أمر مخيف. المادة اللعينة لجسدها تشطرها في غضب وخراب ضد يقظة روحها، قاطعة اطمئنان حياتها، اتزانها، متخلية عن تواجد أيّ تنسيق بين رغبتها وغرائزها. كل شيء مضطرب؛ فمن ناحية هي أرملة، مثال للفضيلة، ومن ناحية أخرى أنثى شابة لها احتياجاتها. حالة خطيرة، تتطلب في وصفة في الكراس « تركيزاً قوياً في التفكير والتمارين اليومية ».

لم يحلّ الأدب التصوفي والتمارين المؤلمة شيئاً، وهي أيضاً أشد ألماً للدونا فلور، الممتلئة

الجسم بل البدينة. وكي ترى إذا كانت ستحظى بالاتزان الرثائي الموعود، أخضعت نفسها خلال أسبوعين، لالتواءات عبثية جداً. الدونا داغمار، بناء لطلبها، كررت عدة دروس والدونا فلور لاذت بالصبر والأمل. ولم توفر إطراءات لمناهج اليوغا الرائعة! وقد أنقصت وزنها أربعة كيلوغرامات. مع الدونا فلور، كان الأمر فشلاً كلياً، فهي لم تهزل. وبدلاً من الهدوء والاتزان، حظيت فقط بالتّعب، الجسد المتألم ومع هذا لم يكن أقل شراهة وحيوية في دقته العاجلة. وبالقدر نفسه لم تقنعها التحليلات العلمية اللامعة من الدونا جيزا، وهي بفم مليء بأسماء غير مفهومة، خليقة بدكتور في الكلية، عقد، ليبيدو [1]، الوعي الباطني، عوامل الرفض الباطني، التابو [2]:

ـ بالنسبة إليكِ يا فلور، أرملة زاخرة بعوامل الرفض الباطني والعقد، الجنس هو تابو.

تابو أو غير تابو، وعي أم لاوعي أو وعي باطني، بتأثير عدم الاستجابة الباطنية والعقدة أم بالرغبة البسيطة للمرأة، كان ذلك القنوط طيلة الليل أحلاماً شهوانية تجرجرها في حفلة ماجنة. ولم تكن محادثة الغرينغا لتجدي شيئاً. إذ لو كانت تسعى وراء أمورها العصية على الإدراك لخرجت إلى الشارع وزنت مع أول ذكر تعثر عليه، محطمة بوحشية عوامل الرفض الباطني وعقد النقص، خانقة في أحد أسرة شقة للعازبين التابو البائس، لكي تلحق العار الدائم بها وبذكرى الميت.

الدونا نورما بحكمتها الشعبية الحسنة، التجربة الحيّة، الإدراك الإنساني. وقد دخلت مباشرة إلى الموضوع:

ـ « هذا بسبب الافتقار إلى الرجل، يا قديستي. فأنت فتية، لا تعانين من مرض خطير، ولستِ مخصية [3] على ما أعرف، ما الذي تبغينه؟ حتى الراهبات يتزوجن ليتحمّلن العفة. يتزوجن من المسيح، ومع هذا هناك بينهنّ من يضعن قروناً للمسيح »، وابتسمت إذ تذكرت: « أنت تذكرين تلك الراهبة في المعزل التي ارتبطت بالخباز وانتهت فنانة مسرح؟

---

(١) العريره الجنسية في علم النفس.

(٢) المحرم، المحظور فعله.

(١) CAPADA: قد يكون المؤلف استخدمها بصيغه مجازيه، لأن الخصاء للرجل وليس للمرأة.

مضى على ذلك وقت طويل، ألا تذكرين؟ لم يتكلم أحد في أمر آخر...».

حتى ولا صورة الراهبة في مقصورة أحد المسارح كانت لِتُسِرّ الدونا فلور، المتفجّعة والمصرّة على موضوعها غير مبالية باستطراد الصديقة:

ـ لكني يا نورمينيا، أرملة...

ـ ولو؟ أم تعتقدين أن الأرملة ليست امرأة؟ فالأرملة كما أعرف، تمكر في الرجل، تحلم بالرجل، تنظر إلى الرجل... فدعكِ من هذا...

ـ أنت تعلمين جيداً أني لست من اللائي يعشن وراء الزواج. ذات مرة أنتِ انتقدتني، وسمّيتني الفظة...

ـ حدث. أعلم أنكِ لستِ امرأة مستهترة ما... بيد أنني سأكلمكِ بصراحة: أنتِ أرملة تركنين إلى الفرار، وصرتِ لا تُحتَملين. مضى عام وأنتِ أرملة، وبدلاً من أن تتحسّني، ازددت سوءاً، كأنكِ ترملتِ البارحة. قبلاً كنتِ تضحكين إذا تحدثنا عن خطوبة وزواج. بعدها أصبحت ترفضين حتى سماع فكاهة، فيستبد بك الغضب...

ـ أنتِ تعلمين جيداً لماذا... حتى إن محتالاً قدم...

ـ ألمجرد أنّ المدعوّ الدوق ـ الدوق أم الأمير؟ ـ تسكّع ههنا، غدوت أسوأ من راهبة! وإذا كان قد اقترب منكِ فلأنه وجدكِ لقمة طيبة. الآن، لأن السيد آلويزيو أتى بمحاولة، أمر ليس في البال، أغلقتِ على نفسكِ في البيت، لا تخرجين تقريباً، لا تواجهين رجلاً، كأن الرجل صار وحشاً ضارياً... وفي النهاية السيد آلويزيو لا يريد سوى...

ـ أعلم ما الذي يريده...

ـ يريد أن ينام معكِ يا عزيزتي... لكن الأمر واضح... كثيرون ينبغي أن يريدوا ذلك إنهم ههنا يقرضون غطاء المبولة [1] وأنت أرملة ممتازة، يوجد كثير من المحتالين ذوي العيون المتّقدة...

---

(١) تعبير برازيلي عن الاستخفاف بالشخص وهي شتيمة.

ـ هل لديّ يا ترى، وجه امرأة عديمة الحياء لكي يجرؤ هؤلاء الوقحون...

ـ ومن قال إنهم بحاجة لأن تكون المرأة قليلة الحياء ليريدوا النوم معها؟ بالرغم من وجهكِ الشبيه بوجه الجلاد...

ـ لكن يا نورمينيا، ما الذي أستطيع فعله؟

ـ أنتِ بحاجة لأن تطفئي هذه النار، أيتها المرأة... فإذا كنت لا تنامين براحة، إذا كنت غير مرتاحة، إذا افتقدتِ الاطمئنان، فلأنكِ تعانين من نار شقية تحرق لكِ ذيلكِ...

ـ ما هذا يا نورمينيا، معاذ الله...

ـ لكن أليس هذا هو بالضبط؟ أليست هي الحقيقة؟

ـ وما الذي تريدينني أن أفعله؟ أن أُتعس نفسي وأتحول إلى مستهترة؟ أنا لست امرأة عديمة الحياء، لم أولد لكي يكون لي عشيق، هذه الأمور بالنسبة إليّ تحدث مع زوجي فقط... لأني أحلم بهذه السخافات، أرغب في الموت... ترى هل أبدو امرأة بغياً لتقولي هذا...

ـ لا تكوني بلهاء، ما الذي قلته أنا لتشعري بالإهانة؟

ـ أما قلتِ...

ـ قلت وأكرر أنكِ تعانين من نار تحرق لك ذيلكِ، أو كما قالت، ابنة صديقة لي، لأمها: «أماه، فرجي صار موقداً، إنه يشتعل» وأنتِ تقريباً مثلها. ولكن هذا لا يعني أنكِ لستِ رصينة... خلاف ذلك... رصينة جداً، وإلا كنت، مع هذه النار كلها، قد فتحتِ فخذيكِ... إنكِ رصينة وتبدين رصينة أكثر من اللازم، تبدين مغرورة... لا تحفلين بالسحنة التي ترسمينها على وجهكِ حين يتطلع رجل إليكِ...

ـ وهل ينبغي لي أن أضحك، وأقول: «تعال ونم معي...»؟ أفضل الموت، لم أمضِ إلى السرير إلا مع زوجي...

ـ ويجب عليكِ أن تمضي مع زوجكِ وحده...

ـ زوجي مات...

ـ مات الأول... لا شيء يمنع أن يكون لكِ آخر. فأنتِ شابة يا فلور، ولم تبلغي الثلاثين...

ـ سأكملها في نهاية السنة...

ـ أيتها البنت كفاك... إن ما تعانينه، ليس مرضاً ولا خبلاً، يوجد فقط علاجان يا ابنتي: زواج أو خلع العذار. وآنئذٍ تدخلين أحد الأديرة راهبة. وفي هذه الحالة كوني حذرة من الخبازين وباعة الحليب والبساتنة، ومن القساوسة كيلا تزرعي قروناً لربنا الإله.

ـ لا تمزحي يا نورمينيا...

ـ إني لا أمزح يا فلور. فلو كنتِ خالعة العذار، بوسعك الاستمرار أرملةً مرتدية السواد تتسكعين ههنا، تستلمين لشخص أو لآخر، تلهين، تفرّجين عن نفسكِ. لكن بما أنكِ لستِ من هؤلاء، وأنك بالفعل رصينة، ينبغي لكِ أن تتزوجي، لا يوجد شيء آخر تفعلينه...

ـ رغبة المرأة الأرملة، يا نورمينيا تمضي في متاع المتوفى، فالأرملة ليس لديها الحق تذكر ليالي الغلمة، ولا ذكريات السرير، فكيف بالحري أوهام الخطوبة والزواج من زوج آخر. كل هذا ليس أكثر من إهانة لذكرى المرحوم وشرفه.

ـ رغبة المرأة الأرملة جد حيّة حينما تكون لعذراء أو لامرأة متزوجة، إذا لم تكن أكثر من ذلك، أيتها البلهاء. هكذا كانت تجيبها الدونا نورما القوية العزيمة. فزواج جديد ليس إهانة لشرف المتوفى. وأي امرأة تستطيع الصلاة لذكرى زوجها الميت، وأن تغدو سعيدة في الوقت نفسه بصحبة زوج ثان. فوق هذا كله فهي الدونا فلور التي كان زواجها الأول غير عادي وليس مفرحاً دائماً، حتى لا يقال الأسوأ.

محادثة مستفيضة وخيرية والصديقتان بمفردهما، في حميمية ذات تقدير حقيقي، وما

كانت شقيقتان تتفاهمان بهذا المقدار. اقتنعت الدونا فلور أخيراً. وربما كانت قبلاً، في مداولة قاسية مع نفسها، لم تعترف بذلك أبداً، لو لم تنتزع الدونا نورما خمار المفاهيم المسبقة عن حداد نتن زائف في الرغبة.

ـ لكن يا نورمينيا، ماذا يفيد إذا وافقت؟ من سيريدني عروساً؟ إن أحداً لا يريد فضلة رجل متوفٍ، وأنا لن أخرج مقدّمة نفسي... سوف أموت في هذا الاستنزاف.

ـ انزعي اللافتة [١]، وأنا أعطيك ستة أشهر...

ـ أي لافتة؟

ـ هذه التي تحملينها على وجهك: «أنا امرأة أرملة إلى الأبد، متٌّ بالنسبة إلى الحياة والزواج». انزعيها، وعودي إلى الضحك، لتصيري مثل كلّ الناس. وأراهن أنه في أقل من ستة شهور...

هذه المحادثة كان لها مكان بعد بضعة أيام من الكارنفال الذي حدث ذلك العام متأخراً في آذار، بعد شهر تقريباً من الذكرى الأولى لترمل الدونا فلور.

في صباح تلك الذكرى الجنائزيّة، اتجهت الدونا فلور إلى المقبرة، مع دموعها وزهورها، متباطئة قرب القبر لوقت طويل كما لو أنها عثرت هناك على الفرج والهدوء. كان يوماً من أيامها الأكثر اطمئناناً في زمن الترمّل المضطرب كله، شاعرة أنها حزينة فقط، بشوق إلى المتوفى. شوق عميق مريح.

كانت أيام الكرنفال أشد ألماً لها. في الموسيقى والأغاني، كثير من تلك الموسيقى والأغاني ذاتها في الكرنفال السابق، ووافتها ذكريات الأحد المرعب. وعند إسنادها لمرفقيها على النافذة لتشاهد مرور حلقة أو جمعاً، زيه بيرير [٢]، زابومبا [٣]، آفوشيه [٤]، كانت تتذكر الميت على أرض ساحة «الثاني من تموز»، بين الشمعدانات والزينة، مرتدياً

(١) TABULETA : قطعة من خشب يكتب عليها اسم صاحب المتجر أو المبنى.

(٢) ZE-PEREIRA : إيقاع كرنفالي صاخب.

(٣) ZABUMBA : طبل كبير، أو عازف هذا الطبل.

(٤) AFOXE : حلقة من رقصات وأغاني الكرنفال.

الزّيّ الباهيّاني [1].

حينما وقفت آفوشيه أبناء البحر، بكل عظمة الكومبارس لديها، أمام « مدرسة الطهي تذوّق وفنّ » مطيعة صافرة المرأة القبيحة، والزنجية أندريزا ده أوشوم، قابضة على بيرق ملكة المياه، رقصت خطوة ساحرة ـ النوافذ مكتظة، الشارع مزدحم والأكف متحمسة ـ انفجرت الدونا فلور بالبكاء وكل الألم وكل الغياب سقط عليها دفعة واحدة. فمنذ سنة حين كان جسد الميت ممدداً على السرير الحديدي، كانت لا تزال لديها نيّة في التلصص على مرور آفوشيه من فوق كتفيْ الدونا نورما والدونا جيزا، والحياة والموت داخل صدرها. الموت جد حديث وقاسٍ لا يزال متواصلاً كوصمة حياة. مع مرور الوقت فقط كانت الدونا فلور تعير حساباً كاملاً للفراغ النهائي، للغياب الحاسم. في الكرنفال السابق مع الميت الحاضر، كان بوسعها التلصص على آفوشيه، بنظرة سريعة على الأقل. مع هذا، في هذا الكرنفال الآخر، كانت لا تحتمل بالنسبة إليها الرؤية المجيدة لأبناء البحر في إيقاع الأتاباكي [2]. ومع أنها جاهلة التكريم الذي تتضمنه تلك الصافرة، ذلك الانقطاع للمسيرة، تلك الرقصة، في دلع أندريزا الشبيهة بمركب فوق الأمواج، تكريم من آفوشيه لمن يتذكرونه دائماً كشريك وصديق توفي منذ سنة، حتى مع كل هذا لم تستطع الدونا فلور أنْ تمسك نفسها في النافذة؛ كانت لا ترى سوى الجسد العاري النازف، ميتاً إلى الأبد.

من الصعب في ذلك الكرنفال، وكل مرة حياتها تزداد صعوبة. فالمتوفى اغتنم المرح الصاخب ليندمج في غمّ الرغبة غير القانعة، فنما العذاب، شديداً عنيفاً بحيث لم تعد الدونا فلور قادرة على تحمّله في صمت أو وحدة. لم يعد ممكناً لها إمساك سرّها لوقت أطول، مهشمة الصدر، دائخة الرأس وتعبة. إنه تدمير يا دونا فلور. فتحت نفسها للدونا نورما.

الدونا نورما ضمنت لها خطوبة وزواجاً في مهلة سريعة إذا كانت مستعدة لذلك، من دون قناع ولا لافتة. طلبتا التوكيد من الدونا جيزا، لكن الغرنغا أعطت أهمية ضئيلة للخطوبة والزواج، فهما مطلبان ملحان شرعياً وضد الإنسان؛ كانت تقرأ الأمير كروبتكين وتمزج الماركسية بالتحليل النفسي. بزواج أم بلا زواج، في رأي مدرّسة

(١) BAHIANO : نسبة إلى ولاية باهيا في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٢) ATABAQUE : آلة موسيقية ورد ذكرها سابقاً.

الإنكليزية، لدى الدونا فلور «عقدة ذنب» تعذبها، ولن تتحرر إلا عندما تقطع علاقتها بالمحرمات، «إذا تحقق ذلك بأية طريقة». ثم نصيحة أشدّ خبلاً، اقتران الحب الحرّ، المعاشرة[1]، العلاقة الجنسية، مغامرة في نهاية الأمر، فورية على كل حال. كما لو كانت الدونا فلور مجنونة في مصح أو أكثر الأرامل استهتاراً واشتعالاً.

الدونا نورما، أجل، كانت مساعدة مواسية، لتترك الدونا فلور الإغراق في الخجل مع كراهية العالم، والتزام الشرف لمبدأ الالتصاق بالماضي، والدونا نورما ستكون قادرة على المراهنة بالمال أنه في أقل من ستة شهور ستكون الأرملة وخاتم الخطوبة في إصبعها، على الأقل مخطوبة.

الدونا جيزا لم تراهن؛ لماذا ينبغي للدونا فلور أن تنتظر ستة شهور لتقطع علاقتها بالأشياء المريعة؟ لماذا هذه البلاهة مع كل هؤلاء الرجال الطّلقاء في العالم؟ ولو راهنت أيضاً لخسرت؛ فدائماً تقريباً في مباراة المعرفة من خلال الكتاب أم المعرفة من خلال الحياة، الحياة هي التي تنتصر.

لقد أنِست الدونا فلور للأمر، آخذة بأكثر من التحضر الجاف علاقاتها في التهذيب، متبادلة الابتسام والحديث مع هذا وذاك، رصينة دائماً إنما لطيفة وحذرة، وكانت بمحض الصدفة (على الأرجح) بعد مضي شهر على هذه المحادثة مع الدونا نورما والمناقشة مع الدونا جيزا، ـ أخذنا علماً وجعلنا منها موضوعاً لمداولة علنية ـ أن بدا الاهتمام النزيه والنيات الشريفة للدكتور تيودورو مادوريرا، الشريك في «الصيدلية[2] العلمية» عند زاوية كابيسا. وألحّت الدونا دينورا وهي مهتاجة ومنتصرة على البشارة:

ـ تنبأت بذلك منذ شهور رأيته في كرة البلّور وقلت لجميع الناس: سيد فاضل، رجل خير، دكتور ذو مال. ألم يكن ذلك حقيقة؟ بشارتي يا سيدتي الدونا فلور!

ـ «يا له من مكسب، أي حظ لها» ـ جوقة الصديقات والإشبينات في هذيان من المكائد، في وفاق جماعي.

---

(١) AMIGAÇAO: معاشرة الذكر والأنثى بلا زواج، مصاحبة.

(٢) DROGARIA: صيدلية أدوية ومستودع أدوية في الوقت ذاته.

١١

لا أحد يعلم متى كانت بداية اهتمام الصيدلي؛ ليس سهلاً، تحديد بدء الحب بالساعة والدقيقة، وفوق كل شيء ذلك الذي هو الحب الحاسم لرجل، حسب حياته، الممزّق والقدري، المستقل عن الساعة والتقويم. في يوم المناجاة، بعد حين، اعترف الدكتور تيودورو للدونا فلور، بخجل ضاحك أنه أعجب بها قبل ترمّلها بوقت طويل؛ فمن المختبر الصغير في الجانب الخلفي من الصيدلية كان يراها تعبر الساحة، متتبعاً خطواتها في كابيسا، بنظرة متأملة. «لو صممت مرة على الزواج. فلن أتزوّج إلا من امرأة كهذه: جميلة ورصينة»، كان يناجي نفسه قرب أنابيب التجارب وقوارير العقاقير. إحساس نقي أفلاطوني، هو واضح، فما كان رجلاً يتأثر بامرأة متزوجة ويوُرطها في أفكار أقل نبلاً، رامياً إياها بعينيْ الشّره أو بتعبير أفضل «بعينين آثمتين بالشهوة» (لكي يكرر تعبير الصيدلي ذاته، الدقيق الأنيق، مزيناً بالملابس الفاخرة هذه السطور السوقية والمبتذلة).

إن من لاحظت أولاً ميل الصيدلي كانت الدونا إيمينا، مع أنها سيدة قلّما تهتم بحياة الآخرين؛ كانت فقط تطلق الشائعات حين الضرورة القصوى كيلا تبقى متخلفة عن النجاحات حولها. فإلى جانب الأخريات، الشرهات لأيّ وشاية كانت الدونا إيمينا رصينة ورعة.

ذلك كان في يوم السخرية عند الطلاب الجدد في الكليات الجامعية، في بداية نيسان، حين يجتاز الطلاب الشوارع والجادات الرئيسية محتفلين ببدء السنة الدراسية. ففي موكب طويل، تحت عصي القدامى، سار الجدد برؤوس حليقة بالموسى، متدثرين بالشراشف،

مقيّدين إلى بعضهم البعض بحبل كحبل العبيد وهم يساقون حاملين ملصقات انتقاد للحكومة وللإدارة مع نكات حول غلاء المعيشة والحياة الباهظة وعجز السياسيين.

وإذ قدم الاستعراض من كلية الطب في تيريرو ده جيسوس عبر المدينة في اتجاه بارّا، متوقفاً في أماكن معيّنة مثل ساحة كاسترو ألفيس وسان بيدرو وبييدادي وكامبو غراندي. في هذه المواضع حيث تجمعات الفضوليين الكبرى، كان القدامى يقدمون المسرات للمشاهدين، مع طرف فنيّة من الطلاب ـ الحيوانات في أعلى مراتب الحمير.

تحرك سكان الأحياء المجاورة لساحة «الثاني من تموز» ولكابيسا إلى سان بيدرو حالما سمعوا الأبواق والمزامير المعلنة، في لاديرا ده سان بينتو. وفي جمع مرح، مضت كل من الدونا نورما والدونا آميليا والدونا ماريا دو كارمو والدونا جيزا والدونا إيمينا والدونا فلور.

وحسب معلومات الدونا إيمينا، الدقيقة والحقيقية كان الدكتور تيودورو متواجداً لصق منصّة البيع في الصيدلية، غير مبال بالأبواق، بالحمير المتخيّلة للأساتذة والشخصيات العامة، بالسخرية، يتحدث مع الموظّف والفتاة العاملة على صندوق المحاسبة، حين لمحهن. وقد بات متوتراً جداً بحيث أن الدونا إيمينا استغربت تصرفاته وظلت تراقبه مستطيعة هكذا تتبع جولاته المريبة خطوةً خطوةً. والصيدلي السيد صاحب الحيوية الوديعة والتصرفات المهذبة، حالما رأى الصديقات، هجر بسرعة مركزه المريح بحركة رجل واثق من نفسه، مبتعداً عن منصّة البيع، ومنتصباً في وقفة صلبة تقريباً لكي يحيّيهن، بصباح خير مرنان وودي، ثمّ تفصيل مهم: انتزع مشطاً من جيب الصداري، سوّى به شعره ـ وما كان بحاجة إلى ذلك ـ إذ أن شعره المسرّح كان يلمع بأكمله تحت طبقات الكريم اللماع. لقد اختفت حيويته الخجولة فإذا بائع العقاقير في اهتياج المراهق. «لقد رأيته الآن مرتدياً السترة لكي يلقي علينا التحية فقط». قالت الدونا إيمينا وهي تسأل نفسها عن سبب كونه بهذا القدر من الجهد والحميمية.

انحنى ليحيي الجمع طويلاً ورشيقاً بقميص أبيض ناصع البياض، وصداري رمادي، وسلسلة عريضة من الذهب من الجيب إلى الجيب في انحناءة متقنة، تحبس قطعة نقدية

أثرية [1] محترمة هي أيضاً من الذهب ، إرث عائلي ، والسروال كامل الاستقامة ، والحذاء لامع الدهان كثير الأهواء ، وخاتم الدرجة العلمية .

الصديقات المتوَدِّدات ، أجبن على تحيته . فالصيدلي كان شخصية مرموقة في الجوار ، ملحوظاً معتبراً . وحسب شهادة الدونا إيمينا أيضاً ـ غنيّ بالأشياء الصغيرة ، كما أثبتت ـ فعينا الدكتور تيودورو لم تبصرا سوى الدونا فلور ، متعاميتان عن الأخريات ؛ نظرة ، إذا لم تكن نظرة شره فهي على الأقل نظرة طمع . « إنه يلتهمكِ بعينيه ، يأكلكِ » ، هكذا حددت الملاحظة الماهرة ، للدونا فلور ، التعبير الدقيق لتلك النظرة .

حين لم يعد يراهن من داخل المنصّة عبر إلى الأمام ؛ ثم قدم إلى الرصيف أمام المؤسسة ، وأخيراً ، بعد تردد قصير وتحذير لموظفيه ، غادر إلى الشارع خارجاً في أثر الرفقة الظريفة .

اتخذ مكاناً له على مقربة من الصديقات عند مشارف الساعة الكبيرة لسان بيدرو ، ساعياً إلى أن يكون حذراً . وإذ سحب السلسلة الذهبية ، ابتسم راضياً من الدقة السويسرية لساعته الكبيرة . الدونا نورما والدونا آميليا ، لكي لا تفوتهما أي تفصيلة من السخرية ، ارتقتا مقعداً خشبياً مستطيلاً في حديقة صغيرة ، وبقيت الأخريات على مقربة منهما ، واقفات على رؤوس أقدامهن . ومن حيث كان ، شبه مختفٍ بقاعدة الساعة ، أخذ الدكتور تيودورو يتتبع بشيء من العبادة كل حركة للدونا فلور .

وتأكدت الدونا إيمينا ، وهي تضعه تحت المراقبة ، من أن الصيدلي لم ير تقريباً أي شيء من السخرية المسلّية . فالطلاب الجدد المصبوغون بلون القرميد الزاهي كانوا يرقصون رقصة الماكابرا [2] ، والقدامى يطلبون بإلحاح الجعة والغازوزا [3] من البارات [4] والدكاكين . وإذا ابتسم الدكتور تيودورو فذلك بدعم من ضحك الدونا فلور . فتصفيقه كان جواباً على تصفيق الأرملة ، وهو ينظر إليها ذاهلاً . وشدّت الدونا إيمينا تنورة الدونا نورما التي كانت

---

(١) PATACAO : قطعة معدنية من النقد البرتغالي القديم تساوي اربعين ريساً .

(٢) MACABRA : رقصة ترمز إلى الموت يشترك فيها أشخاص من مختلف الأعمار والفئات .

(٣) GASOSA : مياه غازية محلاة بالسكر ، كازوز .

(٤) البار في البرازيل ليس حانة لتناول المسكرات وحسب ، بل تباع فيه السلع الغذائية أيضاً .

تصفّق فوق أحد المقاعد الخشبية المستطيلة لتصرفات بلهاء من طالب يمتطي حماراً (كان الحيوان ينتهز العرض ليأكل فضلات القمامة في أوساخ الشارع). في البدء لم تفهم الدونا نورما الرسالة النابضة بعيني صديقتها وأصابعها. وأخيراً، عيّنت مكان الصيدلي النازع سترته وفي ذهول، رافقته في الذهول والانبهار.

قالت:

ـ أيتها البنت، يا للأمر...

وفي الحال انتبهت الدونا آميليا والدونا ماريا دو كارمو إلى تصرف الدكتور تيودورو المفاجىء وهو شبه مختفٍ وراء الساعة، يرمق الدونا فلور. الدونا جيزا وحدها بقيت بعيدة، مستسلمة إلى قراءة الملصقات في السخرية؛ وحسب ما تقول، التظاهرات الطلابية تتضمن مادة ثمينة لدراسة الروح الجماعيّة. والدونا جيزا ما كانت تُضيِّع فرصة للدراسة، فقد ولدت مع قدر كله معرفة وكله تفسير (من خلال العلم الأكثر عصرية). وبالنسبة إلى الأخريات، مع هذا، فالمادة الاثرى والأوضح كانت تصرّفات صاحب الصيدلية الغريبة.

ـ أيتها البنات... انظرْنَ تصدّقْن!

تابع العرض طريقه إلى بيبادادي، وهن يتبعنه. لكن الدونا نورما معتذرة بالحاجة إلى نقل رسالة أطالت الطريق، وقامت بدورة من شارع خلفي. «هيّا نضع هذا في صحون نظيفة[1] والآن بالذات». وللحظة واحدة بقي الدكتور تيودورو متردداً، في ظل الساعة النّصب، ثم انتهى به الأمر إلى أن يرافقهن بخطىً متباطئة كمن يمضي بلا عجلة وعرضاً، على سجيته.

الدونا نورما والصديقات الأخريات امسكن أنفسهن بالكاد عن الضحك، ما عدا الدونا فلور البريئة كلياً عمّا يجري، والدونا جيزا في تحليلها حول «ميل الشبان إلى القضية العامة». وفجأة توقّفْن، حيث ذهبت الدونا نورما لتعطي الرسالة المذكورة، في باب بيت أحد بيوت العائلة. وإذ أخذ بالمفاجأة، وهو على بعد أمتار قليلة، اضطر الدكتور تيودورو

---

(١) أي: هيّا نوضّح هذا الأمر ـ المترجم.

إلى متابعة الطريق وحده. فمرّ لصق الصديقات متجنباً التحديق فيهن، متظاهراً بعدم رؤيتهنّ وكان قليل الخبرة في هذه الأمور على نحو يستثير الشفقة. كان مرتبكاً، يخمّن الابتسامات ونظرات الهزء، ولا يدري أين يضع يديه، مصيبة! اعتراه الخجل فاتجه إلى الزاوية راكضاً تقريباً. في مروره لم تتمالك الدونا ماريا دو كارمو نفسها، تاركة ضحكة رخوة تفلت منها:

ـ بسيو... كانت الدونا نورما تنصحها.

وأرادت الدونا فلور أن تعرف؛ وهي تراه يختفي في الزقاق.

ـ إلى أين يمضي الدكتور تيودورو وهو مسرع هكذا؟

ـ أتريدين القول إنكِ لا تعلمين، يا محتالتي؟ أي أمر هو هذا؟ هل ستحتفظين بالسرّ أم أنكِ ستخبرين صديقاتكِ؟ أو أن لا ثقة لكِ؟

ـ ماذا، يا امرأة؟ إنكن تخترعن أشياء وأشياء... ما الأمر هذه المرة؟

ـ لا تقولي إنكِ لم تنتبهي حتى الآن...

ـ ما هو، حباً بالله؟

ـ إن الدكتور تيودورو متيم بكِ...

ـ من؟ الصيدلي؟ أنتن صغيرات العقول، إنّكن عصبة من المجنونات... أين شوهد ذلك؟.. ومن؟ الدكتور تيودورو، الرجل الزاخر بالحياء... إن هذا لأمر يدعو إلى السخرية...

ـ أمر يبعث على السخرية؟ إنه فقد خجله يا عزيزتي، ويمضي منفعلاً...

في هذا التفكّه، وهن يتندرن ويضحكن، مضين وراء عرض الطلاب المرشحين لدخول الجامعة، والمسكينة الدونا فلور في حلقة حيوية. لكن أثناء العودة إلى المنزل، وجدت الدونا نورما بمفردها مع الأرملة، فكلمتها بجدّية. لقد لاحظت في تصرفات الصيدلي، كما قالت

للدونا فلور، شخصاً محترماً يحترم الشكليات. فلم يسمع قول عنه أنه يطلق نظرات إلى الزبونات كما لم يشاهد متتبعاً شارعاً ما، في قميص بلا سترة، وممراً مشطاً على شعره، متخفياً خلف ساعة عامة، في انفعالات مراهق صغير. بعين مثبتة على الدونا فلور من دون أن يريم. لم يكن ذلك لغو إشبينات، ولا مجرد اختراع، حتى إن الدونا نورما بقيت بمنأى عن عبارات الاستهزاء، إذ ما دام الدكتور تيودورو رجلاً فاضلاً رصيناً، فليس خليقاً التعامل باستخفاف مع موضوع جدّيٍّ كهذا، في سخريات واستهزاءات. شخص مثله، يا ابنتي، نادر جداً، مواطن ناضج في عمر مناسب للدونا فلور، فاعل في الحياة، دكتور بدرجة وخاتم، مالك صيدلية، يفيض عافية، لو اخترعوه لما كانوا اخترعوا أفضل منه.

ـ هل ترين حقاً يا نورمينيا إنه مهتمٌّ بي؟ لا شيء من هذا. فمن ذا يريد أن يأكل خبزاً غير طازج، لحماً مفروماً، متاع متوفٍ؟ لا أحد...

قاست الدونا نورما الصديقة من أعلى إلى أسفل:

ـ ليباركِكِ الله... ـ قالت بحركة دلع من لسانها تعبّر عن التأييد.

كانت الدونا فلور بانفعالها الناتج عن الملاحظة، بين فضولها وخجلها لكن لا شيء فيها من الخبز غير الطازج، خبز العشية العفن الطعم، ناهيك عن ذلك اللحم الفاسد. بل خلاف ذلك، كانت بشرتها ناعمة كخلاسية [1] في نحاس عتيق قطعي، ثبات في الوجه المليح النضر، بدون معطر، فتيّ، عبير الأزهار المتفتحة، امرأة ولا كالنسّاء!. فضلة؟! ربما كان لها زوج ترقد معه على سرير حديدي. لكنها امرأة مشتهاة أكثر من العذراوات الرقيقات، حيث أن ثمرة الكاباسو ليست كلها، تمنح المتعة المرتقبة منها. ففي العمق ليست شيئاً ما على وجه التقريب، قشرة هشّة، قطرة دم، تأوّه وفوق كل شيء، مفهوم مسبق قديم. وإذا كانت ثمينة إلى هذا الحد، فلأنها انتفعت بألوف الدعايات، وعلاقاتها مع الجيش والإكليروس، الشرطة والدعارة، الجميع يصنعون من قشور امرأة ملك العالم. لكن ما تكون فتاة عذراء بلهاء تجهل رغبتها إذا ما قورنت بامرأة أرملة، اشتياقها مكوّن من المعرفة والغياب، من

---

(١) في الأصل CABO-VERDE: لون المهجن المولود من أب زنجي وأم هندية أو العكس. وهي أيضاً اسم جزيرة في المحيط الأطلسي قرب الشواطىء الأفريقية.

كظم الغيظ ومن الشّقاء، من الجوع والصّوم، أليس واضحاً وسفيهاً؟ « حبذا، دعيني، يا فلور من أجل فضلة كهذه يتنهدون، ليس الدكتور تيودورو وحده، لكن بالتأكيد علاوة عليه هناك كثيرون لا علم لك بهم». إن ما كانت الدونا نورما تريد معرفته هو أمر آخر.

ـ وأنتِ، رأيك؟ كيف يبدو لكِ؟ هل ستكونين قادرة على أن تحبيه؟

أولاً لم تشأ أن تأخذ بعين الاعتبار مسألة مشاعرها قبل التأكد من وجود ميل عند الصيدلي إليها، كي لا يغدو ذلك استهزاءً والتباساً، وهي ليست مستعدة لنوازع التضليل ولأن تُذلّ نفسها، كما حدث قبلاً مع تلك القصة عن الأمير ومع مثالب السيد آلويزيو. لكن تحت ضغط الدونا نورما المصرّة على إجابة فورية، في إلحاح صديق، اعترفت الدونا فلور بأنها لا يمكن أن تقف موقفاً لامبالياً من الصيدلي فهو فارس[1] رقيق المعشر، شخص مميز وكفوء، ورجل حسن المنظر، يملأ العين. يذكرها بأحد فناني السينما. الشبه خفيف لكنه كافٍ ليدل عليه في رشاقته. وفي النهاية، لو كان الأمر حقيقة، ممكناً ومحتملاً لعلمت الدونا فلور ما تستشعره نحوه... ما الذي ستشعره إزاء المتوفى؟ هذا لا، فقد كان مختلفاً... وهي نفسها أصبحت أخرى، ليست نفسها تقريباً، فمنذ أكثر من ثماني سنوات، تسع على وجه التقريب، عرفته في حفلة المقدّم، وعلى حين بغتة، من دون أن تزن تصرفاتها وبلا تفكير أعطته قلبها (وبالتالي، بفرح، ثدييها وفخذيها في ضوضاء الساحة وفي عتمة الشاطىء). مجنونة كانت به؛ ضائعة إلى درجة الاستسلام له، وإعطائه كلّياً ومجاناً كل ما طلبه، ناكثة قروح الدونا روزيلدا، التي جعلت من نفسها عدواً للحب ومنعت الزواج.

الآن هي امرأة أرملة حطّت رحالها ومتبصّرة، غير قادرة على الشبق، على الأحاسيس والأفعال غير المتبصّرة التي كانت تغتفر حينما كانت بعد فتاة صغيرة في سن تبادل الحب، لكنها غير مقبولة في سيدة في الثلاثين وفي خمار الحداد (حتى ولو كانت تحترق بشعلة في الداخل). لو حدث شيءٌ ما، لكان مع الوقت كما لو أن إحساساً بالحب يتفتح في معيار هادىء من الحنان والتفهم، من دون التّصرفات العنيفة في سن الشباب من الهذيان في الزوايا المظلمة، عند مداخل السلالم. ربما وُلد إحساس كهذا حب ناضج ومطمئن في أرض غرام

---

(١) CAVALHEIRO : فارس بمعنى العصور القديمة، وفي العصر الراهن صفة تطلق على الرجل المهذب.

رصينة وكانت الدونا فلور ترى ذلك ممكناً ، إذ ما دام الدكتور تيودور ليس سمجاً ودمياً ، فلا تكنّ له كرهاً ، إنما تراه جذاباً ، كما تعيره الآن الانتباه. وهنا تحققت الدونا نورما وقوع الخطوبة والزواج ، ورأت مسبقاً الدونا فلور سعيدة كما كانت تستحق دائماً ، وكما لم تكن سعيدة يوماً .

ـ آه يا قديستي كم سيكون ذلك رائعاً! والآن لا تكوني بلهاء ، لا تغلقي على نفسكِ أبواب البيت ، لا تقيّدي وجهك . . .

لأن الدونا فلور اعترفت بوجود اهتمام لديها بالصيدلي ، فقد زادت إصراراً على قرارها بألا تخرج له ، أو تقدّم نفسها ، لتتمايل أمام مستودع الأدوية عارضة احتياجاتها ، عيناها عميقتان بالكواريزما[1] ، بالقطاعة[2] القاسية ، بالصوم القسري . هذا لن يكون أبداً يا نورمينا .

قضت الدونا نورما وقتاً طويلاً في إقناع الأرملة بألا تكون بلهاء أو تتصنّع وضعاً لا مبالياً فمن كانت مثل الدونا فلور ، متوقدة اشتعالاً ، محتاجة للزواج والزواج حالاً حتى لا تنتهي امرأة هستيرية أو مجنونة ـ وديعة ، أو ، حسناً ، كيلا تخرج هنا وهناك واهبة نفسها لأي كان ، في ممارسة حياة شقق العازبين كأرملة سهلة تملأ بالقرون جمجمة الميت حتى تصبح نبتة متشابكة الغصون بريّة فجّة في قبره المشرّف . آه هكذا اعترفت بأنها شرهة لحرارة الرجل ، لاهتزاز السرير ، لم تعد تستطيع تصنّع دور الأرملة الوفيّة حتى الموت ، بحداد أزلي ، مغارة مسدودة مدفونة في محمل المتوفى ، زهرة ذابلة عند أقدام الميت رخوة غير نافعة .

ـ أن تكوني فقط خليقة بالتبوّل . . . الأفضل هو أن تصممي دفعة واحدة وتقبلي زوجاً ، تعيشي معه حياة فاضلة شريفة ، فتستعيدين نفسكِ في الحب والفرح ، محتفظة بذكرى وعظام زوجك الأول شريفة نظيفة مطمئنة . من دون أن تتكلمي كثيراً عنه كيلا تجرحي شعور خليفته . والحقيقة أن الدونا فلور بدت في الشهور الأخيرة كما لو كانت نسيت اسم

---

(١) QUARESMA : الصوم الأربعيني عند المسيحيين ، أي الصوم الكبير .

(٢) ABSTINENCIA : الانقطاع عن أكل اللحم في أيام معينة عند المسيحيين .

المرحوم ولقبه. ولأن الإشبينات كن يلعنّه ويغطين ذكراه بالإهانات، فالدونا فلور المثيرة للجدال كانت تذكره طيلة اليوم. وبعد ذلك أغلقت عليه داخل نفسها، كجوهرة ثمينة نادرة، فيما الصديقات والجارات تركنه بسلام في ضريحه. وإذا تذكره البعض أيضاً، ما كان يقول شيئاً. ثم تتابعت الأمور، فانتزعت صورة الهالك من القاعة بالطبع، مع ضحكته السافلة. الزاخرة بانعدام الحياء (وأيضاً لماذا الإنكار؟ بلطفه الذي لا يقاوم)، محتفظة بها في قعر الصندوق وفي قعر القلب. في جدار القاعة حضور الثاني، وأي ثانٍ، يا ابنتي! رجل جميل في زهوة الشباب، وأي رجل وقور!

تتزوج، وحالاً؛ يكون لها زوجها تعيش معه حياة فاضلة وشريفة، كما كانت بطبيعتها وبالتزامها، بدلاً من الاشتعال في أحلام متوحدة تعض الشفتين، تصك الأسنان، تردع نفسها فقط بسبب الخوف والإدراك المسبق. وهي، الدونا نورما ما كانت تسمح بأن تفقد الدونا فلور فرصة فريدة رائعة كهذه؛ من المُحال أن تحظى بفرصةٍ أفضل منها، وأن تضيعها من أجل حياء زائف، من أجل بلاهة، من أجل سخافة، أبداً، أبداً. أبداً.

وهكذا، بعد درس العشيّة الذي علمت الدونا فلور فيه التلميذات وصفة حلوى الجيلو وجوز الهند تدعى «كريم الرجل» وهو اسم أثار نكاتاً - «أوه، يا له من كريم لذيذاً جداً!» قدمت الدونا نورما لتأخذها وتجرجرها إلى كابيسا، بحجة شراء الزهور. شراء صعب جداً، دزينة من زهور أنجيليكا المنتقاة بعناية. لم تتدبر الدونا نورما تجهيز الباقة، فهي دائماً غير راضية إزاء ذعر البائع، الزنجي العجوز كوزميه دو أومولو، إذ أن الدكتور تيودورو المختفي في أعماق الصيدلية، لم يجعل نفسه مرئياً. بعد الزهور، ذهبتا إلى آكاراجيه[1] فيتورينا ولم يظهر الصيدلي عند منصة البيع. بيد أن الدونا نورما ما كانت تقبل بالهزيمة. فاقتحمت من دون إعلان، الصيدلية إلى الداخل، جارّة الدونا فلور وهي في أزمة، لتطلب من موظف الصندوق طرداً من القطن. كانت الدونا فلور تريد أن تنشقّ الأرض وتبتلعها، والدونا نورما في ضجيجها واندفاعها أين شوهد مثل هذا الإدعاء؟

في قعر الصيدلية، في المختبر الصغير، من خلف القوارير الكبيرة الزرقاء والحمراء،

---

(١) ACARAJE: نوع من الأطعمة المعدة من الفاصوليا مقلوة بزيت الديندية.

كأحد النقوش في كتاب كيمياء، شاهدتا الدكتور تيودورو يطحن أملاحاً وسموماً في جرن من الحجر. كان قد خلعَ نظارته، وهو شديد اليقظة، بعد السحق، يزن في ميزان صغير من موازين الألعاب، مقادير دقيقة من المسحوق والأملاح. ومركّزاً اهتمامه في غموض صنع الوصفة، لم يعر انتباهاً لحضور السيدتين في الصيدلية، كما لو أن صوت الدونا نورما لم يصل حتى إليه في تكرارها لحالة مذكورة في الجرائد.

ترك الميزان ووضع في أنبوب الدراسات مسحوق المعادن التي سحقها، في مقادير دقيقة، مضيفاً إليها عشرين قطرة بالضبط من سائل بلا لون، وفي الحال صار كل شيء دخاناً محمراً اكتنف علم وسحر الرأس الأسمر والقوي للدكتور.

ولم تتوانى الدونا نورما عن إفلات صوتها ليعدّي، متملّقاً:

ـ لاحظي، يا عزيزتي فلور، الدكتور تيودورو إنه ليبدو ساحراً يكتنفه كلّياً الإنكسوفر[1]...

ارتعد الدكتور عند سماعه الاسم، ليس اسمه، بل اسم الدونا فلور. وإذ رفع عينيه من فوق النظارتين (النافعتين فقط للنّظر القريب)، تحقق من حضور الشعر بين العقاقير، فاهتز من خفايا أعماقه، اعتراه برد في أسفل حوضه. أراد أن ينتصب واقفاً. فبات ذاهلاً دائخاً، وهناك وقع على الأرض أنبوب الدراسة متناثراً ألف شظية والدواء الذي كان جاهزاً تقريباً (دواء لتخفيف حدة السعال المعقد عند الدونا زيزيه بيدريرا، وهي عجوز من البلّور، في شارع دا فوركا) تحوّل لطخة معتمة على الأرض، فيما دخان الدم ثابر بإلحاح في وجه الدكتور الصارم.

قالت الدونا فلور:

ـ أواه، يا ربي...

ولم يقل شيئاً غير ذلك ولم يحدث أي شيء إنما الدونا نورما ضحكت وهي تدفع حساب القطن، فكم كانت مضحكة شخصية بائع العقاقير وهو شبه منتصب في المقعد، ويده في

(١) ENXOFRE: عنصر كيميائي مادي الخصائص رمزه S ووزنه الذري ٣٢,٠٦.

الهواء كما لو أنه لا يزال يدعم الأنبوب الزجاجي، والنظارتان منزلقتان على أنفه، أبكم ومصعوقاً.

أما هي فكانت خجلة للغاية، ميتة من الخجل والارتباك. خرجت الدونا فلور عبر الباب الخارجي، في حين ألقت الدونا نورما نظرة متآمرة إلى الصيدلي الرومانطيقي، كحبل يدفع إلى غريق وحاول الدكتور تيودورو التلفظ بكلمة ما، فلم يستطع.

أدركت الدونا نورما الدونا فلور عند الناصية، أما زالت لديك شكوك حول تأثيرك على الصيدلي؟ أم أنك تريدين، في إصرار عبثي من أرملة تقرضها الرغبة، تتأوّه في حومة الحداد، مرشحاً أفضل نسباً وطبقةً وطبيعة؟ من المستحيل أن تحصلي على شخص أفضل، يا قديستي، دكتور بدبلوم وخاتم بفص كريم [1] حقيقي، مالك عنده مؤسسة، جميل، مظهره كله مؤلف من صداري وذهب، قوي الصحة، معتدل العادات، سيد خيِّر، أربعيني فخور!

---

(١) AMETISTA: حجر شبه كريم من الكوارتز.

١٢

أربعيني فخور ؛ كل ما أظهرته الكرة البلّورية وورق اللعب المتّسخ للدونا دينورا مساء النبؤة ، وكانت الصديقات والإشبينات يكتشفن الدكتور تيودورو نقطة نقطة ، دون أن ينقصن شيئاً زهيداً : المال الوفير واللقب الجامعي والطبيعة والشكل والشخصية والسلوك الفاضل والتصرفات الراقية ، كل شيء ؛ ومع هذا ، ففي تلك الأوقات التي يسعين فيها في الشوارع والساحات في الجشع إلى القهقهات ، إلى الوجه المتجاوب مع الصورة الظاهرة في التنجيم ، لم تفكر واحدة منهن في الصيدلي . كيف يفسَّر كل هذا القدر من العبث إذا كان دائماً أمامهن ؟ يكفي التطلّع كي يرينه ؟ هل أصاب العمى جميع الإشبينات والصديقات أم أن هذا السرد التفصيلي خداع خطأ مميت يُفرح النمّامات ؟ ليس خطأ ولا خداع ، بل أجل ، هو نوع من البلادة الجماعية التي منعت الإشبينات والصديقات أن يكتشفن القعر الرصين في الصيدلية ، النّظارتين فوق الأنف ، السلسلة الذهبية ، المنحني فوق العقاقير ، يمزج سموماً ليحوّلها إلى أدوية ، موزعاً الصحة على البيوت بأسعار زهيدة .

إنّ كاتب قصة زيجات الدونا فلور وأفراحها وميولها ، كان وفياً للحقيقة عندما لم يضع الدكتور تيودورو في لائحة المرشحين الذين اقترحت الإشبينات ترشيحهم ، إذ ولا واحدة منهن تذكرت الصيدلي الذي لم يُر اسمه في قصة تلك المحادثات اللذيذة حول ترمّل الدونا فلور ، حينما أردن جميعهن إلهاءها . وعلى كل حال لم يخسر الدكتور كثيراً بذلك النسيان ، وإلا كان له نصيب الإسهام في الحلم الذي يجعل الدونا فلور تراه في حلقة رقصة السيراندا التي يتحلّق فيها المعتوهون المتطلعون إلى يدها . أفضل بالنسبة إليه . حتى في الأحلام لم يظهر

في دور مضحك، فلم يدمّر نفسه في تقدير الأرملة.

لكن، أي عمى هو ذاك؟ لم نسيْنه ولم يكتشفنه عند منصّة بيع الصيدلية، لصق الزجاجات الزرقاء والحمراء، محاطاً بتلك الرائحة، رائحة الأدوية، مع إبرة الحقن المستعدة لوخز أذرع وأوراك النساء العجائز، زبوناته؟ فإذا كنّ كثيراً ما يرينه ويتعاملن معه، فلماذا لم يبصرنه؟

لاعتقادهنّ أنّه ممنوع من الزواج وبلا أمل. لهذا، مع حساباتهن لعازبين في الشارع، لم يشركن الصيدلي، كما لو كان متزوجاً وله امرأة وأولاد. حتى ولا الدونا نورما في بحثها الدقيق عن عريس لماريا المُحبَطة، جارتها التي تتبناها، تذكرته في أية لحظة. الدكتور تيودورو؟ هذا لم يتزوج ولن يتزوّج، ليس من فائدة منه إذاً. إضاعة وقت. حتى لو أراد بناء بيت، فلن يستطيع، يا لها من حسرة، مسكين!

الحقيقة كانت معروفة جداً وراسخة، لهذا لم يكن هدف السخرية والوشاية مثل الآخرين من الذين لم يتزوجوا وهم معروفون، في كل هذه القصة من ترمّل الدونا فلور.

الدونا دينورا، امبراطورة التملّق والتنبؤ، كانت تنتقل يومياً أمام الصيدلية العلمية، تكشف مرتين في الأسبوع عن عجيزتها المترهلة (آه! الخيلاء المؤقتة والعظمة الإنسانية؛ تلك العجيزة اليابسة ذاتها التي طالما غنّاها في شعره المقفى الشيطاني المعلم روباتو حينما كان مراهقاً، شاعر المدرسة الشيطانية، فكلفت رؤيته ولمسته شيكات وكميات من المال من السادة الأثرياء في التجارة). كانت أمام الصيدلي من أجل حقنة مؤلمة مضادة للروماتيزم، مع هذا فإن عينيها كراجة بالغيب لم تستطيعا استشراف المستقبل، فلم تتبيّنا في السيد الأسمر الذي يقبض على جلدها الرخو، الأربعيني الفخور في النبؤة، لأنها كانت تعلم أفضل من أي كان، كم كان مستحيلاً بالنسبة إليه اتخاذ زوجة.

ليس لعجز أو لقلة خبرة بالمرأة. رباه، حتى ولا في خاطرها مرّت شبهة من هذا النوع، إذ أن الدكتور تيودورو، الرجل المسالم الودود، المحب للحياة الطيبة، كان قادراً على الابتعاد عن تواضعه المألوف ليعرض براهين مفرطة لذكورته، داساً أنفه كإنسان سافل قادر على أن يلحق الضرر به عندما يضع قيد الشك تكامله كرجل.

إنه رجل عالي الكفاءة في الفحولة، لكنّه رصين. وإذا ألحّ أحد ما على إثبات دقيق وغير قابل للنقاش حيال هذا الشأن، يكفي إجراء مقابلة في زقاق دو سابوتي مع المرأة القوية الأنيقة الخلاسية أوتافيانا داس دورس أو تافينيا مانيمولينسيا فتسرّ له لقاء بعض النقود النحاسية بالاحتياطي العائد لزبائنها المنتقين: قاضيان، وثلاثة تجار من المدينة السفلى[1] وقس محروم[2]، وأستاذ في الطب وصيدليّنا الفاضل.

من أجل مظاهر النظافة ذات الجودة، الرصينة الجدية إضافة إلى كونها سيدة تستقبل في بيتها المضياف جداً، كانت أوتافا خليقة باختيار الدكتور تيودورو لها وتردده عليها. وكان لا يخلف المواعيد أيام الخميس بعد العشاء. وزبائن تافينيا نخبة مشهورة ومحافظة، لكلّ منهم نهار معيّن (أو ليلة معيّنة) وكل واحد منهم له عاداته وأذواقه، وأشيائه المفضلة ـ أحياناً غريبة جداً ـ كمثل ما يفضله القاضي لاميرا، النهم تقريباً. وهي للجميع كفوءة تريحهم فتلبي طلباتهم، مزودة إياهم برضى كامل. وبالنسبة للمحترمين العاديين والذين هم بلا مشكلات، مثل الدكتور تيودورو والماجنين القدامى، فإنها تترك كلاً منهم مسروراً راضيا.

عند الساعة العشرين بالضبط، كل يوم خميس كان الدكتور تيودورو يجتاز الباب فيُستقبل بتقدير خاص ومجاملة. ويتمركز على كرسي هزّاز، وأوتافيانا أمامه تنتعل خفيّن من التريكو كخفّيْ طفل وليد، محتسياً ببطء شراباً مقطراً من الفاكهة من إنتاج خاص براهبات دير دا لابا، فيُستبقى الدكتور تيودورو والعاهرة تجري حواراً مفيداً، مارّة على أحداث الأسبوع في المجلات وعلى أخبار الصحف. ففي معاشرة السادة اللامعين، كانت تافينيا تحتفظ بطلاء من الثقافة. كان حديثها مبهجاً، مثقفاً، وفي زقاق دو سابوتي كانوا يستشيرونها في أي موضوع كان. مع الآخرين أصحاب الفضائل الأخلاقية كانت تنتقد العادات الحالية، هذا الهراء الذي يجوب العالم! شباب متحلل وغير جدير بالثقة!

هكذا كان يفعل الصيدلي منتهزاً فترة الهضم، مصغياً ومتقبلاً مفهوم الخلاسية المثالي،

---

(١) أحد أحياء المدينة.
(٢) الذي يقع عليه الحرم الكنسي.

« هذا العالم هالك يا دكتور ، ولا يوجد قديس يقوّم الأمر » . كانا يذهبان بعد ذلك إلى الحجرة يشمان الأوراق المعطرة ، وعند أوتافيانا يتمدد الدكتور تيودورو على سرير شراشفه نظيفة جداً ، وله الحق بتكرار الفعل . فكيف يُشَكك بفحولته ، إذا كان دائماً تقريباً يستعمل ذلك الحق فيكرر الوسيم المجتهد المتعة الطيبة ؟

ولم يكن ذلك يكلفه زيادة في السعر . فمن المفيد أن نعرف أن تافينيا مانيمولينسيا ما كانت تستوفي على عدد المرات ، بل على الليلة ، فتقبض على ليلة بكاملها ، حتى حين تكون حرّية الزبون محدودة بسبب المراقبة العائلية ، فيخرج بسرعة ، مستفيداً فقط من الوقت القصير بكذبة . كان السعر باهظاً والتعرفة مرتفعة ، متعة غالية ؛ لكن كل هذه المعاملة المثلى ، كل ذلك اللطف والكفاءة كان يستأهل التبذير .

ويظلّ الدكتور تيودورو حتى منتصف الليل ، وأحياناً يأخذ إغفاءة على السرير ذي الفراش المحشو بقش الباريغودا [1] ، الناعم الدافىء ، مع أوتافيانا التي تراقب نعاسه . وقبل أن ينصرف ، كانت تجلب له أيضاً صحناً من المونغونزا [2] ، صحناً من الأرز المحلّى بالسكر ، صحناً من الكانجيكا [3] ، وكأساً جديداً من المشروب لكي « يجدد قواه » ، كما كانت تهمس ، في ابتسامة دلع ، المومس الخلاسية المحترمة .

لم تسجل الإشبينات اسمه في اللوائح ، حتى ولم يتناولنه بنكات الزواج لعلمهن أنه مكرّسٌ نفسه لأمه ، وهي عجوز مشلولة ، ليس لها سواه في الدنيا . حينما أصيبت بالجلطة وعدها الدكتور تيودورو الحديث التخرّج بأن يبقى عازباً طالما بقيت على قيد الحياة . كان ذلك أقل ما يستطيع فعله ليبرهن لها عن امتنانه .

فقد أباه وهو في الثامنة عشرة يستعد لامتحان القبول في كلية الطب . أراد قطع دروسه ، والاستقرار إلى الأبد في مدينة جيكييه حيث يقيمون ، متسلماً دوره في منصّة بيع

---

(١) BARRIGUDA : شجر من فصيلة الخيزرانيات (BAMBOCACEAS) .

(٢) NUNGUNZA : ثريد الذرة المطبوخ بمرق محلى بالسكر .

(٣) CANJICA : ثريد الذرة المسحوقة مع عصارة حوز الهند .

المتجر الصغير للأقمشة، وهو إرثه الوحيد من أبيه، علاوة على ديون بالأكوام والسمعة الطيبة. لكن الأرملة الهشة في الظاهر لكن القادرة في الباطن، لم تقبل التضحية. فطموح المتوفى الوحيد كان في أن يتخرّج ابنه، والشاب تيودورو برهن عن كونه طالباً ممتازاً، والأساتذة تكهنوا له بنجاحات عظيمة. أجرى امتحاناته وتابع تحصيله العلمي. وقد تحملت أمه مسؤولية المتجر الصغير. وكان ثمة تبديل، فبدلاً من الطب، درس الصيدلة وسنواتها المنهجية أقلّ بثلاث سنوات من سني منهج دراسة الطبّ.

الأرملة وحيدةً تعمل ليلاً ونهاراً، في تعب متواصل؛ أدارت البيت والعمل مسدّدةً الديون وضامنة المصروف الشهري للابن الأكاديمي[1]. حاول هو مراراً أن يتوظّف لكن أمه عارضته قائلة: « إن وقتك مقدّس مخصّص لدروسك، وابقِ العمل إلى ما بعد التخرّج ».

حين شاهدته دكتوراً بالخاتم والدبلوم ملتفحاً بمنطقة سوداء في جلال براءة الدرجة العلمية، لم تتحمل ذلك الفرح. وفي الليلة ذاتها لدى عودتها إلى الفندق، أصيبت بجلطة، وأنقذت بمعجزة لكنها بقيت إلى الأبد مشلولة.

عندما رآها تواجه الموت أقسم الصيدلي الشاب في تصرف بطل درامي مخلص على أن يبقى عازباً دائماً في صحبتها طالما هي حيّة. وفي اليوم التالي، في أول عطلاته عاد في وعده لفيوليتاسا، حبيبته التي وعدها بالزواج، ولم يتّخذ بعدها حبيبة أخرى. لم يبقَ له من المرح والتّسلية سوى البوق، وهو آلة موسيقية تعلّمها حينما كان لا يزال في المدرسة الثانوية، في معهد القيثارة البلديّ.

ثم باع المتجر في جيكيبه ليدخل شريكاً في الصيدلية المتردّية الوضع في إيتاباجيبي التي كان يملكها طبيب انتهى نهايةً محزنة؛ فقد ارتكب في شيخوخة نضجت قبل الأوان أكبر الحماقات، مجبراً عائلته على الحجر عليه. استأجر الدكتور تيودورو منزلاً قريباً وعاش من أجل العمل ومن أجل أمه المقعدة، التي لا نفع منها على كرسي بعجلات، بنظرتها المرتعبة وصوتها الأبح الأجش والتي تغير على ابنها. وطالما جلس قربها ليلاً، يجرب عزفاً منفرداً

---

(١) ACADEMICO : الجامعي أيضاً.

على البوق، ليخفف عن المريضة وحدتها المرعبة.

ظلّ سنوات وسنوات قلّما يخرج من الحي، لكنه جعل من نفسه شعبياً محترماً. وتعرف إلى الموسيقي آجينور غوميس فانخرط مع بوقه في أوركسترا للهواة، بحيث يجتمع حول المايسترو الكفوء أطباء ومهندسون ومحامون، وقاضٍ ومستخدمون في المتاجر وصاحبا متجرين. في أيام الآحاد يتجمّعون آناً في منزل أحدهم وطوراً في منزل آخر، للعزف، سعداء بآلاتهم الموسيقية وبمؤلفاتهم.

وبإدارة صاحب اللقب الشاب استعادت الصيدلية ازدهارها القديم ونمت شهرته كرجل مستقيم طيب مع الوقت.

طالبات زواج كثيرات ظهرن وحُمْنَ حول بوق الصيدلي الشاب، لكنه بجدّيّته وعجزه عن اختلاس الوقت للفتاة التي هي برسم الزواج لم يعط أياً منهن وعداً أو أملاً ما. فرقّة المحبين كان يستبقيها كلها للمشلولة: زهور وعلب الشوكولا، والذكريات الرقيقة وسوناتا ألّفها المايسترو تكريماً لتلك العبادة للولد والأم، «أمسيات ايتاباجيبي مع الحب الأمومي».

مات الطبيب المجنون قبل أن يستعيد عافيته، وعالج الدكتور تيودورو التركة، فحلّ معضلات مختلفة كما اعتنى بممتلكات أهله. وربما لهذا السبب توهمت الأرملة أن تزوجه من ابنتها الصغرى، وهي غانية مخيفة. ولحسن الحظ منعه الوعد الذي قطعه على نفسه. فلم يكن قادراً على أن يتخيّل نفسه بغتةً زوجاً للبدينة الدميمة، وبهذا الشكل كان الأمر بمثابة عقاب للأرملة. وكانت تعامله كحماة، فارضةً نفسها على حياته. وفي تنبه للخطر، ما كان أمام الدكتور تيودورو إلا وسيلة واحدة؛ أن يأخذ حصته في الشركة، وينسحب من الصيدلية وينجو من خطر الخطوبة.

حين تساءل عما يفعله بالمال الذي تسلّمه، زوّده بنصيحة ممتازة أحد معارفه (وأحد معارفنا، إذ سبق لنا في مناسبة أخرى أن رأيناه متنقلاً في شارع تشيلي حيث كاد يتعثر بالدونا روزيلدا وحتى إنها كالت له شتائم فخمة، ذلك المندوب الفطن للعقاقير والمختبرات، روزالفو ميديروس). الصيدلية العلمية، وهي مؤسسة مزدهرة في موقع رائع كانت موضوع نزاع من تلك النزاعات القذرة بين ورثة على تركة مثيرة للخصام، شجار

عائلي أخرق. وفرصة ممتازة لمن يملك المال؛ صفقة مهمة.

وهذا ما فعله الدكتور تيودورو إذ ابتاع حصة اثنين من أصل خمسة ورثة، نقداً وديناً. فدسّ نفسه في شركة مهمة، اجتاز أوقاتاً رديئة في البدء، متحرراً من قيود السندات والفوائد المرتفعة. وكان مفيداً له في ضائقته المصرفي سيليستينو الذي أوصاه به عضو آخر في أوركسترا الهواة، الدكتور فنسلسلاو بيريس دا فيغا، الذي كان جيداً على الكمان بقدر ما كان جيداً بمبضعه المشهور. وأحسّ البرتغالي في الحال أن الرجل جدي فنظرته وأنفه لا يخيبان. ففتح أمام الدكتور تيودورو إمكانات إصلاح السندات، مسهّلاً أمامه حياته.

إنه رجل ذو نفقات زهيدة (ترفه يُختَصر في ممرضة خبيرة لأمه، وفي البوق وفي الزيارة الأسبوعية لتافينيا مانيمولينسيا)، ومع دعم المصرفي، اجتاز الصيدلي من دون مجازفات كبيرة فترته الأولى في كابيسا، وكان ما يزال مديناً. وقبل سنة من استلطافه الدونا فلور، دفع مع تنهدة فرج، السند الأخير.

وهو الآن شريك، ليس في الصيدلية الصغيرة في إيتاباجيبي، بل أجل، في مستودع أدوية في وسط المدينة!. ومع أنه الشريك الأصغر إذ لا يمتلك سوى أربعين بالمائة من رأس المال، فقد كان يأمر وينهي في المؤسسة، حيث أن الأشقاء الثلاثة ما كانوا يفهمون عمل الصيدلية، ونادراً ما تطأ أقدامهم الصيدلية العلمية (اللهم إلا لطلب سلفة على الحساب).

وأكثر من ذلك، فالصيدلي الذي يعطي لقبه للمؤسسة، يحوز لهذا السبب ولعمله اليومي على قسط أكبر من الأرباح. إنه مطمئن، ينتظر يوماً سيأتي، إن عاجلاً أم آجلاً، يشتري فيه الحصص الأخرى عندما يبذر الأشقاء الكسالى العاطلون على رغد الحياة ممتلكاتهم الأخرى من الإرث. لقد كسب الدكتور تيودورو احترام الحي وتقديره خصوصاً احترام الإشبينات وتقديرهنّ.

حينما ظهر في كابيسا، مستقيماً في ملابسه الدّاكنة، وقوراً عَزَباً يخطو نحو الأربعين، حالما رأته الإشبينات بدأن يعملن. وعلى التّو تقصّين داخليّته، وقِسن علمه ـ «يا لها من يد رشيقة جداً بإبرة الحقن»، «وصفاته الطبية أفضل من وصفات أطباء كثيرين» ـ ورُحن يدقّقن بتفاصيل حياته؛ من دروسه المسددة بعمل الأم في المتجر الصغير في جيكيبه إلى

العزف المنفرد على البوق، فن ومتعة العازب، مع الدموع في فصل الجلطة الدرامي عندما أقسم الدكتور على أن لا يحب أي امرأة من أجل رعاية أفضل للمشلولة.

الدونا دينورا المتشككة المدقّقة المصرّة على التفتيش في صغائر الأمور بسطت حقلها في الاستقصاء حتى إيتاباجيبي حيث قابلت المرضة نفسها وساقتها إلى العجوز المعاقة في كرسيها. تلك العبادة للإبن تستحق سوناتا، لحناً، شعراً، وضعتها إزاء نميمة الإشبينات، اللواتي تركن الصيدلي في سلام مع عاداته الصارمة وأمه المريضة.

لقد اعتدْن على الإلتزام البنوي المهيب، فلم يحسبن أي حساب للتبدل النوعي العميق الذي جرى قبل شهور، حين توفيت أم الدكتور تيودورو على كرسيها ذي العجلات، الذي عاشت فيه أكثر من عشرين سنة. وأصبح الابن المتحرر من الوعد المميت أهلاً للزواج. لكن بالنسبة إلى الإشبينات لم يكن الصيدلي على قائمة المكائد والوشوشة فقد كان لجميع الناس «الرجل المستقيم هو الدكتور تيودورو».

أي ذهول، أي دهشة عندما انفجر نبأ اهتمام بائع العقاقير بمدرّسة الطهي وكأن القيامة قد قامت. آه! الخائن! الإشبينات اصطففن في تشكيل المعركة، احتللن جميع المواقع الستراتيجية ما بين الصيدلية العلمية «ومدرسة الطهي تذوّق وفن». وبين النظرات والابتسامات كان على الدكتور تيودورو أن يجتاز بخطاه المقاسة وبسترته الرمادية ورباطة جأشه الصارمة، عابراً أمام النافذة حيث تردُّ الدونا فلور بابتسامة سريعة لطيفة على تحيّته المحترمة لكن المتيّمة. آه! الخائن، السفيه المتصنّع: هكذا كانت نظرات الواشيات وحركاتهنّ تقول!

وإذ بقي في البيت البعيد في إيتاباجيبي ذاته، ما كان يسرع، مع أن عليه أن يستقل الترام والمصعد حالما تغلق الصيدلية أبوابها. فما عادت أمه المقعدة تنتظره بقلة صبر متوترة. صار يتغدّى ويتعشى في مطعم البرتغالي موريرا، دائراً حول كابيسا وماسييل وسودريه، كما لو أنه لا يستطيع هجر جوار الأرملة. وكان يرسل إليها بحركة تودّد من بعيد، من دون أن يفرض عليها حضوره، الوقور! لكن كيف يستطيع أن يحافظ على وقاره ضمن الحدود، فيما الإشبينات حوله، في كل خطوة يتعثر بإحداهن ويصغي إلى تلميحات الدونا دينورا؟

كان الدكتور تيودورو الصريح التصرفات عدو الغش والتصنّع. فأحسَّ أنه غير مرتاح؛ لقد أصبح الوضع لا يحتمل بالنسبة إليه. وتنبهت الدونا نورما.

ـ إنه حتى يستثير الشفقة... ابتسمت الدونا فلور باستلطاف.

فأضافت نورما: «لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا.. سأجد وسيلةً ما...»

أعدت الدونا نورما نفسها لحديث مفصّل مخلص مع الصيدلي المتيّم، لكي يقرر ما يفعل نهائياً. ولم تخف الدونا فلور نفسها كونها أيضاً مهتمة، تتكلّم عنه بودّ، وتقبع في النافذة في الساعة التي يعبر فيها الدكتور الشارع.

ـ سأتكلم معه...

ـ هل أنتِ مجنونة أيتها المخلوقة؟ سوف يظن أنني أرسلتكِ إليه، وأنني مبتذلة، امرأة تقدّم نفسها...

ـ لا تكوني بلهاء... دعي الأمر لي...

لكن الدونا نورما لم يبلغ بها الأمر أن تأخذ المبادرة، لأن الدونا فلور في ذلك المساء عينه اقتحمت منزلها وقد كادت أنفاسها تنقطع، وفي يدها أوراق رسالة والمغلّف. ورق أزرق مذهب الحواشي معطر بالصندل، عمل متقن جميل. إعلان محدّد وجمل غزل في برتغالية سلسة، وكشف بالممتلكات والخصائص يضعها الواحدة بعد الأخرى تحت قدميْ السيدة، عرض نوايا شريفة بكلمات نبيلة، ونفحة غرام حقيقي تسير في حدود التبصّر المستقيمة، مما يجعل تلك الوثيقة طلباً للحب مرتعشاً منعشاً.

١٣

إذا كان الزواج الأول للدونا فلور قد تحقق بالجري وبسرعة، باحتفال خجول محدود، ففي الثاني حدث كل شيء كما يجب بالنظام وبالبريق المطلوب. الأول لم تكن فيه خطوبة، إذ مضى رأساً من الغرام (الفاحش) إلى الزواج مروراً بالسرير (قبل الأوان المفروض). احتُفل به في ظروف غير سارة من العجلة والحرج الناتجة عن الحاجة إلى غطاء من ضمان الدولة والكنيسة بعد أن التهم الحبيب عذرية الفتاة سلفاً، معيدة بذلك الاعتبار إلى شخصيتها. إذا لم يكن طبق الفاكهة كاملاً [١]، فعلى الأقل حصلت على اسم عائلة حسن.

الزواج الثاني حدث بدعوات مطبوعة، وخبر في عمود الأخبار الاجتماعية في صحيفة «المساء» مع إشارة إطراء للدكتور تيودورو ـ «المشترك في جريدتنا المحترم المشهور» ـ ومع موسيقى وزهور وأضواء وناس، أناس كثيرين في كنيسة القديس بنتو حيث ألقى الدون [٢] جيرونيمو المشهور عظة من أبلغ العظات فيما ألقى القاضي الدكتور بينيو بيدريرا في احتفال الزواج المدنيّ، بأناقته تلك عن المفاهيم، خطبة قصيرة ودودة، وتنبأ بحياة من السلام والتفاهم للعريسين الجديدين، «مع أنغام الموسيقى، صوت الآلهة». ذلك أن القاضي المعرّقة عظامه والمشهور زميل العريس في أوركسترا الهواة المنعقدة تحت لواء عصا المايسترو آجينور غوميس، حيث يتميّز القاضي على النّفير.

---

(١) CABAÇO: في الأصل ثمر استوائي، ويقال أيضاً: وعاء فاكهة الكاباسو.

(٢) DOM: لقب «السيد» يطلق على النبلاء ورجال الكنيسة الكاثوليكية.

وهكذا ، حَظِيَ زواج الدونا فلور الثاني بكل ما افتقر إليه زواجها الأول؛ ومن حسن حظ العروسين أن الدونا نورما ، نظّمت كل شيء بقدرتها ووسواسها ، فأتى كل شيء كما ينبغي أن يكون تماماً وفي الوقت المناسب ، مع أجود الأصناف بالسعر الملائم . فقد وظّفت في ذلك جيرانها المتحمسين لمساعدتها .

وما الذي عجزت عنه الدونا نورما ؟ لقد حصلت على كل شيء ، خصوصاً حضور الدونا روزيلدا ، ومصالحتها التامة مع ابنتها . كما قدم أيضاً من نازاريت شقيق الدونا فلور وزوجته . لم يتغيّب سوى روزاليا وأنطونيو موريس ، لأن الميكانيكي أصّر على الالتزام بقراره بعدم العودة إلى باهيا إلا حين تكون الحياة « قد أخذت عطلة دائمة في الجحيم » .

هذه المرة ما كان لدى الدونا روزيلدا انتقاد لتأتي به . كان زواجاً حسب ذوقها ، سواء على صعيد الاحتفال أم الصهر نفسه . وأخيراً صهر يقترب من النموذج الذي كانت تحلم به في ذهابها البعيد في لاديرا دو آلفو ؛ واضح أنه ليس بالضبط الأمير الكامل ، فالمثالي بلغته تقريباً مع الطالب بيدرو بورجيس . لكنّه في النهاية دكتور له موارده شريك في صيدلية غنيّة جداً حسنة الموقع . رجل مستقيم حسن المعاشرة ، شخص له وزنه في الحياة ، وليس مجرد قدم تزحف تتسخ بالدهن . مثلما هو زوج روزاليا ، وأقل منه شأناً متشرد تافه ، محتال مثل زوج فلوربيديس الأول . الدكتور تيودورو هذا بوسعها أن تعرضه بلا خجل على معارفها من النخبة ، شخصية مميزة ، صهر من الصفوة ، وثري !

في الزواج الثاني لم يكن هناك الحب وحده ، وهذا هو الصحيح . فليس مناسباً لأرملة أن تحب ، في زاوية أو في عتمة أحد الأبواب في تحلّل وتماسك القبلات والعناق ، يمسكها من هنا ويمسكها من هناك . يده على ثدييْها ثم تنزلق إلى الفخذين . فذلك قلة حشمة وحياء ، مباحثة في حب فتاة عذراء إذا كانت نيّات الحبيب جدّيّة ، فتمنحه بعض الأمور سلفاً . لكنها غير محتملة ولا أخلاقية عندما يتعلق الأمر بأرملة ما .

هذا هو السبب في أنه ، عند إعلان الدكتور تيودورو من خلال رسالته الأدبية النبيلة ، قرّر الأطراف ـ مع النصح واستحسان الأقارب والأصدقاء ـ أمر الخطوبة المحترمة القصيرة التي يستطيع أثناءها الدكتور تيودورو والدونا فلور أن يتعرفا على بعضهما البعض بشكل

أفضل، فيقيسا مزاياها ونواقصها ويقتنعا بأن زواجها سيكون ملائماً. وقال السيد سامبايو، السفير المفوّض أنه أخذا بعين الاعتبار تجربة الدونا فلور الماضية المريرة فلا ينبغي لها الإقدام على خطوة جد جدية من هذا النوع من دون ضمانات نجاح أكيدة.

كانت خطوة جدية للغاية؛ حتى أنّ الدونا نورما نفسها، بكل استعدادها وقدرتها، لم تتشجع على تقديم النصح منفردةً لصديقتها حول كيفيّة الإجابة على الأوراق الزرقاء والمذهبة، العابقة بعطر الصندل والغرام. بالنسبة إليها، والدونا فلور بلا شك صديقتها الحميمة وأختها وهي مطلعة على أسرارها، على ظرفها الملحّ كأنثى شابة حبيسة قيود التّرمل. ذلك الزواج كان الحل المناسب لجميع مشاكل الصديقة. أما الإجابة على الإعلان الحار والأنيس لا يمكن أن ينحصر بكلمة: «أقبل» ثم ماذا بعد؟

من الضروري انتهاز الفرصة لوضع الأمور في نصابها فتُحدّد التصرفات، والمواعيد والمهل بحيث لا تقع الدونا فلور ضحية العجلة كما لا يطول أيضاً الوضع المضحك بحيث يغدو معه الصيدلي العديم التجربة أخرق، ويصبح الرجل صاحب الشأن المحترم فجأة بمثابة المهرّج مسبباً سخرية الإشبينات اللائي سيطاردنه في الشارع ويحصين عليه نظراته وتنهداته، ويتسلين على حسابه.

وهكذا نعرف لمَ لمْ تستدعي الدونا نورما، الدونا جيزا المثقفة العارفة والصديقة الحميمة وحدها، وإنما شاءت أيضاً الاستماع إلى زوجها زيه سامبايو لتلقى دعمه. وقد فكرت في البدء في الخالة ليتا والعم بورتو، وأن تلتقي في نازاريت داس فارينياس أو في الريو أمها والأقارب الآخرين للدونا فلور. لكنّها، هي والأرملة اتفقتا على عدم جدوى حضور العجوزين الطيبين في المداولات التمهيدية للمسألة. أما إذا وصلتا إلى لحظة الخطوبة المهيبة، فهنا نعم، سوف تستدعيان الخالة ليتا من حديقتها، والعم بورتو من لوحاته الملونة ومناظرها الطبيعية ليسمعا من طالب الزواج نيّاته وطلبه.

كانت ليلةً مضطربة. كان على الدونا نورما لكي تضمن أمر الاجتماع أن تطلب من الدونا آميليا أن تنوب عنها في زيارة ابنة عم لها في الدرجة الخامسة أو السادسة في المستشفى،

بعد أن ولدت حديثاً. وقد شكت الدونا آميليا وهي في طريقها إلى المستشفى من دون رغبة منها :

ـ نورمينيا هذه لم يكن عندها ما تقدّمه لي سوى أن أكون مرافقة، مع أنّ للشابة أقارب كُثُر ... إنها مكيدة لي، يا لكِ من امرأة وقحة ...!

والدونا جيزا من جهتها تخلّفت عن أحد التزاماتها : لقاء موسيقي في بيت بعض الأصدقاء الألمان حيث كانوا يصغون، وسط المرَح، إلى اسطوانات لبيتهوفن وفاغنر، في صمت مهيب ويرشفون الكحول. أمّا السيد سامبايو فقد أتى من غير رغبته، بالقوة؛ فما كان من عاداته حشر نفسه في حياة الآخرين، ناهيك عن موضوع شخصي مثل الزواج يثير خفقان قلبه. أما الدونا فلور طبعاً المخلوقة التي يقدّرها تقديراً فعلياً الأرملة الشريفة ـ اللحيمة، الشهية كالعنب ـ فالسيد سامبايو ما كان يستطيع كبح تفكيره غير المحتشم، فقد قرر الخروج من عزلته وتجاوز مبادئه ليخدمها.

وجرت قراءة جديدة للرسالة، فتُلِيَت بصوت عالٍ. ومع تعليقات السيد سامبايو بدأ مؤتمر القمة التاريخي (كما تقول الصحافة اليوم) :

ـ «رجل راقي المشاعر، أحببته»، لخص تاجر الأحذية رأيه.

ثم الموافقة العنيدة للدونا فلور :

ـ أجل، أظن ذلك... لمَ لا؟ أجده لطيفاً ...

«لطيف؟ يكفي أنه رجل متطلّب الرغبات» ـ احتجت الدونا جيزا، مستعملة لهجة سوقية باهيانية في لغتها الغرنغا [1].

في النهاية اتفقوا بناءً على اقتراح من الدونا نورما، على انتداب السيد زيه سامبايو ليتفاوض بقدراته باسم الأرملة مع الصيدلي حول جميع الإجراءات معلناً الموافقة، نعم، مع

---

(١) GRINGA : كلمة استخفاف تطلق على الأجنبي ولغته، ورد ذكرها سابقاً.

إنهاء فوريّ لتلك التظاهرات العامـة ومارّاً على الخطوبة الوقورة، مستبقاً اللقاء مع خالة وعم الدونا فلور حيث يجعل الالتزام رسمياً.

وهذا ما حـدث وصار بوسع الدكتور تيودورو التردد إلى بيت الخطيبة ثلاث مرات في الأسبوع: أيام الأربعاء والسبت والأحد. فيصل الأربعاء والسبت بعيد العشاء ويبقى حتى العاشرة ليلاً؛ طبعاً هذه اللقاءات تحدث دائماً في حضور طرف ثالث لكي لا نفسح في المجال أمام أقل شائعة تقلل من احترام الأرملة. في الآحاد، كان النظام أكثر مرونة: يبدأ مع الغداء في ريو فيرميليو في بيت الخالة والعم، وينتهي في السينما بصحبة آل سامبايو أو آل رواس.

يجب ألا نطوي صفحة محضر هذا الاجتماع التذكاري قبل أن نسجّل فيه استياء الدونا جيزا من تلك القيود وعدم موافقتها عليها. غير موافقة مع تفخيم القسم الأكبر من الإلحاحات المضحكة جداً والبلهاء، وفي رأيها هو إيمان بسلفية القـرون الوسطـى الجامـدة، الإقطاعية المحزنة. لكن زيه سامبايو بالذات، وهو رجل مجرّب، كان يتفهم الضرورات الآيلة إلى الحذر من دون أن يلطخ السمعة الحسنة لجارته.

كل شيء يشير إلى أنّ الدكتور تيودورو رجل شريـف ـ سلوكه السابق وكلماته الرفيعة في رسالته ـ ومع هذا يجب عليهم أن يضمنوا الأرملة ضد أي إساءة محتملة. تصوّر أن الصيدلي، بعد أن يندسّ نهاراً وليلاً في بيت الدونا فلور المجرّدة من الدفاع، بعد أن يسبر أغوارها، في نزهات ورحلات، هنا وهناك، لا أحد يعلم إلى أين بمفردهما، تصوّر أن ينصرف السافل على حين بغتة، كما حدث مرات عديدة في حالات مشابهة؛ ما الذي سيحلّ بالشرف وبسمعة الجارة النّقية؟ من أرملة مثال الجديـة والدماثة تغدو مرحاضاً عاماً يدخله من يشاء يبول وينصرف لتضحك الدونا جيزا في حكمتها من هذه العادات، لكنه هو، جوزيه سامبايو، حريص على عافية الدونا فلور، الخلقية، وهذا هو رأيه..

ثارت الغرنغا: القرون الوسطى الإقطاع... محاكم التفتيش المقدسة.. أين رأينا امـرأة في الثلاثين سيدة مصيرها مالكة أموالها التي تكسبها من عرق جبينها، تحتاج إلى شاهد لدى

استقبالها عريسها، فارسها [1] الذي يشرف على الأربعين؟ لا يوجد مثل هذا التخلف إلا في البرازيل.. أما في الولايات المتحدة، فسيكون ذلك نكتة عالمية...

أصغى السيد سامبايو إلى الغرنغا بصمت، محدّقاً فيها، مانحاً إياها الحق في عمق تفكيرها الأشد عمقاً؛ حماقة من أشد الحماقات كل هذه الاحتراسات وهؤلاء الشهود، وفي النهاية لكل إنسان الحقّ بأن يعطي مما عنده، لمن يشاء ومتى يشاء.. آه لو تقرر الغرنغا، التي تتفوّه بكلام لا طائل منه ذات النظرة المستقبلية أن تعطيه قليلاً ممّا لديها لتضع قيد الممارسة نظرياتها، لامبالاتها إزاء هذه القناعات، هذه التفاهات... لكن، لا شيء! مجرد كلام كثير وسخط، علم زاخر وآداب وفيرة؛ كانت صخرة بعيدة المنال؛ على الأقل حتى يبرهن العكس. إذا كانت تعطي فلا بدّ أنها تفعل ذلك في كتمان وأي كتمان، مطلق سري! لا أحد ولا حتى الدونا دينورا، استطاع أن يجد عليها أي شبهة قطّ. ولا واقعة واحدة. ما خلا طالب زواج وضعته قيد الاختبار. وكان ثرثاراً جداً، هذا صحيح. لكن بلا جدوى، كل شيء ذاب في لا شيء. الغرنغا المبتسمة، كانت سعيدة في حياتها مع جميع العلامات الجسدية والخلقية. ذات كرش متخم، تعتني بنفسها جيدا. ومنها جهدت الإشبينات فلا يكتشفن ثغرة واحدة في حياتها.

سترين، ربما ليست حتى من هؤلاء، لو كانت جادة في الحقيقة... وفي النهاية كان ذلك عزاء، استخلصه الحزين السيد سامبايو، مختتماً أيضاً المؤتمر.

في اليوم التالي، خالف بذلك عاداته مرة أخرى، تريّث السيد سامبايو في الخروج من البيت إلى متجر الأحذية. ما زال أمامه ساعة من الوقت يلتقي فيها الدكتور تيودورو في الصيدلية، ليفي بالتزاماته عما قريب بشأن المهمة التي يرغب فيها.

كانت محادثة وديّة مع أن البداية كانت صعبة جداً، مليئة بإشارات الأصابع وكتمان الحقائق، السيد سامبايو لم يعرف كيف يدخل في الموضوع، والدكتور تيودورو هو الذي بدأ المكر والخداع. تفاهما، ولكن بنوايا حسنة متبادلة؛ صاحب المتجر لأن المسألة تعجبه،

---

(1) CAVALHEIRO : لقب يطلق على السادة النبلاء، ورد ذكرها سابقا

والصيدلي المستعد لأي اتفاق للزواج من الأرملة، في غرام الرجل الناضج.

تم اللقاء في المختبر، في عمق الصيدلية بعيداً عن الأنظار والأسماع. لكن عبثاً، فحتى في تلك الساعة الصباحية لاحظت الدونا دينورا، في مراقبتها الدائمة، الدنو الحذر للسيد سامبايو وتلكؤه المريب في مخبأ المختبر (حتى ولا في علاج السفلس يتأخر هكذا) ثم غامرت بذريعة حقنتها ضد الروماتيزم (في الحقيقة ما كان يجب أن تتناولها إلا في اليوم التالي وفي جدول المواعيد المسائي).

وكم كان ذعر المتآمريْن عند رؤيتهما وجه المرأة السليطة الظاهرة بتأكيد لتاجر الأحذية، وهذا في حدّ ذاته اعتراف يكفيها فيما لو لم تلتقط أذنيها جزءاً من حديثهما.

ـ انتهت المسألة، يا عزيزي الدكتور، تهانينا، للجانبين، لك ولها... فكلا كما تستحقان كلّ خير...

في الحال سرى الخبر على كلّ الأفواه، كالنار في الهشيم، ودار في الشوارع المجاورة، حتى إن الدونا فلور تلقّت التهاني قبل أن تعرف بنجاح المهمة التي حمّلتها عاتق السيد زيه سامبايو (كان الإشبين في الاحتفال الديني امتناناً لمساعيه الحميدة).

وليلة السبت انتظاراً للقاء طالب الزواج من الأرملة، اجتمع شمل جمهور صغير وحيوي من مشاهدي الحفل أمام منزل الدونا فلور؛ وانتصبت الإشبينات كالأعمدة بلا خجل عند العتبة الخارجية لمنزل الأرجنتيني، يتلصّصن على قاعة الزوار في مدرسة الطهي.

ترقّبت الدونا فلور وهي مبتسمة هادئة الزيارة المثيرة. وقد وجدت نفسها، كما هو المفروض، محاطة بأدنى أقربائها، كالخالة والعم، وبأخلص أصدقائها (بمن فيهم الدونا دينورا، التي تهدد بحرب لا هوادة فيها، إذا لم تكن مدعوة). كانوا ثلاثة أو أربعة أزواج، الدونا ماريا دو كارمو والفتاة ماريلدا (المضطربة وكأن يدها هي التي ستُطلب للزّواج) وعلى أفضل مقعد جلس الدكتور لويس إينريكي، وهو شخصية من الإدارة العامة ورجل آداب كفوء، صديق العائلة، أي نموذج للقريب الثريّ. وفي الخارج راح جمهور مراقبي الحفل يتزايد عدداً وهياجاً.

ظهر الدكتور تيودورو في الساعة المحددة دقيقاً دقّة ساعته السويسرية، مظهره كمظهر

أحد اللوردات، يكفي أن تراه لتدرك ذلك، بالزهرة في عروته كان شخصية رائعة جعلت جميع الإشبينات يرتعدن. واستقبلته بجفاوة الخالة ليتا، وبعدما حيّا الحضور، توجه إلى المكان الذي ـ حسب البروتوكول الصارم ـ عيّنوه له؛ على الكنبة العريضة إلى جانب الدونا فلور.

كانت الدونا فلور تتألق في فستان جديد، فاتنةً بسيطةً بخديها المتورّدَيْن بالخفر، كلها مزدانة بالذهب والنحاس. لا أحد بوسعه التكهن، وهو يراها هادئة وساكنة هكذا، كم كانت في أعماقها ميتة في ساعة الاحتضار، مسحوقة بالغمّ، وكم كان اشتياقها في تلك الأيام من الأمل والشكّ.

في النّهاية ستجتاز هذا الوقت العصيب، والليل بسواده وصحراء الحداد والوحدة؛ مرة أخرى سوف ترحل ممتطية حصاناً يعدو بها إلى حيث المتعة.

جلس الدكتور تيودورو على حافة الكنبة العريضة. وران صمت وانتظار، لحظة مهيبة لا تنسى وشديدة الإزعاج. وجاب الصيدلي بعينيه في القاعة المزدحمة، وابتسمت الدونا نورما لتشجعه. وعندئذٍ انتصب من جديد واقفاً ثم توجّه في كلامه إلى الدونا فلور وإلى الخالة والعم قائلاً: «كم سيكون سعيداً فيما لو منّتْ عليه بقبوله عريساً لها زوجاً في المستقبل وفي مهلة قصيرة، وأن تعدّ نفسها لتصير رفيقته على طريق الحياة، طريق مليئة بالحجارة، مرصوفة بالعقبات والعثرات، ومع هذا فستتحوّل إلى فردوس بدعمها وبلسمها...»

كانت خطبة الخطيب التي تسبق المعركة سخاء المجاز الجامعي في الطبّ أو السياسة، مؤلّف غير مطبوع للدكتور تيودورو يرشح بالبلاغة: «يا له من رجل جدّيّ متكامل الفضائل»، فكرت الدونا ماريا دو كارمو وهي من بين الحاضرين التي تعاملت أقل ما يمكن مع طالب الزواج. في هذه الأثناء واصل خطابه مؤكداً أنه يشعر بأنه على عتبة الفردوس إذ يجد نفسه هنا بين الخالة والعم وأعزّ أصدقاء حياتها؛ وكم يتحسّر لعدم وجود الشقيقة وزوجها والشقيق وزوجته ناهيكم عن المكرّسة المحترمة، العجوز، القديسة أم الدونا فلور...

جعل ذلك الذكر للدونا روزيلدا الدونا آميليا تغصّ تقريباً وتفلت منها ضحكة

رخوة: «انتظر وسرعان ما سترى قداسة العجوز..» ووضعت يدها على فمها، زائغة العينين كيلا تحدّق في الدونا نورما أو الدونا إيمينا.

الدكتور تيودورو، باختصار، يرغب، في حضور كل هؤلاء الشهود أصحاب المراتب العالية، في طلب يد الدونا فلور كزوجة. قال ذلك بكثير من العذوبة بحيث لم تتمالك الدونا نورما نفسها فصفقت، مما استثار سخط السيد سامبايو: فمتى كانوا يصفقون في لحظات كهذه، حيث يتطلّب الوضع أقصى تهذيب وأشد رصانة؟ بيدِ أن الدونا فلور، وضعت الأمور كلها في نصابها حين نهضت هي الأخرى مادّة يدها رافعةً وجهها إلى طالب الزواج، لتمنحه موافقتها:

ـ أنا أيضاً أرغب في الزواج منك...

ما أن وقف مواجهاً العروس حتى حدثت موجة من العناق، من التهاني والتبريك، قبلات من النساء. واقتحم الجمهور المتطفل الناشز البيت، وسمع الدكتور تيودورو من يُقرّعه:

ـ أيها السيد المخادع، يا قديس الشجرة الخاوية[1]...

كانت مائدة الحلوى والأطعمة المالحة مترفة، فاندفعت إليها الإشبينات ولا من يردعهنّ. وقدّمت ماريليدا والخادمة الأشربة الروحية المعدة في البيت من البيض والبنفسج والزبيب الرومي، ثمر الأومبو[2] والآراسا[3]، كان لذيذاً إلى درجة جعلت الصيدليّ يقول بمكر لطيف:

ـ آه! هذه الأشربة الروحية ممتازة. إن راهبات دير لابا قد صنعتها أليس كذلك؟

ذلك أن المذاق لم يكن غريباً عنه فطالما ذاق مثله في بيت مضياف آخر، مريح بحرارته الإنسانية. ضحكوا من يقينه ولم يقبلوه كمجرد افتراض بل اعتبروه شبه إهانة؛ ألا يعلم

---

(١) شتيمة تطلق في حالة الابتهاج.

(٢) و(٣): نوعان من الشجر الاستوائي الحامل لأثمار تؤكل.

شيئاً عن مواهب الدونا فلور؟ فهي ليست طاهية لا تبارى، صانعة لا تنافس، بل هي أيضاً معلّمة في الأشربة الروحية؛ فأشربة الراهبات، راهبات لابا أو راهبات ديسترو أو بيردونز هي أشربة صيدلية أيها الدكتور، لا تقارن بأشربة عروسك، حتى ولا من بعيد...

لم يكن يعلم عن موهبتها في الأشربة الروحية فارتبك لائماً نفسه في نقد ذاتي معلناً توبتـه حتى كاد يمدّ يده لتلقي ضربة القصاص. أجل، كان يعلم، بشهرتها الملكية في المطبخ، فلم تكن مجرد أستاذة التوابل عرضاً، إنما، كانت كفوءة، فنانة حقيقية في هذا المجال. لسوء الحظ لم تجد من قبل فرصة البرهنة على براعتها في هذه اللذائذ. لكن سيحين وقت الثأر. سوف يسمن، بالتأكيد.

هكذا جرت حفلة الخطوبة المرحة في الدورات التي يقوم بها العالم، قدم الدكتور تيودورو ليقف في قاعات انتظار سرير الدونا فلور، على هامش انتظارها. إنه نادم، فلم تكن لديه لا التجربة الغرامية ولا الغزوات النسائية وتعامله الحميم جداً مع النساء يختصر في لقائه الأسبوعي بأوتافيانا. وإذا رأى الصيدلي يوماً في البغي المضطربة تـافينيا مانيمولينسيا، التي تستقبله آنذاك، علاوة على النقود الرنانة، الرضى من كلمة عذبة، ومع مضي الوقت يختَزَل ذلك العمل ذو الأحاسيس في ما اعتاده من اللطف والودّ والاهتمامات المريحة، في الحلوى والشراب الروحي، في المحادثة ثم في السرير، وهو عارٍ يلاطفها برقّة المحب.

عند الوداع قدمت الدونا فلور مجدداً خدها لقبلة عفيفة (مذعورة أو خجولة، وفوق ذلك منكمشة) من عريسها المنتظر. بيد أنها أحسّت بالرعدة في يدها لدى ملامسة أصابعه الرطبة. وظنت أن الدكتور تيودورو كان هو أيضاً يحترق في داخله، مثلما تحترق هي.

في تلك الليلة حلمت به، وحده؛ رأته عملاقاً أسمر قوياً، لا يُغْلَب، عريض الصدر، متطلّب الرغبات ـ على حد تعبير الدونا جيزا ـ أتى ليختطفها.

هكذا وُضِعت ترتيبات زواج الدونا فلور. ففي شوارع في الجوار ما عادوا يتكلمون إلا في هذا الموضوع. ليس من باب النقاش، بل بموافقة جماعية. لم يظهر صوت مخالف، فالجميع استلطفوا خطوبة الصيدلي والأرملة ورأوا أن كلاً منهما جدير بالآخر.

في البدء حدَّدت الدونا فلور مهلةً لا تقل عن نصف سنة قبل الزواج. وكان هذا من المقترحات النادرة التي جادلها فيها العريس. لماذا كل هذا الوقت ولديها جهاز حاضر وليس هناك إذا لم يكن جهاز العروس معدّاً، معضلات أي مشكلة؟ وأقرّته الصديقات والإشبينات على موقفه والدونا فلور نفسها اعتبرته محقاً، فاختصرت المهلة إلى ثلاثة شهور من الخجل وعناء الشوق.

ثلاثة شهور من الصفاء، اعتاد الواحد منهما على الآخر بسهولة وتفاهما، يوماً بعد يوم. في هذه الفترة، في سهرات المحادثات الطويلة، بالاشتراك مع الدونا نورما أو صديقة أخرى، صمما جميع تفاصيل حياتهما المشتركة التي ستبدأ قريباً.

استصوبا أن يسكنا في بيت الدونا فلور ليس لأن ذلك يريح الدكتور تيودورو لقربه من الصيدلية، إنما لأن الدونا فلور رفضت، جازمة إنهاء أنشطة مدرستها كما اقترح هو وجادلها بأن الصيدلية تدرّ عليه ما يكفي ليعيشا برفاهية متواضعة فلماذا تصرّ على ذلك العمل المتعب؟ لكن الدونا فلور اعتادت على عملها وبالتأكيد لا تحسن العيش بلا تلميذاتها، تلك الزمر الصاخبة والضحكات والدبلومات، خطاب التخرج ودموعه و... مالها الخاص. حتى أنها رفضت مجرد مناقشة الموضوع.

فيما عدا ذلك كانا على وفاق تامٍّ. حتى السرير الحديدي نفسه الذي تكنّ له تقديراً سرياً، فيعجبها شكله القديم، ويخيفها مآله إذ ربما لا يريد الدكتور النوم على السرير حيث طالما امتلكها زوجها الأول لم يكن مثار نقاش. فعندما وضعا ميزانية لائحة بما سيشتريانه لإعداد البيت كما يطيب له (مثلاً طاولة مكتب صغيرة حيث يكتب ملاحظاته ويحتفظ بأوراقه) أخذا يتفحصان قطعةً إثر قطعة ويقرران حتى بلغا حجرة النوم فاقترح الحصول على فراش جديد لأن القديم صار مليئاً بالتكتّلات من أعلى ومن أسفل. وهنا فرشة برفاصات، شيء حديث، رائع. وهو نفسه كان عنده فرشة مثلها، لكن مفردة العازب. وبالنسبة إلى السرير، فالأجدر بهما طلاؤه، ما داما سيطليان البيت وبعض المفروشات. وانتهى الأمر عند هذا الحدّ.

ألف أحدهما الآخر وباتت الدونا فلور تحسّ حنواً تجاه ذلك الرجل الهادىء الطيب

الوقور النّظامي، المصرّ على ان يكون كل شيء في مكانه وفي الوقت المحدد، لكن العاجز عن إظهار قسوةٍ ما، الزاخر بالرغبات والذي بلا شك ميت بحبها وها قد بدأ، عند وصوله ولدى انصرافه (أصبح يأتي يومياً، منهياً تلك السخافة التي انتقدتها بشدّة الدونا جيزا، عن الزيارات الثلاث فقط في الأسبوع) يقبّلها من شفتيها، برقّة. كان فمه القوي يمسّ فم الأرملة مساً. أما هي فكانت تشتهي عضّة، قبلة حقيقية.

في ليلة من الليالي ذهبا إلى السينما، ولكن كما كان يحدث كلما يخرجان مع آل رواس، وصلوا متأخرين، والعرض قد بدأ والقاعة ممتلئة فلم يحظوا بأمكنة لأربعة في الصف ذاته، وبقيت الدونا فلور والدكتور تيودورو في صف أمامي، غير مرتاحين فالشاشة قريبة جداً، لكنهما وحيدان في الصف ويدُ كلٍّ منهما في يد الآخر. ثم أبرز لها شفتيه الوديعتين، لكنها فتحت شفتيها وقبلته بشكل حقيقي. كانت تلك قبلتهما الأولى قبلة رجل لامرأة، أما سائر قبلاتهما فقد كانت قبلات أخوية غير حقيقية. كان قد بقي أمامهما أسبوع قبل أن يضعا اللمسات الأخيرة أمام القاضي والقس، وتنتهي إجراءات الزواج. وكما لو أنّ تلك القبلة دشّنت حميمتها، دمرت الحياء والإحساس بالخوف من العار جعلت تلك الخطوبة ألذّ وأجمل.

بتلك القبلة الحقيقية كانت الدونا فلور تحلم كل ليلة، معطية في أرقها، الحقّ للدونا جيزا، إذا كانا سيتزوجان بعد أيام، فلم، بحقّ الشيطان لا يقتلان دفعة واحدة الجوع والظمأ اللذين يلتهمانهما؟ ولم يفعلا، طبعاً، بل لم يتكلما في ذلك أبداً، حتى ولا تلميحاً. لكن من تلك القبلة توالدت قبلات أخرى، ويداهما تضغطان ورأساهما مقترنين في عتمة السينما. في تلك الليلة نامت الدونا فلور هادئة مرتاحة بعد أرق شهور عديدة.

هكذا وصلت الدونا فلور شريفةً هادئة، إلى يوم زواجها الثاني. وبدا البيت، آية في الجمال، جديداً بلوحاته الزيتية والثريا البرّاقة المتدلّية من السقف، حتى لافتة المدرسة استعادت إشراقها. إعادة ترتيب للأثاث القديم بحيث يتكامل مع الأثاث المستَقْدَم حديثاً، مثل طاولة المكتب الصغيرة ومقعدها الدائري. وعلى السرير الحديدي (الأزرق الآن) فرشة برفاصات، رائعة الروائع!

وأُزيلت من على جدران القاعة الصور الملوّنة للدونا فلور وزوجها الأول. مكانها عشية الزفاف، وُضع إطار تخرّج الصيدلي حيث يقف وسط زملائه يبتسم بمنطقة سوداء في زي الدكتور. فلم يكن من الحكمة إبقاء المتوفى مترئساً البيت كما أسرّت الدونا نورما للدونا فلور. كانت محقة. لكن الدونا فلور وضعت أيضاً على الحائط صورتها؛ وهي فتاة، الفتاة التي كانتها «بلا عقل بلهاء مغتمة في سن المعاناة، امرأة مقامر»، وليست كما هي الآن: أسمن قليلاً وأشدّ استقراراً، زوجة دكتور، ناضجة لتغزو السعادة.

اجتمع المدعـوون وملأوا الكنيسـة خصـوصـاً المصرفي سيليستينـو، المشغـول كثيراً، والواصل متأخراً ـ كما حدث في الزواج الأول ـ في اللحظة الأخيرة في كنيسة سان بينتو. في بداية الليلة المقمرة، حين همّ العروسان بدخول سيارة الأجرة التي قادتهما إلى خارج المدينة، من أجل شهر عسل هادىء في سان نوميه ده باريبي، على الخليج الأخضر المزرقّ لباهيا جميع القديسين[1]، والنجوم لا تُحصى في السماء الصافية، مع موسيقى الجداجد وجوقة الضفادع ـ قال الجميع، حتى الدونا روزيلدا:

ـ أجل هذه المرة، أصابت هي؛ سوف تغدو سعيدة.

أجل هذه المرة، قالها الجميع بلا استثناء.

(١) التسمية القديمة لولاية باهيا حيث تكثر فيها تماثيل القديسين.









جورجي آمادو هو آخر الروائيين العالميين الذين تُطلق عليهم صفة الموسوعيين مثل أساطين الرواية الكلاسيكية؛ ليون طولوستوي، فيدور دوستويفسكي وتوماس مان وغيرهم. فلم يترك علماً أو فناً أو حرفة إلّا وخاض فيها بخبرة المعلّم ذي العين البصيرة النفّاذة، فكان أدبه الروائي موسوعياً غنياً بعوالم شتى، إلى الدرجة التي يمكن الإطلاع فيها على حياة البشر في مختلف طبقاتهم الاجتماعية ومهنهم المختلفة، في نسيج تأتلف فيه الأحداث مع الشخصيات في أسلوب واقعي حتى ولو وظّف الخيال أحياناً لإثراء السرد والعوالم التي تحويها روايته، كمراقب لمسار الحياة المتنوّعة، في بيئات يصبح تنافرها موضوعاً لغنى هذه الرواية.

«الدُّونا فلور» رواية الشعب البرازيلي قاطبة، بل ملحمة هذا الشعب في غناه الحضاري المتأصل من تعدد أعراقه وأجناسه وثقافات جميع الأقوام التي كوّنت على مدار القرون الخمسة، هذا الشعب العظيم.